جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي 2003

ابن بطوطة

ارتياد الآفاق

رحلة المكناسي

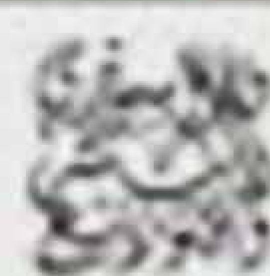
إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

1785

محمد بن عبد الوهاب المكناسي

حققها وقدم لها: محمد بوكبوط

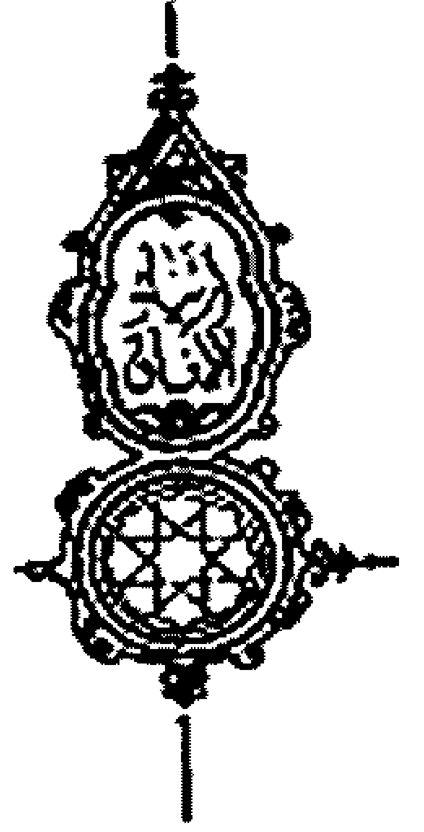






رحلة المكناسي

1785



رحلة المكناسي (١٧٨٥)
محمد بن عبد الوهاب المكناسي/ مؤلف، [حققها وقدم لها: محمد بوكبوط]
الطبعة الأولى، ٢٠٠٣
حقوق الطبع محفوظة



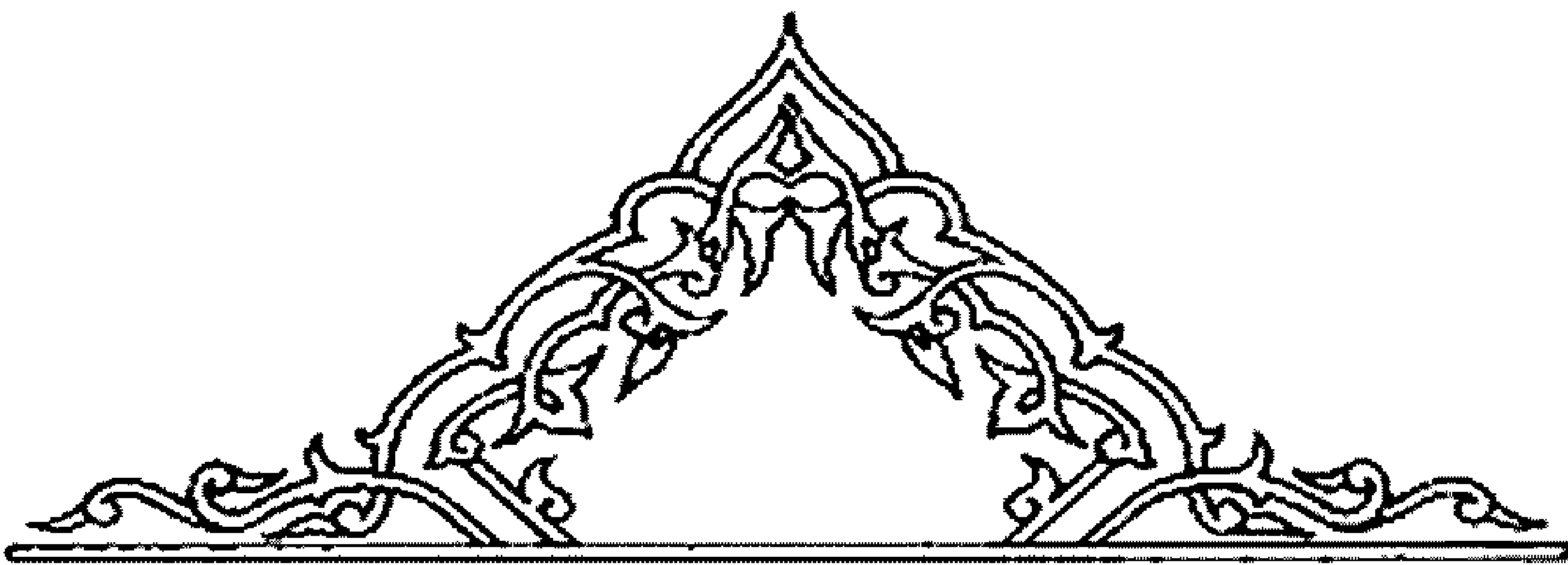
دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
التنفيذ والإشراف الفنّي :
محمد سعيد ®
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-098-7



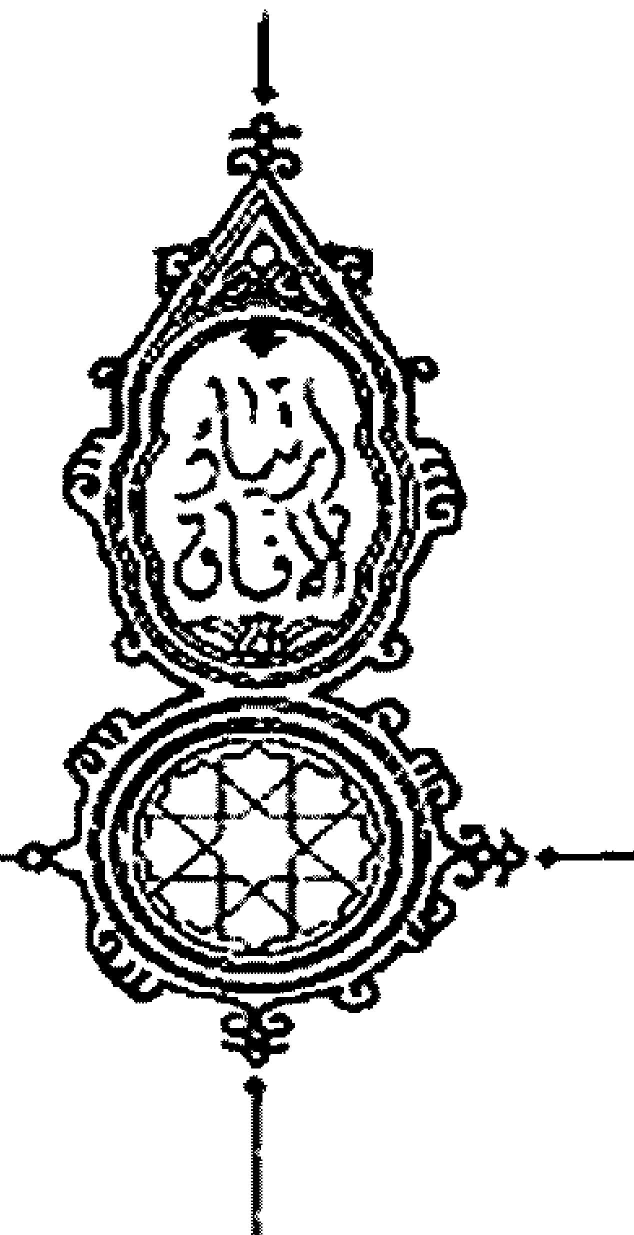
رحلة المكناسي

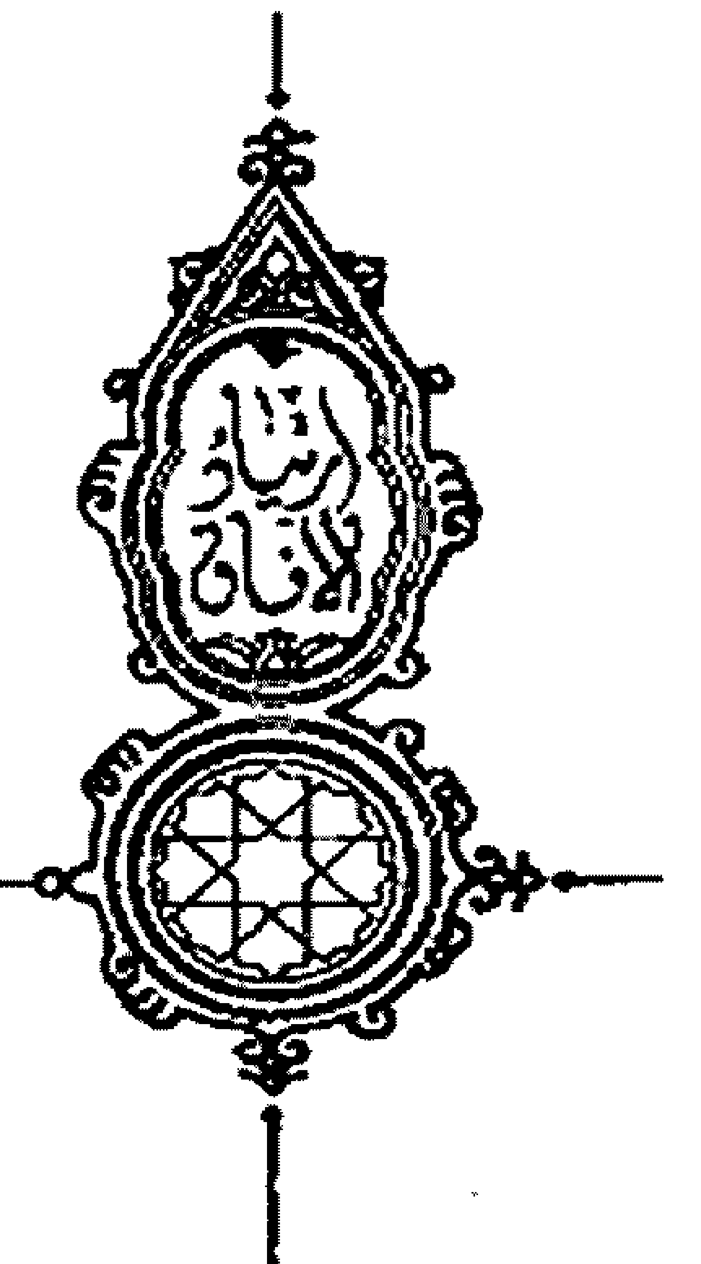
إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام
وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

1785

محمد بن عبد الوهاب المكناسي

حققها وقدم لها: محمد بوكبوط





يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله [illegible]

[illegible]

A.2307



تهدفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربيِ بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في

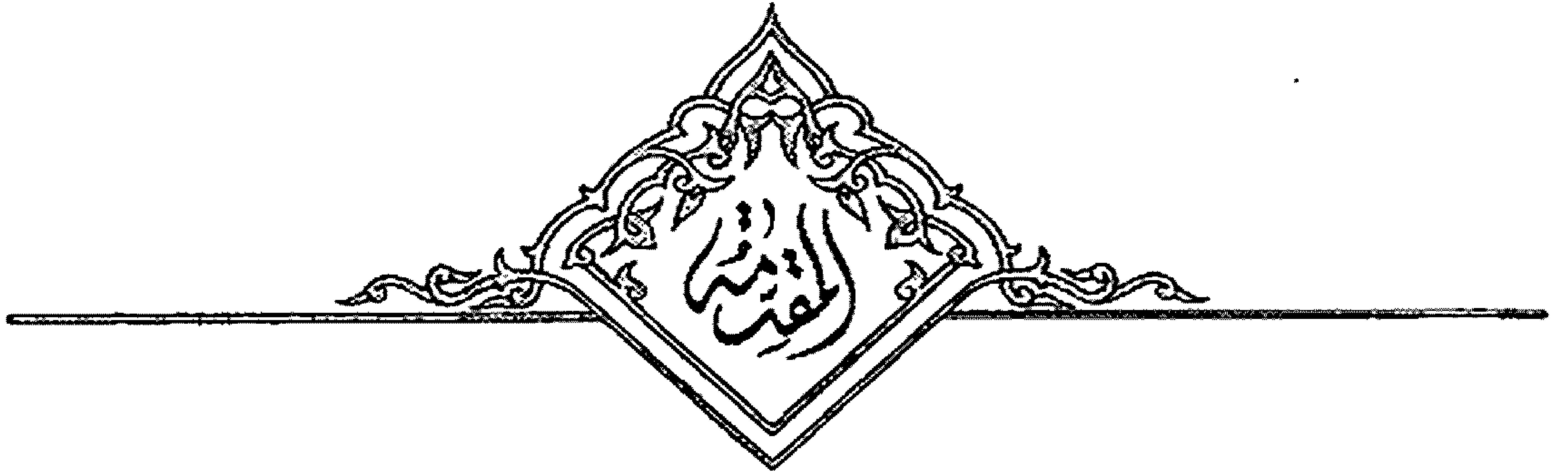
مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحَيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدَ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيّ والعجائبيّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخرِ وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي



يصبُّ موضوع هذا المؤلف في اتجاه الاهتمام بالتنقيب عن المظان والمصادر التاريخية المتنوعة التي لا تزال حبيسة رفوف الخزانات المغربية، بغية الكشف عن مضامينها والإسهام في إلقاء الضوء على المرحلة التاريخية التي تتحدث عنها. وبديهي أن تحقيق المخطوطات ودراستها يكتسيان أهمية بالغة في كتابة أي تاريخ، علما بأن عددا متزايدا من المخطوطات الثمينة يرى النور ولا تزال تنتظر الباحثين لإخراجها إلى ساحة التداول والانتفاع بما تختزنه من معطيات تضيء جوانب من تاريخنا.

في هذا الإطار يأتي اهتمامنا بكتاب إحراز المعلى والرقيب لمحمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي، الذي لفت انتباهنا كشخصية بارزة في مخزن السلطان سيدي محمد بن عبد الله منذ اشتغالنا على عهد هذا الأخير في رسالتنا لنيل دبلوم الدراسات العليا[1]. فالرجل من عيار كبار رجال الدولة الذين ساهموا بفعالية في صنع أحداث النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما سنفصل في حينه، وخلف ثلاث مؤلفات تعتبر مصادر ثمينة لارتساماته ومشاهداته خلال رحلاته السفارية التي قادته إلى كل من إسبانيا ومالطة ومملكة الصقليتين والإمبراطورية العثمانية.

ونود في هذا المقام أن ننوه بفضل الدكتور محمد بن عبود الذي يعتبر بدوره من المعجبين بابن عثمان وبرحلته، إذ كان خير محفز لنا على الاشتغال

(1) كان موضوع هذه الرسالة: الإصلاحات الاقتصادية والسياسية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790)، نوقشت في يوليو 1987 بكلية الآداب فاس حيث لا تزال مرقونة.

على هذا المخطوط، الذي تأكد لنا مدى الغنى والثراء اللذين يتميز بهما، ومن ثم قناعتنا بما يشكله تحقيقه ودراسته من إسهام في تكريم الرجل ببعث تراثه المكتوب والتعريف بشتى جوانب نشاطه الدبلوماسي والعلمي، وإغناء حقل الدراسات التاريخية المتصلة بعلاقات المغرب مع قوى حوض البحر المتوسط وأوضاع هذه القوى- وخاصة الدولة العثمانية- كما رآها وروى عنها سفير مغربي يمثل النخبة المخزنية عهدذاك.

فكتاب الإحراز زاخر بمعطيات عن أوضاع عاصمة الإمبراطورية العثمانية وولاياتها العربية تنم عن دقة الملاحظة لدى السفير المغربي، وانتباهه إلى مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والجغرافية التي أورد عنها صورا تبدو واقعية ومحايدة إلى حد بعيد، رغم حتمية تأثير ذاتيته على الصور التي كونها. ومع ذلك تسهم شهاداته في استكمال الصورة عن تلك الأوضاع بمقارنتها مع مختلف المصادر التي تناولت الفترة، بحيث نكتشف عدم دقة العديد من الصور التي التصقت بأوضاع الإمبراطورية العثمانية في الدراسات التاريخية الأوربية والعربية على السواء. وإلى جانب المادة الجغرافية والتاريخية التي يتضمنها المؤلف فإن من مميزاته كما سنفصل في ذلك إيراده لنصوص ثمينة تسعف الباحثين في شتى الحقول الأدبية والصوفية وغيرها .

ولاعجب في أن نقف على مخطوط في مثل هذا التنوع والغنى والطرافة إذا علمنا مكانة وقدر صاحبه، ذلك السفير المتضلع الذي اكتسب رصيدا ثقافيا غير عادي وحنكته تجاربه واهتماماته بشؤون حوض البحر المتوسط، مما جعله ملاحظا دقيقا وناقدا متفتحا لما كان يقف عليه في رحلاته .

بيد أن المفارقة هي الإجحاف الذي لحق هذه الشخصية الفذة من طرف مؤرخينا، فرغم صعود نجمه في سماء دبلوماسية السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والأدوار الخطيرة التي اضطلع بها بإسهامه المباشر في تدشين عهد القطيعة مع قرون من العداء والتوتر والحذر في علاقات المغرب مع جيرانه الأوربيين، كان نصيب ابن عثمان الإهمال وغض الطرف من قبل كتب

التاريخ، إذ يواجه الباحث في حياته وإسهاماته صمت أغلب المصادر واكتفاء النادر منها بشذرات ونتف تبخس حق الرجل، وهي التي كانت سخية مع أخبار أشخاص دونه علما ووجاهة وخدمة لمصالح بلده. من هنا محاولتنا جمع أكثر ما يمكن أن تسعف به المصادر عن هذه الشخصية وإسهاماتها واستنطاق النصوص للكشف عن خاصياتها وسجاياها دون تعسف أو إجحاف.

وغير خاف أن ابن عثمان تكون في مدرسة السلطان سيدي محمد بن عبد الله الدبلوماسية التي طبعت تاريخ العلاقات المغربية مع الخارج بطابع متميز، ينم عن إدراك واضح لمتطلبات الظرف التاريخي ووعي باستحالة الاستمرار في القطيعة مع العالم الخارجي؛ في هذا السياق أبان ابن عثمان عن مؤهلات وكفاءات جعلته من أنجب الدبلوماسيين المغاربة في ذلك العهد، مما يفسر اعتماد سيدي محمد وابنيه مولاي اليزيد ومولاي سليمان عليه، ولا عجب إن كانت سفارته إلى إستانبول- التي ألف عنها المخطوط قيد الدراسة- تدخل في إطار استراتيجية سيدي محمد الدبلوماسية المتصلة بأوضاع البحر المتوسط وموازين القوى داخله.

والأكيد أن قارئ إحراز المعلى والرقيب سيسافر في رحلة ممتعة في الزمان والمكان ويخرج بفوائد علمية شتى تهم مختلف العلوم، كما لن يعدم تذوق أجمل الشعر وأعذب النثر. وحسبنا أننا حاولنا تسهيل هذه الرحلة بما أسعفنا من رسم المعالم راجين أن يكون التوفيق حليفنا في ذلك.

1- أهمية مخطوط إحراز المعلى والرقيب[2]

انطلاقا من واقع الدراسات التاريخية الأوربية المتصلة بأوضاع الدولة العثمانية التي نحتت لها صورة سادت لمدة طويلة في أوساط الباحثين، نعتقد أن التعويل على مصادر أخرى يسهم لا محالة في كشف الواقع التاريخي لهذه الدولة، خصوصا إذا كانت من وضع طرف محايد نسبيا

(2) اقتبسنا هذه النقاط من الدراسة التي أفردنا لها جزءا قائما بذاته في أطروحتنا لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ.

ومتحرر من الخلفيات التي تحكمت في نظرة الأوربيين.

من هنا نعتقد جازمين أن ملاحظات ومشاهدات السفير والوزير والمؤرخ المغربي محمد بن عثمان المكناسي- المتميز بدقة الملاحظة وسعة الإطلاع - رغم تصنيفها ضمن التقارير التي تنظر إلى أوضاع الدولة العثمانية من "الخارج"، تساهم في تصحيح كثير من المقولات التي علقت بتاريخ العثمانيين، من جراء الاعتماد شبه المطلق على كتابات وتقارير الأوربيين، بل يمكن الذهاب إلى أن مخطوطه يتخذ موقعا وسطا، فهو عربي مسلم غير خاضع للحكم التركي، له غيرة على إبراز مظاهر القوة والمنعة في هذه الدولة الإسلامية باعتبارها مكسبا للإسلام والمسلمين، وفي ذات الوقت لم يتردد في ذكر مناحي الضعف والجوانب السلبية في شتى مجالات الحياة كما عاينها، مما يجعل هذا المؤلف مصدرا مهما لمعرفة نظرة أحد ممثلي النخبة السياسية لمغرب القرن الثامن عشر لواقع أكبر إمبراطورية إسلامية في ذلك العهد، بشكل يمكن اعتباره مصدرا للتاريخ العثماني من الداخل نظرا للوشائج العميقة التي ربطت المغرب ونخبته بهذه الدولة.

فكتاب الإحراز يقدم رواية لمشاهدات مؤلفه على طول طريق الحج العثماني، بحيث ينفرد ابن عثمان بذلك نظرا لكون جل الرحلات الحجازية المغربية سلكت الطريق التقليدية عبر مصر التي ظل ركب الحاج المغربي يتخذها. وإذا كانت الترجمانة الكبرى تشترك مع الإحراز في ذلك، فإننا نعتقد جازمين أن الزياني اكتفى بنقل رواية ابن عثمان دون التصريح بذلك كما بينا في حينه، علاوة على اختصاره الشديد في وصف مراحل السفر.

على كل لا يملك قارئ إحراز المعلى إلا الإقرار "بكونه الأكثر غنى ودقة وأصالة" من بين الرحلات التي ألفها محمد بن عثمان المكناسي، إذ "لا يقتصر الأمر على كون هذه الرحلة وصفا دقيقا للمدن والقرى التي زارها، بل يتميز كذلك بتنوع وصفه لتلك المدن وتباين تناوله لمقامه في كل واحدة منها. فمثلا تختلف رواية ابن عثمان عن العاصمة العثمانية عما رواه عن القدس اختلافا جذريا، فالأولى تتميز بالطابع السوسيو اقتصادي

والسياسي، في حين أن الثانية روحية أساسا"[3]، فضلا عما يزخر به المخطوط من موضوعات تنم عن ثقافة إسلامية واسعة، بحيث أظهر ابن عثمان إطلاعا كبيرا في الحديث والتصوف والفقه والأدب وعلوم اللسان[4].

ومما يضفي على الإحراز مزيدا من القيمة العلمية ما أبداه واضعه من شغف للعلم والمعرفة، فلم يكن يتردد في السؤال والاستفسار، مما مكنه من الحصول على معلومات من أصولها ضمنها مؤلفه، فزاده ذلك غنى وتنوعا وطرافة.

موجز القول أن تعويلنا على تحقيق ودراسة كتاب إحراز المعلى والرقيب يعزى إلى قناعتنا بما سيقدمه من مساهمة جديدة في التعريف بالإرث التاريخي المغربي المكتوب، وذلك من حيث كونه نموذجا أصيلا للرحلة العامة حسب تصنيف محمد الفاسي، لما جمعته من أغراض شتى فهي **"حجازية سياحية اكتشافية سفارية زيارية علمية**[5]**.**

ولاعجب في أن نقف على مخطوط في مثل هذه الأهمية إذا علمنا مكانة وقدر صاحبه، ذلك السفير والوزير الذي اكتسب رصيدا ثقافيا غير عادي، وحنكته تجاربه واحتكاكاته مع الدوائر العليا في كثير من البلدان، مما جعله ملاحظا دقيقا وناقدا مصيبا لما كان يقف عليه في رحلاته التي تعكس شخصيته ومؤهلاته الثقافية والدبلوماسية.

2- اهتمام المؤرخين بالإحراز ومكانته بين مصادر تاريخ الفترة

من المفارقات التي ميزت تراث محمد بن عثمان المكناسي أن رحلته المشرقية التي بينا بعض الجوانب من أهميتها، لم تنل ما تستحقه لدى النخبة

---

(3) Benaboud, M., The Spiritual Dimension in Ibn Utman Al-Maknasi 's Account of Jerusalem (18th century), in la vie sociale dans les provinces arabes à l' époque ottomane, vol. 3, Zaghouane 1988, p. 77.

(4) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، مصدر سابق، ص. س.

(5) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، ص. ر.

العالمة في مغرب القرن التاسع عشر، رغم ما أثارته من استحسان لدى معاصريه الذين اطلعوا عليها. فقد اعتاد المؤلفون كما هو معلوم أن يعرضوا مخطوطاتهم على ثلة من أقرانهم الذين يتوسمون فيهم الأمانة والصدق، فكان هؤلاء يقرضون العمل شهادة منهم بعلو كعب صاحبه وبقيمته الأدبية والعلمية. وجريا على هذه العادة كان من حسن حظنا أن نظم ثلاثة علماء قصائد في تقريظ الإحراز، تسعفنا في معرفة موقف نموذج من النخبة العالمة في أواخر القرن الثامن عشر من رحلة ابن عثمان.

ففي تقريظ محمد العربي بن إسماعيل الناصري للإحراز، ينوه بما تضمنته الرحلة من " **علوم جمة تقصر ألسن الفحول عن وصفها** " على حد تعبيره، مضيفا:

فكأنها الدر النفيس مضمخ مسكا ذلائله نفيسا عنبر
أو روضة تزهو لفرط بلاغة الفن البديع عليها وشي أحمر
شربت بكل زلال علم حكمة وبنصر محيي الدين أبدت تخبر[6].

ولم ينس المقرظ الإطراء على مؤلف هذه الرحلة الغنية بعلومها وبلاغتها، في شكل سؤال استنكاري ينم عن قناعته بإمكانات ابن عثمان العلمية والأدبية، حيث يقول:

"**كيف لا وواضعها المرفع في الورى كل العلوم بصدره تتقرر**

ذو وزارة وفصاحة ونباهة ينبئك عنه ما تراه يسطِ[7].

ويزكي عالم آخر من البيت الناصري هو موسى بن محمد المكي اطلع على الإحراز ميزات الرحلة، حيث يؤكد أنها "**جمعت من الآداب ما أنست به رحلات مشهورة بفضل فصاحة مبناها**"، محيلا على رحلة العبدري في قوله:

"فالعبدري وإن تقدم تاجه يسعى جلي الدر من معناها

(6) التقريظ الأول، الإحراز، ص. 282.

(7) نفسه.

فيها من التاريخ روض زاهر ومن المناسك ما كفى فتناها"[8].

أما رأيه في كاتب الإحراز، فما من شك في أنه كله إطراء واعتراف بمكانته العلمية حيث يقول:

"تنبي فصاحتها ورقة لفظها بعلوم جامعها الذي أنشاها
فرد الزمان وأوحد البلغاء والـــوزرا من للعلم حاز الجاها"[9].

وفي تقريظ ثالث لمجهول نقف على نفس الإطراء للرحلة ومؤلفها، مركزا على فوائدها في إرشاد الحجاج لقضاء المناسك[10].

يتضح مما سبق أن رحلة "**إحراز المعلى والرقيب**" لم تبق سجينة الرفوف، بدليل اطلاع بعض العلماء عليها وتقريظهم لها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن محمد العربي الناصري أرخ لتقريظه بأواخر جمادى الأولى سنة 1210هـ بمدينة مكناس، مما يعني أن الرحلة عرفت وبدأت تنتشر على الأقل منذ السنة الآنفة الذكر.

سقنا هذه الإشارة لما قد يدور بالذهن من احتمال وجود عوامل حالت دون رواج المخطوط بشكل واسع مباشرة بعد تأليفه سنة 1202هـ، خصوصا ما تضمنه من تحميل مسؤولية الجفاء الذي قوبلت به السفارة خلال جزء كبير من مقامها بإستانبول لإحدى الشخصيات المرافقة لابن عثمان، وكذا تبرمه وتظلمه الذي قد يفهم آنذاك أنه ذو علاقة بالسلطان أو بشخصية كبيرة في مخزنه، علما بأن سيدي محمد بن عبد الله توفي سنة 1204هـ/ 1790، وعرف المغرب بعده وضعا سياسيا غير مستقر اتسم بتطورات سريعة في عهد مولاي اليزيد. غير أن احتفاظ ابن عثمان بمكانته لدى هذا السلطان الذي اشتهر بتوتر علاقاته مع العديد من رجال دولة أبيه، يجعلنا نذهب إلى أن انتقادات ابن عثمان لبعض الشخصيات النافذة لدى سيدي محمد كان لها

(8) التقريظ الثاني، الإحراز، نفسه، ص. 282.
(9) نفسه.
(10) التقريظ الثالث، نفسه، ص. 283.

تأثيرها في تقلص تداول رحلة الإحراز.

بل يمكن الاستنتاج بأنه رغم ادعاء ابن عثمان تأليفه الإحراز بناء على تعليمات السلطان، فإنه أحجم عن تقديم المخطوط لسيدي محمد، الشيء الذي يفسر وضعه بين يدي المقرضين من أصدقائه بعد وفاة السلطان سيدي محمد بنحو ست سنوات على الأقل.

وإذا كان المقرضون الآنف ذكرهم أكدوا أهمية كتاب الإحراز في حياة مؤلفه وفي ذروة مجده السياسي، فإن المؤلفين الآخرين من معاصريه أهملوا ذكر هذه الرحلة، إما لعدم علمهم بتأليفها ومن ثم عدم اطلاعهم عليها أو لسبب آخر لا نملك تحديده. ومن أشهر هؤلاء المؤرخ محمد بن عبد السلام الضعيف السوسي الرباطي، الكثير الإطلاع على أوضاع البلاد وتطوراتها في هذا العهد بالذات، والوثيق الصلة بأوساط الناصريين الذين قرض اثنان منهم الرحلة كما أسلفنا، فقد أورد ذكر ابن عثمان في العديد من الوقائع لكنه لم يشر إلى تأليفه للإحراز.

أما المؤرخ المعاصر بدوره لابن عثمان فهو أبو القاسم الزياني، الذي يعد من كبار شخصيات هذه المرحلة من تاريخ البلاد، لمساهمته الفعلية في صنع أحداثها واحتكاكه المباشر برجالاتها. والأكيد أن أبا القاسم، بمكانته المخزنية واهتماماته العلمية، لم يكن ليجهل تأليف ابن عثمان "لإحراز المعلى"، وحتى إذا حالت الظروف التي أثرناها سالفا -والتي قد تكون وراء حرص ابن عثمان على عدم ترويج مخطوطه- دون وصول نسخة منه إلى الزياني، فإنه من الثابت أن هذا الأخير نهل من مخطوط الإحراز، دون التحلي بالأمانة والنزاهة التي يقتضيها عمل العلماء بذكر المظان التي اقتبسوا منها.

فإذا كان الزياني قد أشار في خاتمة الترجمانة إلى الرحلات التي اعتمدها بقوله: "إنما رسمت ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها، وغيره نقلته من رحلة العياشي ومحاضرة اليوسي ورحلة البلوي، ورحلة ابن نباتة ورحلة السرخسي للأندلس والمغرب، ورحلة الكردي ورحلة البكري، وأخبار الهند

والسند والصين من تاريخ الإسلام للذهبي ومن تواريخ بعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة"[11]، فإن نصوصا عديدة وردت في كتابه تشي باقتباسها من كتاب الإحراز، لتطابقها الحرفي والموضوعي كما سبق أن فصلنا في ذلك[12].

بعد غياب ابن عثمان ومعاصريه، يمكن الحديث عن بقاء الإحراز في زوايا الإهمال خلال القرن التاسع عشر، إذ لم يشر إليه الناصري وهو الذي اطلع على كتابات الزياني، واستقى منها مادة وفيرة في تغطية كثير من الأحداث. ويرجع الفضل في اعتقادنا في إعادة الاعتبار لهذا المخطوط القيم إلى عبد الرحمان بن زيدان، الذي عول عليه في رواية وقائع السفارة التي ألف عنها الإحراز، إذ لخص أخبار البعثة منذ وداعها للسلطان سيدي محمد بالرباط، وظروف سفرها من طنجة عبر قرطاخنة على ظهر مركب حربي إسباني، وصولا إلى إستانبول والاجتماع بكبار رجال الدولة العثمانيين، آتيا على بعض التفاصيل الواردة في الإحراز بخصوص مراسيم استقبال السفارة أثناء انعقاد الديوان.

كما لخص ابن زيدان مراحل سفر ابن عثمان ورفاقه من إستانبول إلى الحجاز وفلسطين، وعودته إلى المغرب عبر تونس والجزائر، خاتما عرضه بقوله: **"وقد فصل ابن عثمان أخبار هذه الوجهة وبين مراحلها بالساعات في رحلته الثالثة المسماة بإحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب، وكان جمعه لها بأمر المترجم له (سيدي محمد) عند سفره حسبما أشار لذلك صدرها**[13].

أما أكثر الباحثين المعاصرين اهتماما بتراث ابن عثمان المكناسي، ومن له الفضل في إثارة انتباه الباحثين إلى أهميته فهو الأستاذ محمد الفاسي، الذي يعتبر تقديمه لكتاب **"الإكسير في فكاك الأسير"** مرجعا للدراسات

(11) الزياني، الترجمانة، مصدر سابق، ص. 581.

(12) أنظر الفصل الثاني من القسم الأول من هذه الدراسة.

(13) ابن زيدان، الإتحاف، مرجع سابق، ج. 3، ص. 305.

المتخصصة في حقل الرحلة، حيث يشير إلى أنه " اكتشفت الآن رحلات ابن عثمان الثلاث"[14] بعدما كان بعضها يعتبر ضائعا، فبادر إلى تدشين مشروعه العلمي الهادف إلى "نشر أكثر ما يمكن من الرحلات في سائر هذه الأنواع المذكورة"[15] بتحقيق رحلة ابن عثمان الأولى -الإكسير-.

واللافت أن السفارة التي كانت موضوعا للإكسير لم يتناولها أي مؤرخ مغربي، فكانت الكتابات الأجنبية مصدر معرفة الباحثين المغاربة بوقائعها كما يورد الفاسي، مضيفا أنه وقف على إشارة إلى هذه السفارة في كتاب الإحراز موضوع دراستنا.

ومما له دلالته في هذا المقام أن وقوف محمد الفاسي على مكانة ابن عثمان وأهمية تراثه المكتوب يعزى إلى اشتغاله على رحلة إحراز المعلى[16]، حيث يقر أنها "هي التي دفعتني للبحث عن شخصية ابن عثمان الفذة"[17]، مترجما اهتمامه وإعجابه في العديد من الدراسات والمقالات عن أدوار ابن عثمان الدبلوماسية ومخطوطاته[18].

وفي السنوات الأخيرة تعددت الدراسات التي تناولت جوانب من هذا المخطوط أو ذاك من مخطوطات ابن عثمان، ونسوق في هذا المقام على سبيل المثال دراسات كل من عبد الهادي التازي ومحمد بن عبود التي اهتمت بالبدر السافر وإحراز المعلى بالخصوص[19]، كما لايفوتنا التنويه بالعمل البيبليوغرافي للمرحوم الأستاذ المنوني[20] الذي ورد فيه وصف لمخطوطات

---

(14) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، مصدر سابق، ص. س.

(15) نفسه، ص. ز.

(16) يورد الفاسي أنه أعد هذه الدراسة كرسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة باريس في الثلاثينات، ووعد بنشرها ضمن مشروعه لكن ذلك لم يتم. ونود هنا الإشارة إلى أننا لم نتمكن من الرجوع إلى هذه الدراسة.

(17) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، مصدر سابق، ص. س.

(18) انظر لائحة هذه الأعمال في البيبليوغرافيا.

(19) يرجع إلى البيبليوغرافيا للوقوف على هذه الدراسات.

(20) المصادر العربية، مرجع سابق.

ابن عثمان وأرقامها في الخزانات المحفوظة فيها، مما ساهم في التعريف بها وتسهيل وصول الباحثين إليها.

خلاصة القول إن مخطوط إحراز المعلى والرقيب يعتبر تحفة تاريخية وأدبية وصوفية، تجعلنا نكمل الصورة التي رسمتها رحلتا ابن عثمان إلى أوربا عن ثقافة الرجل وشخصيته، كما تسعفنا بمعطيات عن أحوال البلدان التي زارها قلما تجود بها المصادر التاريخية التقليدية.

3- المخطوط ونسخه

توجد حسب تحرياتنا ولحد علمنا نسختان من مخطوط إحراز المعلى والرقيب كما يؤكد ذلك الأستاذ الحجة محمد المنوني، وهما معا بالخزانة الحسنية بالرباط: تحمل الأولى رقم 5264 وتقع في 174 ورقة تشمل 348 صفحة مقياس 21/150سم، كل صفحة تضم 17 سطرا بمعدل عشر كلمات في كل سطر، وهي "مكتوبة بخط مغربي مجوهر دقيق مليح مجدول ملون"[21] من النوع المبسوط[22]. وكما لاحظ الفقيه المنوني لم يرد فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ. إلا أن هذه النسخة تعرضت لبتر ذهب بالصفحات 9، 10، 11 و12، ولا ندري ظروف هذا التلف خصوصاً وأن النسخة ظلت في حالة جيدة .

أما النسخة الثانية فهي تامة وتحمل رقم 12307ز[23]، خطها مغربي جميل[24] شبيه بسابقتها، مما يحمل على الاعتقاد أن كتابتهما تمت من طرف نفس الناسخ، وتقع في 167 ورقة تضم 332 صفحة مقياس 4،20/ 14

---

(21) المنوني محمد وبنعبود أحمد، "رحلة ابن عثمان ... "، مقال سابق، ص. 25.

(22) المنوني محمد، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1991، ص. 13.

(23) لم يرد الحرف التمييزي "ز" مع رقم المخطوط إلا في آخر صفحة، مما جعل المنوني لا يثبته في مصادره العربية، وكذلك فعل مؤلفو فهارس الخزانة الحسنية، ومعلوم أن هذا الحرف يدل على المخطوطات التي أصلها الخزانة الزيدانية.

(24) عنان، ع. م.، لمدبر ع. و حنشي م.س.، فهارس الخزانة الحسنية، قسم التاريخ والرحلات والإجازات، مراجعة شوقي بنبين، ج. 1، الرباط، 2000، ص. 25.

سم، عدد أسطر كل صفحة 18[25]. ومما يميز هذه النسخة أنها مصدرة بثلاثة قصائد من البحر الكامل[26]، يقرض فيها أصحابها رحلة الإحراز كما أسلفنا، وحرصوا على كتابتها بخطوط أيديهم، كما انتبه أحدهم وهو محمد العربي بن إسماعيل الناصري إلى تأريخ تقريظه الذي تم في جمادى الأولى من سنة 1210هـ بمكناس.

وهذه النسخة الأخيرة هي التي اعتمدناها أساسا في التحقيق ورمزنا لها بحرف(أ)، وكانت في ملك عبد الرحمان بن زيدان، حيث كتب في طرة الصفحة الأولى منها: "صار في نوبة أفقر الورى وأحوجهم لرحمة مولاه عبد الرحمان بن زيدان دبر الله أمره وهداه"، وعنها قال صاحب الإتحاف: "**وهي موجودة بخطه في مكتبتنا أيضا**"[27]. وقد جاء عند ابن سودة أن محمد الفاسي "**قال في حقها (رحلة الإحراز)...وفي خزانة المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان نسخة فريدة منها**، وقد تفضل ومكنني منها عندما كنت أدرس بباريز، فأخذت منها نسخة وكتبت بحثا عن مؤلفها، وجعلت لها تعاليق وتقدمت بذلك لنيل شهادة الدراسة العليا"، ويردف ابن سودة قائلا: "**والنسخة الموجودة بالخزانة المذكورة هي بخط مؤلفها تقع في سفر وسط**"[28].

والحقيقة أن فحص النسخة المعنية (أ) لا يثبت أنها كتبت من طرف ابن عثمان شخصيا، لكون الخط الذي كتبت به يختلف عن خطه، بل نرجح أنه أشرف على كتابتها كما يورد الأستاذ المنوني[29] وتعهدها بالتصحيح بخط يده، بحيث نقف على آثار مراجعته للنسخة من بدايتها إلى نهايتها، فتراوحت

---

(25) جاء عند الأستاذين المنوني وبنعبود خطأ أن عدد سطور صفحات هذه النسخة يدورها 17 سطرا، المقال السابق.

(26) كتبت هذه القصائد في صفحتين في بداية المخطوط، الشيء الذي يكمل عدد أوراقه المشار إليه.

(27) ج. 4، ص. 163.

(28) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج. 2، ط. 2، البيضاء، 1965، ص. 334.

(29) محمد المنوني وامحمد بن عبود، مقال سابق، ص. 25.

التصحيحات بين كلمة أو جملة في هذه الصفحة أو تلك إلى فقرات بكاملها[30].

وتفيد هذه التصحيحات - وخاصة الواردة في الصفحات 155 و التي تليها - المتميزة بتعدد سطورها في التأكد من خط ابن عثمان، بمقارنته مع بعض الوثائق التي كتبها شخصيا، ممثلة في صورة لرسالة بعثها من قادس إلى الكوند دي أراندة خلال مقامه بإسبانيا سنة 1792[31]، والرسالة الشهيرة التي يخبر فيها نفس الوزير بتكليفه من طرف مولاي سليمان بكل الشؤون المتصلة بالعلاقات مع الأوربيين[32]، بحيث يظهر فعلا أن ما كتب في طرر المخطوط من وضع ابن عثمان.

ومما يحملنا على استبعاد نسخ ابن عثمان للإحراز بنفسه أنه في تلك الأثناء كان متبوئا مكانة سامية في المخزن، وكانت مهمته منذ البداية كتابة أوامر السلطان وبالتالي كان على رأس جيش من الموظفين الرسميين المتخصصين في النسخ والتنميق والوراقة، فضلا عن أن الجاه الذي حصل عليه يجعل العديد من النساخ والكتبة يتوقون إلى خدمته[33].

كما نكاد نجزم بناء على القرائن المتوفرة بين أيدينا أن النسخة (ب) كتبت من طرف نفس الناسخ بعد تصحيح ابن عثمان للنسخة المبيضة المعتمدة (أ)، بدليل إدخال التصحيحات والاستدراكات الواردة في طرر (أ) في متن (ب)، مما يفسر زيادة عدد صفحاتها بالمقارنة مع النسخة (أ)[34]،

(30) تهم تصحيحات ابن عثمان الصفحات التالية من النسخة (أ): 3-12-13-17-23-28-29-32-33-39-44-50-55-56-106-137-155-195-215-250-251-275-321.

(31) انظر صورة الوثيقة في: Arribas Palau, M., op. cit., p. 175.

(32) انظر صورة للوثيقة في الإكسير، ص. 5.

(33) يورد الأستاذ المنوني في هذا الصدد عددا كبيرا من النساخ المكناسيين اشتهروا في هذ العهد، بل نجد أحدهم من بيت آل ابن عثمان، انظر تاريخ الوراقة، مرجع سابق، ص. ص. 144 145. و ص. 186.

(34) نلفت النظر بخصوص عدد الصفحات أنه إلى جانب هذا العامل هناك فارق في عدد أسطر الصفحات بين النسختين كما سبق في وصفهما.

إضافة إلى ندرة تدخلات ابن عثمان بالتصحيح بحيث لا نعثر على أثر لذلك إلا في الصفحتين (41 و323)[35] من هذه النسخة.

ومما يبرر اعتمادنا النسخة (أ) باعتبارها الأصلية إضافة إلى ما سبق، كتابة القصائد المقرضة لها بخط أصحابها، الشيء الذي يدل على كونها النسخة التي سلمهم إياها ابن عثمان وبالتالي هي التي احتفظ بها لنفسه.

إلى جانب هاتين النسختين المخطوطتين، توجد نسخة مصورة على الميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم 2327، وهي عن أصل النسخة الموجودة بالخزانة الحسنية تحت رقم 5264 أو (ب) كما رمزنا إليها في تحقيقنا، ويحمل الميكروفيلم رقم 115 ضمن لوائح الخزانة الأخيرة.

كما أورد عبد الله عنان خبر نسخة أخرى بالخزانة الحسنية تحمل رقم 1440 تقع على حد قوله "في 167 ورقة، 19,5 - 14 وفي الصفحة 18 سطرا"[36]، لكن الأكيد أنه وقع خطأ في ترقيمها، فتم تدارك ذلك عند مراجعة الفهارس[37]؛ ولعل هذا ما جعل باحثة تذهب إلى وجود ثلاث نسخ مخطوطة بالخزانة الحسنية، لكن الأرقام التي أوردتها خاطئة: 2420 و 2564 و12750، كما تقدم النسخة المصورة بالخزانة العامة تارة تحت رقم 1888 وتارة أخرى 2327، مما يعري المعطيات التي أوردتها من كل دقة علمية ومصداقية[38].

وفي مؤسسة علال الفاسي بالرباط يوجد مجموع مخطوط تحت رقم ع 708 يضم جزءاً من الإحراز، عنونه ناسخه ب"**إحراز العلى والتقريب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**"، ويضم هذا المجموع ثلاثين صفحة (من ص. 160 إلى ص. 190) تتناول ما

---

(35) نشير هنا إلى أن الصفحة 175 من (ب) ملئت حواشيها الأربع بكتابة لم نستطع لصغر حجمها الجزم بتشابهها مع خط ابن عثمان.

(36) فهارس الخزانة الملكية، المجلد الأول، الرباط، 1980، ص. 24.

(37) عنان وآخرون، مرجع سابق، ص. 25.

(38) انظر تحقيق مليكة الزاهدي للبدر السافر، ص. 42.

جاء به ابن عثمان عن المهدي المنتظر والمهدوية، وقد وصف واضع فهرس مخطوطات المؤسسة المذكورة ابن عثمان بـالشيخ، ملاحظا أنه لم يقف على من ذكر الإحراز[39].

4- تاريخ وظروف تأليف الإحراز.

يستهل محمد بن عثمان المكناسي مخطوطه موضوع الدراسة بالتأكيد على أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما عينه سفيرا لدى السلطان العثماني "أمرني أدام الله اعتناءه وخلد في الدهر بالجميل ثناءه أننا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة مع تحصيل رؤية بدر تلك الهالة، نستعد للسرى إلى أم القرى لنتقضى مناسك الحج ووظائف العج والثج، ونفرق هديته على أهل الحرمين الشريفين التي أصحبنا وبثوابها أتحفنا، **وعهد إلينا أدام الله سعادته وحرس مجادته، أن نرسم له ما تتفق رؤيته في هذا السفر في البدو والحضر، فحاولت أن لا أرسم شيئا إلا حررته ولا آتي بشيء إلا وضحته، امتثالا لأمره الذي طبق الآفاق، وتتميما لاعتنائه الذي أراق وخلد في بطون الأوراق**[40].

ونظرا لطول مدة الرحلة وثراء المادة التي تضمنها المخطوط، يحق لنا التساؤل عن تاريخ وكيفية تدوين المؤلف، فهل أقدم ابن عثمان على تدوين مشاهداته و اقتباساته خلال مدة الرحلة، أم اعتمد على ذاكرته لكتابة مؤلفه بعد رجوعه إلى المغرب؟

يكتسي هذا السؤال أهميته حين نستحضر أن "الذاكرة هي الوسيلة الأساس في تسجيل المشاهدات ونقل الأخبار. نعم يخبرنا الرحالة في بعض الأحيان أنه كان يدون ما يراه ويكتب ما يسمعه أو يبلغه، ولكنه يشعرنا مع ذلك أن الكتابة والتدوين يظلان أمرين ثانويين، وأن المعول على الحفظ

(39) عبد الرحمان بن العربي الحريشي، الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي، ج. 1، الدار البيضاء، 1991، ص. 267.

(40) ابن عثمان، الإحراز، ص. 4.

والذاكرة. ولذلك كانت الكتابة عند الرحالة تذكرا واستعادة لوقائع ومشاهدات قد يكون مضى عليها في بعض الأحيان زمن طويل، لا تخلو فيه الذاكرة من التعرض لآفة النسيان أو جعل الوقائع تضطرب في تسلسلها والتواريخ تختلط مع بعضها البعض، ولا تخلو بطبيعة الأمر من جعل انطباعات الأمس تمتزج بمشاعر اليوم"[41].

فمعلوم أن الرحلة تستغرق وقتا قد يطول أو يقصر، ولا تتم كتابتها إلا بعد الفراغ من التنقل واستقرار عصا التسيار، حيث يعود الرحالة إما إلى ما دونه خلال سفره إذا كانت ظروف تنقله سمحت له بذلك، وإما بالتعويل على "ما حفظته ذاكرته واعتمل في صدره، والعمدة في الرواية والإخبار ما سلم من أثر النسيان"[42].

والحقيقة أن ابن عثمان يصرح أنه امتثالا للأمر السلطاني له بتدوين مشاهداته خلال سفرة في البدو والحضر، حرص على ألا يرسم شيئا إلا حرره، مما يفيد بأنه واظب على تدوين ما تتفق رؤيته ومعاينته وسماعه خلال سفره، كما أنه من المنطقي الجزم بأن الدقة التي اتسمت بها رواياته وأوصافه للعديد من مظاهر الحياة في الإمبراطورية العثمانية، والنصوص الطويلة التي نقلها عن العديد من الكتب والمظان، والأسانيد الطويلة التي أوردها بأسمائها الكاملة، والتراجم العديدة والأشعار الغزيرة التي نقلها، كل ذلك لم يكن من السهل- إن لم يكن مستحيلا- الاعتماد فيه على الذاكرة مهما كانت وقادة وقوية.

ومما يثبت قيام ابن عثمان بتدوين مسودة رحلته خلال السفر، الاقتباسات التي نقلها عن كتب معينة وقف عليها خلال مقامه بحاضرة الدولة العثمانية إستانبول، إذ نجده مثلا يقترح إيراد موجز عن تاريخ دولة آل عثمان نقلا عن "**تاريخ القرماني في كتابه أخبار الدول وآثار الأول**[43]،

(41) سعيد بنسعيد العلوي، مرجع سابق، ص.ص. 14-15.

(42) نفسه، ص. 17.

(43) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 20.

ليأخذ عن هذا المصدر صفحات طويلة.

ثم إن سفيرنا طال به المقام بالعاصمة العثمانية، مما مكنه من التفرغ للمشاهدة و التعرف على معالم هذه المدينة العظيمة، وكذلك استغلال الاستقرار لارتياد المكتبات والنهل منها، فها هو يشير إلى هذه المؤسسات بإعجاب حيث يقول: **"وأما ما في هذه المدينة من خزائن الكتب المعتبرة، التي لا يوجد مثلها في سائر البلاد، فشيء لا يفي به تقرير ولا يؤديه تعبير، كل مسجد له خزانة وهناك خزائن أخر من غير المساجد، ويظل الجميع مفتوحا والقيم حاضر، ومن أراد أن يطالع أو ينسخ يظل هنالك حتى يقضي غرضه، ولا تخرج ورقة من هنالك**[44].

وعلى طول المخطوط يثبت ابن عثمان أنه نسخ أبوابا كاملة من مظان متعددة، سواء تلك التي وقف عليها في المكتبات والخزانات أو اقتناها خلال سفره، أو تلك التي كان يملكها في خزانته الخاصة، فقلما طرق موضوعا ولم يأت باقتباس من مصدر أو أكثر.

مجمل القول إن قرائن عديدة تجعلنا نذهب إلى أن محمد بن عثمان المكناسي ألف رحلته اعتمادا على كراسات دون فيها المادة التي ضمنها إياها خلال السفر، وبعد رجوعه إلى المغرب جمع كراساته ونقحها ونظمها، وهي العملية التي تمت بين أواخر شهر شوال -- تاريخ عودته إلى مدينة مكناس- ومنتصف ذي الحجة من سنة 1202هـ تاريخ الانتهاء من تبييض المخطوطة[45]. ولعل الحيز الزمني- حوالي شهر ونصف- الذي استغرقته كتابة المخطوط يؤكد فعلا بأن ابن عثمان اقتصر على ترتيب و تنقيح ما دونه خلال الرحلة، كما ينم عن أن الكتابة والنسخ كانا من عمل متخصصين محترفين.

علاوة على ذلك لم يفصح ابن عثمان عن المكان الذي كتب فيه مخطوطة

(44) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 42.

(45) نفسه، ص. 281.

"إحراز المعلى" وإن كنا نرجح أنه مكناس، ارتكازا أولا على قصر المدة الفاصلة بين عودته والفراغ من التأليف، وهي المدة التي نعتقد أن السلطان منحها لكاتبه للاستراحة، ثم إن الصفحات الأخيرة من المخطوط خصصها ابن عثمان لذكر مسامراته ومداعباته وجلساته الخميمية مع أصدقائه بمدينة مكناس حيث يقول: **"ومرت لنا حقبة في محادثة الإخوان ومجاذبة أهداب الآداب مع الفقهاء والأدباء أولي الألباب**[46]".

كما يمكن أن نستشف من نص رسالة لصديقه البيجري أنه أطلع أصدقاءه هؤلاء خلال هذه المسامرات والجلسات على مؤلفه، إن لم يكونوا ساهموا في نسخه وتنقيحه، مدعاة هذا القول ما ورد في الرسالة المذكورة حين خاطب البيجري ابن عثمان قائلا: **"المبرز في العلا المحرز للمعلى**[47]"، وهي مفردات قريبة كما نرى من عنوان المخطوط.

ومن بين العوامل التي ترجح القول بكتابة الإحراز في مكناس خلال هذه المدة، رغبة ابن عثمان في تقديم المخطوطة للسلطان سيدي محمد عند رجوعه إلى دار المخزن، فقد آنس لنفسه عذر المغامرة بالكتابة والتأليف بقوله: **"على أن أرباب هذا الشأن الموسومين بالإجادة والإحسان، الذين انقادت لهم البلاغة بأرسان، لا يدخل أحد منهم لميدان التصنيف، والجولان فيما فيه من صعوبة الترصيف إلا اعتذر، وإن كان ممن نظم أو نثر، فإن لم يسقط عثر، فتجد الفحول يمهدون لأنفسهم الأعذار عند ذوي العلم والمقدار، فكيف حال من هو على أنديتهم متطفل، وللجولان في ميادينهم غير متأهل... وها أنا قد قررت عجزي وألقيت السلاح، وعذري في الدخول في الفضول بأمر مولانا الخليفة بدا و لاح، وإلى ما أمرت به أعتمد، ومن الله سبحانه أستمد وبه أعتضد**[48]".

---

(46) نفسه، ص. 272.

(47) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 274.

(48) نفسه، ص. ص. 4 - 5.

يتضح من هذا الكلام أن ابن عثمان ألف رحلته تنفيذاً لأمر السلطان فهو كاتبه وسفيره، زد على ذلك أن إهداء تأليف من هذا النوع للسلطان يعتبر مصدر فخر ووسيلة لزيادة الحظوة والمنزلة خصوصا لدى سلطان عالم مصنف .

5 - الأسلوب واللغة والتوثيق في الإحراز

باعتبار ابن عثمان كاتبا سلطانيا وتأليف رحلته بناء على أوامر سيدي محمد كما صرح بذلك، وجريا على عادة كتاب المخزن، بذل قصارى جهده لصياغة كتابه في أسلوب أدبي رفيع يعكس مدى تمكنه من ناصية اللغة وأسرارها.

والحقيقة أن الأسلوب الذي كتب به الإحراز لا يختلف كثيرا عن مثيله في الرحلات المغربية، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن ابن عثمان نهل من العديد منها وحرص على ألا يخرج عن نهجها، مما يجعل الباحث يقف على ملاحظة أساسية في هذا الصدد، وهي أن أسلوبه لم يستمر على وتيرة واحدة ولم يلتزم منحى محددا في الكتابة، بل يتغير تبعا للموضوع المطروق.

دليل ذلك أن ابن عثمان اختار أحيانا أسلوبا خال من أي تأنق أو زخرفة، "متحرر من السجع وقيود الصنعة المختلفة، يحدو فيه الكاتب توصيل الأفكار وتأدية المعاني"[49]، مما جعله يعول على استعمال الألفاظ الواضحة والتراكيب البسيطة السليمة.

وقد اعتمد هذا الأسلوب خلال تناوله لموضوعات معينة مثل القضايا الفقهية واللغوية، أو التراجم وسرد يوميات رحلته، نقتصر على إيراد عينات منها.

فبالنسبة للموضوع الأخير يكفي قراءة حديثه عن السفر من مدينة قرطاخنة الإسبانية، والرسو بميناء سرقوزة الصقلي ووصفه لهذه المدينة[50]،

---

(49) الشاهدي، مرجع سابق، ص. 620.

(50) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 9.

أو وصفه لوصول السفارة إلى إستانبول والاستقبال الرسمي المخصص لها، وبعد ذلك حضوره انعقاد الديوان العثماني وتتبعه الدقيق للحدث[51]، لنتبين مدى البساطة والسلاسة في الأسلوب الذي اعتمده ابن عثمان.

أما بخصوص المسائل الفقهية، فإن جدية موضوعاتها فرضت صياغتها في أسلوب ولغة واضحين وبسيطين كذلك، والملاحظ هنا أنه عول على اقتباس نصوص طويلة من مظان مختلفة تناولت مثل هذه الموضوعات، مما انعكس على أسلوب مخطوطه، فالانتقال من أسلوبه الخاص إلى أسلوب غيره واضح في المتن، خصوصا وهو يحيل على المصادر التي أخذ عنها.

من ذلك مثلا الصفحات الطويلة التي أفردها لموضوع المهدي المنتظر ومختلف الآراء المرتبطة به، بمناسبة حديثه عن ظهور رجل في داغستان يقال له منصور يعتقد أنه مقدمة المهدي، فما كان منه إلا التعويل على مصادر قديمة في الموضوع مثل **"مشكاة المصابيح"** للبغوي و**"شرح المشكاة"** لعلي القاري، و**"العرف الوردي في أخبار المهدي"** للحافظ السيوطي وغيرها من المؤلفات. كما نجد الأسلوب إياه في الصفحات المفردة للتراجم، سواء كانت من تأليفه هو أو اقتبسها من تآليف غيره.

وفي المقابل يبدي ابن عثمان أحيانا كثيرة عناية واضحة بأسلوبه إلى حد التكلف، بحيث يلتزم الزخرفة والصنعة، بالإكثار من السجع والجناس ومراعاة التوازن بين الجمل، في تأثر واضح بالمدرسة البديعية التي سادت لدى كثير من الرحالة المغاربة.

ومما له دلالته في هذا الباب أن هذا النوع من الأسلوب المتأنق هو ما استهل به كتاب الإحراز، إذ ورد في الصفحة الأولى من المخطوط قوله: **"الحمد لله العليم الخبير، العلي الكبير، المتفرد بالخلق والتدبير، المتكفل بأرزاق عباده بما اقتضت حكمة التقدير، المفضل من يشاء من خلقه على من يشاء في رزقه، فمنهم غني وفقير، فلا تخرج نفس من الدنيا إلى أن تصل**

---

(51) نفسه، ص. 14 وما بعدها.

من رزقها وآجالها إلى منتهاها، وأرزاق لنا متفاوتات فمن لم تأته منا أتاها، نحمده سبحانه وتعالى على ما ألهم، ونشكره على ما أنعم[52]. وقد سار في الصفحات الأولى على نفس الأسلوب المنمق، مذكرا القارئ بما دأب عليه الفقهاء من استهلال حديثهم بجمل موزونة مسجوعة، فها هو يواصل حديثه عن تكليف السلطان له بالسفارة وتدوين مشاهداته خلالها حيث يقول:

"لكن كيف الطيران بلا جناح، والبروز إلى الكفاح من غير سلاح، على أن أرباب هذا الشأن، الموسومين بالإجادة والإحسان، الذين انقادت لهم البلاغة بأرسان، لا يدخل أحد منهم لميدان التصنيف، والجولان فيما فيه من صعوبة الترصيف إلا اعتذر، وإن كان ممن نظم أو نـثر، فإن لم يسقط عثر، فتجد الفحول يمهدون لأنفسهم الأعذار عند ذوي العلم والمقدار، فكيف حال من هو على أنديتهم متطفل، وللجولان في ميادينهم غير متأهل، مع ترامي الأرضين والبلدان، وفراق الأوطان والولدان، جواب آفاق، رفيق للوعة وإشفاق، ونجي فؤاد خفاق[53].

والجدير بالإشارة في هذا المقام، أنه لجأ إلى هذا الأسلوب المنمق بعد مقدمته المشار إليها في مواقف معينة استدعت التعويل على المحسنات البديعية، مما جعل بعض المقاطع النثرية التي صاغ أسلوبها على هذا المنوال أقرب إلى الشعر، لعذوبة ألفاظها وانسجام جملها وموسيقية إيقاعها. من ذلك مثلا وصفه للحفل الراقص الذي نظمه أهل ميناء سيراكوزة الصقلي على ظهر المركب الذي يقله حيث يقول: " ثم شرعوا في الرقص رجالا ونسا، من غير تأخير ولا إنسا، لأن ذلك عندهم من العوائد، ومما لا ينخرم من القواعد، وباتوا بليلة ذات مراح، لا يعبأون بمن غدا أو راح، من كل فتانة الطرف، كثيرة الدلال والظرف، مهرة مدللة للصبابة على حرف، ودرة عن اللمس مصونة بيضاء مكنونة، فلا ترى أعجب من ليلتنا بظباء القفار فوق أمواج البحار[54].

---

(52) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 2.

(53) نفسه، ص. 4.

(54) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 11.

وحين يفرض الموضوع على المؤلف اتخاذ أسلوب بسيط وجاف، كما هو الحال مع مشاهداته خلال مراحل السفر، فإننا نكاد نلمس أنه يتحين الفرصة لمعانقة أسلوبه المنمق والشاعري. فوسط وصفه لمصاعب الطريق التي فرضتها تضاريس آسيا الصغرى، لم يفته تسجيل صور جميلة زادها الأسلوب الذي صيغت به جمالاً، من ذلك قوله عن البلاد التي مر منها منذ خروجه من إستانبول إلى خان الوزير: "... وماؤها كثير وأثرها كبير، وظلها من كثرة الأغصان ظليل ونسيمها عليل، ولا تمر بساقية فضلا عن وادي إلا على قنطرة مضروبة، ولا بمكان ذي وحل إلا على جسر بحجارة مرصفة منصوبة"[55]. وفي مكان آخر يصف المنطقة التي مر منها بقوله: **"ومن الغد سافرنا في بلاد منفسحة، وفجاج مفرحة ومياه مطردة، وطيور مغردة وأزهار على أنواع متعددة، ما رأيت أكثر من هذه الأرض مياها عذبة، مسامتين لجبل عن يميننا انبجست بالماء المعين عيونه، وتتابع هديره وأنينه، قد استوعب ذلك السهل سقيا، وكساه من حلله السندسية رعيا، وعذب منه الهوا، وطاف في جوانبه النهر وعلى سوق أشجاره صله إلتوى**[56].

وقد لا نكتشف سرا إذا قلنا إن الأسلوب الذي يختاره أي مؤلف مرتبط بحالته النفسية، وخاصة بالنسبة لرحالة يكتشف بلادا غير بلاده، ويواجه مواقف متغيرة بعيدا عن أهله وذويه، ومما يؤكد ذلك في حالة ابن عثمان أن اعتماده لأسلوب مسجع منمق ارتبط غالبا بحالة نفسية متميزة مر بها، سواء كان مبعثها الارتياح أو القلق. فمن أمثلة الحالة الأخيرة ما ورد في نص يصف فيه المحنة التي عاشها خلال رحلة العودة بحرا من قبرص بسبب هيجان البحر حيث يقول: **"فإن كان الريح موافقا لنا أتى وهو عاصف، وأثار أمواجا لا يصفها لعظمها واصف، وإن كان غير موافق ترجحت البوائق، وتطلعت لولا فضل الله بأعناقها العوائق، فذهب الوسن عن الأماقي، وبلغت الروح التراقي**[57].

(55) نفسه، ص. 84.

(56) نفسه، ص. 86.

(57) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 251.

نختم الحديث عن أسلوب ابن عثمان في الإحراز بالإشارة إلى مراسلاته ومسامراته مع أصدقائه عقب رجوعه من رحلته إلى مكناس، باعتبارها نموذجا للأسلوب المتبع في مراسلات الفقهاء والأدباء آنذاك، حيث الحرص على قوة الأسلوب وتنميقه إبرازا لامتلاك ناصية اللغة، والقدرة على استغلال ذخيرة معجمية في تطريز وتدبيج نصوص بديعة.

ففي كتاب لابن عثمان إلى صديقه الكبير البيجري يدعوه فيه للقدوم عليه لتناول الشاي يقول: "**وإنا لننتظر قدومك علينا قبيل الشمس شروقا، والإبريق يصطلك فؤاده لسقياك خفوقا، حتى نتقضى من منادمتك حقوقا، فالساق مشمر عن ساق، والإبريق متأهب بما يليق لأن يريق، والكأس بحلا عسجدية كاس، والكل للقياك متأهب، وبطاعتك متقرب**"[58].

وإذا كانت رسالة الدعوة تنم عن عناية صاحبها بالمحسنات البديعية ليبدو أسلوبها منمقا، فإن الجواب جاء في حلة أبهى وأجمل إذ كتب البيجري : "**المبرز في العلا المحرز للمعلى، محيي فصاحة الأوائل ومعيي سحبان وائل... هذا وما عسيت أحلى، ولو حصلت لي ملكة المحلى، أو حصلت أنواع بديعة الحلى، وأنت أعزك الله السفير بين الملوك، والوزير الذي هو في عقد الوزارة فاخرة السلوك، فأنى يوصل إلى الأوج من فلك مجدك، ولا يقال للزوج إن له معنى من معاني فردك، بيد أنك حفظك الله كريم الأخلاق، وحضرتك العلية حضرة الإطلاق، فبساط أنسك لا شك أنه أرفع، لكن انبساطك فيه أوسع للنفوس وأنفع، وهو وإن كانت به الفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة، وألوان الطعام مما طار كما قيل وعام، أو من غيرهما كذلك المشوب بالطيب، المشتبه بقلنسوة الخطيب، فخطابك البليغ أفضل من ذلك كله وأجل، ومنزعك اللطيف أوصل للنفوس وبها أحل، لأن ذوق معاني الكلام، ألذ من ذوق ما في الأواني من الطعام وأجل وأكمل، ومما هزني من ذلك للكلام، ولزني في المداعبة معك كما لز الألف**

(58) نفسه، ص. 273.

مع اللام، ما أودعته في رسالة الاستدعاء من قولك والساق مشمر عن ساق[59].

ومما يسترعي الانتباه في رسالة البيجري إطراءه على ملكة ابن عثمان الأدبية وثناءه على بلاغته وتمكنه اللغوي، فهو يصفه " بمحيي فصاحة الأوائل ومعيي سحبان وائل"، مبديا إعجابه بخطابه البليغ وتمتعه بذوق معاني كلامه، باعتبارها ألذ من كل ما كان يرصع مائدة الوزير من أصناف الأكل والشراب.

وإذا كان ابن عثمان قد أبان كما أسلفنا عن علو كعبه وامتلاكه لناصية اللغة والبلاغة، فإن متن الإحراز شابه تسلل تعابير عامية لم ندر مبرر استخدامها. من ذلك استعماله لألفاظ مثل "الأكحل" الذي اقترن بالبحر الأسود كلما ذكر على طول المخطوط، أو"الزاج" الذي قصد به الزجاج، و"البراوات" عوض الرسائل، و"البيبان" بدل الأبواب، و"الأحبال" محل الحبال أو"الجيهة" عوض الجهة. ويبقى أن هذه الشوائب محدودة من حيث التواتر في نص الإحراز، ومن ثم لا تؤثر على أسلوبه الرصين.

إلا أن هناك مجموعة من الهفوات الإملائية لا بد أن تسترعي انتباه القارئ للمخطوط، من ذلك رسمه لاسم الإشارة "هاكذا" أو "لاكن" كما ينطقان، كما يبدو لنا غريبا كتابة "ابنت" بتاء مبسوطة عوض ابنة، أو "اليل" بدل الليل، بل نجده يكتب "هنيئة" وهو يقصد هنيهة، أو "الفضا" بدون همزة، و" العيى" بدل العياء، بل "الهوى" وهو يقصد الهواء.

أما الهنات النحوية التي وقفنا عليها في متن الإحراز والمخالفة لقواعد النحو والصرف العربيين، فإنها تدعو للاستغراب لكون ابن عثمان على غرار معاصريه من الفقهاء والعلماء تكونوا في مدارس تلقن أساسا قواعد اللغة والنحو.

(59) نفسه، ص. 274.

فمن الأخطاء المنتشرة في الإحراز إضافته حرف الألف في آخر أفعال المضارع الناقصة، التي تنتهي بحرف الواو مثل "نرجوا" و"يعفوا" و"يدعوا"، أما الأفعال المتضمنة للهمزة فأغلبها كتب بشكل خاطئ: بحيث لم يكتب الهمزة على الألف حين تكون مسبوقة بفتحة كما في "يعبئون" و"هيئوا" و"تسئل" عوض يعبأون وهيأوا وتسأل.

كما لم يوفق في رسم الهمزة في مواقع أخرى من الكلمات، إذ كتبت في "مأسسة" على الألف عوض كتابتها على الواو، في حين جاءت على السطر في "مرءى" عوض الألف. ومن أغرب الأخطاء المتصلة بالهمزة كتابته لفعل "رأى" بهمزة على السطر وألف ممدودة " رءا "، وفي كلمات أخرى حذفت الهمزة بالمرة مثل " مملوة" و"تودية" و"يتلكى" عوض مملوءة وتأدية ويتلكأ.

أما الكلمات والأفعال المنتهية بالألف فطرحت مشكلا للمؤلف، إذ جاء رسم أغلبها خاطئا بوضعه الألف المقصورة محل الممدودة أو العكس، فنجده يكتب مثلا "القهقرا" و" أعلا" و"أعيا" و" بنا" أو "إحدا" حيث يجب كتابة المقصورة، في حين كتب "غزى" و "تلى" حيث وجبت الممدودة.

ومن الأخطاء التي تنم عن تأثير لهجة التخاطب الدارجة استعمال صيغة الجمع حيث تقتضي قواعد اللغة استعمال المفرد، من ذلك مثلا قوله "قفاطين آخرين" عوض أخرى، أو "السفن الكبار لا يقدرون" بدل لا تقدر، أو "يتعاطون أهله"[60].

في مقابل ذلك حرص ابن عثمان على شرح الكلمات غير العربية التي وردت في كلامه، من ذلك تعريفه لبعض الكلمات التركية مثل الأكراك والقشلة وغيرها، وكذا شرح بعض أسماء الأماكن مثل "كاور" و"بياض كوى"، إذ دأب على إيراد اللفظة التركية متبوعة بمعناها العربي مثل قوله: "ويسمونها نعني القرية (أركلة) بلسان الترك كتك شام بتاء مشوبة بشين،

---

(60) يرجع إلى التحقيق للوقوف على مواطن هذه الأخطاء على طول المخطوط.

المعنى الشام الصغير لكثرة مياهها[61]، بل نجده يطلع القارئ على بعض القواعد في اللغة التركية كقوله: "فهي إضافة مقلوبة على مقتضى لغتهم[62] دون أن يدعي الإلمام بالتركية، مما ينم عن إقدامه على استفسار مرافقيه في الركب عن مثل تلك المعلومات العامة التي يرغب المسافر في معرفتها.

والحقيقة أن هذه الشروح لها قيمة معرفية هامة، لكونها تمد بمعطيات تسهم في الإحاطة بالموضوع المتناول، إضافة إلى كونها تكشف عن مصدر العديد من الألفاظ المتداولة في العامية المغربية، مثل كاور التي تعني بالتركية الكفار، وهي أصل كلمة "كاوري" التي لاتزال دارجة للدلالة على النصارى، وكذا القشلة التي تعني المعسكر وغيرها من الكلمات التركية التي دخلت المعجم المغربي.

أما مسألة التوثيق في الإحراز فإننا نقف على اعتماد ابن عثمان على مجموعة من المصادر التاريخية في استقاء مادة مخطوطه، مصرحا بعناوينها وأحيانا بالفصول المحددة التي نقل عنها. ومن أهم هذه المظان التي اقتبس منها "**تهذيب الأسماء واللغات**" للنووي و"**وفيات الصحابة**" للصاغاني، و"**الاستيعاب**" لابن عبد البر، و"**الإصابة**" لابن حجر، التي اعتمدها أساسا في الحصول على تراجم الأعلام، ورجع للتعريف بأسماء الأماكن إلى "**القاموس**" للفيروزبادي و"**المشترك**" لياقوت الحموي بالأساس، في حين اقتبس مادته عن موضوعات التصوف والكلام من تآليف جلال الدين السيوطي المتعددة مثل "**العرف الوردي في أخبار المهدي**" و"**الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف**[63] .

إلى جانب إحالته على المصادر والمظان التي أخذ منها مادته، نجده أحيانا يغفل التصريح بذلك، فقد عول مثلا على كتاب عبد الغني بن

---

(61) ابن عثمان، الإحراز، نفسه، ص. 88.

(62) نفسه، ص. 83.

(63) للوقوف بتفصيل على المصادر المعتمدة في الإحراز، ينظر الفهرس الخاص بها في آخر الدراسة.

إسماعيل النابلسي "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز" في وصف زياراته لأضرحة وقبور وتربات الصحابة والأولياء و الصالحين بالشام، حيث اكتفى سفيرنا بنقل حرفي لصفحات كاملة من هذا الكتاب، موهما بالاعتماد على المصادر التي رجع إليها النابلسي(64)، إذ لم يكن دقيقا وأمينا في تحديد بداية كل النقول ونهايتها .

ويتضح من كتاب الإحراز أن ابن عثمان كان مولعا بالاستطراد، إذ نجده كلما ذكر مسألة إلا وانساق في اقتباس ما قاله العديد من المؤلفين عنها أو ما سمعه من روايات حولها، وهي "ظاهرة عامة في التآليف العربية القديمة لا تخلو من فائدة بالرغم من سلبيتها منهجيا"(65)، ويضيف أحد الباحثين مقيما هذه الظاهرة عند رحالة العصر العلوي الأول بأنه "بدأ الضعف يسري إلى منهجية هؤلاء الرحالين: تطويل في العروض بالاستطرادات التي قد تكون بعيدة عن الموضوع، وتارة اختصار إلى حد الإجحاف"(66).

ورغم ذلك نعتقد أن المعلومات التي أوردها عرضا في استطراداته مفيدة بالنسبة للباحث، ويلاحظ لجوؤه إلى اقتباس منهج المقارنة والمقارعة بين الروايات الواردة في هذه المصادر، ومن ثم ضبط كثير من الأخطاء المتعلقة بأسماء الأعلام ومكان وفاتهم ودفنهم.

خلاصة القول أن ابن عثمان بذل جهدا كبيرا في توثيق مخطوطه، مما

---

(64) للتأكد من ذلك تكفي العودة إلى كتاب " الحقيقة والمجاز" الذي بدأ ابن عثمان نقل مادته ابتداء من الصفحات الأولى، إذ ورد مثلا في الصفحة 6 " وقد دفن فيها من الصحابة رضي الله عنهم جماعة منهم بلال بن رباح....فإنه على القول المشهور مدفون هناك وقيل دفن بباب كيسان...وقال السمعاني في الأنساب إنه دفن في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلط، الصحيح الذي عليه الجمهور أنه مدفون بباب الصغير، كذا ذكره النووي في تهذيب الأسماء و اللغات.."، وينسحب نفس الشيء على الصفحات التالية.

(65) حسن جلاب، "من مصادر التاريخ الديني والاجتماعي، مخطوط درر الحجال للتيفرني"، المناهل، 36، 1987، ص. 428.

(66) محمد المنوني، مرجع سابق، ج. 2، ص. 186.

أكسبه غنى وثراء معرفيا لا يستهان به، يبرر ما أورده مقرضوه من إطراء وإعجاب كما أسلفنا.

6 - منهج التحقيق

بديهي أن التحقيق كعملية تقنية تقوم أساسا على محاولة إعادة تركيب النص قيد التحقيق بناء على مقارنة النسخ المتوفرة من المخطوط، بهدف تقديم متن واضح خال ما أمكن مما قد يكون علق به من أخطاء ارتكبها المؤلف نفسه أو الناسخ الذي بيض المسودة، علاوة على القيام بالتعاليق والشروح اللازمة التي تروم الزيادة في توضيح ما أورده المؤلف.

ووفاء للمنهج العلمي المتبع في هذه العملية فقد قمنا بمقابلة نصي النسختين المتوفرتين من الإحراز لتحقيق المتن، ملتزمين بنص النسخة المعتمدة وإضافة ما سقط من متنها وكتب في الطرر استدراكا من ابن عثمان نفسه أو من الناسخ، ووفاء للأمانة عذلنا حتى عن تصحيح بعض الأخطاء، مكتفين بالإشارة إلى ذلك في الهامش.

غير أننا عولنا على استعمال قواعد الرسم المعاصرة ومن ثم كتابة كثير من الكلمات بشكل مغاير لما ورد في النص الأصلي، إضافة إلى وضع الفواصل والنقط وغيرها من العلامات التي تساهم في ترتيب الفقرات وتنظيم جملها، بما يسهل قراءة النص وتقديمه في شكل مقبول.

كما تم التعويل أيضا على مجموعة من الإجراءات التقنية الكفيلة بضمان حلة واضحة للنص وتيسير قراءته أهمها:

- الإشارة إلى بداية صفحات النسخة المعتمدة من المخطوط بكتابة رقم الصفحة بين خطين مائلين، تسهيلا لمهمة الرجوع إلى أصل المخطوط عند الحاجة.

- وضع عناوين للموضوعات المتناولة في المتن لتسهيل قراءته وإبراز مختلف الجوانب التي تطرق لها المؤلف، وقد تم استعمال المعقوفتين للتمييز بين العناوين التي من وضعنا وبين الواردة في المخطوط، كما أشرنا في

الهوامش إلى طريقة كتابتها من طرف المؤلف أو الناسخ.

- التعريف بالأعلام الجغرافية والبشرية وبعض الأحداث التاريخية التي وردت بشأنها إشارات مقتضبة في المتن، مع الحرص على تثبيت مصادر التراجم والشروح في الهوامش بوضعها بين مزدوجتين. ولا يعدم القارئ ملاحظة كثرة ما ورد في الإحراز من أسماء الأعلام والأماكن والوقائع التي تضفي على الكتاب صبغة خاصة، بحيث يتمكن قارئه من الإطلاع على ذخيرة غنية من المعلومات في شتى ميادين المعرفة. دون أن ننكر إغفال إيراد تراجم بعض الأعلام المشهورين، أو التي لم نتمكن من الوقوف عليها وإن كانت قليلة جدا.

- شرح المفردات الغريبة أو العامية أو الأجنبية، ذلك أن ابن عثمان استعمل العديد من الكلمات والتعابير الخاصة بزمانه والتي قد لا يفهمها البعض من غير المتخصصين.

- الإحالة في الهوامش -عند كل تغيير في رسم الكلمات- إلى حالتها كما وردت في النسختين، والاكتفاء بإحالة واحدة عند تكرار نفس الحالة تفاديا لإثقال الهوامش. وإذا كانت الإحالة تهم أكثر من كلمة فإننا نستخدم المعقوفتين لحصر الكلمات المعنية بالهامش.

- استعمال هلالين منمقين للآيات القرآنية مع بيان أرقامها وسورها في الهامش، ونفس الشيء بالنسبة للأحاديث النبوية، أما مختلف الأقوال والنصوص المقتبسة فتم وضعها بين مزدوجتين.

د. محمد بو كبوت

أستاذ التاريخ في جامعة
سيدي محمد بن عبد الله - فاس

مسار الرحلة

- أسكدار
- قرطل

18 ماي 1787

- كبزة
- خارسك
- كاور كو
- جنز نك
- لفك
- خان الوزير
- مدينة السكوت
- أسكشهير
- سيدي الغازي
- خصرم باشا
- بياض كوى
- بلودم
- مدينة أخ شهير
- إلغين
- اللاذق

- قونية
- إسمل
- قربنار
- أركلة
- وادي قشلة
- شفت خان
- أوابل
- الشاقط
- مدينة أذنة
- المصيصة
- قرطقراط
- بياس
- بيلان
- أنطاكية
- الزنبق
- جسر الشغر
- قلعة المضيق
- حماة
- رستن
- حمص
- ضيعة الحسية
- النبق
- القطيفة
- دمشق

- ذو النون
- الصنمين
- مزيرب
- الرمثا
- المفرق
- وادي الزرقا
- خان الزبيب
- البلقا
- وادي النسور
- قطرانة
- بوغاز الحسا
- قلعة عنزة
- معان
- العقبة
- قلعة المدورة
- قلعة ذات حج
- القاع
- تبوك
- ظهر مغر
- قلعة الحمراء
- مدائن صالح
- سهل المطران
- البئر الجديد
- هدية

- الفحلتين
- آبار ناصف
- جبل سلع
- ذا الحليفة
- الشهداء
- قرية الجديدة
- بدر
- القاع
- رابغ
- قديد
- خليص
- سبيل الجواخي
- مكة

الرحلة بين دمشق وعكا وجولته في فلسطين

- المزة

(الخروج من دمشق 9 ربيع الثاني 1202هـ

- سعسع
- خان الأرنب
- خان الجسر
- قرية الرمة
- عكا
- نابلس
- البيرة
- القدس

- الخليل
- القدس
- عكا

من تونس إلى فاس

- تبربة

الخروج من تونس 3 رجب 1202هـ

- مجاز الباب
- بلدة تستر
- قرية تبرسق
- القنطرة
- بلدة الكاف
- عين الزرقا
- تفش
- مرج كحيل
- مهيرز
- قسنطينة
- الجزائر
- تلمسان
- وجدة
- فاس

آخر يوم من شعبان 1202هـ

نص الرحلة

بسم الله الرحمان الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

يقول أفقر الورى إلى رحمة الله تعالى، الراجي غفرانه وأجرته، محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي لطف الله به في الدارين بمنه وكرمه[1]:

الحمد لله العليم الخبير، العلي الكبير المتفرد بالخلق والتدبير، المتكفل بأرزاق عباده بما اقتضت حكمة التقدير، المفضل من يشاء من خلقه على من يشاء في رزقه، فمنهم غني وفقير، فلا تخرج نفس من الدنيا إلى أن تصل من رزقها و آجالها إلى منتهاها، وأرزاق لنا متفاوتات فمن لم تأته منا أتاها، نحمده سبحانه وتعالى على ما ألهم، ونشكره على ما أنعم، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم أنبيائه وأمين أمنائه، وعلى آله وأصحابه الذين أسسوا الدين على قواعد بنائه، صلاة وسلاما تامين دائمين، نرجوا (كذا) ببركتهما عند ورود الحوض عليه[2] المعاطاة بإنائه، والتنعم في الدارين بفنائه.

في فوائد الرحلة والاغتراب

أما بعد، فإن التنقل في البلاد والتأمل في مخلوقات الله من العباد، تذكرة للقلوب وأي تذكرة، وتبصرة يا لها من تبصرة، أو لم يتفكروا فيما خلق الله من شيء /2/ آية مبصرة، على أن الاغتراب وحده يحدث في

(1) سقط هذا التذييم من (أ) وورد في (ب).
(2) سقط من (أ) وورد في (ب).

القلب خشوعا، وإلى الله رجوعا وعن غيره نزوعا، والشاهد الطبع وانقطاع الإنسان إلى الله تعالى عند انقطاعه فيه صبغ وطبع، ولو لم يكن في الاغتراب إلا هذه الفائدة التي هي بكل خير عائدة، لكفاه فضلا وأحرز في السبق إلى الفضل خصلا، فهي أعظم الفوائد وأجمل العوائد، جعلنا الله تعالى ممن تمسك بأسبابه وأقصر قيامه على بابه، ورفع لنا عن مشاهدة أنوار حضرته ستور حجابه، وصرف عنا كل عائق يعوقنا ويشغلنا عن جنابه، إنه الكريم المقصود والجواد المحمود،

لا يبلغ المرء في أوطانه شرفا حتى يكيل تراب الأرض بالقدم

ولما طال تشوقنا إلى حج بيت الله الحرام، وتشوفنا إلى أن ننال من زيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام غاية القصد[3] والمرام، وشبت في الأحشاء من شدة الوجد نار لها ضرام، ناديت متمثلا وإلى جانبه العزيز متبتلا:

فلا تنسني يا خير من وطئ الثرى فمثلك لا ينسى لديه خديمه

تعيين ابن عثمان سفيرا ومهمته

فهبت علينا نفحة من نفحاته الطيبة، ولاحظتنا عناية من عناياته محركة إلى فنائه العزيز مقربة، فعيننا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وحصن الإسلام والمسلمين، ظل الله في العالمين وملجأ الفقراء والمستضعفين، أبو عبد الله المنصور بالله سيدي / 3/ محمد[4] بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله، أدام الله تعالى أيامه ونصر أعلامه، وجعل النصر والفتح خلفه وأمامه، ووطد له البلاد وجمع على طاعته قلوب العباد، مع رفقة من الإخوان صنوان وغير صنوان[5]، وأمرنا أدام الله علاه وكان له في جميع أموره وتولاه، بالتوجه

(3) سقطت من (أ) وورد في (ب).

(4) يرجع في ترجمة هذا السلطان إلى فصول الدراسة.

(5) كانت البعثة مكونة من ابن عثمان ومولاي عبد الملك بن إدريس ابن عم وصهر السلطان، وأبي حفص عمر الوزيرق وشيخ الركب أبي محمد عبد الكريم بن يحيى. (الزياني، البستان الظريف، مصدر سابق، ص. 455؛ الناصري، الإستقصا، ج. 8. ص. 57)

أولا إلى القسطنطينية العظمى والحضرة الفخمى، حتى نتلاقى مع سلطانها الأعظم الخاقان المعظم، خديم الحرمين الشريفين والقدس الشريف أول القبلتين، السلطان عبد الحميد خان[6] نصره الله تعالى وأيده، ومهد ملكه وشيده، وجعله في أعين الكفرة قذى، وصرف عنه كل ضير وأذى، وقواه على الكفار وأعانه وكبت عدوه وأهانه، وأبقى هذين الأميرين العظيمين الشريفين[7] الجليلين الكبيرين للمسلمين كهفا وحرزا وللإسلام عزا، حتى يرجع بوجودهما للإسلام شبابه، وتورق أغصانه وتخضر شعابه وهضابه، وتجتمع للإسلام الكلمة، فتغلب على الفئة المشركة الفئة المسلمة، إنه ولي ذلك.

وأمرني أدام الله اعتناءه وخلد في الدهر بالجميل ثناءه، أننا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة، مع تحصيل رؤية بدر تلك الهالة، نستعد للسرى إلى أم القرى، لنتقضى مناسك الحج ووظائف العج والثج[8]، ونفرق هديته على أهل الحرمين الشريفين التي أصحبنا وبثوابها أتحفنا، وعهد إلينا أدام الله سعادته وحرس مجادته، أن نرسم له ما تتفق رؤيته في هذا السفر،

---

(6) عبد الحميد الأول (1725-1789)، أصغر أبناء السلطان أحمد الثالث، تولىالحكم سنة 1774 بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث وواجهت الدولة العثمانية في عهده تحديات عظيمة، ففي الوقت ا لذي كانت تعاني فيه الدولة أزمات مالية وانتفاضات في الولايات، واجه السلطان عبد الحميد تحدي توسع الإمبراطورية الروسية واتضاح أطماعها في البلقان والقرم مما كان معه حتميا اصطدام القوتين، فانهزمت الجيوش العثمانية واضطر السلطان إلى التوقيع على معاهدة " كوجك قينارجه" في يوليوز 1774، والتي أخلت بالتوازن الدولي بحصول روسيا على تنازلات مهمة في القرم وحق الملاحة في البحر الأسود والمضايق، بل تضمنت المعاهدة بنودا غير واضحة فسرت على أنها تنص على قبول الباب العالي مبدأ حق روسيا في حماية الرعايا الأرتذوكس في الإمبراطورية العثمانية.وفي نفس السنة-1774- اندلعت الحرب بين الدولة العثمانية وإيران،لكن هاجس عبد الحميد الأول ظل الصراع ضد الروس ومخططات كاترين الثانية في القرم والبلقان، وعندما أبرم التحالف بين روسيا والنمسا وبدأ يهدد وجود الدولة العثمانية وممتلكاتها، ورغم إدراك السلطان لضعف إمكانياته أعلن الوزير الأعظم خوجة يوسف باشا الحرب على الدولتين المتحالفتين سنة 1787 وقد كان ابن عثمان شاهدا على أوضاع البلاد وهي تستعد للحرب.(أوزتونا 633؛ E., I., 5-312)

(7) "الشهيرين" في (ب)، علما بأن العثمانيين لم يدعوا الشرف.

(8) العج: رفع الصوت بالتلبية؛ الثج: سيلان دم الهدي، (لسان العرب، 2 318).

في البدو والحضر، فحاولت أن لا أرسم شيئا إلا حررته، ولا /4/ آتي بشيء إلا وضحته، امتثالا لأمره الذي طبق الآفاق، وتتميما لاعتنائه الذي أراق، وخلد في بطون الأوراق.

لكن[9] كيف الطيران بلا جناح، والبروز إلى الكفاح من غير سلاح، على أن أرباب هذا الشأن الموسومين بالإجادة والإحسان، الذين انقادت لهم البلاغة بأرسان، لا يدخل أحد منهم لميدان التصنيف، والجولان فيما فيه من صعوبة الترصيف، إلا اعتذر وإن كان ممن نظم أو نثر، فإن لم يسقط عثر، فتجد الفحول يمهدون لأنفسهم الأعذار عند ذوي العلم والمقدار، فكيف حال من هو على أنديتهم متطفل، وللجولان في ميادينهم غير متأهل، مع ترامي الأرضين والبلدان وفراق الأوطان والولدان، جواب آفاق رفيق للوعة وإشفاق، ونجي فؤاد خفاق، أجوب كل مرداء وشجرا وفجاجا غبرا، ولله در القائل الذي لم تستقر له من التسيار عصى:

يوما بحزوى ويوما بالعقيق ويو ... مأ بالعذيب ويوما بالخليصاء

وها أنا قد قررت عجزي وألقيت السلاح، وعذري في الدخول في الفضول بأمر مولانا الخليفة بدا و لاح، وإلى ما أمرت به أعتمد، ومن الله سبحانه أستمد وبه أعتضد، وهو حسبي ونعم الوكيل؛ وسميته إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، صلى الله عليه وسلم ما ماس في دوحة غصن رطيب، وفاح طيب وخطب خطيب، وجعل أنفسنا بزيارة قبره الشريف في الدنيا تنشرح وتطيب، وفي الأخرى بمرافقته والدنو من حديقته تظفر ولا تخيب، /5/ إنه سميع مجيب.

تاريخ بداية الرحلة بالخروج من الرباط

فأقول ومن الله تعالى العون والتيسير مسئول: وفي مهل المحرم فاتح

(9) يكتبها ابن عثمان "لاكن" على طول المخطوط، وسنقتصر على هذه الإحالة للإشارة إلى التصحيح.

سنة مائتين وألف[10]، كان سفرنا من عند سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، أدام الله تعالى وجوده للإسلام والمسلمين و هو في رباط الفتح، وأصحبنا أدام الله نصره وأبد فخره المال الذي على السادات الأشراف أهل الحرمين وغيرهم وهب، من الفضة والذهب، وذلك له أعزه الله في كل سنة طريقة ومذهب، تقبل الله تعالى منه وأعانه، ومهد بوجوده أوطانه وكبت عدوه وأهانه.

مكوث البعثة ستة أشهر بتطوان وطنجة في انتظار هدوء البحر

ووجه في صحبتنا سفيرا[11] كان ورد على أبوابه السامية المعراج، وكعبة ذي الفاقة المحتاج، من سلطان حضرة القسطنطينية حيث كتائب للجهاد كمينة، أعانهم الله تعالى وأيدهم ومزق أعداءهم وبددهم، وأمرنا أدام الله وجوده بالتوجه إلى مدينة تطوان، فإن تيسر ركوب منها في البحر فذاك، وإلا فيتعين الميل إلى طنجة والدوران، فلما وصلنا تطوان لم يتمكن للمركب قدوم لشدة هيجان البحر في ذلك الأوان، وقد كان فصل الشتاء، وقد أتى من الأمطار المتوالية والرياح المتراسلة بما أتى، وطال مقامنا بتطوان أربعة أشهر ونصف، لا نستطيع من كثرة الأمطار والطين خروجا، ولا هبوطا من منزلنا ولاعروجا، إلى أن ورد علينا أمر سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، صحبة بعض خاصته من أحبابنا يقال له سيدي محمد الزوين[12] تصغير زين، صرف الله عنه كل شين وحرسه من العين،

---

(10) الموافق لشهر نونبر 1785.

(11) ا إسماعيل أفندي، كان كاتبا لدى أمير البحر القبودان جزائرلي حسن باشا، وأرسل سفيرا من قبل الباب العالي إلى السلطان سيدي محمد سنة 1785، وقد رافق سفارة عبد الكريم العوني التي كانت في إستانبول في أوج توتر علاقات السلطان المغربي مع أتراك الجزائر. ارتبطت سفارة إسماعيل أفندي بأحداث نفصلها في الدراسة.

(12) محمد بن القائد عبد الله الرحماني المشهور بلقب الزوين، يذكره الضعيف ملقبا بالقائد مثل أبيه، وهو من خدام وخاصة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كانت أخته البتول الرحمانية زوجة للسلطان، بل نجد وثيقة عثمانية تصفه برئيس وزراء سيدي محمد عندما أرسل في سفارة الى تركيا. (الضعيف، ص. 193 ؛ بنحادة، ص. 262).

وقلما أبصرت عيناك من رجل إلا ومعناه إن فتشت في لقبه

/6/ وأمرنا أيده الله بالتوجه إلى طنجة ومنها نركب البحر، لأن المركب تعذر عليه القدوم لمرسى تطوان لصعوبتها، فتأخرت عن ملاقاته إلى عشية النهار وقد كان ينتظر ذلك فعاتبني، فقلت:

جاء من طال ما تشوقت النـ ـفس إليه بشرى لنا وهنيه

أنعش الروح شم رياه لولا ذاك لم تبق في الحياة بقيه
إذ تداعوا بالأمس وسط نهار درة الملك قد أتتنا جليه
فتأخرت عن لقاه محققا فارتقاب الهلال يلفى عشيه
هكذا الشأن ما تقولون أنتم عن يقين قلتم وصدق ونيه
فأجابوا أما ترى الشمس ولى نورها كاسفا رأته البريه
قلت في الفقه إن تبدى هلال في نهار أعطوه حكما وليه

ثم شرعنا في أخذ الأهبة في التوجه إلى طنجة بقصد الركوب منها، فتوجهنا إليها ونزلنا عند قائدها محبنا الأعظم، وصاحبنا الأديب اللبيب الأكرم[13]، القائد محمد بن عبد المالك[14] حرس الله تعالى[15] نجابته وحفظ عليه مرتبته، فأكرم مثوانا سرا وإعلانا، وأقمنا عنده نحو شهر ونصف حتى أتى المركب وتأهبنا للسفر.

وكثيرا ما كان يقع بيننا وبين الصاحب المذكور والحذر المشكور من المداعبة والنوادر، فمما اتفق لي معه في مدة هذا المقام المذكور، أنه خالف العادة في إتيانه إلى موضع نزلي نحو اليومين أو ثلاثة لشغل كان عنده، وكان يبعث لي كل يوم ويقول غدا آتي، فداعبته في أبيات أفرطت فيها في التنزل /7/ وشببت فيها الخطاب بالتغزل وهي:

---

(13) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(14) محمد بن عبد المالك الريفي، ولاه سيدي محمد بن عبد الله على طنجة سنة 1180 هـ/ بعد نكبة عاملها عبد الصادق الريفي، لعب أدوارا مهمة في علاقات المغرب الأوربية كما تورد في الدراسة، (الإتحاف 3- 166).

(15) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

إن عـــهـــد الملاح ليس بـــواق مـــثــل ســائــر لأهـــل الـنـــسـيـب
كـل يـوم يـعـدني بـمـــجيء يـضـرم الـشـوق في فـؤادي الـكـئـيـب
عـلـلـنـي بـكـاذب الـوعـد دأبــا بـانـتـظـار الآمـال يـطـفـي لـهـيـبـي
ليت شعـري أذا الـصـدود جـفـاء أم حـذار مـن وقـع عـين الـرقـيـب
أو تـظـن عـنـكـم سـلـوا فـتـفـنـيـ ـه بـمـوعـدكـم وتحـيـي وجـيـبـي
مـوقـدا فـي الـفـؤاد نـار غـرام مـوقـدا فـي الحشاء جيش نـحـيـبـي
يـا مـثـيـر الـغـرام والـلـه يـعـفـو عـنـك لم قـد أبـحـت طـولا لـقـربي
جـد بـوصـل ولـو بـطـيـف خـيـال إذ هـوى الـنـجـم في الـدجـا لـلـغـروب
وأمـنـت الـوشـاة والـرقـبـا طـرا وغـــاب هـــلالـــهـــا المرقـــوب
وتدارك حشاشة القلب إذ كـــان لمثواكم حنَّ للموهوب[16]
طـمـعـي الآن فـي الـوصـال قـوي وشـفـيـعـي فـي نـيـلـه المرغـوب
يـصـدق الـفـجـر بـعـد مـا يـتـجـلى كـاذبـا فـي الآفـاق غـيـر مـعـيـب

فقدم واعتذر حتى لم يذر، ولم يزل في القيام في مواصلتنا ومؤانستنا حتى حان السفر.

نـادر[17]

وذلك أن الرجل القسطنطيني سفير السلطان العثماني المذكور، اشترى جارية فوجدها تبول، فأراد ردها إلى البائع فامتنع، وعولج في الإقالة فما نفع، فتعلق بنا الرجل المذكور لنخاطب قاضي البلد لعله يحول بينه وبين / 8/ البائع، فصدرت عني أبيات رأيت أن أذكرها لما فيها من التمليح، والتنشيط والهزل بالنكاية والتصريح، تسلية للقارئ وإحماضا، وتأنيسا له كخابط ليل أومض له البرق إيماضا، وإلا فما المقصود في تخليد كلام في حيز الهذيان معدود، والهدار على النية في السر والعلانية، وهي هذه:

---

(16) ابتداء من هذا البيت وقع بتر في النص في نسخة (ب) لغياب الصفحات 9 و 10 و 11 و 12 من المخطوط.

(17) العنوان من وضع المؤلف، ونشير هنا إلى أن كل عنوان لم يوضع بين معقوفين فهو من وضعه.

يا أيها القاضي الإمام الكامل ... وكافل الأيتام والأرامل
وابن السبيل والغريب قدما ... يشمله الإحسان منه حتما
ضيفكم الفقيه إسماعيل ... يبيت بالليل له عويل
قد اشترى من ذي البلاد جاريه ... يحسبها على المراد جاريه
فلم ير من خيرها علامه ... أعيب من بغل أبي دلامه
تبول بالليل على الفراش ... على الثياب وعلى الرياش
منتنة الريح وعكسه إذا ... حذفت ياء قبحت به أذى
كفأرة المرحاض أو كجعل ... فقد أضر ريحها بالمقل
لا مثل نتن جيفة أو حيض ... أو كظة ممزوجة بهيض
لولا هبوب الريح ذات المدد ... وكوننا في منزل عن بعد
نظل بالبخور طول الأبد ... أضر نتنها بأهل البلد
أما ثيابها فدأبا تصطفق ... تقطر من أبوالها و تلتزق
عيناه من صنانها في كمد ... ولو ثوى في جبل من إثمد
أشفاره إن لم تدارك سقطت ... والتزقت أجفانه واختلطت
/ 9 / يقبح أن يأتي لنيل رفعة ... ويترك الزغب تحت الدفعة
مع تحمل نوى الأسفار ... يرجع للأهل بلا أشفار
عيناه من جواركم في حرم ... من بائع عن الإحسان برم
فهو بما ضره غير معتبر ... هان على الأملس ما لاقى الدبر
فاستنقذنَهُ واذْغَنْ عاره ... وراع فيه جانب الإمارة
وهو مع العلم الذي يمت ... به إليكم شكركم ينبت
في كل بقعة وكل أرض ... وكل إقليم ليوم العرض

ثم توسط له في ذلك فوقعت الإقالة من البائع وذكرها باق إلى الآن شائع.

تاريخ مغادرة السفارة لميناء طنجة والتوجه نحو قرطاجنة

وفي عشية يوم الإثنين ثاني رجب من سنة تاريخه[18]، ركبنا البحر في

(18) الموافق لشهر ماي 1786.

مركب بعثه عظيم الإصبنيول[19] بأمر مولانا المنصور بالله، بقصد الركوب فيه إلى أن يوصلنا إلى مركب آخر أكبر منه بمدينة قرطاخنة[20]، وسافرنا في المركب المذكور إلى أن وصلنا قرطاخنة على ثلاثة أيام من طنجة، وأرسينا بمرساها العجيب ذي الشكل الغريب، وأقمنا به خمسة أيام ثم انتقلنا إلى المركب الكبير، وهو من مراكب الحرب فيه من المدافع المسمات (كذا) بالأنفاض نيف وخمسون مدفعا، ومن العسكر والبحرية ما يقرب من خمسمائة.

الرسو بميناء سيراكوزة بصقلية ووصف الجزيرة

وسافرنا من قرطاخنة إلا أن الريح كان غير موافق، فبقينا نتردد به في البحر شهرا ويومين حتى تغير الماء وتأذى الناس من شربه، فدخل بنا رئيس المركب إلى مرسى من مراسي صقلية يقال لها سرقوزة[21]، مؤسسة على الناحية الشرقية منها، وهي بلد قديمة متوسطة إلى /10/ الكبر أميل، وهي أي المدينة المذكورة من المنعة والحصانة في الغاية التي ليس بعدها شيء، لأنها مؤسسة على طرف من الأرض داخلا في البحر، وقطعوها عن البر

(19) الملك كارلوس الثالث الذي كانت علاقاته ودية مع سيدي محمد ولعب أدوارا مهمة في سياسة قوى البحر المتوسط في هذا العهد.

(20) قرطاخنة أو قرطاجنة، مدينة على الساحل المتوسطي لإسبانيا بناها حسدر بعل القرطاجي سنة 221 ق.م. وظلت عاصمة لإسبانيا البونيقية حتى الغزو الروماني. اشتهرت بدور صناعاتها البحرية ومن ثم كانت قاعدة للأسطول الإسباني إلى اليوم.لعبت أدوارا مهمة خلال التاريخ القديم والوسيط: كانت " ميناء مرسية " و اشتهرت كذلك بخصوبة أراضيها وثروتها الفلاحية(700- E., I., 4)

(21) سرقوزة، مدينة أسسها الكورنثيون الإغريق حوالي 734 ق.م. على الطرف الجنوبي الشرقي من صقلية وتطورت لتصبح من أكبر المدن الإغريقية، وبحكم موقعها لم تفلت من انعكاسات الحروب البونية بين قرطاج وروما، إذ سقطت بعد حصارها من طرف القنصل الروماني مارسيليوس سنة 212 ق.م. فصارت عاصمة إقليم صقلية الروماني، ثم تعاقب عليها النورمان والعرب. وبسبب هذا الماضي الحربي للمدينة ترك حكامها آثارا عبارة عن حصون و استحكامات عسكرية، منها قلعة أوريل والأسوار التي بناها دنيس الشيخ Denys (397-402 l'Ancien ق.م). والتحصينات التي ظل أهل المدينة وحكامها يعتنون بها على مر الزمن

بأربع خنادق، أدخلوا في كل واحد البحر حتى نفذ إلى البحر من الناحية الاخرى، وجعلوا لخروجهم إلى البر قناطر يعبرون عليها على كل خندق قنطرة، وبالليل ترفع القناطر بالسلاسل وتبقى البلاد مقطوعة دونها أربعة أبحر، وهذه الخنادق أحدثها أحد طواغي الإصبنيول يقال له كارلوس كينط لنبرطور[22]، لأن هذه الجزيرة وكذا نابل[23] وعملها كانت تحت حكمه.

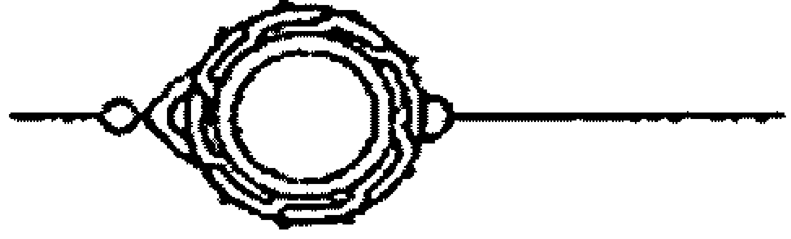
ومن هذه المدينة كان دخول المسلمين على عهد بني أمية حتى تملكوها، وبقيت في أيديهم نحو من ثلاثمائة سنة، ثم دخلها الكفار عليهم أيضا من هذه البلد ولله الأمر من قبل ومن بعد، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده. فلما كانت معلومة الدخول حصنها الطاغية المذكور، وقد ألمنا بذلك مبينا في رحلتنا المسماة بالبدر السافر[24]، وبها زيتون كثير فقد ذكر حاكمها أن بها من المعاصر خمسين معصرة، وأنهم يمكثون في عصر زيتونها شهرين.

---

(22) يقصد الإمبراطور شارل كانت (1558-1500) Charles Quint الذي حكم إمبراطورية أوربية شاسعة ضمت إسبانيا ومستعمراتها الأمريكية ونابولي وصقلية وسردينيا والبلاد المنخفضة وممتلكات آل الهابسبرغ النمساويين، تمكن من تقلد أمور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة بعد موت جده الإمبراطور ماكسيميليان سنة 1519، ورغم جهوده الحثيثة فإنه واجه مصاعب كبيرة في إدارة إمبراطورية مترامية الأطراف ومتعددة الأعراق، إذ ظل أجنبيا في نظر الإسبان الذين ثاروا ضده مرارا وخاصة في قشتالة، كما واجه تحديات الإصلاح الديني البروتستانتي وما جره من صراعات. من جهة أخرى ظل مستنفرا أمام تهديدات وطموح الأتراك العثمانيين حيث اصطدم عسكريا مع سليمان القانوني وحليفه الملك الفرنسي فرانسوا الأول، وقد أرهقته تلك التحديات الكبرى فاعتزل العرش سنة 1556 تاركا لإبنه فيليب الثاني ممتلكاته الإسبانية ولأخيه فرديناند ممتلكات الهابسبرغ ليعتزل في دير يوست حيث مات سنة 1558. (Encyclopédie 360, vol.3, éd.Romaldi, 1980, p. 94.)

(23) يقصد نابولي، مدينة تقع في خليج بنفس الاسم جنوب إيطاليا وعاصمة لإقليم كمبانيا، وتشتهر ببركان فيزوف الذي يطل عليها. تعتبر من المدن المتوسطية ذات التاريخ العريق ومحط صراع بين القوى الأوربية، إذ ظلت تتأرجح بين نفوذ آل الهابسبرغ و آل البوربون الإسبان. وفي الفترة المعاصرة لابن عثمان كانت تعرف بمملكة الصقليتين ويحكمها الملك فرديناند ابن كارلوس الثالث ملك إسبانيا.

(24) يحيل ابن عثمان هنا على مؤلفه " البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر" الذي ألفه عن سفارته الى جزيرة مالطة للتفاوض حول افتكاك الأسرى، وفيه خاص في تاريخ صقلية بتفصيل. حققته مليكة الزاهدي وتقدمت به لنيل د.د.ع في التاريخ بكلية الآداب بالرباط سنة 94-1995.



ولأهلها بشاشة وطلاقة وانبساط، فقد فرحوا بنا فرحا كثيرا، وطلبوا منا النزول إلى بلادهم واستدعونا لذلك مرارا، فأبينا عليهم لكوننا إنما دخلنا إلى مرساهم بقصد حمل الماء على جناح سفر مستوفدين، فلما رأوا امتناعنا جاءوا ذات ليلة إلى المركب بقضهم وقضيضهم، وأصحبوا معهم المغنين بألحانهم وقريضهم نساء ورجالا، مظهرين حسن رداء وجمالا، واعتد لذلك رئيس المركب بما يناسب مقتضى عوائدهم، /11/ فكسى السفينة وظللها، وعلق بها من منارات البلور للشمع ما زينها وجملها، حتى خرجت السفينة عن شكل السفائن، وصارت في حساب مقاعد المدائن، وبعد أن غربت الشمس أتى أهل البلد ومعهم النساء الضامات[25] وهذا اللقب على كونهن من الأكابر من العلامات، ونصبت للقوم كراسي قعدوا عليها ومتكئات استندوا إليها، وصعد أهل الغنا فوق مرتبة، وأخذوا في استعمال ألحانهم مرددين كل شكوى في الصبابة ومعتبة، ثم طيف[26] عليهم بكؤوس من الحلاوي معقودة بالثلج بقصد إبراد اللهيف، لأن الفصل كان فصل مصيف، ثم شرعوا في الرقص رجالا ونسا من غير تأخير ولا إنسا، لأن ذلك عندهم من العوائد ومما لا ينخرم من القواعد، وباتوا بليلة ذات مراح لا يعبأون بمن غدا أو راح، من كل فتانة الطرف كثيرة الدلال والظرف، مهرة مدللة للصبابة على حرف، ودرة عن اللمس مصونة بيضاء مكنونة، فلا ترى أعجب من ليلتنا بظباء القفار فوق أمواج البحار.

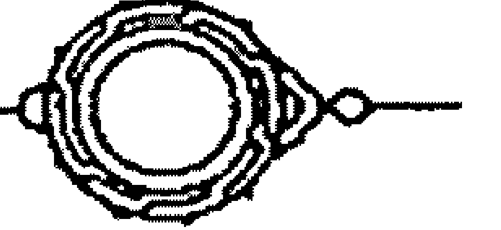
ولما حمل رئيس المركب الماء من سرقوزة سافرنا منها في رابع شهر رمضان الأعظم، وأنعم الله تعالى علينا ببركة هذا الشهر المبارك بريح غربي موافق لنا، فقطعنا به مفاوز ذات مدى شاسع، لا تقطع إلا بعون من الله ذي الفضل الواسع، فدخلنا جزر بر الترك[27] وتحرك علينا ريح غير موافق،

(25) تعريب لكلمة Las Damas اللاتينية والتي تعني كما يورد ابن عثمان نساء علية القوم.

(26) نهاية البتر في النص في نسخة (ب).

(27) يقصد الجزر المتناثرة بكثافة في بحر إيجة.

إلا أننا بقينا نساعفه باستعمال السير أمامه يمينا وشمالا، ونحن في ضمن ذلك نقطع بعض المفازة إلى أن قربنا إلى بغاز القسطنطينية[28]، /12/ ولفظة بغاز بلغة الترك معناها الحلق، وهو أي البغاز مضيق تقارب فيه البران[29]، ومن هذه الحيثية يسمى باسم الحلق لضيقه، وبنوا في جانبيه أبراجا نصبوا عليها مدافع تقطع كورة إحدى الجهتين إلى الأخرى، بحيث لا يتمكن أحد من الجواز إلا بالإذن والإجازة.



مظاهر الجفاء بين أعضاء السفارة المغربية

وفي هذه النواحي توفي مولى لنا، وكان البر بعيدا فألقيناه في البحر رحمة الله عليه، وقد عزاني بمصابه جميع رفقائنا حتى النصارى أهل السفينة، إلا رجل واحد يقال له ابن يحيى[30] فقد أهمل ذلك وآلمني، فرثيت المولى المذكور بقصيدة وذكرت جفاء هذا الرجل، وشغله الذي ذكرت حقيقة وذلك له سنة وطريقة، وذلك أنه كان يلعب اللعب المعروف عند العامة بالضامة[31] مع بعض رفقائه، واشترطوا أن من يقع عليه الغلب والهزيمة، فالضراط في حقه واجب أو عزيمة، والخطاب في آخر القصيدة لبعض أصحابنا وهي هذه:

هلا رأيت الدهر وما يفري	أودى بمولى لي أبي الخير[32]
مولى يقيك بنفسه حذب	بوفائه أربى على الحر
تفدي موالي الدهر مهجته	تفديه أنفسها على نزر

(28) يقصد مضيق البوسفور الذي أطلق عليه الأتراك العثمانيون "قرادنز بغازي" وتعني " مضيق الثور" ؛ ويربط بين بحر مرمرة والبحر الأسود، وعلى ضفتيه توجد مدينة إستانبول.

(29) يقصد بالطبع شبه جزيرتي البلقان والأناضول اللتين لايفصلهما إلا مضيقا البوسفور والدردنيل.

(30) هو شيخ الركب النبوي أبو محمد عبد الكريم بن يحيى الذي كان بينه وبين ابن عثمان جفاء حاد طوال هذه السفارة كما يشير إلى ذلك في غير محل من المخطوط، مما كانت له انعكاسات سلبية على السفارة.

(31) أصل التسمية من الإسبانية Las Damas وهي لعبة ورق.

(32) اسم العبد المتوفى وهو اسم شائع لدى الزنوج المغاربة.

يجزيك مشهده وربتما أغناك في الحضر وفي السفر

متسارع فيما يناط به بقضائه كالسيف ذي الأثر

قالوا وقد سجي وألقي في لجج من اليم بلا قبر
هلا دفنتم جسمه قلنا العنبر الشحري من البحر
فجع الزمان بفقده أترى إبقاءه يوما على دخر
لهفي على صوان أسرار لهفي لإلف واصل بر
عظم المصاب به فعزاني من لا دراني بل ومن يدري
13 / وأجانب وأشائب عدد من خامل أو نابه القدر
أهل السفين جميعهم حزنا رقت لحالي عصبة الكفر
إلا ابن يحيى لم يُحَيِّ و لو بسلامه متعمدا هجري
ياليت شعري ما يكون له عذر على إتيان ذا النكر
أم ذاك منه تكبرفلقد ورد النكير على ذوي الكبر
أم رغبة عن سنة بهرت للمصطفى كالأنجم الزهر
أم لم يكن في شرعة موسى متعارفا لخالق البحر
أم ذاك منه شماتة قبحت لوم الشماتة شائع الذكر
قالوا جميعا ما أقام بلا سبب تخلفه على عذر
قد بات في شغل وفي شغل سرد الضراط لمطلع الفجر
مترادفا لا يحسبن له إلا المصوت منه ذا الهدر
يدعو البراز فيبرزن له قرن بعاجزة كما القصر
صخابة رعادة الأصوا ت كأنها مجانق الشر
أفنى الرئيس ما لديه من الطيب لمركبه لذا العر
أفنى البخور في السحور إذا كثر الفساء مع جشا الصدر
لا سيما جيرانه فلقد صارت محاجرهم بلا شفر
لم ينفع الإثمد كحليهم فليجرن لكاشف الضر
[رجل أعشى العينين كان ...وفي ..أم اتفاقي بحسن التوقير](33)

(33) كتب هذا البيت في الطرة في النسختين وهو غير واضح.

وإذا شككت فجددن نظرا ... في السيد العربي[34] ترى خبري
إني أخاف على أبي حفص[35] ... فاهرب بعينيك تاليا شكري
واربأ بنفسك أن تجاورها ... من خنفسا أم الفسا واسر
/ 14 / إلا تفر فاحتسب بصرا ... هذي النصيحة لا تكن غري
يا أيها الفرد الذي يرجى ... للخيل والخطية السمر
صن هاتك النفس التي كرمت ... فهي التي نعتد للدهر
عن هذه الأوخام إن لنها ... في النفس وخز موثر الضر
واجعل لبابك دونه غلقا ... فإذا تكلم من ورا ستر
رد السفينة ضرطه قسرا ... عن قصدها من حيث لا تجري
يشكى أذاه الدبر أسفهها ... عم الرفاق لسامع الأمر

رجع

ومن العادة في ذلك أن المركب إذا أراد الدخول يخرج مدفعا إعلاما به ويتمادى في مسيره، فيخرجون عليه من تلك الأبراج مدافع كثيرة بالكور، لكنهم يباعدونها عنه لئلا تصيبه، لكنها عادة عندهم فيها إظهار للقوة. ثم إن البحر يخرج من ذلك المكان كأنه أسرع ما يكون من الأودية[36]، بحيث يرد المراكب القهقرا (كذ) ولاتقدر على العبور إلا بريح قوي يقاوم سرعة الماء، لأنهم قدروا للمراكب في سيرها بجري الماء فقط من غير ريح إذا كانت خارجة ثلاثة أميال في الساعة، ومن أجل ذلك تنحصر المراكب هناك أياما.

---

(34) لم نتمكن من معرفة هذا ا لشخص، إذ لم يكن أحد من أعضاء السفارة يحمل هذا الاسم.

(35) يقصد أبا حفص عمر لوزيرق أو لوزريق كما جاء الاسم عند الزياني (الترجمانة، ص. 86؛ البستان الظريف، ص. 455) و الناصري (الاستقصا، ج. 8. ص. 57) وهو كاتب السلطان سيدي محمد ومرافق ابن عثمان في السفارة. وقد وقع اضطراب في اسم هذا الشخص عند ابن زيدان في الإتحاف، إذ ورد تارة "أبو حفص الوزير عمر" (ج. 3، ص. 178) وتارة "محمد المزيرق" (نفسه، ص. 227 وص.301)

(36) يشير ابن عثمان هنا إلى ظاهرة بحرية تميز مضيق البوسفور -ولاتزال إلى يومنا هذا- وهي جريان تيار مائي شبه حلو على سطح البحر يتجه من البحر الأسود نحو بحر مرمرة، وفي الأعماق ينقلب التيار متخذا الوجهة المعاكسة، وكان التيار السطحي يسبب مشاكل عويصة للملاحة كما يورد السفير..

الوصول الى إستانبول ومراسيم الاستقبال

لكننا أنعم الله تعالى علينا فعبرنا من يومنا، ثم تمادينا على المسير فوصلنا حضرة القسطنطينية العظمى رابع شوال[37]، فأرسينا بمرساها فورد أهل البلد في فلوكة[38] سائلين عن الخبر كما هي العادة، /15/ فعرفوا فرجعوا، فبعثوا بالخبر إلى السلطان نصره الله، فأمرهم أن يهيئوا دارا من دوره القريبة منه، وبعث إلينا أكرمه الله ونحن في المركب على سبيل الإهداء والإكرام أواني كثيرة من الزجاج، مملوءة بأنواع الحلاوي والأشربة والتحف الكاملة الظرف، سماحة بالهدية والظرف، مع الفواكه الموجودة في الوقت من إجاص وتفاح وعنب ودلاح وغير ذلك.

ومن الغد أتى أعيان الدولة بفلائك متعددات فركبناها وتوجهنا قاصدين المدينة، فلما وصلنا وجدنا بساحل المرسى عدة خيول مسومة مسرجة بسرج مذهبة، فركبنا وتقدم أمامنا أهل البلد والأعيان إلى أن وصلنا الدار المعينة للنزول، فصعدنا إلى فوقيها لأن سكناهم إنما يكون بالفوقي من الدار، فوجدنا دارا غاية في الكبر ذات مقاعد وقبب كثيرة، للجميع طيقان مطبقات بالزاج (كذا) مشرفة على البحر والمدينة في منظر عجيب، وتكلفوا لفرشها على عادتهم بمقاعد الحرير في جميع قبب الدار، ثم ترادفت أعيان الدولة في بعث الهدايا على سبيل الإكرام.

استقبال الوزير للسفارة وتسليم رسائل السلطان

وأقمنا خمسة أيام بعد يوم نزولنا واستدعانا الوزير[39] إلى ملاقاته، لأن

(37) يوافق تاريخ وصول السفارة إلى ميناء إستانبول 31 يوليوز 1786 كما ضبطته المصادر القنصلية الأوربية، أنظر بنحادة، المرجع السابق، ص. 302، هامش 40.

(38) لفظة مستعارة من الإسبانية faluca ذات الأصل العربي (الفلك)، وتطلق على مركب صغير وخفيف ذي شراع أو مجاذف، ولاتزال الكلمة مستعملة عند المغاربة للدلالة على هذا النوع من المراكب.

(39) يقصد الصدر الأعظم الذي كان الممثل المطلق للسلطان العثماني والمفوض له بتسيير شؤون الدولة، حيث يكتفي السلطان بالتصديق والختم، وكان الصدر الأعظم الذي استقبل ابن عثمان وأعضاء سفارته هو يوسف باشا خوجا الذي تولى الصدارة بين يناير 1786 ويونيو 1789.

من عادتهم أن السفير إذا قدم عليهم أول ما يتلاقى بعد الاستراحة مع الوزير، وهذه عادة الأعاجم كلها؛ فبعث إلينا عدة من الخيل مسرجة بسرج الذهب وأتى معهم جماعة من الأعيان، فتأهبنا وركبنا وتقدمت خيلهم أمامنا ورّجالهم حافون بنا، ومررنا بسكك المدينة، وكل من مررنا به يقف مكانه إلى أن وصلنا دار الوزير المعدة لجلوسه، فصعدنا /16/ إلى فوقيها فوجدناها ملئا(كذا) بالأعيان والخدمة، وتجاوزنا قببا ينفذ بعضها إلى بعض، إلى أن وصلنا القبة التي فيها الوزير، فقام إجلالا لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين حتى تهادينا معه السلام، وقعدنا معه واستفهمنا عن حال السفر والتعب وما يناسب المقام، ثم أوتي بالقهوة فشربنا وتلك عندهم عادة لازمة، ثم بعدها طيف علينا بكئوس من البلور فيها شراب حلو، ثم أتوا بعده بالطيب والبخور، ومهما ناولونا شيئا من الأشياء المذكورة إلا جعلوا فوق ثيابنا مناديل من الحرير منمق، وبعد الجميع أوتي بقفاطين تسمى عندهم الأكراك من أرفع ثيابهم، فألبسونا إياها ورجعنا إلى مجالسنا، ثم أتوا بقفاطين آخرين لأصحابنا فكسوهم إياها، ثم نهضنا للانصراف بل دعينا إليه، فقمنا وقام الوزير وودعنا فساروا بنا إلى خليفته ويسمونه الكاهية[40]، فدخلنا إليه فتلقانا وفرح بنا وقعدنا معه، وفعل من الإكرام مثل ما فعل الوزير من القهوة وما بعدها، وتحدث معنا بما يقتضيه المقام والحال، ثم توجهوا بنا أيضا إلى الدفتردار[41]، وهو الذي على يديه أموال السلطان والدخل والخرج، فدخلنا إلى مقعده فقام إجلالا وأبدى بشاشة، وأجلسنا معه وفعل من الإكرام مثل ما فعل من قبله مثلا بمثل، وتفاوضنا في حديث مناسب ثم انصرفنا عنهم إلى دار نزولنا.

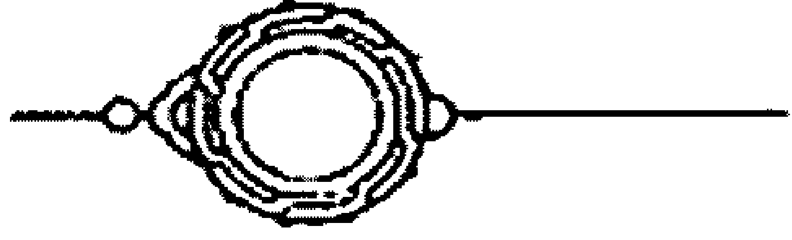
ولما دخلنا على الوزير أعطيناه المكاتب التي أصحبنا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين إلى السلطان، وتلك هي العادة عندهم، لأن المكاتب تدفع أولا إلى

(40) سماه الزياني " الكاهي باي" واعتبره ضمن ثلاثة هم أعيان الدولة، البستان الظريف، ص. 468.

(41) من كبار موظفي الباب العالي، باعتباره القيم على مداخيل ومصاريف الدولة.

الوزير قبل ملاقاة السلطان، حتى ينقلوهم من العربية إلى لغتهم ويفهمون / 17/ المراد وما أعملت إليه الرحلة، ليكون السلطان على بصيرة فيما يأتي، وعادتهم قريبة من عادة النصارى في هذه القوانين العجمية.

استقبال السلطان للسفارة المغربية



ثم بقينا إلى السابع والعشرين من شهر تاريخه، فبعث إلينا الوزير قبل ذلك بنحو يومين، وأعلمنا بالملاقاة مع السلطان في يوم كذا. فلما كانت ليلة السابع والعشرين، أتى جماعة من الناس خيلا ورجالة إلى دار نزولنا في آخر الليل وقت السحر، وآذنونا بالتوجه إلى السلطان فتأهبنا، ولما طلع الفجر قدموا لنا خيلا بقصد ركوبنا مكلفة السروج، فركبنا وتقدمت خيلهم أمامنا وحفت بنا رجالتهم، فانتهوا بنا إلى مسجد فدخلنا إليه وصلينا به صلاة الفجر، ثم ركبنا على الهيئة الأولى وتوجهوا بنا إلى ممر قبالة دار الوزير وأوقفونا صفا، وعند طلوع الشمس خرج الوزير في موكب عظيم من الرجالة بعد أن تقدمته شرذمة من الخيل، ولما مر بنا وضع يده على صدره إشارة للسلام فرددنا عليه بمثل ذلك، ثم اقتفينا أثره حتى وصلنا باب دار السلطان فنزلنا، فأما الوزير فدخل إلى موضعه، ونحن أقعدونا على مساطب هيئوها لذلك بقصد الاستراحة، وربما يكون القصد التوسيع على الوزير حتى يصلح من شأنه، ثم دعينا بعد ذلك فتوجهوا بنا إلى قبة مفروشة بأنواع الديباج لها مقاعد ومساطب دائرة بها[42].

وبعد أن قعدنا هنيئة خرج الوزير، فقعد في صدر القبة في موضع معين له، فسلم بالإشارة ورددنا عليه بمثل ذلك، أشار فأشاروا، وجلس عن يساره بعيدا منه قاضي العسكر[43]، وقد رأينا في /18/ الجدار المستند

---

(42) وقع اضطراب في هذه الجملة في متن النسختين إذ كتبت " بأنواع الديباج " في آخرها، وقد وقع تصحيحها في هامش النسخة المعتمدة (أ).

(43) عين مراد الأول أول قاضي عسكر سنة 1363، ثم خلق محمد الثاني منصبا ثانيا وقسم نفوذهما إلى دائرتين، الأناضول وروم إيلي على رأس كل واحدة قاضي عسكر.

عليه الوزير فوق رأسه بنحو القامة، شباكا من الحديد ضيق الثقب، قيل إن السلطان يشرف منه على القبة التي فيها الوزير، وينظر جميع ما يكون فيها.

ولما أخذ الوزير مجلسه، وقف بباب القبة رجلان بيد كل واحد عصى من الصفر[44] قيل إنهما بمنزلة صاحب المشور ببلدنا ويسمونه شاوش باش[45]، ثم أتى أناس آخرون على رؤوسهم قلانس طوال بيض مثل السلة الصغيرة، وبأيديهم أوراق متعددات، وأخذ يقرؤها رجلان أحدهما عن يمين الوزير والآخر عن يساره، والوزير يجيب ويوقع على كل كتاب جوابه، قيل إن تلك الرقاع فيها عرض أحوال الناس وشكاياتهم. ثم سمعنا صوتا خارجا عن القبة، فقيل إنه ينادي من له شكاية فليأت، وجميع ذلك بمرءى من السلطان.

وقد كان بإزائنا رجل ذو هيئة، قدموا له عدة مكاتب ودواتا (كذا)، وجعل يضع عليها شكل علامة السلطان فهو صاحب العلامة عندهم[46]، وفي خلل ذلك كانت تأتي براوات من عند السلطان إلى الوزير مختومة، فيقوم من مجلسه ويقبضها ممن أتى بها ويقوم جميع من في المجلس إجلالا لأمر السلطان، وكنا نفعل ذلك من جملتهم والكل بمرأى من السلطان ومسمع[47].

ولما فرغ من فصل قضايا الرقاع، وأداها حقها من التأمل والاستماع، أحضر الطعام، فوضع كرسي أمام الوزير وجعلت عليه سفرة، ووضع

= وكان هذا المنصب من المناصب الحساسة في الدولة العثمانية إلى غاية منتصف القرن 16، نظرا لكون من يشغله عضوا في الديوان الهمايوني ولصلاحيته في تعيين القضاة والمدرسين في المدارس والمساجد. وقد تراجعت أهمية المنصب بعد استئثار "مفتي إستانبول" بصلاحيات كثيرة. E.I., 4-392 .

(44) يقصد النحاس.

(45) "جاويش باشي" وهو رئيس الجاوشات المسؤول عن البروتوكول والنظام خلال انعقاد الديوان واحتفالات القصر.

(46) يقصد به حامل خاتم السلطان.

(47) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

كرسي أمام صاحب العلامة وعليه سفرة، ثم وضعت لنا كراسي دائرة بسفرة الوزير واستدعونا إليها، ثم أخذوا في وضع أواني الطعام إناء إثر إناء، فنصيب من كل إناء أكلة ويرفع، ويوضع إناء آخر /19/ وهكذا، حتى أتوا على آخر الطعام، ثم أتوا بأشربة حلوة فأصبنا منها، ثم قمنا إلى موضع جلوسنا، فطافوا علينا بأباريق الماء والصابون لغسل الأيدي، ثم بالطيب ثم بالبخور، ثم توجهوا بنا إلى موضع آخر وتركنا الوزير مكانه، فأدخلونا قبة ثم أحضروا الخلع فلبسناها، وخلعوا على جميع من حضر على مراتبهم، ثم خرجنا من هنالك إلى مكان آخر فقعدنا به هنيئة.

مراسيم لقاء السلطان

وجميع هذه الأماكن التي نتقلب فيها وما بينها من الفضا، كله معمور بالناس على هيئات شتى وأشكال غريبة، ثم استدعونا للدخول على السلطان، فدخلنا على باب بين صفوف من الخلائق لا تحصى كثرة، ووجدنا هنالك أقواما معينين للدخول معنا على السلطان، فأمسك بثوب كل أحد منا رجلان منهم، أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار، ثم دخلنا على باب آخر فوجدنا قبة مفروشة وجماعة من حجاب السلطان واقفين بها، ومنها دخلنا إلى قبة فوجدنا السلطان جالسا على مرتبة، والوزير قائم عن يمينه وفي حزام السلطان خنجر، فتكلم الوزير بكلام بالتركية كأنه يعلم السلطان بالوفد ومن هم ومن أين أتوا، عادة كأنه لاعلم له وإلا فقد كان معلوما قبل ذلك.

ثم قربت إليه هدية سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أيده الله ونصره، فقبضها رجل مسن ودفعها بيد الوزير، والوزير يدفعها للسلطان، ووقفنا أمامه مقدارا قليلا، وخرجنا من عنده على الهيئة الأولى، وركبنا الخيل وأوقفونا بإزاء الباب حتى مر بنا أرباب الدولة على مراتبهم، كل واحد في موكبه في ترتيب عجيب، وبأثرهم خرج الوزير، /20/ وبعده توجهنا إلى دار نزولنا.

وهذا الملقى على هذه الكيفية والاحتفال والعجلة، لم يتفق لأحد كما أخبرنا بذلك أهل الديوان، وإنما ملاقاة الوفد عندهم يرصدون بها الأعياد، أو عرض العسكر لقبض الراتب، وهذا الجمع على هذه الصورة يسمونه

الديوان، يجعل ذلك إذا أراد السلطان أن يتلاقى مع أحد.

واسم هذا السلطان عبد الحميد نصره الله تعالى وأيده، ومهد ملكه وشيده، ابن السلطان أحمد[48] وهو الثامن والعشرون من ملوكهم من السلطان محمد الفاتح[49]، وصفته أبيض مشوب بحمرة، ضرير العينين أقنى الأنف، كبير اللحية يخضب بالسواد، عمره قيل ست وستون سنة، والمدار كله في هذه الدولة على الوزير، وأما السلطان فلا يباشر شيئا من الأمور.

وأما سبب الإمساك الذين يمسكون الداخل على السلطان كما ذكر أعلاه، فهو ما رواه صاحب كتاب أخبار الدول وآثار الأول، في أخبار السلطان مراد الغازي[50] بن السلطان أورخان[51]، ابن السلطان

---

(48) أحمد الثالث (1703-1730)، هو السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع، تولى بعد الثورة التي أطاحت بأخيه مصطفى الثاني نتيجة انتشار الفساد في الدولة والتذمر في أوساط الجيش. كان مقتنعا بضرورة إدخال إصلاحات وتجديد المؤسسات. دخل في حرب مع روسيا سنة 1711 لاسترداد مواقع منحت للروس بمقتضى معاهدة كارلوفجه، وفي سنة 1713 تم التوقيع على معاهدة أ درنة التي حافظت على السيادة التركية على البحر الأسود. كما دخل السلطان في حرب مع البندقية وألمانيا (1715-1718) انتهت بمعاهدة باساروفجه التي خسر العثمانيون بموجبها أراضي شاسعة في المجر والبلقان. انتهى عهد السلطان أحمد بثورة باترونا سنة 1730 أرغمته على التنازل عن السلطة لابن أخيه محمود. (أوزتونا 593).

(49) محمد الفاتح (1451-1481)، هو محمد الثاني بن السلطان مراد الثاني، تميز عهده بفتح إستانبول بعد أن وجه كل إمكانيات دولته لحسم الموقف مع البيزنطيين، مما جعله يولي عناية خاصة لمسألة السيطرة على البوسفور، فبنى قلعة "بوغاز كسن حصاري" سنة 1452، ثم قام باستعدادات حثيثة في زمن قياسي تمكن بفضلها من فتح القسطنطينية، واضعا بذلك حدا لمرحلة تاريخية بأسرها ومدشنا عالما جديدا احتلت فيه الإمبراطورية العثمانية مكانة متميزة. (أوزتونا 131)

(50) مراد بن السلطان أورخان، تولى الحكم سنة 1362 ومد نفوذ الدولة إلى مناطق مهمة من البلقان، مما استحق معه ألقاب " سلطان الغزاة والمجاهدين" و" ليث الإسلام" و " غياث الدنيا والدين"، حيث خاض 38 حربا عنيفة مع ملوك الصرب المجر ورومانيا ودعا البابا أوربانوس الخامس إلى حملة صليبية ضده. وفي 20 يونيو سنة 1389 التقى السلطان مراد وابناه على رأس جيوشهم مع حلف الصرب والبوسنة والمجر وبولونيا ورومانيا وبلغاريا في منطقة كوسوفا، وأسفرت الحرب عن إبادة قوات التحالف ودخول منطقة البلقان تحت الحكم التركي لمدة 500 سنة. وخلال تفقد السلطان ساحة الحرب وجه له أمير صربي جريح طعنة توفي على إثرها، ولازال مكان اغتياله مزارا لمسلمي البلقان. (أوزتونا 98).

(51) أورخان (1288م-1359)، أكبر أبناء الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، تولى الحكم سنة 726هـ/ 1326م وأولى اهتمامه لتوطيد دعائم السلطة العثمانية في آسيا الصغرى وتأسيس الجيش

عثمان[52] جدهم الأعلى الذي ينتسبون إليه، ونص كلامه:

وفي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة[53] خرج السلطان إلى قتال رئيس الكفرة ابن لازر[54]، فاتفق ملاقاته بعسكر الكفرة بموضع يقال له قوسراق ببلاد روم إيلي[55]، فالتحم بين الفريقين القتال وضرب السيوف والمكاحل ورشق النبال، إلى أن هبت ريح النصر من طرف المسلمين، وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين، ثم إنه لما انهزم الكفار، أقبل من أمرائهم أمير يقال له ميلوش بن قوبيل مع خيله ورجله مظهرا الطاعة، فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر /21/ كان في كمه، فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان، أن يمسكه واحد من ثوبه من جهة اليمين والآخر من ناحية الشمال، احترازا من ذلك وبقي فيهم ذلك إلى الآن.

موجز تاريخ الدولة العثمانية

ولابأس أن نورد أول منشأ هذه الملوك، الذين نظم أخبارهم زينة للدنيا وسلوك، فمن تاريخ القرماني في كتابه أخبار الدول وآثار الأول ما نصه: الباب السابع والأربعون في دولة بني عثمان أبقاهم الله تعالى إلى آخر الدوران، وهم من أعظم سلاطين الدنيا أبهة وجلالة، وأشدهم قوة وآثارا،

إذ في عهده أسست فرق الإنكشارية، ثم اشتغل بمد نفوذه إلى أوربا حيث ثبت قدمه في تراقيا ومقدونيا واضعا بذلك دعائم الإمبراطورية العثمانية ومن ثم يعتبر مؤسسها. كما وضع كثيرا من النظم الإدارية والمالية وبنى المساجد والمدارس والتكايا وحبس عليها الأوقاف، إذ في عهده بلغ نظام الدراويش ذروة مجده، ويظهر أن الطريقة البكتاشية ظهرت في هذا العهد. (دائرة المعارف 3-126)

(52) عثمان بك الغازي بن أرطغرل، مؤسس السلالة والدولة العثمانية التركية، خلف أباه في اعتلاء إمارة المقاطعة الحدودية التابعة إسميا للسلطان السلجوقي. ذاع صيته وعظم نفوذه بعد الفتوحات التي تمكن منها وخاصة قره جه حصار التي جعلها قاعدة له، مما جعل السلطان علاء الدين كيكباد الثالث السلجوقي يرسل له سنة 1300 علامات السلطنة. (أوزتونا، 89).

(53) سقط التاريخ من (أ) وورد في (ب).

(54) لازار، حاكم صربيا الذي تزعم الحلف المسيحي الأوربي ضد الزحف الاسلامي التركي في البلقان في عهد السلطان مراد.

(55) الاسم الذي أطلقه العثمانيون على الولايات الأوربية لدولتهم وخصوصا البلقان.

وأول من ملك منهم في ممالیك الروم الأمير عثمان الغازي، ابن الأمير أرطغرل[56] بن سليمان شاه، وله نسب يتصل إلى يافث بن نوح عليه السلام، وهو الجد الثاني والأربعون لسلطاننا الأعظم محمد خان، لازالت أعلام خلافته مرفوعة وألوية سلطنته منصوبة. ولما كانت أسماؤهم بلغة الترك القديمة لم نذكرها لعسر ضبطها، وهي مشهورة في التواريخ التركية مذكورة. وكان سليمان شاه المذكور سلطانا في بلاد ماهان ونواحي بلخ[57]، فلما ظهر جنكزخان وخرب بلاد بلخ، وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وتفرقت أهلها في سنة إحدى عشرة وستمائة، ترك تلك البلاد [في][58] من تركها من الملوك وقصد بلاد الروم، وكان قد سمع بدولة السلاجقة بالروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم إلى الكفار، وتبعه في ذلك خلق كثير، فلما وصلوا إلى أرزنجان[59] تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيئا كثيرا، ثم قصدوا صوب جلب من ناحية ألبستان[60]، /22/ فوصلوا إلى

---

(56) أرطغرل بك (حوالي 1281.1191م)، الشخصية الأولى التي تتوفر عنها معلومات تاريخية من الأسرة التي سميت فيما بعد " عثمان أوغلو "،إذ هو والد عثمان غازي جد العثمانيين. ينتمي لقبيلة قايى إحدى قبائل الأوغز التركية، وكان أجداده " بكات" أو أمراء هذه العشيرة واعتنقوا المذهب السني الحنفي، اكتسب لقب غازي نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنطيين.(أوزتونا 83).

(57) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدنها وأكثرها خيرا، تزود منتجاتها البلاد كلها بل تصل إلى خوارزم، وهي قريبة من نهر جيحون الذي يعرف بنهر بلخ. افتتحها الأحنف بن قيس أيام عثمان بن عفان، وانجبت عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والشيوخ الأعلام. (معجم البلدان 1 . 479).

(58) لم يرد هذا الحرف في الأصل لكننا نعتقد أن المعنى لا يستقيم بدونه.

(59) بلدة كثيرة الخيرات والأهل في شرق الأناضول، تقع على كارا سو الرافد الشمالي للفرات وسط سهل خصب تحيط به الجبال، وكانت منذ القدم ملتقى لطرق القوافل. و كان غالب أهلها الأرمن حسب إفادة ابن بطوطة عندما مر بها وإن كان فيها أتراك مسلمون أيضا. تعاقبت على حكم أرزنجان قوى سياسية طوال تاريخها من سلاجقة ومغول وعثمانيين، حيث ضمت نهائيا إلى الإمبراطورية العثمانية سنة 1514 على يد السلطان سليم الأول خلال حملته على الشاه إسماعيل الصفوي، لتصبح عاصمة لواء تابع لإيالة أرضروم. تعرضت أرزنجان للزلازل التي دمرتها مرارا مما يفسر اندثار آثارها القديمة. (معجم البلدان 1 . 150؛ 729. E.. I., 2)

(60) مدينة جنوب شرق الأناضول تقع على رافد لنهر جيحان وسط سهل البستان الغني بالمياه والذي تطل عليه جبال طوروس، وهي عاصمة قضاء بولاية مرعش. كانت من الثغور الهامة

نهر الفرات أمام قلعة جعفر[61] ولم يعلموا المعبر، فعبروا النهر فغلب عليهم الماء فغرق سليمان شاه، فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعفر وقبره اليوم هناك يزار ويتبرك به.

وكان مع سليمان شاه المذكور أولاده الثلاثة وهم: سنقورزنكي وكورطوغدي وأرطغرل، فلما وصلوا إلى موضع يقال له توقات[62] رجع سنقورزنكي وكورطوغدي ابني سليمان شاه المذكور إلى بلاد العجم، وتخلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة قدر وصاروبني وعثمان، ومكث في ذلك الموضع يجاهد الكفار، ثم أرسل ابنه صاروبني إلى صاحب قونية[63] وسوار السلطان علاء الدين كبقبار السلجوقي[64]، ليستأذنه في الدخول إلى بلاده و يطلب منه موضعا ينزل به، فعين له جبال طومالخ وجبال أرمناك[65]

خلال الحروب بين العرب والبيزنطيي، وسقطت في يد الصليبين بين سنتي 1097 و 1105 لتنتقل من سيادة إلى أخرى مدة طويلة خلال الصراعات والحروب التي عرفتها المنطقة بين الإمارات السلجوقية والتركمانية والمغولية، إلى أن ضمها سليم الأول للسيادة العثمانية سنة (E., I., 2 ق.710).

(61) الأصح جعبر، ولا زال المكان الذي دفن فيه سليمان شاه يعرف إلى اليوم ب"ترك مزاري" أي "قبر التركي". (صلاح ضبيع، " العلاقات العثمانية البيزنطية "، مجلة الاجتهاد، بيروت، عدد41 -42، 1999، ص. 177).

(62) بياض مكان الاسم في (أ) وردت في (ب).

(63) مدينة على الطريق بين عمورية وأنطاكية تبعد عن اللاذقية بيوم، تقع في مفترق الطرق وكانت عاصمة لملوك الروم، دارت بها معارك بينهم وبين المسلمين ومن ثم خربت مرارا، لتشهد انبعاثها على يد الملك السلجوقي مسعود الأول (512-550هـ/1118-1155م) الذي اتخذها عاصمة له ولخلفائه، وتدل الآثار التي خلفوها على نمو المدينة وازدهارها.(الروض 251؛ E.,I,5-484)

(64) الصحيح" كيقباد" وهو علاء الدين كيقباد الأول، أشهر سلاطين سلاجقة الروم، تولى الحكم سنة 618هـ/ 1221م ونجح في جعل دولته تتبوأ مكانة مهمة بين القوى المعاصرة له، إذ وسع رقعتها في جبال طوروس الكيليكية وعلى ضفاف البحر الأسود والفرات الأوسط.عاصر الصراعات السياسية والقبلية التي تزامنت مع تحركات المغول وضغوطهم وخرج منها مستفيدا بضم كثير من المناطق، كما اصطدم بالأيوبيين. توفي سنة 634هـ/ 1237م وظل يحظى بصيت ذائع(E., I., 4 . 850)

(65) إسم بلدة جنوب الأناضول في القسم الغربي من جبال طوروس، ولا ندري إن كان الاسم يطلق في القديم على الجبال كلها كما ورد عند ابن عثمان(E., I., 2. 727)

وما بينهما موضعا للسكن، فأقبل أرطغرل مع أربعمائة جركاه من قومه، فتوطنوا في فرجة طاع[66]. وفي سنة خمس وثمانين وستمائة، نازل السلطان علاء الدين بعساكركثيرة ومعه الأمير أرطغرل قلعة كوتاهية[67] وهي يومئذ بيد الكفار، ففوض أمر القلعة إلى الأمير أرطغرل، فاجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الأموال شيئا كثيرا، فازداد عند السلطان قربا ومنزلة، ولم يزل الأمير أرطغرل بعد هذا يقاتل ويجاهد في سبيل الله عز وجل حتى توفي في سنة سبع وثمانين وستمائة.

فلما سمع السلطان وفاته تأسف عليه، وعين مكانه ولده عثمان بيك بن الأمير أرطغرل، وكان تفرس في الغزو في سبيل الله منذ نشأ،/ 23/ مولده سنة ست وخمسين وستمائة، فلما رأى السلطان علاء الدين اجتهاده في الجهاد، وعلم نجابته في فتح تلك البلاد، أكرمه وأمده بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل إليه الراية السلطانية والخلع السنية والطبل، فلما ضرب الطبل بين يدي عثمان بيك، نهض قائما على قدميه إعظاما للسلطان علاء الدين، فما زال كذلك حتى فرغوا، فمن ذلك اليوم سن العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة في الأسفار والأعياد.

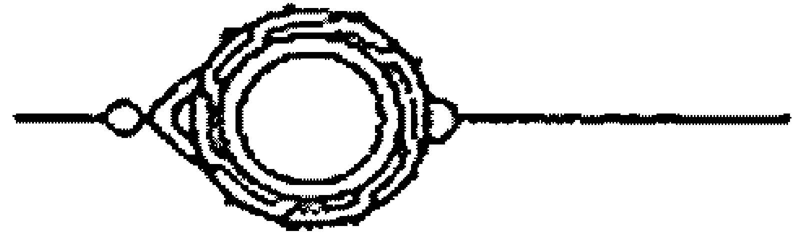
وكان يحب العلماء والصلحاء، وكان كثير التردد إلى الشيخ العارف أردبالي القرماني وربما يبيت في زاويته، فرأى ليلة في منامه أن قمرا خرج من حضن الشيخ فدخل في حضنه، وعند ذلك نبتت من سرته شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال راسيات ذات أنهار وعيون والناس ينتفعون من تلك المياه، فلما استيقظ الأمير عثمان قص رؤياه على الشيخ، فقال له الشيخ لك البشارة بمنزل السلطنة، وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك، وإني زوجتك ابنتي هذه، فقبلها عثمان وتزوجها فولد

(66) والأصح "داغ" التي تعني "جبل" بالتركية.

(67) مدينة شمال غرب الأناضول مبنية على سفح تلة "عجم داغ" تعلوها قلعة محصنة، كانت من المدن الكبيرة في العهد البيزنطي و فتحها السلاجقة سنة 472هـ/ 1080م. خلال العهد العثماني كانت كوتاهية عاصمة "لسنجق أناضولو"، اشتهرت بصناعة الخزف والزرابي وتضم معالم عمرانية مهمة تتميز بسقوفها القرمدية5..I..E).. 543.

له منها أولاد من جملتهم السلطان أورخان.

ثم إن السلطان علاء الدين عظم بلاؤه من التتار وقد شاخ وكبرت سنه، وعجز عن الحركة والنهوض فاشتغل بنفسه عن غيره، فتسلطن عثمان الغازي في البلاد التي افتتحها، وخطب له فيها بالسلطنة ختنه الشيخ أردبالى مولانا طورستان الفقيه، في مدينة قره حصار[68] يوم الجمعة سنة تسع وتسعين وستمائة، وهي أول خطبة وقعت في الدولة العثمانية /24/ باسم الأمير عثمان الغازي، وقيل بل أجاز له في ذلك السلطان علاء الدين وهو مجاز من الخلفاء العباسيين.



ذكر القسطنطينـــة العظـــمـــى التي فاقت حواضر الدنيا ترتيبا ونظما

إن قلت بلد اتكالا على ما لها من التخصيص في القلب والخلد، فقد أضعت حقها ويبقى الإحتمال في أن يكون هناك ما هو فوقها، وإن قلت مدينة واقتصرت، فلا منعت دخول غيرها ولا حصرت، وإن قلت إقليم فقد يشتمل على عمران وخراب وبحران وسراب، والحق أعلا (كذا) وتأدية الحقوق من إخسارها أولى، وما رأيت ما يؤدي وصفها ومعناها، وما اشتمل عليه أقصاها وأدناها، إلا ما أجابني به بعض أحبار النصارى الذين بها مستوطنون، وبحضرتها من القديم قاطنون، حيث قلت له ما أعظم هذه المدينة فقال: "لا يقال إنها مدينة، هذه الدنيا"، والحق قال، إنما هي الدنيا حقيقة، ففيها من الأمور الدنيوية ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فلا يمكن أن تسأل عن شيء غريب إلا تجد منه سوقا.

(68) قره حصار أو قارا حصار ومعناه القلعة السوداء، إسم لأماكن وبلدات عديدة غالبها ببلاد الروم تشترك في تأسيسها في أماكن منيعة ذات صخور بركانية داكنة؛ منها قارا حصار على يوم من أنطاكية وأخرى قرب قيسارية، أما المعنية في النص فتعرف اليوم بكاركاسيير، وهي بلدة في ناحية إسكي شهير منحها السلطان علاء الدين كيقباد لأرطغرل وأتباعه ليستقروا بها كما جاء في المخطوط، واهتم العثمانيون الأوائل بتعميرها.(معجم البلدان 4 .315؛ (E., I., 4 601.

فهي محشر الأمم ومحط الرحال وبحر العمران، وغاية القصاد والمورد العذب للوراد، لا يوقف في وصفها على حد ولا يتناهى في مآثرها ومحاسنها على عد، فلها المساجد التي بهرت وبالتدريس وطلاب العلم ازدهرت، التي في بديع شكلها وحسنها ورونقها لا تضاهى، /25/ ولها الأسواق العامرة بالأشياء الغامرة التي لا تتناهى، فالأولى أن نقتصر في الخبر على كلام النصراني الحبر .

إلا أن بردها عاصف زفرها لا يصفه واصف، لا يرده دثار ولا موقد نار، فهي إناء للثلج المصبوب، فتنبو عن المضاجع من قرها الجُنوب، وكثيرا ما يقع في ديارها وأسواقها حريق للنار والهوب، لأن بيوتها من الخشب المجلوب، ولله من قال وناهيك بها حسنة تعد من الذنوب. وسبب انتقالهم إلى الخشب عن البناء بالحجارة، وإن كان قريبا بعضه من بعض في العمل والإجارة، كثرة ما يقع بأرضهم من الزلازل التي لا تبقي ولا تذر، وانتقال من موت لآخر واجب في الشرع ومقرر، فهي على ما هي به من الخيرات موصوفة جنة بالمكاره محفوفة.

وكفاها شرفا وفخرا، ما حازته دون غيرها قنية وذخرا، قبر أبي أيوب الأنصاري[69] صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكونها موطن جهاد وقراع للعدو وجلاد، منها تجهز الجيوش والكتائب وتشحن السفن والمراكب، وتفرق الجرايات والإعانة والرواتب، جعل الله لها من حفظه وكلاءته لزيما يرافقها وأجرى القدر بما يوافقها. وقبر أبي أيوب خارج عن المدينة بربطها[70] وعليه عمارة كثيرة، وقد توجهنا إلى زيارته مرارا فنركب البحر

---

(69) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الانصاري (ت.52هـ/ 672م)، صحابي وحامل لواء النبي، شهد العقبة وبدرا وأحدا والخندق وسائر المشاهد. كان شجاعا محبا للجهاد والغزو، عاش إلى أيام بني أمية. سكن المدينة ثم رحل إلى الشام ولما غزا يزيد القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية صحبه أبو أيوب غازيا، ومرض فأوصى ان يوغل به في ارض العدو ولما توفي دفن بالقرب من القسطنطينية. (ابن سعد 3 ـ 49؛ الإصابة 1 ـ 404؛ الزركلي 2 ـ 295؛ دائرة المعارف 1 .309؛ شذرات الذهب 1 ـ 57).

(70) الأصح ربضها.

في زورق ونتوجه إليه، لأن المسير في البر بعيد جدا من أجل كبر هذه الحاضرة وعظمها، فدخلنا مدفنه المبارك فإذا قبة حافلة، مشتملة على ذخائر من الأواني الفضية والمنارات والحسك[71] العظام لوقد الشمع وما أشبه ذلك، /26/ وزرنا قبره المبارك وتبركنا به رضي الله عنه ونفعنا به ولله الحمد، وبإزائه مسجد تقام فيه الجمعة.

وهذه المدينة مأسسة[72] عند مجتمع البحرين البحرين الرومي[73] مع البحر الأكحل[74] الذي يسمونه بلغة الترك قاردنز، وقد انعطف البحر معها فانعطفت معه العمارة متصلا بعضها ببعض، وفي العدوة الأخرى الشرقية وهي الغلاطة[75] مثل ما بالقسطنطينة من العمارة، واستمرت كذلك إلى أن دخلت مع مجاز البحر الأكحل[76]، وهو ضيق كثيرا تقطعه كورة المدفع، وعليه قلع كثيرة محصنة بالمدافع مقابل بعضها ببعض من الجانبين، والديار والأسواق عامرة إلى أن انتهى ذلك البغاز .

وقد مررت ذات يوم لرؤية ذلك، فركبت زورقا وسرت قريبا من الشاطئ نحوا من ثلاث ساعات، كلها عمارة ديار وأسواق وغلبني البحر ورجعت، لأن ذلك المجرى ضيق كثيرا والماء خارج من البحر الأكحل إلى البحر الشامي كأنه السيل، لا يقف له شيء لشدة جريه، فقد كنا في بعض المواضع منه لا يقدر الملاحون على السير فيه بالمجاذف، فنكتري أناسا في البر معتدين لذلك فيجذبون زورقنا بالأحبال[77] حتى يجوزونا ذلك الموضع، وقد فعلنا ذلك في مواضع متعددات. وكذلك السفن الكبار لا يقدرون على المجاز منه إلا على هذا

---

(71) الشمعدان.

(72) الأصح مؤسسة كما في (ب).

(73) البحر المتوسط.

(74) لاندري سبب اعتماده هذا النعت أحيانا، وأخرى وصفه بالأسود.

(75) غلاطة، تشكل القسم الآسيوي من مدينة إستانبول إلى جانب أسكدار، وتقع قبالة ميناءي القسطنطينية في مدخل البوسفور.

(76) مضيق البوسفور.

(77) يقصد الحبال.

الوجه، فتراهم يطول مكثهم حيث يريدون الدخول إلى هذا البحر، وأما الخروج منه إلى البحر الشامي فهو سهل لكثرة جري الماء.

والسلطان نصره الله له داران، أحدهما في العدوة التي فيها إسطنبول ويسكنها في فصل الشتاء، والأخرى /27/ في العدوة الأخرى في مقابلتها ويسكنها في فصل المصيف.وهذه الحاضرة بما أضيف إليها على البحر كالأثافي، فالقسطنطينة وقبالتها الغلاطة شرقا والأسكدار[78] قبلة.

وأما ما بها من الخيرات تفصيلا فشيء لا تفي به عبارة، أما الفواكه والخضر الصيفية والخريفية فلا تنقطع أبدًا، فالتفاح والكمثري[79] والبطيخ والدلاح والعنب موجود فيها السنة كلها حتى تظهر الفاكهة الجديدة، وأما اللحوم ففي وقت البرد والشتاء والثلج يكون اللحم فيها أسمن ما يكون، وفيها الغنم الشعيبية ذوات الذيول. ومن أغرب الغرائب أن الأسعار لاتتبدل فيها دائما، فالخبز والدقيق واللحم بسعر لا يزيد ولا ينقص على كثرة ما بها من الأمم، وأغرب من ذلك أن الجميع مجلوب إليها في البحر. ولو ترى مرساها وكثرة من يغشاها وما بها من ازدحام الوارد والعمارة، لعلمت مقدار هذه الإمارة، وأما الفلائك التي يعبر الناس فيها من ناحية إلى أخرى، فقد سألت ذات يوم بعض الملاحين كنا راكبين في زورقهم عن عدد الفلائك فقال: لا أدري، إلا أنهم حسبوهم (كذا) في زمن السلطان مصطفى[80]

---

(78) أسكدار أو أسكودار، أقدم وأكبر حي بإستانبول في جزئها الآسيوي، وكلمة أسكودار التركية تعني "محطة البريد"، وبحكم موقعها ظلت أسكدار قاعدة عسكرية تنطلق منها كل الحملات العسكرية نحو أطراف الإمبراطورية في آسيا.وقد أصبحت أسكدار جزءا من العاصمة العثمانية ومقرا أساسيا لطائفة الدراويش والتكايا، مما جعل منها مركزا هاما لحياة التصوف،كما توجد به العديد من المساجد المشهورة في إستانبول. (دائرة المعارف 2 146)

(79) الإجاص.

(80) مصطفى الثالث (1129-1187هـ/1717-1773)، السلطان السادس والعشرون في سلسلة السلاطين العثمانيين وابن السلطان أحمد الثالث، اعتلى العرش سنة 1757 ونعمت الدولة في بداية عهده بالسلام الذي أعقب إبرام معاهدة بلغراد سنة 1739. وبعد وفاة الصدر الأعظم راغب باشا سنة 1763 واستئثار مصطفى الثالث بزمام الحكم، تعاقب على الصدارة العظمى مجموعة من الوزراء منهم محسن زاده محمد باشا الذي أعلنت في ولايته الحرب على روسيا ومن ثم بداية المتاعب مع هذه الدولة في القرم وأوربا الوسطى، حيث توالت النكبات على

رحمة الله عليه، فوجدوهم نحو ثمانين ألفا وتعددت الروايات بمثل ذلك. فبهذا الاعتبار يظهر لك مقدار هذه المدينة العظيمة المقدار، فإن التفتت إلى من دخل إليها أو خرج فحدث ولا حرج، فالسفن ترد عليها كأنها القوافل، جالبة لمتاع الدنيا حوامل، ولكل إقليم مرسى معينة لا ترسى (كذا) مراكبه إلا بها لتكون معزولة[81] من أجل الكثرة /28/ عند طلابها. وأما أسواق ثياب الحرير والملف والذهب والفضة والأحجار والسلاح فشيء لا يكيف، أما السوق الذي يسمى بالمغرب بالقيصارية إذا افترق الإنسان عن صاحبه، فلا يمكن أن يجده إلا أن يتلاقى به على غير ميعاد لكبره، وكثرة انعطافاته والازدحام وآفاته.

ومن حضارة هذه المدينة وحسن ترتيبها أن سوق كل نوع من السلع والحرف منعزل عن غيره، ولا يتعاطون (كذا) أهله إلا تلك الحرفة، حتى أن ما ينقى به صمغ الأذان له سوق معلوم لا يصنع أصحابه إلا ذلك، وليقس على ذلك وحتى الحشرات لها سوق معلوم يتوقف عليها أهل الطب.

وأما مساحة أرض القسطنطينية خاصة، فقد مررت بوسطها من باب إلى آخر بقصد الاختبار، فقطعتها على مسيرة ساعتين بسير الراكب المتوسط، وقد درت بسورها من جهة البر من البحر إلى البحر في مسيرة ساعة وربع، وما يلي البر منها إلا قليل نحو الربع، وثلاثة أرباعها بالتقريب موالية للبحر، ويدل على ذلك قطع مساحتها طولا في مسيرة ساعتين لأنه ثلث الدائرة، لأنه إذا كان مساحة ربع منها ساعة وربع فيكون في جميع أرباعها خمس ساعات وهذا بالتقريب، وثلث ذلك ساعتان إلا ثلث، ونحن سرنا ساعتين فيحتمل أن يكون في ناحية البحر أكثر من ثلاثة أرباع.

الدولة منذئذ واضطربت أحوالها بفعل التكالب الروسي والتآمر مع القوى في الولايات مثل علي باي المملوكي في مصر، مما يفسر رغبة السلطان مصطفى سنة 1773 في تزعم قواته شخصيا لحرب روسيا، لكن مرضه حال دون ذلك حيث توفي في أوج الاستنفار في 9 شوال 1187 الموافق ل 24 دجنبر 1773 وخلفه أخوه عبد الحميد(E., I., 7، 709).

(81) "معروفة" في (ب).

ومع كبرها فلها ثلاثة أسوار ومن ورائها الحفير، ولها من الأبواب لناحية البر سبعة، وقبالة كل باب قنطرة مضروبة على الحفير، ولها من الأبواب لناحية البحر أربعة وعشرون،/ 29/ ومن المراسي أربعة وعشرون خارج كل باب مرسى، وهذا من غير العدوة التي فيها الغلاطة وأسكدار، وأرضها قليلة الماء فجل أجناتها تسقى بالدواليب والقرب.

ومن كتاب القرماني وإن كان فيه تكرار مع ما ذكرنا، وهي أي القسطنطينة كانت دار ملك للكًريق[82] ويسمون الروم وسلطانهم يلقب لنبلطور[83]، فأما اليوم فهي دار ملك آل عثمان أبقاهم الله إلى آخر الزمان، وبانيها هو قسطنطين بن سوربوس صاحب رومية، والبحر محيط بها نعني القسطنطينة من جوانبها الثلاث، والجانب الغربي متصل بالبر، ولها ثلاثة أسوار في غاية الحصانة ومن ورائهم الحفير، وبقربها قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أخذه معه يزيد بن معاوية لغزو بلاد الروم للبركة، فتوفي في بر القسطنطينة فدفن هنالك واتخذوا له مشهدا، فقال- يعني صاحب الروم-: ما أقل عقل هذا الصبي دفن صاحبه هاهنا، ما تفكر في أنه إذا رجع لبلاده نبشناه ورميناه، فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فقال: ما رأيت أحمق من هذا، ما تفكر في أنه إذا فعل ذلك ما نترك قبرا من قبور النصارى في بلادنا إلا نبشناه ولا كنيسة إلا خربناها، فلما سمع ذلك صاحب الروم تركه على حاله.

إيراد خبر فتح القسطنطينية

ولنذكر الآن سبب فتح المدينة ومن فتحت على يده، وتاريخ ذلك وما وقع في ذلك من الكرامات فنقول: ذكر القرماني في تاريخه في "أخبار الدول وآثار الأول" عند ذكر ملوك آل عثمان: وفي رابع المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة يوم الاربعاء / 30/ توفي السلطان مراد خان، وكان ملكا

(82) كتب هذا الاسم بكاف ذي ثلاث نقط وقاف بثلاث نقط كذلك لتنطق G اللاتينية.

(83) يقصد الإمبراطور.

عالما عاقلا عادلا شجاعا، وكان يرسل لأهل الحرمين الشريفين من خاصة ماله [في كل عام](84) ثلاثة آلاف دينار ذهبا، معتنيا بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء، مهد الممالك وأمن المسالك، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة وله من العمر تسع وأربعون سنة، وتولى مكانه ولده الملك المجاهد أبو المعالي محمد خان بن مراد خان، جلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه بعهد منه إليه، وكان عمره إذ ذاك تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام، وهو السلطان الضئيل الفاضل النبيل، أعظم الملوك جهادا وأقواهم إقداما واجتهادا، وأكثرهم توكلا على الله واعتمادا، وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم القوانين التي صارت كالطرف في أخبار الزمان، وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر ما تمحوها مذاهب السنين والأعوام.

ولما تسلطن توجه إلى قتال صاحب قرمان وصالحه فعاد إلى مقر ملكه، ثم لم يكن له هم إلا فتح المدينة الكبرى القسطنطينية العظمى، فشرع في مهماتها ومقدماتها، وهي من أعظم البلدان وأكثرها أهلا وأمنعها حصنا، لأنها أحاط بها البحر من كل صوب إلا الطرف الغربي وهو طرف يسير، وقد حصنوها بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع.

فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية /31/ وذلك في سنة ست وخمسين وثمانمائة، ثم طلب من طرف بلاده أرضا مقدار جلد ثور يهبها له، فاستقل(85) ذلك قسطنطين فقال سبحان الله وما يفعل به فهو له، فأرسل السلطان المذكور شكر الله سعيه المبرور جماعة من البناءين والصناع، فاجتازوا الخليج الداخل من بحر بنطيس وهو البحر الأسود إلى بحر الروم، فقدوا جلد الثور قدا دقيقا، وبسطوه على الأرض على أضيق محل من فم الخليج،

(84) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(85) من القلة أي اعتبره قليلا ولا ضير في إعطائه.

فبنوا على القدر الذي أحاط به ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا بادخا، فركب فيه المدافع الرعادية والمكاحل الشهابية، ثم بنا السلطان المجاهد في مقابلة ذلك الحصن في بر أنضول حصنا آخر وهو طرف بلاده، فشحنها بالآلات والمرامي الرعدية حتى ضبط فم الخليج، فلم يقدر يسلكه بعد شيء من مراكب البحر الأسود إلى القسطنطينية وإلى بحر الروم.

ثم أثنى عزمه إلى مدينة أدرنة[86]فأمر بإنشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا في بنائها، ثم أمر بسبك المدافع الكبار والمكاحل لأجل فتح مدينة قسطنطينية فأكثروا منها، ثم لما تكاملت الآلات والأسباب المتعلقة بالقتال، نهض في أوائل جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كبير وجيش كثير، وعزم صارم ورأي حازم، في أسعد أوقات الحركات متوكلا على فائض الخيرات والبركات، فخيم على قسطنطينية ونازلها من طرف الشمال، وكانت له أربعمائة من الأغربة[87] قد أنشأها هو وأبوه قبل هذا التاريخ، فأرساها عند الحصن الذي هو على قدر جلد الثور /32/ الموسومة بتعركس، فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجري عليها كالعجلة، وشحنها بالأبطال والرجال، ثم أمر بنشر قلعها فنشرت في ريح شديدة موافقة، فساروا في البر على هذه الهيئة حتى انصبوا إلى الخليج الواقع شمال البلد من طرف مدينة غلطة، فامتلأ الخليج من تلك الأغربة، ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل، فصارت جسرا ممدودا

---

(86) أدرنة، عاصمة العثمانيين بعد بورصة. تعزى أهميتها التاريخية إلى موقعها الإستراتيجي على الطريق بين الأناضول والبلقان وتحكمها في الممر الطبيعي بين جبال رودوب وإسترانجا. تسميها المصادر العثمانية بأسماء تشريفية مثل "دار النصر والميمنة" و" دار السلطنة"، استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة 763هـ/ 1362 في عهد مراد الأول وصارت القاعدة المتقدمة للفتوحات العثمانية في أوربا، مما حمل خلفاءه على نقل العاصمة إليها وفيها وضعت خطط حصار القسطنطينية من طرف محمد الثاني "الفاتح" الذي اتخذها عاصمة حتى بعد فتح إسطمبول، ولذلك بنى فيها السلاطين قصورا ومساجد كبيرة واشتهرت بحملات الصيد والحفلات السلطانية التي كانت تقام فيها إلى أن تعرضت لحريق دشن مرحلة تدهورها سنة ñÇçÛ.(E., I., 2 -700)

(87) مراكب بحرية.

ومعبرا لطيفا للمسلمين[88]. وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها، وإنما كان خوفهم من جهة البر والبحر غير هذا الموضع، فكانوا حصنوها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر أراده الله تعالى.

والسبب في حمل هذه الأغربة في البر على هذه الكيفية، مع أن المعتاد في سير الأغربة هو البحر على ما حكى لنا بعض أحبار الروم، أن بلاد القسطنطينية كانت بيد الروم المعروفين الآن بالكريك، وبلاد غلاطة التي أمامها كانت بيد زنويج[89]، ولما نزل السلطان محمد رحمة الله تعالى عليه على القسطنطينية من جهة البر، عمد النصارى إلى مجاز البحر الأسود وهو المسمى قاردنز، وهو أي المجاز ضيق، فجعلوا فيه سلاسل وربطوها في عدوتيه تمنع كل ما يأتي من المراكب [منه، وجعلوا سلاسل أخرى على بغاز حصار يعني المجاز الذي يدخل منه إلى القسطنطينية تمنع أيضا كل ما يأتي من المراكب][90] من البحر الشامي. ولما تعذر سفر الأغربة في البحر وتوجيهها إلى القسطنطينية بسبب السلاسل المذكورة، حملها السلطان في البر حتى أنزلها في الموضع المذكور الذي وقع منه الفتح، فشرع المسلمون حينئذ في القتال والحصار من جهة البر والبحر مدة أحد وخمسين يوما، حتى / 33/ أعيا (كذا) المسلمين أمرها.

وكان أهل البلد لما سمعوا بقصد المسلمين إليهم استمدوا من الفرنج[91]، فأمدوهم بجيش عظيم وعدد كثير ليتقووا به، وكان السلطان محمد خان أرسل وزيره أحمد باشا بن ولي الدين إلى خدمة الشيخ أوسق[92]

(88) يورد هنا بعض تفاصيل مناورة عسكرية مذهلة قام بها الأتراك، إذ في ليلة 23 أبريل 1453 تم تسيير 67 قطعة صغيرة من الأسطول العثماني على البر لتفادي السلسلة الغليظة التي أغلق بها البسفور، وتمكنوا من مباغتة البيزنطيين الذين لم يصدقوا وهم يرون الخليج يموج بقطع الأسطول التركي، وقد كتب المؤرخ البيزنطي والدبلوماسي الأمير دوكاس الذي التقى السلطان محمد الفاتح عن ذلك: " ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الثاني يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلا من الأمواج" (أوزتونا 135)

(89) يقصد الجنويين الإيطاليين.

(90) وقع استدراك هذه الجملة في الطرة في (أ).

(91) ورد في طرة (أ): "المراد به جنس الفرنصيص خذله الله آمين".

يدعوهم للجهاد والحضور معه في فتح القسطنطينة فحضروا، وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر فقال: ستفتح قسطنطينة إن شاء الله تعالى على يد المسلمين في هذا العام، وسيدخلونها من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني من هذا العام وقت الضحوةالكبرى، وأنت تكون حينئذ واقف (كذا) عند السلطان محمد، فبشر الوزير السلطان بما أسره إياه الشيخ من خبر الفتح.

فلما صار ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة، حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان، فذهب إلى الشيخ فمنعوه من الدخول لأنه أوصى جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا، فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم، وفتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت الذي كان أشار به، وكانت دعوته تخرق سبع طباق. فلما دخل السلطان محمد المدينة المذكورة، نظر إلى جانبه فإذا وزيره ابن ولي الدين واقف عنده، فقال هذا ما أخبر به الشيخ، وقال ما فرحت بهذا الفتح وإنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زماني. ومن مناقب هذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوي الأبدان، كما أنه طبيب يداوي الأرواح حتى يحكى أن الأعشاب كانت تناديه وتقول أنا أنفع من المرض الفلاني.

وكان فتح المدينة يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأخيرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وكان عدد أيام محاصرته /34/ إحدى وخمسين يوما، فغنم المسلمون من الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله في عصر

---

(92) يقصد بهذه الكلمة لقب الشيخ شمس الدين، ويسميه أوزتونا " آق شمس الدين" ويلقبه "مرشد الخاقان" أي السلطان محمد الفاتح، والذي شارك أتباعه الدراويش بفعالية في فتح القسطنطينية، إذ أورد هذا المؤرخ التركي أنه خلال العمليات العسكرية " كان رجال الدين والطرق يتجولون بين الصفوف يشجعون المقاتلين ويتلون الأدعية وينشدون الأشعار والمنظومات الدينية ويرددون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد والقتال في سبيل الله"، مضيفا و " كانت أصداء تكبيرات الغزاة الدراويش في صفوف الجيش التركي التي يتجول بينها أستاذا الخاقان آق شمس الدين وملا كوراني، والدعاء الذي رددوه عقب صلاة الصبح والخطاب القصير المؤثر الذي ألقاه البادشاه...كان ذلك كله يؤتي ثمرته فيتجسد أمواجا متعاقبة على الأسوار البيزنطية..".(أوزتونا 138).

من الأعصار، ولأن السلطان لما شاهد العيى (كذا) والفتور من العسكر في الحصار، أمر بأن ينادى أن الغنائم كلها لكم ويكفيني فتح المدينة، فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله لهم فتح المدينة. ثم شاع خبر الفتح في الآفاق فهابه ملوك العالم، فأرسل إليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب المغرب بالمكاتب والرسائل يهنونه (كذا) بالفتح.

ولاشك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة، وكم رام من الخلفاء والملوك فتح هذه المدينة، وصرفوا هممهم وبذلوا أموالهم، وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فلم ينالوه، وإنما جاء الله تعالى به لهذا السلطان الجليل والملك الجميل، لكونه أعلم الملوك وأعدلهم وأحسنهم سيرة، وأخلصهم نية وطوية، وضمن بعضهم هذا المعنى في تاريخ الفتح فقال:

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

أوقع لفظة آخرون تاريخ فتح المدينة بعد حساب الحروف[93]. وقيل في تاريخه أيضا: بلدة طيبة وهي كذلك في طيب الهوى[94] وعذوبة الماء، وهي من الإقليم الخامس بينها وبين مكة المشرفة ألف ميل وثلاثمائة وسبع وثمانون ميلا ونصف ميل.

ولما دخل السلطان المدينة سارع بالتوجه إلى كنيستها العظمى أياصوفيا[95]، فدخلها وطهرها من خبائث الشرك، وصلى فيها ودعا الله

(93) يطابق حساب حروف "آخرون" 857، وهي السنة الهجرية الموافقة ل 1453، سنة فتح القسطنطينية.

(94) الأصح انهواء.

(95) أياصوفيا، أكبر مسجد في القسطنطينية وأعظم كنيسة في الشرق قبل الفتح العثماني، تعزى شهرتها وأهميتها إلى كونها مثالا كاملا لتشييد القباب في تاريخ الفن المعماري. وتدل أحدث البحوث أن باني أياصوفيا على صورتها الأولى ليس قسطنطين الأكبر وإنما ابنه قسطنطيوس الثاني. وقد توالت الأحداث على هذه الكنيسة العظيمة، حيث دمرتها الزلازل والنيران عدة مرات، وأعاد بناءها الإمبراطور جوستنيان الذي أولاها عناية خاصة. وتدل مقاييس هذا البناء على عظمته. وقد زاد الأتراك المآذن الأربعة المحيطة بالبناء وسهروا على إصلاح ما أفسده الدهر.(دائرة المعارف 3 .171؛ E.,I., 1-797)

تعالى وحده وأثنى عليه، وجعلها مسجدا جامعا للمسلمين وعين له أوقافا ورواتب.



بناء السلطان محمد الفاتح ضريح أبي أيوب الأنصاري

ثم إن السلطان محمد خان التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع /35/ قبر أبي أيوب الأنصاري، فقال الشيخ إني شاهدت في موضع نورا لعل قبره هناك، فجاء إليه وتوجه زمانا ثم قال: اجتمعت مع روحه فهنأني بهذا الفتح قال: شكر الله سعيكم الذي خلصتموني من ظلمة الكفر، فأخبر الشيخ بذلك السلطان فحضر بنفسه إلى هناك، فقال: ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن تريني علامة أراها بعيني ويطمئن بذلك قلبي، فتوجه الشيخ ساعة ثم قال: احفروا هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين، يظهر لكم رخام عليه خط عبراني، فلما حفروه ظهر رخام عليه خط فقرأه من يعرفه وفسره، فإذا فيه قبر أبي أيوب الأنصاري، فتحير السلطان محمد خان وغلب عليه الحال حتى كاد أن يسقط لولا أن أمسكوه، ثم أمر ببناء القبر عليه وأمر ببناء الجامع والحجرات، والتمس من الشيخ شمس الدين أن يجلس في ذلك المكان مع توابعه فامتنع، واستأذن في الرجوع إلى وطنه قصبة كونبك، فأذن له السلطان تطيبا لقلبه.

وحيث جرا (كذا) الكلام إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقد تعين أن نذكر ترجمته على سبيل التبرك فنقول: ومن كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر[96] في التعريف بأبي أيوب فقال: خلد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري النجاري، من بني غنم بن مالك بن النجار،

(96) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (368-463 هـ/ 978-1071م)، إمام عصره في الحديث ومؤرخ نسابة أديب بحاثة يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة وولي قضاء لشبونة وشنترين وتوفي بشاطبة. من كتبه "الدرر في اختصار المغازي والسير" و "الاستيعاب" الذي جمع فيه أسماء الصحابة و "الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء". (الزركلي، 8 .240؛ ابن خلكان 7-66؛ المغرب في حلى المغرب 2 .407).

غلبت عليه كنية أمه هند بنت سعد بن عمر بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأكبر، شهد العقبة وبدرا وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجه من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجرا من مكة، فلم يزل /36/ عنده حتى بنا مسجده في تلك السنة وبنا مساكنه، ثم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى مسكنه، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب بن عمير.

حدثنا سعيد بن نصر حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا ابن وضاح حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يونس بن محمد عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي رهم السماعي عن أبي أيوب الأنصاري حديثه قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا الأسفل وكنت في الغرفة، فأهريق ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة نتبع الماء شفقة أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مشفق، فقلت يا رسول الله إنه ليس ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمتاعه أن ينقل، ومتاعه قليل وذكر تمام الحديث.

وكان أبو أيوب الأنصاري مع علي رضي الله عنه في حروبه كلها، ثم مات بالقسطنطينية من بلاد الروم في زمن معاوية، وكانت غزاته (كذا) تلك تحت راية يزيد وهو كان أميرهم يومئذ، وذلك سنة خمسين أو إحدى وخمسين من التاريخ، وقيل بل كانت سنة اثنين وخمسين وهو الأكثر في غزو يزيد القسطنطينة. حدثنا سعيد بن نصر حدثنا قاسم بن اصبغ حدثنا ابن وضاح حدثنا ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي ظبيان عن أشياخه عن أبي أيوب، أنه خرج غازيا في زمن معاوية فمرض، فلما ثقل قال لأصحابه: إذا أنا مت فاحملوني، فإذا صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ففعلوا، وذكر تمام الحديث.

وقبر /37/ أبي أيوب قرب سورها معلوم إلى اليوم معظم، يستسقون

به فيسقون، وقد ذكرنا طرفا من أخباره أيضا في كتاب كنيته ونصه: أبو أيوب الأنصاري وذكر اسمه ونسبه وقال: وتـوُفي بالقسطنطينة من أرض الروم سنة خمسين وقيل سنة إحدى وخمسين في خلافة معاوية تحت راية يزيد، وقيل إنه أمر بالخيل فجعلت تقبل وتدبر على قبره حتى عفا أثر قبره، روى هذا عن مجاهد، وقد قيل إن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب لقد كان لكم الليلة شأن، قالوا مات رجل من كبار أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم وأقدمهم إسلاما، وقد دفناه حيث رأيتم، والله لئن نبش لأضرب لكم بناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة.

وقال ابن الكلبي[97] وابن إسحاق[98] شهد أبو أيوب مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين، وكان على مقدمته يوم النهروان، ولأبي أيوب عقب. وروي عن محمد بن سيرين أن أبا أيوب شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا، ثم لم يتخلف عن غزوة في كل عام إلى أن مات في أرض الروم. فلما ولى معاوية يزيد على الجيش إلى القسطنطينة جعل أبو أيوب يقول: وما علي أن أمر علينا شاب، فمرض في غزوته تلك فدخل عليه يزيد يعوده وقال له أوص، قال: إذا مت فكفنوني ثم مر الناس فليركبوا ثم يسيروا في أرض العدو حتى إذا لم يجدوا مساغا فادفنوني، قال ففعلوا ذلك. وكان أبو أيوب يقول: قال الله عز وجل انفروا خفافا وثقالا،

(97) أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي (120-204هـ/ 737-819م)، المشهور بابن الكلبي، ولد بالكوفة حوالي سنة 120هـ وبها توفي سنة 204 أو 206هـ. حذا حذو أبيه في التضلع في علوم عصره المختلفة و صنف العديد من الكتب التي اعتمدها الكثيرون من تلامذته في تآليفهم دون الإحالة عليها، إلا أن بعضها وصل ألينا متكاملا مثل "جمهرة النسب" و" الأصنام" حيث أبان ابن الكلبي عن معارفه الواسعة بخصوص الأنساب والجاهلية(E..I. 4 -516) .

(98) أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن ياسر بن خيار (85-150هـ/ 704-767م)، من أكبر رواة السيرة النبوية، ولد بالمدينة وتوفي حسب معظم الروايات ببغداد ودفن بجانب قبر أبي حنيفة، سليل أسرة من رواة الأخبار والمغازي والحديث حيث برز وأصبح مرجعية أساسية في هذا العلم. سافر إلى مصر والعراق طلبا للعلم، كما أن خروجه من المدينة يعزى إلى مضايقات هشام بن عروة ومالك بن أنس. من مؤلفاته كتاب " السيرة " و" كتاب الخلفاء" وكتاب " السنن3 ..E..I.)". 834)

فلا أجدني إلا خفيفا وثقيلا، وروى قرة بن خالد عن أبي يزيد المدني قال: كان أبو أيوب والمقداد بن الأسود يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال ويتأولان انفروا خفافا وثقالا.

/38/ عودة إلى القسطنطينية عند فتحها

ولما دخل المسلمون إلى قسطنطينة أرسل صاحب الغلاطة مفتاح قلعتها ففتحت، ودخلها المسلمون وتسارعوا إلى مسجدها القديم الذي كان بناه مسلمة بن عبد الملك[99] وقت حصارها، وكان الكفار صيروه كنيسة لهم، وقد دخلنا إليه وصلينا فيه وتبركنا به. وفي هذه السنة بعث كثير من أهل الحصون والقلع والمدن بمفاتيح بلادهم حيث رأوا فتح القسطنطينية، وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة أمر السلطان ببناء دار السعادة التي بقرب الجامع الذي انشأه السلطان أبو يزيد خان[100]، وهو أول دار أنشاها الملوك العثمانية في مدينة قسطنطينة، قلت: وقد مررت بهذه الدار ذات يوم فأخبرت أنها

(99) مسلمة بن الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي (ت.121هـ/ 738م)، أحد كبار رجالات الجيش الأموي الذي اشتهر بحصاره للقسطنطينية سنة 98-99هـ/ 716-718م، أبعد عن الخلافة بسبب كون أمه أسيرة. انشغل مسلمة بتجريد الحملات العسكرية الأموية المشهورة بالصوائف ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى، ففتح عمورية وطوانة سنة 88هـ/ 707م.وفي سنة 91 هـ/ 710م خلف محمد بن مروان كعامل على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وواصل الفتوح تجاه بحر قزوين. ثم عين سنة 99هـ/ 717 م على رأس الجيوش المكلفة بحصار بيزنطة (القسطنطينية)، كما سار لقمع حركة الخوارج وثورة يزيد بن المهلب سنة 720م. وبعد إبعاده عنالساحة العسكرية في عهد يزيد الثاني عاد إلى مساهمته الفعالة في الفتوحات فيما وراء النهر في عهد أخيه هشام بن عبد الملك ليقضي أخريات أيامه في حران بشمال سوريا(729- 6 ,.E., I).

(100) هو بايزيد الأول (1389-1402)، الابن الأكبر للسلطان مراد وولي عهده، اعتلى العرش وعمره 29 سنة. شارك في حملات أبيه العسكرية ونودي به سلطانا في ساحة الحرب على إثر استشهاد أبيه في كوسوفا. تمكن السلطان بايزيد من توحيد الإمارات التركية في الأناضول بعد ثورتها إبان انشغال السلطان مراد بالحرب في البلقان، كما ضمت أفلاق (رومانيا الجنوبية) في عهده وخضعت مورا لسيادته. وأمام تقدم القوات التركية في عهد بايزيد، حشدت أوربا المسيحية قوات ضخمة ووقعت معركة نيغبولو سنة 1396 التي حقق فيها الأتراك انتصارا ساحقا. انتهت هذه الإنجازات بوقوع السلطان بايزيد في أسر قائد آخر من أكبر القادة في التاريخ وهو تيمور بك الكبير عقب معركة أنقرة التي جمعت القوتين سنة 1402، وتوفي بايزيد في الأسر سنة 1403. (أوزتونا 103).

عندهم اليوم معدة لتربية بنات الملوك منهم.

وفي سنة إحدى وستين وثمانمائة غزى (كذا) السلطان محمد خان بلاد مورة[101] فافتتحها، واستولى عليها وصيرها دار إسلام، وأسكن فيها طائفة من العرب، ثم غلب عليهم الروم فتنصر جماعة منهم ورحل جماعة عنها، ثم عاد السلطان لما بلغه ذلك وافتتح نحو سبعين قلعةلم يدخلها مسلم قط، وبالجملة لم يبق في بلاد مورة حصن إلا فتحه.

ومن غرائب القسطنطينية مسجدها الأعظم العتيق المسمى أياصوفيا، وهذا الاسم وضعه عليها النصارى في القديم، سموها على إسم امرأة صالحة عندهم، وهي من بنيان الروم الذين كانوا بالقسطنطينية، بنتها أم قسطنطين وكانت عندهم بيعة من أعظم البيع، فطهرها الله تعالى من شركهم /39/ ورجسهم، وصيرها مسجدا جامعا لإقامة دينه القويم ولتلاوة كلامه القديم.

صفة أياصوفيا التي بمدينة إصطنبول العظمى حرسها الله[102]

شكل بنائه غريب غير معهود لا في مساجد المغرب ولا الأندلس، لأنه قبة واحدة في غاية الضخامة والإرتفاع، والجميع من الرخام مشتمل على ما تحار فيه العقول من الصنائع والنقوش الرائقة والاختراعات الفائقة، تقصر

---

(101) مورة، الاسم التركي لشبه جزيرة البيلوبونيز التي تعتبر قلب بلاد اليونان القديم، خضعت للأتراك بعد حروب طويلة مع البيزنطيين سنة 1460م؛ ومنذئذ ظلت من السناجق المهمة في الدولة العثمانية وساهمت بشكل فعال في تطوراتها خلال أربعة قرون، إذ انتشر الإسلام فيها وخصوصا في صفوف الألبان وغيرهم من القوميات الأخرى ولعب أبناؤهم فيما بعد أدوارا حساسة في الدولة، إذ صار بعضهم وزراء نافذين وضباطا كبار. وفي سنوات 1683-1688 تمكن قوات الحلف المقدس من السيطرة على العديد من ثغور مورة وتكبدت القوات العثمانية هزائم فيها أسفرت عن توقيع الباب العالي معاهدة كارلوفيتز 1699 متخليا عن مورة للبندقية، وفي سنة 1715 استرجع الأتراك المنطقة إلى أن استقلت اليونان عن الإمبراطورية العثمانية سنة ؟.(E., I., 7-237 et suiv)

عن وصفه العبارات والتقريرات والإشارات، وبه خزائن الكتب الجامعة والأنوار اللامعة، فهو مأوى للأولياء وكناس الأصفياء الأتقياء.

طول القبة ثلاثمائة وخمسة وعشرون قدما وعرضها مائة وثمانية وثلاثون قدما، وعن يمين القبة ويسارها سقف على أعمدة عظام من الرخام، منحط عن أعلا القبة يصعد إليه ويشرف منه على المسجد. مساحة كل ناحية سبعة وخمسون قدما وذلك من حساب المسجد معد للصلاة، وقد صعدنا إلى فوقي سقف المسجد، فوجدنا هنالك بيتا في زاوية من زواياه كان متعبدا للكفار الذين كانوا هنالك، ولازالت في حيطانه صورهم إلى الآن، وأمام البيت قبر أم قسطنطين بانية المسجد المذكور، وهو معروف عندهم إلى الآن. وخارج باب القبة بلاطان كبيران على قدر القبة هما من حساب المسجد أيضا، مفصولا بينهما وبين القبة بجدار، مفتحة فيه أبواب للبلاطين المذكورين عرضهما خمسون قدما، ومكتوب عن يمين المحراب وشماله بخط غليظ بالأبيض في لازوردية آية الكرسي، وعن يمين المحراب وشماله شمعتان كأنهما في الطول والغلظ أعمدة حقيقية، رأيت بإزاء كل واحدة /40/ سلماً يصعد فيه إلى إيقادها بنحو سبع عشرة درجة، فيوقدان عند صلاة المغرب ويطفيان، ويوقدان أيضا عند صلاة العشاء والصبح حتى يفرغ من الصلاة، وهكذا السنة كلها، ويوقدان في شهر رمضان حتى يصلي الناس التراويح، وعند رأس كل سنة يجعلون في رمضان شمعا آخر ويحملون ما بقي من الأخريين إلى دار السلطان بقصد التبرك. وهكذا مساجد القسطنطينية كلها يجعل لها مثل هذا الشمع على هذا النسق.

ومكتوب في وسط أعلى القبة [الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري..][103]، بخط غليظ بالسواد، وتحت ذلك منحدرا إلى ناحية القبلة بقية الآيات إلى "أن ترفع"، ومكتوب في سائر زواياها اسم الجلالة بذوب

---

(102) ورد هذا العنوان بطرة ص. 39 من نسخة (أ).

(103) الآية 35 سورة النور.

الذهب بخط غليظ، واسم النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة والحسنين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، كل اسم في زاوية وغير ذلك من الآيات القرآنية.

وبها من المصابيح عدد كثير، فالوقادون الذين يوقدون مصابيحها عشرة كل واحد يوقد ناحية، وصحنها مفروش بالرخام الأبيض، في وسطه بركة ماء عليها قبة من شبابيك الصفر دائرة بها أنابيب كثيرة، فمن أراد أن يتوضأ أو يشرب يفتح الأنبوب ويقضي غرضه ويغلقه، وقد دخلنا من الصحن المذكور إلى قبة مدفون فيها السلطان مراد أحد ملوكهم وزوجته وأولاده.

ومن أعظم المساجد بهذه الحاضرة مسجد السلطان أحمد والد السلطان عبد الحميد الموجود في وقتنا هذا، وهو بقرب أياصوفيا مبني كله بالرخام الأبيض الناصع، آية في /41/ العظم والضخامة، مبني على شكل مسجد أياصوفيا المتقدم الذكر، قبة واحدة عظيمة[104] في وسطه وحواليها بلاطات، وقد رفعت هذه القبة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض، سعة كل ربع من أرباع كل عمود أربعة وعشرون قدما، والأعمدة المذكورة مستديرات الشكل من غير أركان مشرفات الصنعة، ومساحة عرض القبة فيما بين الأعمدة والأعمدة خارجة ثمانية وسبعون قدما، ومن فوق البلاطات التي حوالي القبة مقاعد مشرفات على المسجد، في غاية اللطافة وغرابة الشكل معدة للصلاة من حساب المسجد، وحيطان المسجد كلها مرصعة بالزليج الفائق.

وأما منبرها فعجب وكله من الرخام الأبيض، ما شئت من توريق أنيق وترصيع نصيع، ومكتوب في زوايا القبة وفوق المحراب آيات قرآنية بذوب الذهب، فقد رسم فوق المحراب [كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا][105]، وهذه الآية مكتوبة في جميع محارب مساجد هذه المدينة،

(104) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(105) الآية 37 سورة آل عمران.

وتحته [فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب][106]، ومن فوق الجميع قرب السقف [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة] إلى [ولا هم يحزنون][107]، ومكتوب في وسط القبة من أعلاها [إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا] الآية[108]، وفي دائرة أسفلها [الله نور السماوات والأرض] الآية[109]، ومكتوب في الأعمدة الأربعة المرفوعة عليها القبة، دائر بكل عمود مثل الحزام بذوب الذهب بخط غليظ في الأخضر، ففي العمودين اللذين يليان القبلة ففي الأيمن منهما ما نصه / 42 / قال تبارك وتعالى [إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين][110]، وفي الأيسر ما نصه قال تبارك وتعالى: [الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى][111]، وفي العمودين اللذين في الجوف، ففي الأيمن ما نصه قال تبارك وتعالى: [لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين][112]، وفي الأيسر [وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون][113]. وفي العمودين الأخيرين المذكورين أنابيب ماء بغلقها ترسل عند الحاجة إليها لشرب أو وضوء، ومرسوم في زوايا المسجد آيات قرآنية مناسبة لحال المسجد، مثل قوله تعالى: [ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى][114]،

---

(106) الآية 39 سورة آل عمران.
(107) الآية 277 سورة البقرة.
(108) الآية 41 سورة فاطر.
(109) الآية 35 سورة النور.
(110) الآية 18 سورة التوبة.
(111) الآية 2 سورة الرعد.
(112) الآية 108 سورة التوبة.
(113) الآية 186 سورة البقرة.
(114) الآية 22 سورة لقمان.

ومثل [قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام][115] وغير ذلك من الآي.

وقد جعلوا عن يمين المحراب وشماله أبوابا متعددات كبارا بشبابيك الحديد، ومن داخلها أبواب من الزاج[116] لإدخال الضوء ورد الريح والقر، ومن دونهم أبواب من جيد العود المرصع بالصدف. وقد أحاط بالمسجد سور آخر بينه وبين المسجد براح كبير من الجهات الأربع والمسجد في الوسط، جعلوا فيه من ناحية قبلة المسجد بستانا يرى من داخل المسجد من تلك الشبابيك المذكورة أكسبه منظرا حسنا، وفي أحد الأرباع المذكورة في جدار المسجد سقايات لها أنابيب بأغلاقها، قبالة كل أنبوب دكان من الحجر لأسباغ الوضوء، وحول الجميع مدارس يأوي إليها طلبة العلم، مئونتهم من أوقاف المسجد رحم الله بانيه.

وقد توجهنا لزيارة قبر السلطان أحمد باني المسجد المذكور وتربته بإزاء مسجده، وعلى ضريحه قبة دائرتها مقدار ما كتب فيه سورة الملك إلى قوله تعالى: [سيئت وجوه الذين كفروا][117]، وباقي السورة كتب بخط أرق من الخط الأول في ثلاث سطور أو أربع، رحمة الله تعالى عليه. ومن أعظم مساجد هذه الحاضرة "السليمانية"، وهو مسجد السلطان سليمان[118] وهو على الشكل المذكور، وإن اختلفت صنعتهما فيجمعهما كونهما من قبة واحدة وحواليه براح كما ذكر، وهو أكبر من مسجد السلطان أحمد.

---

(115) الآية 144 سورة البقرة.

(116) يقصد الزجاج.

(117) الآية 27 سورة الملك.

(118) سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول (1520-1566)، من أعظم وأشهر سلاطين الدولة العثمانية، ففي عهده تمكنت دولة آل عثمان من تبوء مكانة عالمية متميزة وفرضت نفسها كواحدة من القوى الكبرى التي يحسب لها حسابها في البحر المتوسط وأوربا، إذ دخل في صراع مرير مع "شارل كنت" إمبراطور إسبانيا والنمسا حول السيادة في هاتين المنطقتين خرج منه القانوني منتصرا. كان رجل دولة حازم وداهية سياسيا وعسكريا إتسعت الإمبراطورية في عهده وأديرت إدارة محكمة. (أوزتونا 261 وما بعدها)

ومن ألطف مساجد القسطنطينية وأكثرها تأنقا مسجد السلطان عثمان ويسمونه "العثمانية"، وإن كان صغير الجرم فهو غريب الشكل عديم المثل، صلينا فيه الجمعة مرارا، كله من الرخام كغيره وفيه عمل رائق وصنع فائق، فهو يثني على بانيه بلسان تناهيه، ما شئت من طيقان في أعلاه ووسطه مغلقات بصفائح الزاج على ألوان، مكتوب فيها أسماء الله الحسنى وآيات من القرآن، ومكتوب عند انتهاء ارتفاع جدرات القبة وعند الأخذ في انعطاف البناء، لأجل استعمال القبة كالحزام سورة الفتح من أولها إلى آخرها، بخط غليظ جدا بذوب الذهب في سواد، وانتهى آخر السورة عند الابتداء وهذا مقدار دائرتها.

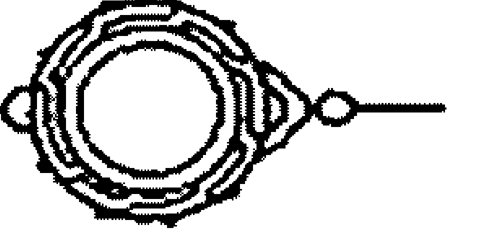
ومن أبهى مساجدها مسجد علي باشا كان وزيرا على عهد السلطان محمود[119]، فهو قيد البصر وفدلكة الحسن والعمل كالعمل، وكذلك مسجد السلطان مصطفى رحمة الله تعالى عليه من هذا النمط، وإن كان أصغر من هذين المسجدين بقليل، وقد صلينا فيه رحمة الله على بانيه ودخلنا ضريحه وهو بقرب مسجده، فإذا تربة تحدث في القلب خشوعا وانكسارا، مكتوب على بابها كل نفس ذائقة الموت، وفوق الباب من داخل القبة فاعتبروا / 44/ يا أولي الأبصار، ومكتوب في دائرة القبة[بسم الله الرحمان الرحيم وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا- إلى- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم -إلى- إنه غفور رحيم وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - إلى- خالدين][120]، صدق الله العظيم سبحان ربك رب العزة (عما يصفون)[121] إلى آخره.

---

(119) محمود الأول (1730-1754)، هو الابن الأكبر لمصطفى الثاني ويلقب ب"غازي"، إتعظ بعاقبة أبيه وعمه اللذين أطاحت بهما ثورتان فعمد إلى تغيير رؤساء الوزراء بصفة مستمرة، دخل بدوره في حرب مع روسيا وألمانيا انتهت بمعاهدة بلغراد سنة 1739 التي أبقت على الوضع القائم في البحر الأسود وأثبتت أن الدولة العثمانية لاتزال دولة قوية. (آوزتونا 607)

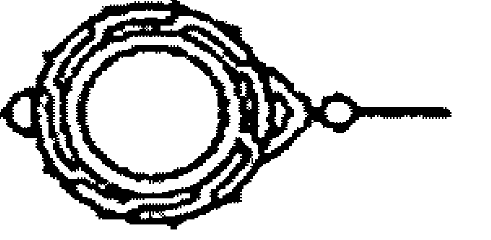
(120) الآيات 49، 53، 71 و73 سورة الزمر.

(121) سقطت من (أ) ووردت في (ب).



الخزانات والمكتبات بإستانبول

وأما ما في هذه المدينة من خزائن الكتب المعتبرة، التي لايوجد مثلها في سائر البلاد فشيء لا يفي به تقرير ولا يؤديه تعبير، كل مسجد له خزانة وهناك خزائن أخر من غير المساجد، ويظل الجميع مفتوحا والقيم حاضر، ومن أراد أن يطالع أو ينسخ يظل هنالك حتى يقضي غرضه ولاتخرج ورقة من هنالك.



المساجد والحمامات

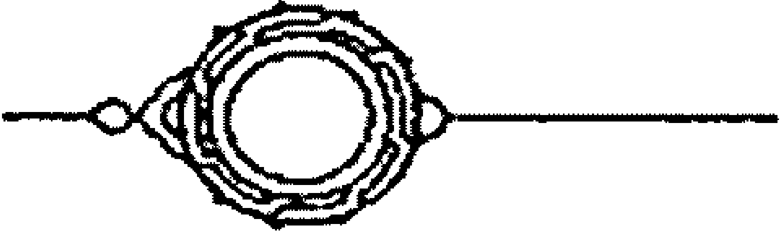
وعدد مساجد الخطبة بالقسطنطينة على ما أخبرني به بعض الناس، بعد البحث وعلى ألسنة الناس، عدد لا يقبله عقل: مائتا مسجد من غير مساجد الملوك وهم نحو العشرة، وفي الغلاطة وأسكدار وغير ذلك نحو الخمسين، وأخبرني بعضهم أن عدد الحمامات داخل سور إسطنبول خاصة مائة وسبعة وسبعون، وبأسكدار والغلاطة وقاسم باشا عشرون.

ومن أعظم مساجد القسطنطينة وأشهرها وأكبرها وأكثرها عمارة وقراءة ومجالس وطلبة ومدارس، مسجد السلطان محمد خان الفاتح نعني فاتح القسطنطينة رحمة الله عليه، شكل بنائه على مثال أياصوفيا وهو كله من الرخام الأبيض الفائق وفيه صنع رائق، وصحنه كذلك مفروش بالرخام دائرة به سقائف على أعمدة عظام من الرخام أيضا، مكتوب في أعلى جدار المسجد مما يلي الصحن حديث (ستفتح القسطنطينة ونعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها) .

/45/ لكن أياصوفيا أكبر من الجميع، إلا أن مسجد السلطان محمد أكثر مساجد القسطنطينة قراءة وطلبة، فقد كنت أتكلم ذات يوم مع بعض مدرسيها، فأخبرني أن عدد مدارس هذا المسجد ست عشرة مدرسة، وجميع ما بها من الطلبة يقبض المئونة والجراية اليومية أو الشهرية من أوقاف المسجد، الذي جعل له السلطان بانيه رحمة الله عليه وتقبل منه. فإذا دخلت إلى هذا المسجد فلا تكاد تسمع من جلبة أصوات المدرسين، فحلق المجالس متصل بعضها ببعض، وجل قراءاتهم علم المنطق والنحو والتصريف وعلم

المعاني والبيان[122] هذا الغالب وغيره نادر.

نظام التعليم والمراتب العلمية العثمانية



ومن طلبة هذا المسجد تخرج المدرسون فيه وفي غيره في سائر المملكة العثمانية، ويترقون بعد ذلك إلى مرتبة القضاء على المراتب التي أذكرها بعد إن شاء الله، فهو أول المراتب، ولهم في ذلك ترتيب وقانون عجيب رأيت أن اذكره.

وأبتدئ بأعلى مرتبة فأقول: أعلى المراتب العلمية رتبة المشيخة الإسلامية، ويسمى صاحبها بشيخ الإسلام وبمفتي السلطنة العلية، وليس له مدة معينة فإن شاء السلطان عزله في مدة قليلة وإن شاء أقره مدة كثيرة كالوزير الأعظم، وهو يشاركه في أمور عظيمة من أمور الدولة فلا بد من انضمام رأيه فيها، ويتوقف على إشارته جميع الخدمات العلمية في المماليك كالوعظ والتدريس ونحوها. والإشارة أن يكتب من كان شيخ الإسلام ويوقع في عرض حال طالب إحدى الخدمات المذكورات، تنفيذ ذلك له ولابد للوزير الأعظم من أن ينفذها فلا ترد أصلا، ويتوقف على إشارته أيضا توجيه المناصب /46/ للموالي[123] التي أذكر بعد هذا إلى منصب قاضي عسكر، ويعطى من بيت المال له حين نصبه في كل شهر نحو سبعمائة وألفي قرش، ويعطى له أيضا بإشارته من الدولة العلية قضاء أو قضاءين بطريق " أربه لق "، المعنى يصرف مستفادها في علف دوابه ويبقى له ذلك منصوبا أو معزولا، وليس هذا بمنصب لكن يشبهه فيوليه من يختار وإن أراد عزله عزله، ويكون المولى نائبا عنه في ذلك القضاء فيجري الأحكام الشرعية فيه، وما يحصل من أجرة الوثائق الشرعية يأخذ النائب منه خمسه ويدفع أربعة أخماس للمنوب عنه في كل شهر. وفي هذا الزمان يولى صاحب أربه لق إلى من يشاء مقطوعا محصوله في كل شهر بكذا، ومقدار

---

(122) كتب في هامش الصفحة من (أ): " جل قراءة علماء القسطنطينية من الفنون العلمية ".

(123) جمع غريب لمولى بضم الميم وفتح الواو وتشديد اللام، أي من يولى منصبا في القضاء.

ما يحصل لشيخ الإسلام مما يسمونه أربه لق زيادة على منصبه في كل شهر ألفا قرش أو أزيد منه إلى ثلاثة آلاف، فإذا مات شيخ الإسلام أو عزله السلطان فيتولى مشيخة الإسلام من يريد السلطان ممن هو دون هذه المرتبة وهي قضاء عسكر بروم أيلي.

رتبة قضاء عسكر بروم أيلي ومعناه قاضي القضاة فيها ويسمى صاحبها قاضي العسكر بروم أيلي، وفي يده تولية قضاء البلدان التي فيه على مراتبهم المعينة إلى من هو أقدم زمانا في كل مرتبة منها، وفي يده أيضا تولية بعض الخطط مثل الإمامة والخطابة والتأذين، وهو يقضي بنفسه بين العساكر بالشرع في المحل الذي فيه السلطان، ويقسم متخلف الموتى على الورثة على فرائض الله في روم أيلي. ويمكث سنة واحدة ثم يعزل، ويتولى مرتبته من هو أقدم زمانا ممن هو دون هذه المرتبة، /47/ فهي من المناصب المناوبة، فإذا عزل يعطى له أربه لق أيضا مقطوعه ألفا قرش اثنان أو أقل بقليل.

رتبة قضاء عسكر أناضولي وعمله مثل من فوقه في المرتبة، لكن عمله في ديار أناضول، ويتولى مرتبته إن مات أو عزل من هو أقدم زمانا ممن هو دون هذه المرتبة، فإذا عزل يعطى له أربه لق أقل مما فوقه وقد تقدم معنى أربه لق.

رتبة قضاء القسطنطينة، فيقضي بين أهل القسطنطينة ويقسم بين الورثة متخلف موتاهم لكن في البلد خاصة من غير العسكر، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة ويعطى له بعد عزله أربه لق أقل ممن فوقه.

رتبة قضاء الحرمين مكة والمدينة نورهما الله تعالى، فإذا عزل القاضي فيهما يعطى له أربه لق أقل ممن فوقه إلى خمسمائة قرش عن كل شهر، والمعزولون منها عددهم اليوم نحو العشرين، ويصل إليها من هو أقدم ممن هو دون هذه المرتبة، وهي رتبة قضاء البلدان الأربعة وهي أدرنة وبروسة[124] والشام ومصر، ويعطى للمعزول عنها أربه لق من ثلاثمائة إلى

(124) بروسة، عاصمة العثمانيين بين سنتي 1326 و 1402 خلال زحفهم على الممتلكات البيزنطية.

أربعمائة قرش، ويصل إليها من هو أقدم ممن هو دون هذه المرتبة، والمعزولون منها نحو ثمانية رجال.

رتبة قضاء المخرج وبلدانه ثمانية: القدس الشريف وحلب الشهباء ومدينة أبي أيوب الأنصاري التي بجوار القسطنطينية، ويكيشهرقنار وسنانيك وغلاطة وإزمير وأسكدار، فللمعزول عنها أربه لق من خمسين قرشا ومائة إلى ثلاثمائة قرش، والمعزولون عنها الآن نحو الأربعين /48/ رجلا، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة وهي رتبة المدارس السليمانية.

رتبة السليمانية فيها خمس مدارس بناها السلطان سليمان الغازي رحمه الله، ويصل إلى إحداها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، ولكل مدرس فيها نيف وخمسون قرشا في كل شهر من وقفه.

ودون هذه المدارس الخمس مدرستان بناهما السلطان محمود ويقال لكل منهما خامسة السليمانية، ووظيفتها مثل وظيفة السليمانية، ويصل إليها من هو أقدم ممن دونها وهي رتبة موصلة السليمانية، وفي هذه الرتبة نحو خمس وأربعون مدرسة، وظيفة بعضها خمسة وأربعون قرشا إلى ثلاثين، ويصل إليها من هو أقدم ممن دونها وهي حركة التمشلي، وفيها مقدار خمسة وثلاثين مدرسة، ووظيفة بعضها في كل شهر نحو العشرين قرشا.

رتبة التمشلي وفي هذه الرتبة مقدار ثلاثين مدرسة، ووظيفة بعضها في كل شهر نحو الخمسة عشر قرشا.

رتبة الصحن وفيها ثمان مدارس فقط بناها الفاتح السلطان محمد خان رحمه الله، ووظيفة كل واحد لمدرسها في كل شهر نحو الثلاثين قرشا.

تقع في أقصى شمال غرب آسيا الصغرى وكانت من المراكز التجارية المزدهرة بحكم موقعها في سهل خصب وعلى طرق المواصلات الرابطة بين إسطمبول وسواحل بحر مرمرة والداخل، فكانت القوافل الحاملة لبضائع الشرق تفرغ حمولاتها ببروسة خلال قرون، كما ازدهر فيها إنتاج الحرير خلال القرن 16، لتعرف مكانتها الإقتصادية تراجعا أمام منافسة إزمير خلال القرنين 17و18، ولازالت مركزا لإنتاج الحرير بتركيا إلى اليوم، (E., I., 1- 1374)

رتبة موصلة الصحن وفي هذه الرتبة مقدار ثمانين مدرسة، لبعضها بقعة وللبعض إسم بلا بقعة، وفي بعضها وظيفة والبعض من غير وظيفة، وإن كانت ففي كل يوم أربعون درهما أو أقل.

رتبة حركة الداخل وفي هذه الرتبة مقدار ستين مدرسة، لبعضها بقعة ولبعضها إسم بلا بقعة، ومنها ما له وظيفة ومنها ما لا وظيفة له، وعلى فرض وجود الوظيفة فتكون من نحو العشرين درهما في كل يوم، لأنه لا يطلب في هذه المرتبة إلا الرتبة.

رتبة الداخل /49/ وفي هذه الرتبة مقدار خمسين مدرسة، ووظائفها وبقاعها مثل ما سبق. رتبة حركة الخارج مثل ما قبلها. رتبة الخارج مثل ما قبلها.

وقبل هذا لا يكون أحد من العلماء مدرسا إلا من كان فيهم ملازما، والملازم هو من اشتغل بالتدريس سبع سنين، فإذا وقع الامتحان يدخل فيه فإن امتاز عن أقرانه في حسن القراءة، يعطى بإشارة شيخ الإسلام من قبل السلطان ورقة يكتب فيها أنه أوذن له في أن يدرس في المدرسة الفلانية، وتسمى تلك الورقة رءوسا، ولا يعقد مجلس الامتحان إلا عند انحلال مدارس عديدة من رتبة الخارج، وانحلالها بطريق أن يخرج أقدم مدرسي السليمانية بأحد المناصب الثمانية المذكورة قبل، ويتولى مدرسته التي خرج منها من هو أقدم زمانا ممن دونها وهكذا إلى رتبة الخارج، فتنحل حينئذ إحدى المدارس في رتبة الخارج، وتسمى هذه الحركات من الخارج إلى السليمانية سلسلة.

وطريق إن كان المرء ملازما، أن يدخل ممتازا عند الامتحان إلى حجرة من الحجرات التي هي ثماني عشرة حجرة، على الترتيب الذي اقتضاه الامتحان، وهذه الحجرات هي التي اشتملتها المدرسة التي بناها السلطان أبو يزيد بن الفاتح رحمه الله، واشترط تدريسها لشيخ الإسلام، ثم يخرج منها بالملازمة في كل ستة أشهر اثنان أقدمان في الترتيب المذكور، ويدخل في حجراتها اثنان آخران بعد الامتحان، وهكذا فالملازم من كان في يده ورقة

الملازمة الذي يكتبه (كذا) له قاضي عسكر روم إيلي، بأن صاحب هذه الورقة قبل للملازمة بإشارة شيخ الإسلام لكونه مستعدا للعلوم، وتسمى هذه الورقة ورقة الملازمة، /50/ ولكون المرء ملازما طريق أخرى طوينا ذكره خوفا من الملل، وما ذكر هو القانون القديم في الدولة العثمانية، وفي هذا الزمان لا يجري إلا في حق الغرباء وفي حق من لا شفيع له.

ثم المدرس يحتاج في كونه قاضيا بأحد مناصب المخرج إلى مرور مقدار ثلاثين سنة، وفي كونه قاضيا بعسكر روم إيلي إلى مقدار خمسين.

وقد حررت هذه المراتب العلمية من بعض الأفاضل من علماء الروم وأحد قضاتها، وفضله مشهور ومعلوم يقال له صدفي مصطفى، وقد كانت بيني وبينه معرفة واتصال، ترامى على معرفتنا من حسن أخلاقه ذات يوم ونحن بمسجد السلطان محمد، ودعاني إلى منزله ولم يجعل لنا فسحة في التخلف، وأحضر جمعا من الطلبة وأطعمة كثيرة، وزارني في منزلي بعد ذلك فتأكدت بيننا وبينه المعرفة، فمما خاطبته به ذات يوم وقد أصابني ألم فلم يأت لعيادتي لعدم علمه ما نصه:

يا واحد الناس في علم وفي شرف	وأفضل القوم في ذات وفي سلف
وتحفة ظهرت ما إن يعادلها	شيء نفاستها أربت عن التحف
وبحر علم طما فما تنقصه	الوراد كلا ولا اغتراف مغترف
ومعدنا لنفيس الدر من أجل ذا	سميت يا ذا المعالي مصطفى صدفي
مالي أراك تخلفت على علن	عن وصل حب لكم بر بكم ووفي
وقد مضت مدة من قبل ذا ولكم	عافية الله وهو ذو ضنى متلف
أبقاكم الله لا تحصى مئاثركم	وذكركم دائما يرسم في الصحف

فكان جوابه مجيئه بنفسه معتذرا بعدم علمه .

نظام الأمن في إستانبول

ومما يدلك على ضخامة هذه الحاضرة أن حراسها المتفرقين في أسواقها /51/ وأزقتها ليلا ونهارا، لئلا يتخاصم أحد مع أحد أو يظلمه أو يأخذ

متاعه، فلو ترى أصحاب الدكاكين ينزلون من دكاكينهم، وهي مشحونة بالسلع والأمتعة ولا يغلقونها ولا يضيع منها شيء، فأخبرت أن عدد الحراس المذكورين المعينين لهذه الخدمة أربعون ألفا مناوبة، نصفهم يقوم بهذا الوضيف (كذا) مدة والنصف الآخر مدة، مفرقين في الأسواق والأزقة في كل وجه وناحية فلا يكاد الإنسان يغيب عنهم، فإذا خلف الإنسان جماعة استقبل أخرى، وعليهم قواد كل قائد مكلف بحصة منهم، محدود له طرف من البلاد وله موضع يقعد به، بحيث إذا وقع في موضعه شيء فهو المؤاخذ به. ويطاف على الحراس المذكورين بكرة وعشية بطعامهم وشرابهم، ولهم راتب زائد لما لا بد لهم من ضرورياتهم، ومن أجل هذا فلا تجد في هذه المدينة على كبرها وعظمها غوغا ولا جلبة أصوات، ومن أظهر شيئا من ذلك يقبضونه ويؤدب، ولو لم يكن هذا العسكر مفرقا على هذه الكيفية لأكل الناس بعضهم بعضا، لا سيما والبلاد مختلطة بجميع الاجناس.

مراسيم تفريق الراتب على العسكر

ومما يدل على ضخامة هذه الدولة الرواتب التي تفرق على العساكر، فقد حضرنا ذات يوم على تفريق الراتب على العسكر، فرأينا ما يدل على عظم هذه الدولة وضخامتها، وذلك أن يوم التفريق إجتمع العسكر خارج باب دار السلطان بكرة، وأحضر المال في قبة يقعد بها الوزير تحت شباك يشرف منه السلطان بحيث لا يرى، وتأتي قواد العساكر على الترتيب بعضها يتلو بعضا ومع كل قائد جماعة من العسكر، /52/ فيتقدم القائد ومعه الكاتب بزمام أصحابه فيأخذ ما ينوب أصحابه عن ثلاثة أشهر، وذلك بمحضر الوزير والدفتردار، ومعناه صاحب دفتر مال السلطان وإحصائه، والسلطان يشرف على الجميع.

واستمر التفريق على هذه الكيفية، كل قائد يأخذ واجب أصحابه وتحمله الجماعة التي أتت معه في أكياس من الجلد، ويتوجه بذلك إلى موضعه ويتولى تفريق ذلك على أصحابه. وقد بقينا هنالك ننظر تفريقهم ونحصي ما خرج بمحضرنا، فكان جملة ذلك بعد تقدير سكتهم بالريال

المعروف عندنا ستمائة ألف ريال كبير، وطال بنا المقام وتوجهنا من هنالك، وأخبرنا من تخلف من ورائنا أنه خرج من المال بعدنا مثل ما حضرنا عليه وزيادة، فيصير جملة الراتب عن كل ثلاثة أشهر ما يزيد على المليون، وينوب في السنة ما يقرب من خمسة ملأين[125]، والمليون عشرة مائة ألف ريال، وهذا والله أمر عظيم، فالحمد لله الذي أرانا ما يسر المسلمين وينكي الكافرين في دولة من دول الإسلام صانها الله تعالى، وألبسها من جلالته جلالا، وقهر بها جموع الكفرة وأذاقهم بسيوفهم قهرا ووبالا ونكالا، فالله تعالى يصونها من الخلل، ويباعد عنها أهل الرجس والنجس، والعذر والختل في القول والعمل، ويحفظ قدم سطوتها من كل زلل، بفضله وطوله.

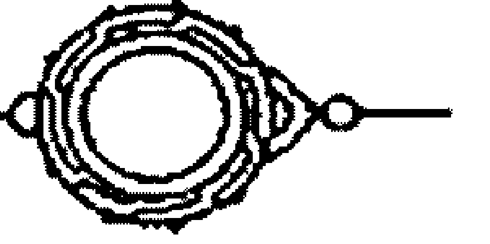
وعندهم من القواعد المقررة والقوانين المسطرة، أن يصنع السلطان طعاما يحضره يوم تفريق الراتب على العسكر، ويحضره قبالة المكان الذي يفرق فيه المال، والسلطان حينئذ من الرجا والخوف، لا يستقر فؤاده /53/ في جوف، لأن من عادتهم إذا حضر الراتب ليفرق على العسكر وذي المناصب والمراتب، وأحضر الطعام كما سبق به الإلمام، فإن بادر العسكر لأكل ما تهيأ، ولم يظهروا انحرافا ولا ليا، فما أبرك ما أعطى وما هيأ، وإن امتنع العسكر من الأكل جهارا، أيقن السلطان بالعزل نهارا وضاقت عليه الدنيا سوارا، وبلغت الروح التراقي وأعجز ذلك الداء[126] الراقي، ولم يغن عنه حميم ولا نديم، كذابغة وقد حلم الأديم، وينصبون من اتفقوا عليه قبل ذلك للخلافة، والعزل بعد الولاية من أعظم آفة، ويجعلون المعزول في موضع المولى في دار يسمونها القفص، يتجرع بالعزل كل غصص. فعند الخليفة يوم تفريق الراتب على العسكر كأنه يوم نكير ومنكر.

ويدل على ضخامة هذه الدولة دار ضرب سكتها، فقد دخلناها يوم تفريق الراتب المذكور لأنها بقرب دار السلطان فرأينا ما يسر، فمن آلات الطبع المسماة بالدولاب عشرون.

---

(125) يقصد ملايين.

(126) سقطت من (أ) ووردت في (ب).



ومن ضخامة هذه المملكة أن السلطان أيده الله زوج ابنت أخيه السلطان مصطفى رحمه الله من أحد كبراء دولته، وحضرنا هناك يوم زفافها، فاجتمع الناس على طبقاتهم ووجوه الدولة على مراتبهم بباب دار السلطان وكان يوما مشهودا، وأنشأ الناس في الشوارع المتسعة والأسواق مراتب ومقاعد من الخشب، عن يمين المار وشماله بقصد أن يقعد الناس عليها لرؤية زفاف ابنة السلطان. فامتلأت تلك المقاعد كلها على طبقاتها بكراء معتبر، فقد أخبرني بعض أصحابنا أن امرأة اكترت مقعدا من المقاعد المذكورة بأربعين دينارا. وامتلأت حتى الدكاكين والحوانيت /54/ والأسطحة من باب دار السلطان إلى دار زوجها، فكان الناس يتسابقون لكراء المواضع في تلك المقاعد حتى امتلأت وامتلأ الفضاء.

ولما قرب الزوال خرجت أولا من باب دار السلطان الخيل راكبة عليها فرسانها متتابعين على أربعة صفوف، وبعد أن نفذت الخيل تبعهم العسكر الرجالة أفواجا أفواجا، على مراتبهم وطبقاتهم واختلاف هيئاتهم، ثم تلاهم المعلمون وأهل الصنائع والحرف في هيئة عجيبة، وأهل كل صنعة حاملون معهم آلات حرفتهم ليميزوا بها، وقد اتخذوها من الفضة أو الذهب، كل معلم يجعل آلته في حزامه، وإنما اتخذوها من النقد ليشهدوا بها المشاهد مثل هذا اليوم بقصد الزينة، لأن هذا أمر مقرر لديهم مشهور ومعلوم ومذكور، ثم تلاهم أعيان الدولة على الانفراد، كل واحد في موكب عظيم من خدمته وأتباعه وحفدته وأشياعه، الأول فالأول على الترتيب، ثم أتى في آخر القوم الوزير الأعظم وشيخ الإسلام في موكب عظيم من الرجالة حافين بهم، وبعدهما أقفاص من الذهب مملوة يواقيت وأحجارا نفيسة من شوار ابنة السلطان، وبإثر ذلك عبد الدار راكبا على فرسه حاملا للمصحف الكريم بقصد التبرك يقدمه أمام العروس، وبعده الكدش[127] الذي فيه العروس

(127) العربة، والكلمة تحريف للفظة الإسبانية coche التي لا تزال تنطق بالدارجة المغربية الكوتشي، وجمعها في الكتابات التقليدية أكداش.

مرصع بالذهب في غاية الزينة، تجذبه ستة من الخيل أمامه اثنان من عبيد الدار، أحدهما حامل خرجا[128] أمامه على فرسه، مملوا (كذا) دنانير ينثرها على من يمر به يمينا وشمالا، وخلف الكدش اثنان من عبيد الدار أيضا.

وتلا كدش العروس ما يزيد على السبعين كدشا، قيل إنها حاملة للجواري التي أعطى السلطان ابنة أخيه /55/ بقصد خدمتها، في كل كدش عدة منهن. ولما انتهت الأكداش في سيرها متتالين، ردفتهم جماعة من أهل الطبول والمزامير وما شاكل ذلك راكبين على خيولهم، واستمر ذلك الجمع الغفير إلى أن وصلوا العروس إلى بيتها، وأقعدوها مجلوة فوق تختها. وقد أخبرت أنهم قدروا أواني الفضة التي أعطى السلطان ابنة أخيه من جملة جهازها بسبعة وثلاثين قنطارا بالوزن المغربي الآن، ومن الحسك الذهبية خمسون، وأما الفرش والستور والبسط وغير ذلك فلا نطيل به وليقس على ما قبله.

وصف الاحتفالات بعيد المولد النبوي

وقد حضرنا في هذه المدينة في الموسم النبوي ولهم اعتناء به، إلا أنهم ربما يتجاوزون يوم الموسم لغرض للإمام في ذلك، فيجعلون الموسم في غير محله كما وقع ونحن هناك، فقد كانت ليلة الموسم ليلة الثلاثاء فتجاوزوها إلى ليلة الأربعاء، فأوقدوا جميع منارات القسطنطينية، وفي صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع النبوي، اجتمع الناس بمسجد السلطان أحمد وتوجهنا في جملة الناس مغسلين وصلينا به الصبح، ثم جعل فراش ملاصق للمحراب وعن يمينه وشماله، لكن الفراش الذي بباب المحراب أعلى جرما، ثم أتت فقهاء البلد وعلماؤها وأخذوا مجالسهم.

والعادة أن يكتب الوزير إلى الفقهاء والأعيان يستدعيهم إلى حضور الموسم، ثم أتى صهر السلطان على ابنة أخيه فقعد على الفراش، ثم أتى

---

(128) الخرج بضم الخاء وسكون الراء، وعاء يوضع على ظهر الدابة، وهو جوالق ذو أونين، لحمل المواد الدقيقة مثل الحبوب والرمل وغيرها. (لسان العرب، 2- 252)

شيخ الإسلام فقعد أمام المحراب في المرتبة العليا بعد أن قام له جميع الناس، ثم أتى الوزير الأعظم فقام له شيخ الإسلام وجميع الناس، فقعد حذاء شيخ الإسلام في المرتبة العليا، وقعد جميع أرباب الدولة وأعيانها على

مراتبهم عن يمين الوزير، وشيخ الإسلام /56/ والقضاة الكبار عن يساره وبقية الفقهاء أمامه.

وبعد ذلك أتى السلطان فقعد بموضع معين له عال، وبه يصلي الجمعة يصعد إليه من خارج المسجد، فيشرف على المحراب وبه شباك محيط به بحيث يرى الناس هو وقبيله من حيث لا يرونهم، وفتح منه طاق ثم أغلق إشارة للسلام على الحاضرين، فقام جميع من في المسجد إجلالا له (سوى رجل من رفقائنا لم يقم من قلة أدبه، فكدر الناس وعكر عليهم وحصل له مقت)[129]، ثم صعد رجل على كرسي وأخذ في مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم بلغة الترك[130]، ثم نزل فخلع عليه خلعة ودفع بيده كيس، ثم صعد ذلك الكرسي رجل آخر فقرأ مثل الأول ثم نزل، فخلعت عليه خلعة ودفع له كيس، ثم صعد آخر ففعل وفعل معه مثل ما تقدم، ثم تناوب ثلاثة رجال آخرون كرسيا آخر لعلهم أصغر مرتبة ممن تقدم، ففعلوا مثل الأولين وأعطوا من الخلع والأكياس مثل ذلك.

وفي خلل هذا المديح طيف بالطيب والبخور في المسجد بعد أن وضعوا ذلك أمام الوزير وشيخ الإسلام، ثم أوتي بموائد كثيرة فيها أنواع الحلاوات والأشربة على ألوان مختلفات، ووضعت أمام الوزير والفقهاء وأكابر الدولة وأعيانها، ثم فرق على القوم تمر ورد من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بقصد التبرك.

---

(129) وردت هذه الجملة في الطرة من (أ) استدراكا وتصحيحا. ويحمل ابن عثمان هذا التصرف مسئولية جفاء رجال الدولة العثمانيين وإهمالهم للسفارة وأعضائها كما نفصل في الدراسة.

(130) كانت تتلى "المولديات" في قصر السلطان احتفاء بالمولد النبوي الشريف، وهي القصائد التي تمدح النبي (ص) من أشهرها في تركيا العثمانية مولدية سليمان شلبي المتوفي سنة 825هـ/ 1427م، والتي لاتزال تقرأ في المساجد التركية(E., I., 6 -886-888) .

ثم إن العادة عندهم أن الحجاج حين يقفلون من الحج ويصلون إلى الشام، يقدمون بين أيديهم سفيرا بالإعلام للسلطان بأحوال الموسم وأحوال الركب وما وقع فيه، وحيث يرد السفير فالغالب عليه أنه يرد على القسطنطينية قبل العيد بأيام، فيقيم بداره إلى أن يكون يوم الموسم المذكور، فيلبس ثياب السفر ويتوجه إلى المسجد الذي يقع فيه الموسم /57/ كأنه قدم حينئذ.

ومن العادة أيضا عندهم أن الذين يقرأون المديح، حين يصلون في المديح إلى ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، مثل قول البوصيري رضي الله عنه "ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء"، يقوم السلطان والناس جميعا إجلالا له صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك القيام يدخلون عليه[131] سفير الركب النبوي بالمكاتب، فيؤديها إليه ويخلع عليه خلعة ويجزل أعطيته وينصرف، وعلة دخول هذا السفير في ذلك القيام هو أن السلطان لا بد أن يقوم لأخذ البراوات المشتملة على أخبار الحرمين الشريفين والركب، ولعله يتلكى (كذا) أن يقوم للسفير أو يقوم قياما ثانيا، فيرصدون به قيامه لمولد النبي عليه الصلاة والسلام ويدخلونه عليه فيه ليكون قياما واحدا .

مواقف ابن عثمان من بعض الممارسات وانتقاداته ومؤاخذاته

وبعد أن فرغ الناس وتطيبوا، وأكلوا وشربوا وطربوا كسروا الأواني جميعا، بعد أن أراقوا من دمها نجيعا، لكن استنكرت عليهم تكسير الأواني وعدم التفاتهم إلى ضيوفهم، فإنهم لم يدعوهم إلى شيء مما تناولوه ولا بعثوا به إليهم، مع رؤيتهم إياهم وحضورهم معهم في مسجد واحد، وإنما كانوا يكرمون أنفسهم جبر الله حالنا وحالهم وجعل في ما يرتضيه قصدهم وأمالهم.

فإن السلطان منحجب عن العامة قاطبة، ورجال دولته منهمكون في

(131) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

الدنيا الكاذبة، فاعتكفوا على هوى النفس المتبع وابتلوا بشدة الطمع، مع الرضى على النفس، ورؤية تفضيل جنسهم على كل جنس، والتنافس في كثرة الأتباع، والشمخ بالأنف فلا يسلمون إلا إشارة بمد الباع.

/58/ فبينهم وبين هذا الجنس العربي تباين كلي وتنافر قولي وفعلي، لا يجنحون إليهم بحال وألفتهم إياهم كادت أن تكون من المحال، أنقذهم الله تعالى من هذه البلوى وسلك بنا[132] وبهم مسلك التقوى، لكن أوغر صدورهم قلة أدب رفيقنا وعدم قيامه للسلطان ولمولد النبي صلى لله عليه وسلم.

وصف متنزهات إستانبول

ومن ألطف متنزهات القسطنطينية موضع يقال له كاغيد خانه، مسمى باسم قرية هنالك بينها وبين الموضع المذكور نحو مسيرة نصف ساعة، فهي أمامه على ربوة كان يصنع فيها الكاغيد في ماضي الزمان، فسمي باسم ذلك المكان، وخانه عندهم بمعنى الدار كأنه يقال دار الكاغيد، إضافة مقلوبة وهكذا سائر اللغة التركية يقدمون المضاف على المضاف إليه والموصوف على صفته.

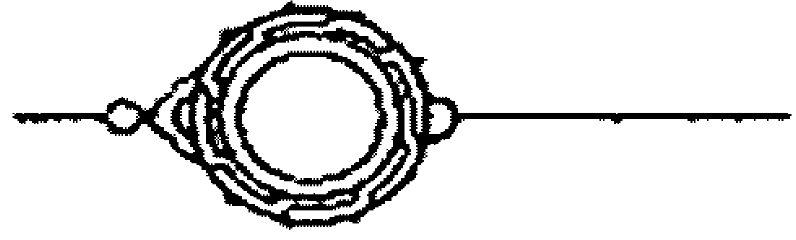
ثم إن السلطان أحمد أبا السلطان عبد الحميد الموجود الآن، أتى بوادي كان مارا بناحية أخرى، وحفر له مجرى إلى البحر من ناحية أبي أيوب الأنصاري، وصرفه إليه وجعل عليه مقاعد من الرخام على أشكال، وأخواص متعددات من الرخام أيضا على متن الوادي من إحدى العدوتين إلى الأخرى كالجسر يعبر عليها، وهي تجري بالماء مقبوض بعضها في بعض بصفائح الحديد، وفي إحدى ناحيتي الوادي مجال كبير دائرة به الخشب مغروزة في الأرض، وفي داخله مهاريس لإخراج البنب[133] بقصد تعلم الرماية والتدريب والمران.

---

(132) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(133) القنابل.

وكثيرا ما يتوجه السلطان إلى التنزه والتفرج هنالك وكذا سائر الناس على شاطئ الوادي، فله منظر عجيب حافتاه مبنيتان بالبناء، وهو في غاية الاستقامة وحواليه أشجار، فيجتمع هنالك في زمن الربيع والمصيف خلق كثير، يركبون في الفلائك الصغار ويطلعون مع الوادي إلى الموضع /59/ المذكور، حتى النساء والصبيان فالرجال في ناحية والنساء في ناحية.



ظهور رجل يدعي أنه مقدمة المهدي وخوض ابن عثمان طويلا في الموضوع

وقد ظهر رجل يقال له منصور(134) وخبره شائع في هذه البلاد ومذكور، وذلك في سنة مائتين وألف، وهو من قرية من قرى جاجان قوبيا من داغستان في العجم، يقال لأهله لازكي وبلادهم قريب من بحر خرز(135)، وعليه جمع من الناس ويزعم أنه ينتظر رجلا آخر، فيرى الناس أنه مقدمة المهدي المنتظر في آخر الزمان ويروا (كذا) أنه الموعود به في الحديث.

فمن "مشكاة المصابيح" للبغوي في باب أشراط الساعة، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث، على مقدمته رجل يقال له منصور، يوطن أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب على كل مؤمن نصره أو قال إجابته، رواه أبو داوود(136).

(134) يقصد الإمام منصور أوشيرما من الشيشان الذي تزعم حركة ضد روسيا، وتمكن سنة 1785 من تكبيد جيوش الإمبراطورة كاترين الثانية هزيمة مهينة، وقد ألقي عليه القبض سنة 1791 ومات في السجن سنة 1794. واللافت أن أخبار هذه الحركة بلغت إستانبول ووجدت صدى لها باعتبارها حلقة في سلسلة الحركات الإسلامية التي ناهضت تردي الأوضاع. (أنظر: إبراهيم درويش، جهود الإصلاح والتحديث في آسيا الوسطى، جريدة القدس العربي، عدد 3771، 28 يونيو/ حزيران 2001، ص. 13).

(135) الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على بحر قزوين.

(136) أبو داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (202-275هـ/ 817-889م)، إمام أهل الحديث في زمانه ناسك صالح، أصله من سجستان ورحل رحلة طويلة لجمع أحاديث النبي حتى نزل البصرة وبها توفي. جمع كتاب "السنن" وضمنه 4800 حديثا وعرضه على شيخه ابن حنبل واستحسنه. (الزركلي 3-122؛ دائرة المعارف 1-338؛ ابن خلكان 2-404)

ولا بأس أن نورد ما يتعلق بألفاظ الحديث الشريف، فمن "شرح المشكاة" لعلي القاري[137] عليه رحمة الباري، قوله عليه السلام يخرج رجل أي صالح، وقوله من وراء النهر أي مما وراءه من البلدان كبخارى وسمرقند ونحوهما، وقوله يقال له الحارث اسم له، وقوله حراث بتشديد الراء صفة له أي زراع، وقوله على مقدمته أي مقدمة جيشه رجل يقال له منصور إسم له أو صفة، وقيل المراد به أبو منصور الماتريدي، وهو إمام جليل مشهور وعليه مدار أصول الحنفية في العقائد الحنفية.

لكن إيراد هذا الحديث في هذا الباب غير ملائم له، ومع هذا لا يمنع الاحتمال والله أعلم بالحال، مع أن عنوان الباب أشراط الساعة /60/ وهو الأعم من المهدي وغيره. ونقل عن خواجه عبيد الله السمرقندي النقشبندي أنه قال: المنصور هو الخصر(كذا)، ومثل هذا لم يصدر عنه إلا بنقل أو كشف حال. وقوله يوطن أي يقرر ويثبت الأمر، وأصل التوطين جعل الوطن لأحد، وقوله أو يمكن شك من الراوي، ومنه قوله تعالى الذين إن مكنهم في الأرض الآية[138]، أو هي بمعنى الواو أي يهيئ الأسباب بأمواله وخزائنه وسلاحه، ويمكن أمر الخلافة ويقويها ويساعدها بعسكره، وقوله لآل محمد أي لذريته، أو الآل مقحمة والمعنى لمحمد المهدي، وقوله كما مكنت قريش أي كتمكنهم، وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد من آمن منهم، ودخل في التمكن أبو طالب أيضا[139] وإن لم يؤمن عند أهل السنة، وقال الطيبي قوله يمكن لآل محمد أي في الأرض، كقوله تعالى: [مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم][140]، أي جعل له في الأرض مكانا، وأما مكنته في الأرض فأثبته فيها، فمعناه جعلهم في الأرض ذوي

---

(137) الملا علي بن محمد نور الدين الهروي القاري (ت.1014هـ/ 1606م) فقيه من صدور العلم في عصره، ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها. من كتبه "شرح مشكاة المصابيح" و"سيرة الشيخ عبد القادر الجيلاني". (الزركلي 5 - 12).

(138) الآية 41 سورة الحج.

(139) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(140) الآية 6 سورة الأنعام.

بسطة في الأموال أو نصرة على الأعداء، وأراد بقوله كما مكنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قريش آخر أمرها، فإن قريش وإن أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم أولا من مكة لكن بقاياهم وأولادهم أسلموا، ومكنوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حياته وبعد مماته انتهى.

ولا يخفى أن المراد في الآية غير التمكن في الحديث، مع أن المراد من تمكين المشبه تمكينه في أول أمره، فلا يحسن حمل المشبه على آخر أمره، ثم قوله أخرجوا ليس على ظاهره الموهم لإهانته صلى الله عليه وسلم، ولذا قيل بكفر من أطلق هذا القول، وتأويله أنهم تسببوا في خروجه بالهجرة إلى مكان أنصاره بالمدينة المعطرة، فقوله / 61/ تعالى: [وكائن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك][141]، على حذف مضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه، والإخراج باعتبار التسبب على ما صرح به البيضاوي[142] وغيره.

وقوله وجب على كل مؤمن نصره أي نصر الحارث وهو الظاهر، أو نصر المنصور وهو الأبلغ، على أهل بلادهما ومن يمران به وجوب نصرهما، أو نصر من ذكر منهما أو نصر المهدي بقرينة المقام، أو لكونهما من أنصار المهدي، وقوله أو إجابته شك من الراوي والمعنى قبول دعوته والقيام بنصرته، وقوله رواه أبو داوود أي في باب المهدي بناء على المعنى المتبادر، أو لما قام عنده من الدليل الظاهر قال السيد وفيه انقطاع.

ولما جرا الكلام على خبر المهدي فنورد بعض أحاديث تتعلق بخبره، فمن مشكاة المصابيح وعن أم سلمة[143] عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(141) الآية 13 سورة محمد.

(142) عبد الله بن عمر البيضاوي (ت.685 أو 691هـ/ 1282 أو 1291م)، أحد مفسري القرآن وابن قاضي قضاة فارس في عهد الأتابك أبي بكر سعيد (613-658هـ/ 1226-1260م)، ولي القضاء في شيراز ثم استقر في تبريز حيث توفي، له تصانيف أهمها "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" الذي يعتبر أحسن التفاسير عند السنة، و"منهاج الوصول إلى علم الأصول" و "طوالع الأنوار من مطالع الأنظار". (دائرة المعارف 4. 417).

(143) أم سلمة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، من أزواج النبي تزوجها سنة 4 هـ (الإصابة 4 . 407) وورد خطأ في المخطوط أنها بنت سفيان.

قال: يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب[144]، فيبعث إليهم جيشا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب، ويعمل في الناس بسنة نبيهم ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض، فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون، رواه أبو داوود.

وعن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاء يصيب هذه الأمة، حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجا إليه من الظلم، فيبعث الله رجلا من عترتي وأهل /62/ بيتي، فيملأ به الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطرها شيئا إلا صبته مدرارا، ولا تدع الأرض من نباتها شيئا إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء الأموات، يعيش في ذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين. رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح.

ذكر ما يتعلق بألفاظ الحديثين، فمن شرح المشكاة لعلي القاري عليه رحمة الباري: فقوله صلى الله عليه وسلم يكون أي يقع، وقوله اختلاف أي فيما بين أهل الحل والعقد، وقوله عند موت خليفة أي حكمية وهي الحكومة السلطانية بالغلبة التسليطية، وقوله فيخرج رجل من أهل المدينة، أي كراهية لأخذ منصب الإمارة أو خوفا من الفتنة الواقعة فيها، وهي المدينة المعطرة أو المدينة التي فيها الخليفة، وقوله هاربا إلى مكة لأنه يأمن كل من التجأ إليها أو معبد كل من سكن فيها .

قال الطيبي: وهو المهدي بدليل إيراد أبي داوود هذا الحديث في باب المهدي، وقوله فيأتيه ناس من أهل مكة، أي بعد ظهور أمره ومعرفة نور قدره، وقوله فيخرجونه أي من بيته، وقوله وهو كاره أي إما بلية الإمارة

(144) يقصد قبيلة كلب العربية المشهورة.

أو خشية الفتنة والجملة حالية معترضة، وقوله فيبايعونه بين الركن أي الركن الأسعد وهو الحجر الأسود، وقوله والمقام أي مقام إبراهيم عليه السلام ويقع بين زمزم أيضا، وهذا المثلث هو المسمى بالحطيم من الزمن القديم، وسمي به لأن من حلف فيه وحنث أو خالف العهد ونقض، حطم أي كسر رقبته وقطع حجته /63/ وأهلك دولته، وقوله عليه السلام ويبعث إليه بصيغة المجهول أي يرسل إلى حربه وقتاله، مع أنه من أولاد سيد الأنام وأقام في بلاد الله الحرام، وقوله بعث من الشام جيش من أهل الشئامة والملامة، وقوله فيخسف بهم أي كرامة للإمام، وقوله بالبيداء بفتح الموحدة وسكون التحتية، وقوله بين مكة والمدينة لعل تقديم مكة لفضيلتها وتقدمها، قال النوريشتي هي أرض ملساء بين الحرمين، وفي الحديث يخسف بالبيداء بين المسجدين وليست البيداء التي أمام ذي الحليفة وهي شرف في الأرض.

قلت ولابدع أن تكون هي إياها مع أنه المتبادر منها، (ولعل الشيخ ظفر بنقل صريح أو بنى على أن طريق أهل الشام من قديم الأيام ليس على المدينة)[145]، ولهذا جعل ميقاتهم الجحفة لكنهم عدلوا عن طريقهم المشهورة، ومالوا إلى دخول المدينة المطهرة لمصالح دينية ومنافع دنيوية، وأما إذا كان غرضهم محاربة المهدي، فمن المعلوم أنهم لا يطولون على أنفسهم المسافة، بل يريدون المسابقة والمسارعة إلى المحاربة. وقوله فإذا رأى الناس ذلك، أي ما ذكر من خرق العادة وما جعل للمهدي من العلامة، وقوله أتاه أبدال الشام أي ونعم البدل من الكرام عن اللئام، وفي النهاية أبدال الشام هم الأولياء والعباد، الواحد بدل كجمل أو بدل كحمل، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد بدل بآخر .

قال الجوهري[146] الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا

(145) سقطت هذه الجملة من (أ) ووردت في (ب).

(146) الحسن بن علي بن محمد الجوهري (362-454هـ/ 972-1062م)، محدث قيل عنه انتهى إليه علو الرواية في الدنيا، شيرازي الأصل بغدادي الإقامة والوفاة، أملى مجالس كثيرة. (الزركلي 2-202؛ شذرات الذهب 3-292).

مات واحد بدل الله مكانه بآخر، قال ابن دريد واحده بديل، قلت ويؤيده أنه يقال لهم بدلاء أيضا، فيكون نظير شريف وشرفاء وأشراف، ثم قيل إنهم سموا أبدالا لأنهم قد يرتحلون إلى مكان، ويقيمون في مكانهم الأول شبحا /64/ أو شبيها بشبحهم الأصلي بدلا عنه. وفي القاموس الأبدال قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض، وهم سبعون أربعون بالشام وثلاثون في غيرها انتهى.

والظاهر أن المراد بالشام جيهته (كذا) وما يليه مما وراءه، لا بخصوص دمشق الشام والله أعلم بالمرام، ثم يحتمل أنهم سموا أبدالا لأنهم أبدلوا الأخلاق الدنية بالشمائل المرضية، أو لأنهم ممن بدل الله سيئاتهم حسنات. وقال القطب الحقاني الشيخ عبد القادر الجيلاني[147] إنما سموا أبدالا لأنهم فنوا عن إرادتهم، فبدلت بإرادة الحق عز وجل، فيريدون بإرادة الحق أبدال الوفاة، فذنوب هؤلاء السادات أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم، على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة، فيدركهم الله تعالى برحمته باليقظة والتذكرة، فيرجعون عن ذلك ويستغفرون الله تعالى. أقول ولعل العارف ابن الفارض[148] أشار إلى هذا المعنى في قوله:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا حكمت بردتي

فإن حسنة الأبرار سيئة المقربين، وقد علم كل أناس مشربهم من ماء معين والله المعين.

---

(147) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني (471-561هـ/ 1078-1166م)، مؤسس الطريقة القادرية ومن كبار المتصوفة والزهاد، ولد في جيلان وراء طبرستان وانتقل إلى بغداد شابا سنة 488هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وتفقه واشتهر، تصدر للتدريس والإفتاء ببغداد سنة 528هـ وتوفي بها. له كتب منها "الفتح الرباني" و "فتوح الغيب" و "الفيوضات الربانية". (الزركلي 4-47؛ شذرات الذهب 4-198؛ ابن الأثير 11-121).

(148) عمر بن علي شرف الدين أبو القاسم المصري السعدي ابن الفارض (576-632هـ / 1181-1235م)، شاعر متصوف شهير، أصله من حماة وولد بالقاهرة، درس الفقه الشافعي والسنة ثم انهمك في التصوف، حيث قضى سنوات من الخلوة على تلال المقطم قرب القاهرة، مما أكسبه تبجيلا من طرف العامة إلى أن توفي بالقاهرة حيث لايزال قبره مزارا. اشتهر بديوانه الأصيل الذي يمتاز بشعره الموسيقي ذي المسحة الصوفية وبحكمه(E., I., 3 -786).

وقوله عليه السلام وعصائب أهل العراق أي خيارهم، من قوله عصبة القوم خيارهم، ولعله من قوله تعالى: [ونحن عصبة][149]، أوطوائفهم، فإن العصابة تأتي بمعنى الجماعة يتعصب بعضهم لبعض، ويشد بعضهم ظهر بعض ويعضده، وفي النهاية العصائب جمع عصابة، وهي الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها، ومنه حديث علي رضي الله عنه الأبدال بالشام والنجباء بمصر والعصائب /65/ بالعراق، أراد أن التجمع للحروب يكون بالعراق، وقيل أراد جماعة من الزهاد سماهم بالعصائب لأنه قرنهم بالأبدال والنجباء. ذكر أبو نعيم الأصبهاني[150] في حلية الأولياء بإسناده عن ابن عمر[151] رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل في الأربعين)، وكأنهم قالوا يارسول الله دلنا على أعمالهم، قال: (يعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله عز وجل). وبإسناده أيضا عن عبد الله[152] قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله عز وجل في الخلق سبعة، وساق الحديث إلى قوله فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع

---

(149) الآيتين 8 و14 سورة يوسف.

(150) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الأصفهاني (336-430هـ/ 948-1038م)، محدث وفقيه شافعي ولد وتوفي بأصفهان، اشتهر بكتابه الضخم "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" وله أيضا "تاريخ أصفهان". (دائرة المعارف 1-412).

(151) عبد الله بن عمر بن الخطاب (10ق.هـ-73هـ/ 613-692م)، صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية، كان جريئا جهيرا، نشأ في الإسلام وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة وفيها ولد ومات. أفتى الناس في الإسلام 60 سنة ورفض الخلافة بعد مقتل عثمان. غزا إفريقية مرتين (34هـ) وله 2630 حديثا (الزركلي 4-108؛ ابن خلكان 3-28؛ ابن سعد 4-105).

(152) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (ت.32هـ/ 653م)، صحابي من أوضع طبقات أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن، كان صاحب سر الرسول ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، ولي بعد وفاة الرسول بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان وتوفي بها. كان محدثا وحجة في القرآن، له 848 حدثا. (الزركلي 4-137؛ دائرة المعارف 1-275).

البلاء. قيل لعبد الله بن مسعود وكيف بهم يحيي ويميت، قال لأنهم يسألون الله عز وجل إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء انتهى.

والمعنى أن الأبدال والعصائب يأتون المهدي فيبايعونه، وقوله عليه السلام ثم ينشأ أي يظهر، وقوله رجل من قريش هذا هو القوي الذي يخالف المهدي، وقوله أخواله كلب هي قبيلة فتكون أمه كلبية، وفيه إشارة خفية وبشارة جلية، وتفاؤل بغلبة ذرية خير البرية. قال التوريشتي يريد أن أم القرشي تكون كلبية، فينازع المهدي في أمره ويستعين عليه بأخواله من بني كلب، وقوله فيبعث أي الكلبي، قوله إليهم أي إلى المبايعين للمهدي، /66/ قوله بعثا أي جيشا، قوله فيظهرون عليهم أي فيغلب المبايعون على البعث الذي بعثه الكلبي، قوله وذلك أي البعث، قوله بعث كلب أي جيش كلب باعثه هو نفس الكلبي، قوله ويعمل أي المهدي، قوله في الناس بسنة نبيهم أي بشريعته، قوله ويلقي بضم أوله أي يرمي ويرخي، قوله الإسلام أي المشبه بالبعير المنقاد للأنام، قوله بجرانه بكسر الجيم فراء فنون وهو مقدم عنقه أي بكماله، ففيه مجاز التعبير عن الكل بالجزء، كإطلاق الرقبة على المملوك، وفي النهاية الجران باطن العنق، ومنه الحديث أن ناقته صلى الله عليه وسلم وضعت جرانها، وحديث عائشة[153] رضي الله عنها حتى ضرب الحق بجرانه، أي قر الإسلام واستقر قراره واستقام.كما أن البعير إذا برك واستراح مد عنقه على الأرض، ضرب الجران مثلا للإسلام إذا استقر قراره، فلم تكن فتنة وجرت أحكامه على السنة والاستقامة والعدل، قوله عليه السلام فيلبث بفتح الباء الموحدة أي المهدي

---

(153) عائشة بنت أبي بكر الصديق (9ق.هـ-58هـ/ 613-678م) أم المؤمنين، من أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، تزوجها النبي سنة 2 هـ وكانت أحب النساء إليه وأكثرهن رواية للحديث عنه، ولها خطب ومواقف وكانت من أشد الناقمين على عثمان وموقفها معروف في وقعة الجمل. توفيت بالمدينة وروي عنها 2210 حديثا. (الزركلي 3-240؛ ابن سعد 8 - 46؛ الطبري 3-67؛ ابن خلكان 3-16).

بعد ظهوره، قوله سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون رواه أبو داوود، قال الحافظ السيوطي(154) في تعليقه على أبي داوود: ولم يرد في الكتب الستة بدل الأبدال إلا في هذا الحديث عند أبي داوود ، وقد أخرجه الحاكم وصححه، وقال الشيخ زكرياء في رسالته المشتملة على تعريف غالب ألفاظ الصوفية، القطب ويقال له الغوث، هو الواحد الذي هو(155) محل نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، أي نظرا خاصا يترتب عليه إفاضة الفيض واستفاضته، فهو الواسطة في ذلك بين الله تعالى /67/ وبين عباده، فيقسم الفيض المعنوي على أهل بلاده بحسب تقديره ومراده، ثم قال الأوتاد أربعة، منازلهم على منازل الأركان من العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، مقام كل واحد منهم مقام تلك الجيهة.

قلت: فهم الأقطاب في الأقطار يأخذون الفيض من قطب الأقطاب المسمى بالغوث الأعظم، فهم بمنزلة الوزراء تحت حكم الوزير الأعظم، فإذا مات القطب الأفخم أبدل من هذه الأربعة أحد بدله غالبا، ثم قال الأبدال قوم صالحون لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل مكانه آخر وهم سبعة. قلت الإبدال اللغوي صادق على رجال الغيب جميعا، وقد سبق للبدل معنى آخر فالأولى حمله عليه، ولعلهم خصوا بذلك لكثرتهم ولحصول كثرة البدل فيهم لغلبتهم، فإنهم أربعون على ما في الحديث السابق، أو

---

(154) أبو الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الخضيري الشافعي (849-911هـ/ 1445-1505م)، سليل أسرة فارسية ذات شأن استقرت بمصر حيث ولد السيوطي بالقاهرة. وبعد إتمام دراسته تولى منصب الأستاذية الذي كان يشغله أبوه بتوصية من شيخه البلقيني. وينفرد هذا العالم بغزارة وتنوع تآليفه بحيث خلف تراثا لاغنى عنه في الدراسات الإسلامية، ومن بين كتبه "كتاب الدر المنثور في التفسير المأثور" و "لباب النقول في أسباب النزول " المعروف بتفسير الجلالين لكون الكتاب بدأه شيخه جلال الدين المحلي، و"جامع المسانيد " أو "جامع الجوامع" في الحديث واختصره في "الجامع الصغير في الحديث البشير النذير".كما ألف في التاريخ كتبا هي "بدائع الزهور في وقائع الدهور" و " تاريخ الخلفاء" و "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، وله كذلك مقامات ورسائل في علوم اللغة والنحو. (دائرة المعارف 13-27).

(155) سقطت من(أ) ووردت في (ب).

سبعون على ما ذكره صاحب القاموس، فقوله وهم سبعة وهم، ثم قال النقباء هم الذين استخرجوا خبايا النفوس وهم ثلاثمائة.

أقول: لعله أخذ هذا المعنى من النقب بمعنى الثقب، وإلا ظهر أن النقباء جمع نقيب وهو شاهد القوم وضمينهم وعريفهم على ما في القاموس، ومنه قوله تعالى: [وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا](156)، أي شاهدا من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلا يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به وعاهدوا عليه على ما في البيضاوي، والظاهر أنهم خمسمائة على ما سبق في الحديث.ثم قال النجباء هم المشتغلون بحمل أثقال الخلق وهم أربعون، أقول كأنه أخذ هذا المعنى من اللغة، / 68/ ففي القاموس ناقة نجيب ونجيبة وجمعه نجائب، والأنسب ما ذكر فيه أيضا من أن النجيب الكريم، والجمع نجباء والمنتخب المختار، ونجائب القرآن أفضله.

هذا وقد أخرج ابن عساكر(157) عن ابن مسعود مرفوعا أن لله تعالى ثلاثمائة نفس قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، وأربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكايل عليه السلام، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، كلما مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وكلما مات واحد من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وكلما مات من الخمسة واحد أبدل الله مكانه من السبعة، وكلما مات واحد من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وكلما مات واحد من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وكلما مات واحد من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، بهم يدفع الله هم هذه الأمة

---

(156) الآية 12 سورة المائدة.

(157) علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي (499-571هـ/ 1105-1176م)، المؤرخ الحافظ الرحالة.كان محدث الشام في وقته ورفيق السمعاني صاحب الأنساب في رحلاته، مولده ووفاته بدمشق، له "تاريخ دمشق الكبير" جمع فيه تراجم الرجال ذوي الصلة بدمشق، و" الإشراف على معرفة الأطراف" و "تاريخ المزة" و "معجم الصحابة".
(الزركلي 4-237؛ ابن خلكان 3-309؛ دائرة المعارف 1-237).

انتهى؛ وأرجو من الله تعالى من حسن فضله وكرمه أنه إذا وقع انحلال من هذه المناصب العلية، يجعلني منصوبا على طريق البدلية ولو من مرتبة العامة إلى أدنى مرتبة الخاصة، ويتم علي هذه النعمة مع الزيادة إلى حسن الخاتمة.

ثم في الحديث دلالة على ما ذكرنا من الاحتمال، أن يكون الإبدال لا يكون إلا من خواص الأبدال، بل يعم الرجال من أرباب الأحوال، وفيه تنبيه نبيه على أنه لم يذكر أن أحدا يكون على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يخلق الله عز وجل في عالمي الخلق والأمر أشرف ولا ألطف من قلبه الأكرم صلى الله عليه /69/ وسلم، وفيه أيضا ما يشعر بظاهره تفضيل خواص الملك على خواص البشر، وكذا تفضيل إسرافيل وميكايل على جبريل، والجمهور على خلاف ذلك والله اعلم.

هذا وقد قال العارف الصمداني الشيخ علاء الدين السمناني[158] في العروة الوثقى، أن بلالا[159] من بدلاء السبعة كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال هو من السبعة وسيدهم؛ أقول: لابد من ثبوت هذا عن ثقاة وسندهم. قال: وكان القطب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم عم أويس القرني عصام، فحري أن يقول إني لأجد نفس الرحمان من قبل

---

(158) الأصح علاء الدولة ركن الدين أبو المكارم أحمد بن شرف الدين محمد بن أحمد البيابناكي السمناني (659-736هـ / 1261-1336)، متصوف شهير سليل أسرة ذات جاه ونفوذ حيث كان أبوه عاملا على العراق وعمه وزيرا، اختار لنفسه طريق التصوف وسافر لملازمة الشيخ نور الدين عبد الرحمان الكاسرقي الإسفرائيني ببغداد، لكن مضايقات السلطة حالت بينه وبين شيخه، فلجأ السمناني إلى سمنان بخراسان، ثم عاد إلى بغداد بعد حجه. كان السمناني سنيا داعيا للصبر على تحمل القمع الشيعي في عهده، معاديا لأبن عربي الذي أفرد كتابات لمهاجمة تياره الصوفي ولعقيدة وحدة الوجود، تميز تصوفه بأذكار ذات إيقاعات خاصة، وحارب التسول ودعا إلى التمسك بحراثة الأرض، أهم كتاباته "العروة لأهل الخلوة" و"صفوة العروة (E., I., 1-357) ".

(159) بلال بن رباح الحبشي (ت.20 هـ/ 641 م)، مؤذن رسول الله وخازنه على بيت المال، من مولدي السراة وأحد السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع الرسول ولما توفي صلى الله عليه و سلم لم يؤذن بلال بعده الا حين قدم عمر إلى الشام حيث استقر بلال، توفي في دمشق وهو ابن بضع و ستين سنة، روى له البخاري ومسلم 44 حديثا. (ابن خلكان 3-70؛ الإصابة 1- 169؛ شذرات الذهب 1 - 31؛ الزركلي 2-73).

اليمن، وهو مظهر خاص للتجلي الرحماني، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم مظهرا خاصا للتجلي الإلهي المخصوص باسم الذات وهو الله. قلت: هذا يفيد مؤيدا إلى ما سبق من أن أحدا لم يشاركه صلى الله عليه وسلم في مقامه الأعظم، لكن في كون القطبية لعصام، وهو غير معروف في أنه من الصحابة أو التابعين بخلاف أويس[160] فإنه مشهور، وقد ورد في حقه أنه سيد التابعين، إشكالا عظيما، فإنه كيف تكون له القطبية الكبرى مع وجود الخلفاء الأربعة وسائر فضلاء الصحابة، الذين هم أفضل الناس بعد الأنبياء بالإجماع، وأيضا فقد قال اليافعي رحمه الله وقد سترت أحوال القطب وهو الغوث عن العامة والخاصة غيرة من الحق عليه، لكني أقول الظاهر أن هذا غالبي لثبوت القطبية للسيد عبد القادر الجيلاني[161] فلا نزاع.

ثم اعلم أن كثيرا من الناس ادعى أنه المهدي، فمنهم من أراد المعنى اللغوي ولا إشكال، ومنهم من ادعى باطلا وزورا، واجتمع عليه جمع من الأوباش وأراد الفساد في البلاد، فقتل واستراح /70/ منه العباد، ومنهم من رأى واقعة الحال، فحملها شيخه على الآفاق، وكان حقه أن يحملها على الأنفس لئلا يحصل الاختلال، وهو رئيس النوربخشية أحد مشايخ الكبروية، وقد ظهر في البلاد الهندية جماعة تسمى المهدوية، ولهم رياضات عملية وكشوفات سفلية وجهالات ظاهرية، ومن جملتها أنهم يعتقدون أن المهدي الموعود هو شيخهم، الذي ظهر ومات ودفن في بعض بلاد خراسان[162]، وليس يظهر غيره مهدي في الوجود، ومن ضلالتهم أنهم يعتقدون أن من لم

---

(160) هناك اضطراب في اسم هذا الشخص، فقد ورد في الإصابة أن اسمه أوس بن أوس الثقفي، وهو الصحابي الذي روى له أصحاب السنن الأربعة أحاديث صحيحة، ويشير ابن حجر إلى أن بعضهم ذهب إلى أن أوس بن أبي أوس (أو أويس) هو نفسه، في حين يعتبره البعض شخصا ثانيا هو أوس بن حذيفة بن ربيعة الذي روى له بدوره أبو داوود والنسائي وتوفي سنة 59هـ، أما الاسم كما ورد في المخطوط أويس فلم نقف عليه. (الإصابة 1 . 92 و 94 و137؛ الاستيعاب 1 -51)

(161) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(162) خراسان، قطر معروف وإقليم شاسع أول حدوده مما يلي العراق قصبة جوين وآخر حدوده مما يلي الهند طخارستان وسجستان وكرمان، تضم بلدانا شهيرة مثل نيسابور وهراة ومرو

يكن على هذه العقيدة فهو كافر، وقد جمع شيخنا العارف بالله الولي الشيخ علي التقي، رسالة جامعة في علامات المهدي منتخبة من رسائل السيوطي، واستفتى من علماء عصره الموجودين بمكة من المذاهب الأربعة، وقد أفتوا بوجوب قتلهم على من يقدر عليهم من ولات (كذا) الأمر.

وكذا معتقد الطائفة الشيعية من الإمامية، أن المهدي الموعود هو محمد بن حسن العسكري، وأنه لم يمت بل هو مختف عن أعين الناس من العوام والأعيان، وأنه إمام الزمان وأنه سيظهر في وقته ويحكم في دولته، وهو مردود عند أهل السنة والجماعة، والأدلة مستوفاة في الكتب الكلامية، وقد صرح في العروة الوثقى بأن محمد بن الحسن العسكري إذا اختفى دخل في دائرة الأبدال أولا، وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأبدال، ثم دخل في دائرة الأبطال يعني دائرة الأربعين وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأبطال، ثم دخل في دائرة السياح وهم السبعة وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد السياح، ثم دخل في دائرة الأوتاد وهم الخمسة /71/ وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأوتاد، ثم دخل في دائرة الأفذاذ وهم الثلاثة وبقي فيهم حتى لم يبق منهم أحد فصار سيد الأفذاذ، ثم جلس على الأريكة القطبية بعد أن توفى الله إليه علي بن الحسن البغدادي القطب، ودفن ببغداد في الشرقين بروح وريحان، وبقي في المرتبة القطبية تسع عشرة سنة، ثم توفاه الله إليه بروح وريحان انتهى.

وقد نقل مولانا عبد الرحمان الجامي[163] قدس الله سره السامي هذا عنه في بعض كتبه، واعتمد عليه في اعتقاده، لكن لا يخفى أن الشيخ علاء

وبلخ، لخص ذلك بعضهم بقوله " الدنيا خراسان". فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا وأبلى أهلها البلاء الحسن في نشر الدين والذود عنه، كما لعبوا أدوارا رائدة في التاريخ العربي الاسلامي في مجالات السياسة والعلوم.(معجم البلدان 2-350؛ الروض 214)

(163) عبد الرحمان بن أحمد بن محمد الجامي (817-898هـ/ 1414-1492م)، مفسر فاضل من جام (ما وراء النهر)، انتقل إلى هراة وتفقه وصحب مشايخ الصوفية، وطاف البلاد وعاد إلى هراة حيث توفي، له "تفسير القرآن" و "شرح نصوص الحكم لابن عربي".(كشف الظنون 1372؛ الزركلي 3-296).

الدولة ظهر بعد محمد بن الحسن العسكري بزمان كثير، ولم يسند هذا القول إلى من كان في ذلك الوقت، والظاهر أنه يدعي هذا عن طريق الكشف، وكذا لا يمكن من غيره أيضا إلا كذلك، ولا يخفى أن مبنى الاعتقاد لا يكون إلا على الأدلة اليقينية، ومثل هذا المعنى الذي أساسه على ذلك المبنى لايصلح أن يكون من الأدلة الظنية، ولذا لم يعتبر أحد من الفقهاء جواز العمل في الفروع الفقهية بما يظهر للصوفية في الأمور الكشفية، أو من الحالات المنامية ولو كانت منسوبة إلى الحضرة النبوية عليه أفضل الصلاة وأكمل التحية.

لكن الأحاديث الواردة في أحوال المهدي ما جمعه السيوطي وغيره ترد على الشيعة في اعتقاداتهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، بل جعلوا تمام إيمانهم وبناء إسلامهم وأركان أحكامهم، بأن محمد بن الحسن العسكري هو الحي القائم المنتظر وهو المهدي الموعود، على لسان صاحب المقام المحمود والحوض المورود. وقد ورد بل صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يواطيء / 72/ أي يوافق اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي)، فتعسف بعض الشيعة فقالوا إن هذا تحريف، والصواب اسم أبيه اسم ابني بالنون يعني الحسين، وأن المراد بأبيه جده الحسين والمراد باسمه كنيته، فإن كنية الحسين أبو عبد الله، فمعناه أن كنية جده الحسين يوافق اسم والد النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لاعتقادهم أنه محمد بن الحسن العسكري وهو باطل من وجوه، أما الأول فلهذه التعسفات، والثاني فلأن محمد بن الحسن العسكري هذا مات وأخذ عنه عمه جعفر ميراث أبيه الحسن، والثالث فلأن المهدي يبايع وهو ابن أربعين سنة أو أقل، ولو كان هو لزاد على سبعمائة سنة، والرابع فلأن مولد المهدي في المدينة بخلافه، والخامس فلأن رواية ابن المناوي عن علي عنه عليه السلام يجيء بالمهدي محمد بن عبد الله، بل وكثير من الأحاديث صريحة في رد ما قالوه وروجوه.

تنبيه للشيخ عبد الوهاب الشعراني[164] في كتابه "اليواقيت والجواهر"،

---

(164) عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي - نسبة إلى محمد بن الحنفية - الشعراني (898-973هـ / 1493-1565م)، من علماء المتصوفين، ولد في قلقشندة بمصر ونشأ بساقية أبي شعرة وإليها

أنه مشى على هذا القول ونسبه للفتوحات المكية، وليس فيه ذلك بل فيه خلاف ذلك، وهو أن المهدي من أولاد الحسن ولا شك أن العسكري من أولاد الحسين، والظاهر أن هذا مدسوس على الشعراني، ويؤيده أنه في حياته لم يحرر الكتاب المذكور، وأنه قال فيه لا أحل لأحد يروي عني هذا الكتاب حتى يعرضه على علماء المسلمين ويحرروا [ما فيه][165]، ومما دس عليه أيضا في طبقاته، أنه قال في ترجمة الحسين بن علي أن العقب منه فقط، لا من أخيه الحسن وهو أيضا من دسائس الرافضة.

وقوله عن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاء أي عظيما، قوله يصيب هذه الأمة حتى لا يجد الرجل ملجأ أي ملاذا يلجأ إليه أي يعوذ /73/ ويلوذ به، قوله من الظلم أي بلاء ناشئا من الظلم العام، قوله فيبعث الله رجلا، أي كاملا عادلا عالما عاملا وهو المهدي، قوله عليه السلام من عترتي أي أقاربي، قوله وأهل بيتي أي من أخصهم، قوله فيملأ أي الله به أي بسبب وجود ذلك الرجل، قوله الأرض أي جميعها وفي نسخة ضعيفة تملأ بالتأنيث مجهولا فالأرض مرفوع، قوله قسطا وعدلا تمييز من النسبة، قوله كما ملئت أي بغيره قوله ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء أي جنسه من الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام، قوله وساكن الأرض أي من المؤمنين أو حتى الدواب في البر والحيتان في البحر، والجملة استئناف بيان، قوله لا تدع السماء أي لا تترك في زمانه، قوله من قطرها شيئا أي من أقطار الأمطار، قوله إلا صبته أي كبته، قوله مدرارا في الفائق المدرار الكثير الدر، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم امرأة معطار ومطفال، وهو منصوب على الحال من السماء أي من فاعل صبته، وقوله ولاتدع الأرض من نباتها أي من أنواع نباتاتها

نسبته، توفي بالقاهرة. له تصانيف منها "الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية" و "إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين" و "الجواهر والدرر الكبرى" و "اليواقيت والجواهر في عقائد الاكابر". (الزركلي 4-180؛ الشذرات 8-372).

(165) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

وأصنافها، قوله شيئا الا اخرجته أي أنبتته وأظهرته، قوله حتى يتمنى الأحياء بفتح الهمزة جمع الحي مرفوع، وأخطأ من كسر الهمزة ونصبه، قوله الأموات بالنصب ومن عكس الترتيب لم يصب؛ قال التوريشتي الأحياء رفع بالفاعلية، وفي الكلام حذف أي يتمنون حياة الأموات أو كونهم أحياء، وإنما يتمنون ذلك ليروا ماهم فيه من الخير والأمن(166) ويشاركوهم فيه، ومن زعم فيه الأحياء بالنصب من باب الأفعال وفاعل التمني الأموات فقد أحال، قوله /74/ يعيش أي المهدي، قوله في ذلك أي فيما ذكر من البذل وأنواع الخير، قوله سبع سنين وهو مجزوم به في أكثر الروايات، قوله أو ثمان سنين شك من الراوي، وكذا قوله أو تسع سنين (رواه الحاكم في مستدركه)(167) وقال صحيح، لكن نقل الجزري(168) أن الذهبي(169) قال إسناده مظلم.

ولما جمح بنا جواد القلم إلى خبر المهدي المنتظر، فلنورد بعض ما يتعلق بخبره ومقدماته فنقول: ذكر الحافظ السيوطي في تأليفه "العرف الوردي في

(166) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(167) وردت هذه الجملة في متن النص مسبوقة ب" رواه ترك هنا بياضا بالأصل وألحق به".

(168) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مجد الدين أبي إسحاق إبراهيم الجزري الدمشقي (658-739هـ/ 1260-1338م)، ولد بدمشق وبها تلقى تعليمه على نخبة من العلماء، اشتهر بمؤلفه التاريخي " التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه" المعروف اختصارا بتاريخ الجزري، صنفه على طريقة تاريخ الإسلام للذهبي. ويعتبر هذا الكتاب كنزا ثمينا لو حفظت كل أجزائه. توفي الجزري بواسط(E., I., 2 -535))..

(169) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن قيماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي الدمشقي الشافعي (673-748هـ/ 1274-1348م)، مؤرخ وفقيه شافعي ولد وتوفي بدمشق، إهتم بدراسة الحديث والسنة في دمشق والقاهرة ومكة وحلب على كبار علماء وقته الذين ترجم لهم في معجمه، ومنهم يوسف المزي وابن دقيق العيد وأبي محمد الدمياطي. وبعد إجازته انتقل إلى التدريس في مدرسة أم الصالح بدمشق وذاع صيته حتى لقب بمحدث العصر وخاتم الحفاظ. تخرج على يديه تلاميذ نجباء منهم عبد الوهاب السبكي صاحب "طبقات الشافعية الكبرى"، وترك مؤلفات نالت نجاحا كبير في المشرق والمغرب، أهمها كتاب "تاريخ الإسلام" و"طبقات المشاهير والأعلام" و" تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال" و" المشترك في أسماء الرجال(E., I., 2-221.) ".

أخبار المهدي" عند ذكر الفتن المتصلة بخروجه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو)، رواه مسلم.

وعنه أيضا: (يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا)، متفق عليه. ومن مشكاة المصابيح وعن ثوبان[170] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي)، رواه أحمد والبيهقي في دلائل النبوءة. ومن العرف الوردي، وأخرج نعيم بن حماد في كتاب الفتن بسند صحيح على شرط مسلم، عن علي قال الفتن أربعة، فتنة السراء وفتنة الضراء وفتنة كذا وفتنة معدن الذهب، ثم يخرج رجل من عترة النبي صلى الله عليه وسلم يصلح الله على يده أمرهم.

وقد ألف العلماء تآليف عديدة في أخبار المهدي، والبرهان في علامة /75/ المهدي آخر الزمان، فمن أراد بسط الكلام على ذلك فليراجعها، وإنما جئنا بهذه القطعة مما يتعلق به في هذا المحل، حيث جرى ذكر منصور المتقدم الذكر الذي وقعت الإشارة إليه بأنه من مقدمات المهدي، وذلك في أول سنة من المائة الثالث عشرة .

ومن المقرر في كتب الحديث وكما نقله الإمام الحافظ السيوطي في تأليفه "الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف"، وها أنا أجلب كلامه بعينه لنرتب عليه ما بعده، ونصه: فأقول أولا: الذي دلت عليه هذه الآثار أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة عليها خمسمائة سنة،

---

(170) أبو عبد الله ثوبان بن بجدد (ت. 54هـ/ 674 م)، مولى رسول الله، أصله من أهل السراة (بين مكة واليمن)، اشتراه النبي ثم أعتقه فلم يزل يخدمه إلى أن مات، فخرج ثوبان إلى الشام ونزل الرملة بفلسطين، ثم انتقل إلى حمص وأقام فيها إلى أن مات. له 128 حديثا. (الاستيعاب 1-210؛ الزركلي 2- 102).

وذلك أنه ورد من طرق أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في آخر الألف السادسة، وورد أن الدجال يخرج على رأس مائة وينزل عيسى عليه السلام فيقتله، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة، وأن بين النفختين أربعين سنة، فهذه مائتا سنة لا بد منها، والباقي الآن من الألف مائة سنة وسنتان، وإلى الآن لم تطلع الشمس من مغربها ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوع الشمس، ولا ظهر المهدي الذي ظهوره قبل الدجال بسبع سنين، ولا وقعت الأشراط التي قبل ظهور المهدي، ولا بقي يمكن خروج الدجال عن قريب، لأنه إنما يخرج عند رأس مائة، وقبله مقدمات تكون في سنين كثيرة، فأقل ما يكون أن يجوز خروجه على رأس الألف إن لم يتأخر إلى مائة بعدها، فكيف يتوهم أحد أن الساعة تقوم قبل تمام الألف، هذا شيء غير ممكن، بل إن اتفق خروج الدجال على رأس الألف، وهو الذي أبداه بعض العلماء احتمالا، مكثت الدنيا بعده أكثر من مائتي سنة /76/ المائتان المشار إليها، والباقي ما بين خروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها، وإن تأخر الدجال ولا يدري كم هو عن رأس الألف إلى مائة أخرى، كانت المدة أكثر، ولا يمكن أن تكون المدة ألفا وخمسمائة سنة أصلا.

وها أنا أذكر الأحاديث والآثار التي اعتمدت عليها في ذلك، فمنها عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[من قضى حاجة لمسلم في الله كتب الله له عمر الدنيا سبعة آلاف سنة صيام نهاره وقيام ليله]، وقال في آخر التأليف المذكور، ثم بعد انتهائي في التصنيف إلى هنا، رأيت في كتب العلل للإمام أحمد بن حنبل قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه، حدثنا عبد الصمد أنه سمع وهبا يقول: قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة، إني لأعرف كل زمان منها ما كان فيه من الملوك والأنبياء، وهذا يدل على أن مدة هذه الأمة تزيد على الألف بنحو أربعمائة سنة تقريبا انتهى.

وأقول: قد تقرر أنه لا بد من مائتي سنة بين نزول عيسى وقيام

الساعة، وأن الدجال يخرج عند رأس مائة، وأن المهدي يظهر قبل الدجال بسبع سنين، وقبل المهدي علامات تقع في سنين، فعلى ما دلت عليه الآثار لم يبق للمهدي ظهور في أول هذه المائة، وأن منصور المذكور ليس بالمنصور الذي من مقدماته، وإلى الآن لم يظهر السفياني الذي قبل المهدي، ولا وقع الخسف بجيش السفياني بالبيداء، ولا حسر الفرات عن جبل الذهب، ولم تقبل الرايات السود من خراسان، ولا وقع الخسوف في رمضان مرتين، وهذه علامات كلها قبل ظهور المهدي، ولابد لها من مدة زمان، ومكث المهدي سبع /77/ سنين ثم ظهور الدجال عند رأس مائة.

فالذي تدل عليه الآثار ويؤخذ منها أن المهدي إنما يظهر في آخر المائة، ثم المائتا سنة بعد نزول عيسى لا بد منها، فيترجح والله أعلم أن لا يكون للمهدي ظهور في هذه المائة، إلا أن يكون في آخرها ليكون ظهور الدجال عند رأس مائة، ويبقى حينئذ قول الإمام الحافظ السيوطي ولا يمكن أن تكون المدة ألفا وخمسمائة أصلا مشكلا، وأما على مقتضى حديث وهب المصرح بأنه بقي من الدنيا أربع عشرة مائة سنة، فقد بقي مائتا سنة وهي التي لابد منها بعد نزول عيسى عليه السلام، وتبقى مدة الدجال والمهدي والعلامات قبله، اللهم إلا أن تقع في هذا الوقت متتابعة كما ورد في الحديث كنظم عقد تتابع، ويكون المراد برأس مائة الذي يخرج عندها الدجال أوائلها وهو صادق بما قابل نصفها وآخرها، وتكمل المائتان اللتان بعد نزول عيسى بعد هاتين المائتين، ولا يخرج ذلك عن كون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، فتكون العبرة بالمائة والألف ما قارب الشيء له حكمه، وإلا فانظر ما تجيب به عن حديث وهب وغيره، والعلم عند الله تعالى، [يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون][171].

وقد نظم شروط الساعة الشيخ عيسى الشافعي رحمه الله تعالى ورضي

(171) الآية 187 سورة الأعراف.

عنه في منظومة وهي هذه:

أول أشراط خروج الترك ... وبعده فهدة بفتك
فالهدة الصيحة بانتشار ... تفزع الخلق من الأقطار
/ 78 / والهاشمي بعد السفياني ... يليهما المهدي بالأمان
وبعدهم فيخرج القحطاني ... والأعور الدجال بالبهتان
وبعده فينزل المسيح ... لقتل ذا الدجال يستبيح
ثم طلوع الشمس من مغربها ... سائرة طالبة مشرقها
ثم خروج الدابة الغريبة ... من الصفا برؤية عجيبة
يعقبها الدخان فيما قد نقل ... ثمة ياجوج وماجوج عقل
والحبشي ذو السويقتين ... لهدم كعبة من غير مين
فذاك ريح قابض الارواح ... للمؤمنين قلت بانشراح
وبعده فيرفع القرآن ... من الصدور وانتفى الأمان
ثم خروج الناس من قعر عدن ... تسوقنا لمحشر بعد الوهن
وتلوها النفخ ثلاثة ترى ... قد قاله ائمة بلا امترى
دلالة الثلاث بالقرآن ... قد قاله عيسى الفقير الداني
الأزهري الشافعي مذهبا ... والصفوي قلت أما وأبا
ثم صلاة الله للعدنان ... محمد المبعوث بالبرهان
وآله وصحبه الاخيار ... ما غردت بلابل الاشجار

وذكر سيدي أحمد المقري[172] في تأليفه "نفح الطيب"، عندما استطرد ذكر الشيخ العالم العامل الزاهد الورع سيدي محمد بن عباد ما نصه: وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاج الرحال أبو سعيد بن أبي سعيد السلوي، أنه /79/ رأى في حائط جامع القرويين أبياتا مكتوبة بفحم بخط

---

(172) أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت. 1041هـ/ 1631م)، استقر مدة طويلة بمدينة فاس، حيث تولى الإمامة والخطابة بجامع القرويين، وأقام مجالس العلم والتدريس وصنف عدة كتب أشهرها "نفح الطيب" و" روضة الآس " و" أزهار الرياض". وخلال فترة الاضطراب التي تلت وفاة المنصور رحل إلى المشرق ونزل دمشق ثم القاهرة حيث توفي. (الإفراني، صفوة من انتشر، ص.ص. 72-74؛ المنوني، المصادر العربية، ج. 1، ص. 145.)

الشيخ أبي عبد الله بن عباد وهي:

أيتها النفس إليه اذهبي ... فحبه المشهور من مذهبي
مفضض الثغر له نقطة ... من عنبرى خده المذهب
أيأسني التوبة من حبه ... طلوعه شمسا من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد فاستشكلت هذه الأبيات، لما اشتملت عليه من التغزل وذكر الخال والخد والثغر، ومقام الشيخ ابن عباد يجل عن الاشتغال بمثل هذا، فلقيت يوما أبا القاسم الصيرفي فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها، فقال لي مقامك عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا، هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي، فشكرته على ذلك انتهى.

قلت: رأيت بخط الونشريسي[173] على هذه الحكاية ما نصه: قلت في صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر لما اشتملت عليه من التغزل، وقدر الشيخ وورعه أعلى من هذا، فهذان إشكالان والله أعلم انتهى.

قلت: هنا إشكال ثالث، فإنه أشار في الأبيات إلى أن المهدي يظهر في المغرب، والذي دلت عليه الآثار المتقدمة أن ظهوره بالمشرق، وأنه يولد بالمدينة وأنه يبايع بين الركن والمقام والله أعلم. لكن في التذكرة للقرطبي[174] أن مولده ببلد بالمغرب، وأنه يأتي من هناك ويجوز على البحر، فإن صحت هذه الرواية فلا إشكال ويكون المراد بطلوعه ولادته.

---

(173) أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، فقيه عالم حافظ مفتي، أصله من تلمسان حيث كان مفتيا، ثم انتقل إلى مدينة فاس سنة 874هـ حيث استقر فأفاد واستفاد إلى أن توفي بها سنة 914هـ. له تآليف عديدة منها تعليق على فرعي ابن الحاجب وشرح وثائق الفشتالي وكتاب القواعد في الفقه، لكن أشهر كتاب للونشريسي هو "المعيار المعرب عن فتاوي أفريقية والمغرب" الذي لا تخفى أهميته الفقهية والتاريخية. (جذوة الاقتباس، 1-156).

(174) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي (ت.671هـ/ 1272م)، عالم مالكي مشهور بتفسيره للقرآن، ولد بقرطبة وسافر طلبا للعلم حيث جاب المشرق واستقر بمنية الخصيب بمصر حيث توفي ودفن، يصفه الذهبي بأنه بحر من العلوم الشيء الذي تؤكده مؤلفاته العديدة ومنها: "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآيات الفرقان" و "التذكار في أفضال الأذكار" و" التذكرة بأمور الآخرة."
(E., I., 5 -516)

فإن قيل على أي مذهب من المذاهب الأربعة يجري الأحكام المهدي ونبي الله عيسى بعده نقول: قال[175] في "كتاب الإشاعة / 80/ لأشراط الساعة"، تأليف العلامة الشيخ محمد بن عبد الرسول بن عبد السيد العلوي الحسني الموسوي الشهرزوري البرزنجي المدني ما نصه: تنبيه، وقع لبعض جهلة الحنفية أنه ادعى أن كلا من عيسى والمهدي يقلدان مذهب الإمام أبي حنيفة، وذكره بعض مشايخ أهل الطريقة بالهند في تصنيف له بالفارسية وشاع في تلك الديار، وكان بعض من يتسم بالعلم من الحنفية ويتصدر للتدريس يشهر هذا القول، ويفتخر به ويقرره في مجلس درسه بالروضة المشرفة، فذكر لي ذلك فأنكرته عليه[176] وجهلت قائله وناقله ومقرره، فلما بلغه إنكاري نسبني إلى التنقيص في حق الإمام أبي حنيفة وحاشاه من ذلك، ولو سمعه الإمام أبو حنيفة لأفتى بتعزيزه أو تكفير قائله، ثم بعد مدة وقفت للشيخ علي القاري الهروي نزيل مكة المشرفة رحمه الله، على تأليف سماه "المشروب الوردي في مذهب المهدي"، نقل فيه هذا القول فرد عليه ردا شنيعا وجهله، فأرسلت بالكتاب لمجلس درسه فقرئ عليه وافتضح بين تلامذته، ولننقل كلام الشيخ علي هذا مختصرا، قال رحمه الله تعالى: ولقد عارضني في هذه القصة -يعني مسألة التقليد المذكورة- من هو عار من الفضيلة بالكلية، وأبرز نقلا مما كتب في قفا الدفاتر، يقطع ببطلانه حتى ذوو العقل القاصر، ومع هذا فهو منقول من كتاب مجهول، وقد صرح الإمام ابن الهمام بعدم جواز النقل من غير الكتب المتداولة، سوى العلوم الفرعية والأصلية، ثم إن ركاكة ألفاظه ومبانيه تدل على بطلان معانيه.

وها أنا أذكره بلفظه لتحيط به / 81/ علما حيث قال: ولم يخش ما[177] عليه من الوبال وغضب الملك المتعال، أن الله قد خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة، ومن كراماته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت

---

(175) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(176) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(177) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

الصبح، ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفي أبو حنيفة نادى الخضر إلهي أذن لأبي حنيفة يعلمني من القبر حتى أعلم شرع محمد صلى الله عليه وسلم على الكمال، فنودي أن اذهب إلى قبره وتعلم منه، فتعلم منه ما شاء الله[178] إلى خمس وعشرين سنة أخرى حتى أتم الدلائل والأقاويل.

ثم بعد مدة ظهر في مدينة مما وراء النهر شاب يقال له أبو القاسم القشيري، وكان يخدم أمه ويحترمها، ثم إنه أراد أن يرحل في طلب العلم، فبعثته أمه ولم تسمح نفسها به وبقيت تبكي، فرجع إليها من الطريق، فأمر الله تعالى الخضر أن يعلم القشيري ما تعلم من أبي حنيفة حيث أرضى أمه، وصار الخضر يتردد إليه ثلاث سنين فعلمه العلوم التي تعلم من أبي حنيفة، حتى صنف ألف كتاب وصار صاحب كرامات. وكان له تلميذ كبير لا يفارقه، فجعل الشيخ ألف كتاب مصنفاته في صندوق وقال له: اذهب وارم هذا الصندوق في جيحون، فذهب ولم يفعل ضنا بالكتب، فرجع إليه فرده ثلاث مرات فرمى الصندوق، فخرجت من الماء يد فأخذت الصندوق ورجع متحيرا في السر في ذلك، فقال له الشيخ: السر في ذلك أنه إذا قربت القيامة وخرج الدجال ونزل عيسى عليه السلام ببيت المقدس، فيضع الإنجيل بجانبه ويقول أين الكتاب المحمدي، فقد أمرني الله أن نحكم به ولا أحكم بالإنجيل، فيطلبونه فلا يجدونه ولا شيئا من كتب الشرع المحمدي، فيتحير عيسى ويقول إلهي بما أحكم بين عبادك، فينزل /82/ جبريل ويقول أمرك الله أن تذهب إلى نهر جيحون وتنادي يا أمين صندوق أبي القاسم القشيري، سلم إلي الصندوق وأنا عيسى بن مريم وقد قتلت الدجال، فينشق الماء ويخرج الصندوق فيجد فيه ختمه وألف كتاب، نقل من كتاب " أنيس الجليس" انتهى.

قال الشيخ علي: ولا يخفى هذا مع ركاكته ولحنه، أنه كلام بعض الملحدين الساعين في فساد الدين. إن حاصله أن الخضر الذي قال الله فيه:

---

(178) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

[فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما][179]، وقد تعلم منه موسى عليه السلام من جملة تلامذة أبي حنيفة، ثم عيسى وهو من أولي العزم يأخذ أحكام الإسلام من تلامذة أبي حنيفة، وما أسرع فهم التلميذ حيث أخذ عن الخضر في ثلاث سنين ما تعلمه الخضر من أبي حنيفة حيا وميتا في ثلاثين سنة، وأعجب منه أن أبا القاسم القشيري ليس معدودا في طبقات الحنفية، ثم العجب من الخضر أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتعلم منه الإسلام ولا من علماء أصحابه الكرام، ورضي بجهله بالشريعة حتى تعلم مسائلها في أواخر عمره من أبي حنيفة؛ قال: فهذا مما لا يخفى بطلانه على العقول السخيفة، حتى أن علماء المذاهب أخذوا هذه المقالة على وجه السخرية، وجعلوها دليلا على قلة عقل الطائفة الحنفية، حيث لم يعلموا أن أحدا منهم لم يرض بهذه القضية بالكلية، ثم لو تعرضت لما في منقوله من الخطأ في مبانيه ومعانيه، الدالة على نقصان معقوله، لصار كتابا مستقلا، إلا أني أعرضت عنه صفحا لقول الله تعالى: [خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين][180]، فبطل قول القائل بل يكفر فيما أظهر، لا سيما فيما أبرز بالنسبة إلى نبي الله عيسى المجمع على نبوته سابقا /83/ ولاحقا، فمن قال سلب نبوته فقد كفر حقا كما صرح به الإمام السيوطي، فإن النبي لا يذهب عنه وصف النبوءة ولابعد موته، وأما الحديث لا وحي بعدي فباطل لا أصل له، نعم ورد (لا نبي بعدي) ومعناه عند العلماء أنه لا يحدث بعدي نبي بشرع ينسخ شرعه، وقد صرح الإمام السبكي في تصنيف له أن عيسى عليه السلام يحكم بشريعة نبينا بالقرآن والسنة، وحينئذ يترجح أنه أخذ السنة من النبي صلى الله عليه وسلم بطريق المشافهة من غير واسطة، أو بطريق الوحي والإلهام، وأن الذي ينزل بالوحي جبريل لأنه الموكل بالكتب والوحي إلى الأنبياء، وأما ما اشتهر على ألسنة العامة أن جبريل لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي صلى الله عليه سلم فلا أصل

---

(179) الآية 65 سورة الكهف.

(180) الآية 199 سورة الأعراف.

له، فقد ورد في غير ما حديث نزوله إلى الأرض، كحضوره موت من يموت على طهارة، ونزوله ليلة القدر ومنعه الدجال من الدخول إلى المدينة ومكة إلى غير ذلك، ثم وقفت على سؤال رفع إلى شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، هل ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حافظا للقرآن العظيم ولسنة نبينا الكريم، أو يتلقى الكتاب والسنة عن علماء ذلك الزمان، فأجاب لم ينقل في ذلك شيء صريح، والذي يليق بمقام عيسى عليه السلام أنه يتلقى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحكم في أمته كما تلقاه عنه لأنه في الحقيقة خليفة عنه، انتهى ما أردنا نقله من كلام العلامة الشيخ علي القاري الحنفي، عامله الله بلطفه الخفي، وهو في غاية النفاسة.

ثم رد أيضا قول القائل أن المهدي يقلد أبا حنيفة بالأدلة الشافية؛ لكنه قرر أنه مجتهد مطلق، وهو بخلاف ما مر /84/ عن الشيخ محي الدين في الفتوحات، أن المهدي لا يعلم القياس ليحكم به وإنما يعلمه ليتجنبه، فما يحكم المهدي إلا بما يلقى إليه الملك من عند الله الذي بعثه الله إليه يسدده، وذلك هو الشرع الحنيفي المحمدي الذي لو كان محمد صلى الله عليه وسلم حيا، ورفعت إليه تلك النازلة لم يحكم فيها إلا بحكم المهدي، فيعلم ذلك هو الشرع المحمدي، فيحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم في صفته يقفو أثري لا يخطئ، فعرفنا أنه متبع لا مشرع، انتهى كلام الفتوحات.

فعلى هذا المهدي ليس بمجتهد، لأن للمجتهد أن يحكم بالقياس وهو يحرم عليه الحكم بالقياس، ولأن المجتهد يخطئ ويصيب وهو لا يخطئ قط، فإنه معصوم في أحكامه بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له، وهذا مبني على عدم جواز الاجتهاد في حق الأنبياء وهو التحقيق وبالله التوفيق.

ثم نقول: إن كلام القائل المذكور باطل وزور وافتراء من وجوه كثيرة، منها ما أشار الشيخ علي القاري، ومنها أن أبا القاسم القشيري من الفقهاء الشافعية، ومشايخه في الفقه والكلام والتصوف معلومة، كما تنطق به رسالته المتداولة شرقا وغربا، ومنها أنه لا يعرف له من التآليف غير الرسالة وكتب

أخر معدودة ألف ورقة، فضلا عن ألف كتاب، ومنها أن في زمن المهدي النازل عيسى في أيامه، الفقهاء في سائر المذاهب باقية، وأنهم أكبر أعداء المهدي لذهاب جاههم، والقرآن باق إذ ذاك لم يرفع، ومنها كيف يجوز أن يتحير عيسى ويعطل أحكام المسلمين إلى أن يذهب إلى نهر جيحون ويخرج الكتب، وكم من حدود /85/ وخصومات ووقائع تقع في تلك المدة، ومنها أن جبريل إذا نزل عليه وأمره بأن يذهب إلى جيحون بنزوله عليه بالوحي، ما المانع من أن يعلمه شرع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحوجه إلى كتاب أبي القاسم، ومنها أن الخضر المعلم لأبي القاسم حي عند نزول عيسى، فإنه الذي يقتله الدجال ثم يحييه الله، أفلا يعلم عيسى كما علم أبا القاسم القشيري حتى يكون بين عيسى وبين أبي حنيفة واسطة واحد، ومنها أن المسلمين في الصلاة حين نزول عيسى وأنه يقول للمهدي تقدم فإنها لك أقيمت، فإن لم يكن القرآن باقيا والمذاهب باقية فكيف يصلون، ومنها أن الخضر إما أن يكون مأمورا بتعلم شرع النبي صلى الله عليه وسلم أو لا، فإن كان مأمورا فما تركه التعليم إلى زمن أبي حنيفة إلى بعد موته في سنة خمسين ومائة، إذ الأصح أنه نبي، وإن لم يكن مأمورا بذلك وإنما هو زيادة تحصيل الكمال، فلم لا يأخذه من النبي صلى الله عليه وسلم غضا طريا، وإن كان لم يعلم أنه كمال إلا بعد موت أبي حنيفة، فقد جوز الجهل بالكمال على الأنبياء، ومنها أن عيسى عليه السلام معصوم مطلقا والمهدي معصوم في الأحكام، وأبو حنيفة مجتهد قد يصيب وقد يخطئ، ولذا خالفاه صاحباه في أكثر من ثلث قوله، فكيف يقلد من لا يخطئ قط من يخطئ ويصيب، ومنها أن مذهب أبي حنيفة أن يقبل الجزية من الكفار ويخرج الزكاة، ويبقي الصليب والخنزير في أيديهم وأن لا يجمع بين الصلاتين، وعيسى عليه السلام لا يخرج الزكاة ولا يقبل الجزية، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويجمع بين الصلاتين.

فإن كانت هذه الأحكام في كتاب أبي القاسم القشيري فقد خالف أبا حنيفة، فيلزم أن يكون /86/ مجتهدا مطلقا، وحينئذ يكون الفضل له لا لأبي حنيفة، وإن لم تكن في كتبه يلزم أن يكون عيسى لم يعمل بما في

مذهب أبي حنيفة. ثم إن هؤلاء الجهلة لفرط تعصبهم وعنادهم، ليس مطمح نظرهم إلا تفضيل أبي حنيفة ولو بما لا أصل له، ولو بما يؤدي إلى الكفر، وليس عندهم علم بما في فضائله الجمة التي ألفت فيها الكتب، فيرضون بالأكاذيب والافتراءات التي لا يرضاها الله ورسوله ولا أبو حنيفة نفسه، ولو سمعها أبو حنيفة لأفتى بكفر قائلها، وفي فضائل أبي حنيفة المقررة كفاية لمحبية (كذا)، ولا يحتاج في إثبات فضله إلى الأكاذيب والأقاويل المفترات (كذا) المؤدية إلى تنقيص الأنبياء، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

غريبة

أخبرني بعض المغاربة لقيته بالقسطنطينية وكان يتردد إلينا، قال إنه توجه إلى الحج فبدا له في المقام بمكة، فتأهل بها واستوطنها وكان إماما في المقام المالكي، وكان يأتي إليه رجل من أهل الخير درويش وبيده عكازة؛ قال: فصارت بيني وبينه معرفة واتصال، وربما أصحبه معي إلى منزلي وأحضره ما تيسر من الطعام، فغرط مني ذات يوم أن قلت له اعطني هذه العكازة فامتنع، فأعدت عليه الكلام في شأنها مرة أخرى وألححت عليه، فقال لي لا تليق بك فإنك إن أخذتها لا تستقر بدار ولا تطمئن بقرار، قال: فقلت له اعطني إياها ولا عليك فقال: خذها، قال: فما تمكنت من يدي العكازة إلا بخروجي من داري وتوجهي إلى جدة، ولم يبق لي تفكير في أولاد ولا في عيال، بل أنسيتهم كأن لم يكونوا أصلا، ثم ركبت البحر وتوجهت إلى اليمن وصرت (كذا) إلى صنعاء ثم إلى عدن ثم إلى الشحر /87/ حتى وصلت البصرة، فزرت قبر الحسن البصري[181] ثم قبر سيدي محمد

---

(181) أبو سعيد بن الحسن بن أبي الحسن البصري (21-110هـ/642-728م)، من الخطباء التابعين المشهورين في العهد الأموي؛ ولد بالمدينة ورحل إلى البصرة بعد معركة صفين، شارك وهو شاب في فتح إيران واستقر بالبصرة إلى أن توفي بها. اشتهر بورعه وتقواه وبخطبه الوعظية التي تبرز براعته الأدبية وملكاته الخطابية، والتي هاجم فيها التهافت على متاع الدنيا؛ كما عرف بنقده للحكام ولأولي الأمر وخاصة الحجاج بن يوسف الثقفي، غير أنه مع ذلك كان ضد استعمال العنف والخروج على الحكام(E., I., 3 -254-253) .

الرفاعي[182] رضي الله تعالى عنهما. فلما كنت بضريحه تعرض لي كلب أسود، وجعل يرحب بي ويترامى علي من غير معرفة به، ففرط مني أن ضربته بتلك العكازة فكان آخر عهدي بالتمييز، وغبت فما أفقت إلا وأنا بجبل، وإذا الرجل صاحب العكازة أقبل علي والعكازة بيده، وردها إلي ولطمني لطمة شديدة وقال: ألححت علينا في العكازة حتى أعطيناك إياها، ثم إنك ضربتنا ورميتها وضيعتها.

قال: فاستيقظت وأفقت من إغمائي، فالتفت فإذا حولي عدة أسد فنظرت إلى الرجل فلم أجده، فأرعدت فرائسي (كذا) من تلك الأسد وانحدرت من الجبل أعدوا هاربا حتى غبت عن الأسد ووصلت بركة ماء، فنزعت من نباتها ما سترت به عورتي لأنني وجدتني لما أفقت عريانا، فبينما أنا كذلك إذ أتى نسوة من الحي يستقين الماء، فرأينني فهربن فزعات إلى حلتهن وأخبروهم الخبر، فجاء رجال وذهبوا بي معهم إلى خيامهم وأعطوني ما سترت به عورتي وحلقوا شعر رأسي، وأحدق بي جميع أهل تلك العشيرة وجعلوا يلتمسون مني الدعاء ويعتقدون صلاحي، وجعلوا يتحدثون فيقول بعضهم: هذا الذي رأيناه راكبا على الأسد اليوم الفلاني الذي كنا نصطاد في الموضع الفلاني، وطلبوا مني أن نقيم عندهم ويجعلون لي زاوية لكونهم لا يشكون في صلاحي، فأبيت عليهم وسألتهم عن اسم هذا الجبل فقالوا هو جبل جيلان[183]، فقلت لهم كم بيننا وبين بغداد فقالوا نحو اثني عشر يوما، فقلت لهم إن أردتم أن تفعلوا معنا إحسانا فوجهوني إلى بغداد، فوجهوا معي من أوصلني إليه.

فلما دخلته جعل الناس يقولون /88/ هذا الرجل الذي كان هنا عاما أولا يمشي عريانا، وقال: ثم تلاقيت مع بعض أهل المغرب ممن استوطن

---

(182) يقصد أحمد بن علي الرفاعي الحسيني (ت. 578هـ/ 1182م)، مولده ووفاته بالعراق وهو مؤسس الطريقة الصوفية الرفاعية التي انتشرت تعاليمها وكثر أتباعها، وكان الرفاعي زاهدا ورعا. (الرزركلي 1-169).

(183) جيلان، أي أرض الجيل وهي بلاد في فارس جنوبي بحر قزوين، أهم مدنها رشت، وتتميز بكثرة المستنقعات وتعرف مناطقها الجبلية باسم الديلم. (دائرة المعارف 7-222).

بغداد فانتسب بعضنا إلى بعض، فسألته عما سمعت الناس يقولون، فقال: هو ما سمعته، دخلت بغداد وكنت تمشي عريانا والصبيان يتبعونك ويضربونك بالحجارة، وأقمت هنا على هذه الحالة نحو شهرين وغبت، قال: فأقمت ببغداد أياما ثم توجهت إلى الكوفة، فجعل الناس يريني بعضهم إلى بعض ويقولون هذا المسكين الذي كان هنا يمشي عريانا، ثم إلى المشهد الذي فيه مدفن الإمام علي، ثم سرت إلى البصرة فدخلت إلى ضريح سيدي محمد الرفاعي فألقيت تلك العكازة على قبره، وعنده كنت ضربت الكلب فوقع لي ما وقع، فلما ألقيت العكازة تاب إلي عقلي وتذكرت حينئذ أهلي وأولادي، ومن قبل لم يخطر لي أحد ببال وجعلت أبكي وأنتحب، فركبت البحر ورجعت إلى اليمن ثم إلى جدة ثم إلى مكة، فدخلت على أهلي وقد يئسوا مني فهنأني الناس بالسلامة، فحسبت مدة غيبتي فوجدتها عشرين شهرا.

رجع إلى خبر هذه الحاضرة القاهرة

فمن عظمها أن الأسواق التي تعمر في سائر البلاد يوما في الجمعة، مثل الخميس مثلا أو الأحد، عامرة فيها على سائر الأيام، كل يوم في ناحية من نواحيها، وتعمر أمام المساجد لأن لكل مسجد من مساجد هذه الحضرة براح كبير متسع، دائر بالمسجد من جهاته الأربع والمسجد بوسطه منعزل، وفي هذا البراح يعمر السوق، معلوم عند أهل البادية والحاضرة محل عمارته في كل يوم / 89 / فيقصده الناس.

ومن عوائد هذه المملكة الميمونة أنه إذا ازداد عند السلطان مولود، ينادي المنادي بالمدينة جميعها ويعلم بازدياده وباسمه ويسأل له الدعاء، وقد ازداد عند هذا السلطان ونحن عنده، وذلك في سابع صفر من سنة إحدى ومائتين وألف، ابنة وسماها صالحة سلطان، وأصبح المنادي ينادي كما ذكر.

الاستعداد للحرب ضد روسيا

وفي هذه السنة أنشأ السلطان عبد الحميد نصره الله وأيده الحرب بين

عدو الدين الموسكوا[184]، بسبب تمرده وطلبه بلدا من بلاد المسلمين أراد أن يتملكها، وقد سافرنا من عندهم وهو أيده الله مشتغل في التأهب والاستعداد، وسد الثغور وبعث العساكر برا وبحرا لقتال العدو الكافر، نسأل الله تعالى أن يرزقه النصر والظفر على من تولى وكفر، بجاه سيد البشر، وقد قلت في ذلك قصيدة رأيت أن نثبتها، وقد بلغهم خبرها فسروا بذلك وهي هذه:

كتائب النصر قد أتت لكم تنصر ... تزف أعلامها راياتها تنشر
لعلها فرصة أتى بها القدر ... أمكن منهم أعدا الله فلتشكر
لدولة صيتها في الأرض قاطبة ... فالبحر يعزى لها والبدو والحضر
قد طال ما طاعنت وضاربت في العدا ... وملكوا الأرض والطغاة قد قهروا
لا غرو إن لهم في الدفع سابقة ... عن دين أحمد ما أربحه متجر
و الله أكرم أن أولى الجميل فلا ... يقطعه منة فالفضل لا يحصر
فكم فتوح ترادفت على نسق ... لذي الملوك التي فخارها أشهر
/ 90 / خلائف من بني عثمان من لم يدن ... بطاعة لهم عرفانه نكر
فقد أطاعهم حتى الوعول لها ... في قنن للربى شواهق وكر
خلفهمُ باطش عبد الحميد الرضى ... ملكه الله ما دارت به الأبحر
توجه الله من جلاله عندما ... لم يأذن الشرع فيه إنه منكر
إن الجهاد لهم سيما تميزهم ... عن الملوك فلا جبن ولا خور
فسيفه صاحب للفتح ثم كذا ... عزمه والنصر إلفان إذا ينفر
هيا له الله من جند السما عسكرا ... فجيشه في الوغا جيشان إذ يذكر
يا أيها السيد الكاهية الذ بدا ... في عصرنا زينة تغبطه الأعصر
قل للوزير أدام الله دولته ... ميسرا أمره يجري به القدر
لا عدم الملك من علياكم أبدا ... وزارة سعدها تبدو له غرر
فكن على ثقة فالله ناصركم ... ومن يكن ناصرا لله ينتصر

---

(184) يقصد الإمبراطورية الروسية التي دخلت في حروب طاحنة مع الدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشر.

نعم ويمنحكم رقاب شرذمة ... أهل الضلالة إذ أنعمه كفر
إيه وتخلى ديار الكفر أجمعها ... فالفتح يقدمكم والنصر والظفر
دان لك الدهر بالله العظيم فما ... تشاء من ذا الورى إليه يبتدر
فعن قريب ترى مسكوف(185) يرفل ... في قيد الحديد ولا حصن ولا وزر
عنهم بمغن فتيلا اذ تحيط بهم ... عساكر فتكها في الحرب لا ينكر
مقلدين سيوفا غير نابية ... عن الضريبة لا تبقي ولا تذر
معتقلين رماحا طعنها في الوغا ... سلكى ومخلوجة شهب لها شرر
91 / رجومها حرقت شياطن الكفر قد ... ولت هرابا على أدبارها تدحر
والخيل تنحط كالعقبان مسرعة ... فرسانها آلفت لحم العدا تجزر
عصائب الطير في الجو لها عسكر ... يتلو عساكركم جيش العدا تحزر
كأنما الحرب نادتها وقد صنعت ... وليمة الجفلى فهي لها تنتظر
جوارح أيقنت أن العدا جيف ... لها فأبرزت المخلب والمنسر
والسيف بددهم والسبي قيدهم ... وكلهم بلباس الذل مُدثَّر
ورحتم بعزيز النصر خولكم ... إياه رب العلى وحظكم أوفر
دمتم فدامت لهذا الدين بهجته ... معززين له وسعيكم يشكر
ليِهنكَ الفأل إن الفأل قد حبه ... رسولنا المصطفى وذاك مشتهر
صلى عليه إله العرش ما سجعت ... ورقٌ وما عطرت أسحارها الزهر

جبر الله حالنا وحالهم وبلغهم من هذه الوجهة الجهادية من الفتح مرادهم وآمالهم بجاه النبي وآله.

ولأهل هذه المدينة اعتناء كبير برجب وشعبان فيعظمونهما تعظيما كبيرا، ويتصدقون على الفقراء والمساكين وتسرج منارات المدينة كلها والمساجد و يحتفل الناس بذلك احتفالا كبيرا، وكذلك ليلة السابع والعشرين منه.

مراسيم توديع ابن عثمان ورفاقه واستعداداته لمغادرة إستانبول

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين منه استدعانا الوزير الأعظم بقصد

(185) يقصد الروس.

الملاقاة والوداع، وبعث خيولهم على الهيئة الأولى فتوجهنا إليه، فلما دخلنا عليه قام إجلالا وهذا القيام لمن يستحقه عادة عند الأعاجم كلها. فقعدنا معه على أريكة وأتى بالقهوة / 92 / والأشربة والطيب والبخور كما هي عادتهم، وذكر ماهم مشتغلون به من أمور الحرب وأخذ الأهبة للعدو الكافر المسكوف والنمسة[186] فقد تظافر هذان الجنسان اللعينان على المسلمين فالله تعالى يخذلهم، وسأل الدعاء لهم بالإعانة والنصر عند مواجهة ضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم والبيت الشريف، اللهم انصرهم نصرا مؤزرا وافتح لهم كل مقفل وسهل عليهم كل أمر معسر، فإنك قلت وقولك الحق ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم.

ثم أحضر خلعا على مقتضى عوائدهم فأخلع علينا وعلى جميع الحاضرين من أصحابنا ثم تودعنا من عنده فدخلنا على خليفته ففعل مثل ما فعل الوزير مثلا بمثل ما عدا الخلع، ثم إلى أحد أعيان الدولة يقال له الرئيس أفندي ففعل مثل ذلك، ثم خرجنا من عند الجميع.

وقد كان السلطان مهد الله له الأوطان قد عين الخيام والبهائم لحمل أثاثنا وأثقالنا والمحامل لركوبنا وجميع الأسباب أدام الله معروفه وجعل دولته بحراسة الله محفوفة، والكل من بركة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين مرسلنا وسيدنا، فإنما فعل معنا ذلك مراعاة لأجله واعتبارا لإحسانه أيده الله معهم بقوله وفعله، فالجميع بوجوده منوط إذ لولا الواسطة كما قيل لذهب الموسوط، فالحق أجلى والاعتراف بالنعم أولى أدام الله فخره وخلد بالجميل ذكره.

بداية الرحلة إلى الحجاز مع ركب الحج العثماني

ثم رأيت أن نرسم مقدار مساحة المراحل التي نسيرها ونصف ما تيسر لنا وصفه من الأرض والبلاد. ثم تأهبنا للسفر وقد كنا متأهبين وقطعنا البحر

(186) إشارة إلى تكالب القوى الأوربية على الدولة العثمانية حيث تحالفت الإمبراطوريتان الروسية و النمساوية لمواجهة الأتراك وانتزاع ممتلكاتهم الأوربية.

إلى البر الآخر المتصل بأرض الشام / 93 / ومصر ومكة وغيرها يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب، فبتنا هنالك خارج مدينة أسكدار بمكان معين لنزول الركب النبوي وأقمنا به يوم السبت؛ ويوم الأحد استعملنا المسير معقدين على من العسير عليه يسير، فنزلنا بموضع على ساحل البحر الشامي قبالة قرية يقال لها قرطل (1[187] على أربع ساعات من أسكدار المتقدمة بالسير المتوسط، ومن الغد رحلنا من هذه القرية إلى قرية يقال لها كبزة (2)[188] فوصلناها على خمس ساعات ونزلنا بظاهرها، وقد اتفق أن ضرب أحد رفقائنا رجلا فتغير الناس نعني الترك وقالوا لا ينزل الركب بعد بهذه المدينة التي وقع فيها ما ذكر، تعدى شؤمه حسبي الله حتى على هذه البقعة كفانا الله إياه.

وسافرنا من الغد فسرنا ساعتين ثم اعترضنا خليج من البحر الشامي عرضه تسعة أميال فعبرناه في الزوارق من موضع هنالك معلوم يقال له "ديل سقال سي"بلغة الترك، وهم يقدمون المضاف على المضاف إليه كأنهم يقولون سقالة الديل، والسقالة بلغتهم البناء على البحر وهذا الموضع كذلك فيه بناء. وطول هذا الخليج إلى حيث انتهى في بلد أزمت ستون ميلا من سقالة الديل، ولما عبرنا سرنا نصف ساعة ونزلنا بقرب قرية يقال لها خارسك كوى [3] فكان مسيرنا في هذا اليوم ساعتين ونصف.

وفي تسمية هذا الخليج بالديل مناسبة كأنه ديل (كذا) للبحر الشامي، فمن أراد أن لا يقطعه فليمر معه إلى انتهائه مسيرة ثلاثة أيام، ومن أراد أن يقطعه من الموضع المذكور يعبره في الزوارق كما ذكرنا، فيرتكب الناس العبور في الزوارق تقريبا لهم للمسافة./ 94 / وقد انتهى البحر الشامي بانتهاء هذا الخليج لأن للبحر الشامي خليجان، أحدهما لناحية المشرق وهو هذا والآخر لناحية الشمال وهو خليج القسطنطينية، ومنه ينفذ للبحر الأسود

---

(187) كتبت أرقام على أسماء الأماكن التي كان يقف فيها الركب في (أ)، وسوف نميزها بوضعها بين معقوفين.

المسمى في الوقت بقاردنز بلغة الترك، وقد انتهى أيضا في أطراف الكرج ونواحيهم وطوله من القسطنطينية نحو ألف ميل.

ومن الغد رحلنا من الموضع المذكور فسرنا بين جبال يتخللها وادي يقال له نهر كاور كو (4) بلغة الترك، ومعناه نهر قرية الكفار لأن معنى كاور[189] الكفار وكو القرية فهي إضافة مقلوبة على مقتضى لغتهم، وتمادينا على المسير بين هذه الجبال والوادي المذكور يعترضنا في دورانه بينها، فقد عبرناه نحو اثنتي عشرة مرة إلى أن وصلنا إلى القرية المذكورة وأهلها كلهم نصارى تحت رعاية السلطان عبد الحميد نصره الله، وهي قرية كبيرة فيها مياه كثيرة بل هذه البلاد التي مررنا بها كلها كذلك، وعلى هذه القرية بساتين كثيرة وجلها شجر التوت الذي يعلف بورقه دود الحرير، فتجاوزنا القرية المذكورة بنحو ربع ساعة ونزلنا بموضع منفسح انفساحا ما لأن ما حوالي القرية أماكن وعرة لا يمكن نزول الركب فيها، وكان مسيرنا في هذا اليوم خمس ساعات. ومن الغد سافرنا منها فوصلنا بلدة قديمة يقال لها جنزنك على ست ساعات فنزلنا بظاهرها ويقال لها مدينة الرخام (5)، ولها سور من أضخم الأسوار وأمنعها وأعظمها حجارة إلا أنه فيه خراب كثير وتهدم في عدة مواضع، وهي مأسسة (كذا) على بحيرة ماء تصب فيها أنهار ولا منفذ لها لكونها أحاطت بها جبال، فقد سرنا في بعض نواحيها / 95 / أكثر من ثلاث ساعات، وبهذه المدينة وخم[190] كثير مشهورة بذلك لا ينفك عنها وأهلها صفر الوجوه.

ومن الغد سافرنا منها[191] فنزلنا على قرية يقال لها لفك (6) وصلناها على خمس ساعات بالسير الحثيث، وهي قرية كبيرة مستندة إلى جبل مؤسسة على وادي يقال له وادي لفك، يشق انفساحا من الأرض اكتنفه جبال

(188) وردت هذه الكلمة بكاف مكسورة فوقها ثلاث نقط وباء مسكونة وزاي مفتوحة.

(189) كتبت "كاور" بكاف معجم بثلاث نقط لتنطق G اللاتينية.

(190) تعفن للهواء يسبب الأمراض.

(191) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

استوعبه سقيا لغرسه وأكثر شجره التوت المتخذ للحرير.

ومن الغد سافرنا فسرنا أربع ساعات ونزلنا على قرية يقال لها خان الوزير (7)، سميت باسم خان بناه فيها بعض الوزراء يقال له سنان باشا، وهو خان عظيم بناه بقصد أن ينزل به ركب الحجاج زمن الشتاء والثلج والوحل جزاه الله خيرا، وهي قرية متوسطة فيها خطبة واحدة، مؤسسة على وادي لفك المتقدم وهي كثيرة الأجنات والبساتين والأشجار وأكثره شجر التوت، وهذه البلاد التي مررنا بها في هذا اليوم جبال، فطريقنا فيها صعود وانحدار إلى أن وصلنا الدار، وكذلك البلاد التي مررنا بها من القسطنطينية إلى هنا ليست بسهلة ولا وعرة فهي بين ذلك، وماؤها كثير وأثرها كبير وظلها من كثرة الأغصان ظليل ونسيمها عليل، ولا تمر بساقية فضلا عن وادي إلا على قنطرة مضروبة ولا بمكان ذي وحل إلا على جسر بحجارة مرصفة منصوبة جزاهم الله خيرا.

ومن الغد رحلنا فسلكنا بلادا مثل ما تقدم في الصعود والهبوط إلى أن وصلنا إلى مدينة يقال لها السكوت(8)، كبيرة فيها نحو أربع خطب وصلناها على سبع ساعات، وهي أيضا كثيرة الأجنة[192] والبساتين وأكثره التوت. ومن الغد سافرنا فنزلنا بظاهر مدينة يقال لها إسك شاهر[193] (9) على عشر ساعات، وهي مدينة عامرة / 96 / إلى الكبر أميل فيها إحدى عشرة خطبة، إلا أنها ليست بكاملة الحضرية هي إلى البادية أقرب، فبتنا بظاهرها تلك الليلة وأقمنا بها يومين لأن هذه المسافة التي بين القسطنطينية والشام يقيم الركب فيها بقصد الاستراحة وإراحة الدواب والخدمة في خمسة مواضع، وهذه البلدة هي أول أماكن المقام، ويأتي جميع الخدمة من سقائين وطباخين وفراشين وأصحاب المحامل ودواب الحمل وغير ذلك يطلبون من

---

(192) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(193) أسكشهير أو أق شهير بكسر الشين ومعناها المدينة البيضاء، قصبة قضاء في ولاية قونية غرب الأناضول، تقع في سفح جبل "سلطان داغ" على نهر نهر "بورسق"، اشتهرت منذ القدم بعيونها المعدنية الحارة وبكونها محطة وملتقى لنطرق، ولذلك كان ركب الحج يمر بها. (دائرة المعارف 2-474؛ 733. E.. I.. 2)

مخدومهم إكراما زيادة على الأجرة المعلومة، وصار ذلك عادة لازمة كالشرط ويسمون ذلك البقشيش بلغتهم، وبها حمام مبني على ماء يخرج من الأرض في غاية الحرارة وجعلوا له حوضا كبيرا عمقه أقل من القامة، فهو مثل المغطس يصب فيه ذلك الماء ويخرج منه، وهو ملآن دائما والناس يغتسلون على حاشيته ومن أراد أن ينزل إليه ينزل، وماء هذا الحمام كثير مثل النهر الصغير وله خدام مثل الحمامات بمآزرهم وأرديتهم، فمن دخل وأخذ الميزر أو خدمه أحد من أهل الحمام يعطي كراء الميزر وأجرة الخديم مثل الدلاك، ومن خدم نفسه وأتى بميزره معه فلا يلزمه شيء لأن الماء سخن بقدرة الله تعالى فلم يتسبب أحد فيه، ويسمونه حمام القدرة وقد دخلت إليه واغتسلت فيه ولم أستطع أن أطيل اللبث فيه لحرارته.

وهذه المدينة وحوزها شديدة البرد فقد سلكناها والشمس في برج الجوزاء ولاقينا بها من البرد ما يقل وجوده عندنا حتى في الليالي، ونباتها من أجل ذلك ضعيف وزرعها في هذا الفصل لم يستو على ساق.ثم رحلنا من هذه المدينة قرب الغروب وسرنا الليل تسع ساعات ونزلنا / 97 / بعد طلوع الفجر على قرية يقال لها سيدي الغازي (10)، سميت باسم رجل من الصالحين مدفون بها واسمه جعفر ولقبه البطل الغازي، وهو مدفون في قلعة مشرفة على القرية وهي أي القلعة من بنيان الروم، وقد زرنا ضريحه وتبركنا بتربته. وأخبرت أن الذي بنى ضريحه علاء الدين السلجوقي ولم أقف على من عرف به تعريفا شافيا.

وهذه القرية مؤسسة على ربوة من الأرض أسفلها نهر عذب وعليه كان نزولنا، وهي أيضا شديدة البرد مثل البلاد المتقدمة. ومن الغد سافرنا منها في بلاد غابة أكثر شجرها لرز[194] (كذا) المعلوم، فنزلنا على قرية يقال لها خصرم باشا على ثمان ساعات. ومن الغد سافرنا أيضا في غابة أكثر شجرها الأرز، فنزلنا على قرية يقال لها بياض كوى، المعنى المدشر الأبيض على خمس ساعات، وقد وجدناها خالية من أهلها وكذلك القرية التي قبلها لأن

---

(194) يقصد الأرز.

أهلها يرحلون في طلب الكلأ لماشيتهم لأن بلادهم باردة، فربيعها متأخر ويبعدون بالماشية عن زروعهم، فهم أهل بادية حتى يأتونها زمن الحصاد .

ومن الغد سافرنا منها ثمان ساعات فنزلنا على قرية يقال لها بلودم بعد أن مررنا بوسطها وجاوزناها بنحو ساعة ونزلنا، بينها وبين قرية أخرى يقال لها تاي بتاء مشوبة بشين، بموضع فيه قنطرة مضروبة على منخفض من الأرض تجتمع فيه المياه، فيكون فيه وحل كثير فضربت عليه هذه القنطرة وأضافوها إلى القرية فقالوا بلودم كبرسي، واسم القنطرة الكبر[195]. وقد كلت طول هذه القنطرة بالخطا (كذا) فوجدت فيها ستمائة وخمسين خطوة متوسطة وأقواسها / 98 / نحو الستين، وقد وجدت بوسطها رخاما مكتوب فيه: أمر بعمارة هذه القنطرة السلطان سليمان بن سليم خان خلد الله[196] ملكه إلى آخر الزمان، فيفهم من كلامه أن السلطان سليمان لم ينشأها (كذا) من أول مرة وإنما جددها وأصلحها فقط على مقتضى أعرافهم في هذه العبارة، فإنهم يقولون فلان عمر داره إذا جددها أو أعادها بعد خرابها.

ومن الغد سافرنا في بلاد منفسحة وفجاج مفرحة ومياه مطردة وطيور مغردة وأزهار على أنواع متعددة، ما رأيت أكثر من هذه الأرض مياها عذبة مسامتين لجبل عن يميننا انبجست بالماء المعين عيونه وتتابع هديره وأنينه، قد استوعب ذلك السهل سقيا وكساه من حلله السندسية رعيا، وعذب منه الهوى (كذا) وطاف في جوانبه النهر وعلى سوق أشجاره صله إلتوى، فتزلنا على مدينة يقال لها أخ شهير[197] وصلناها على اثني عشرة ساعة بالسير المتوسط ونزلنا بخارجها، ويقول أهل البلد إن هذا البلد هي بلد جحا المعلوم صاحب الحكايات وأرونا قبة بخارجها يزعمون أنه مدفون بها، وفي

---

(195) وردت مشكولة في النص بكاف مضمومة وباء مسكونة وراء مكسورة.

(196) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(197) يبدو أن ابن عثمان قد وقع له خلط، إذ أن أق شهير -وليس أخ شهير- وإسكشهير يطلقان على نفس المدينة كما سبق.

هذه القبة أيضا المنسوبة إليه مضحكة، فقد جعل لها باب وثيق وقفل، والقبة لا سور لها وإنما جعلوا لها خشبا مركوزا في الأرض، والظاهر أن جحا هذا مثل أبي زيد السروجي والحارث بن همام وأبي الفتح الإسكندري وعيسى بن هشام فجميعهم مجهول العين لايعرف ونكرة لا تتعرف.

وقبل الوصول إلى هذه المدينة مررنا ببلد أخرى كثيرة المياه كثيرة البساتين يقال لها سقلي، ومن الغد سافرنا فنزلنا / 99 / بظاهر قرية يقال لها إلغين وصلناها على تسع ساعات، وبعد منتصف الليل سافرنا منها فنزلنا على قرية يقال لها اللاذق[198] على تسع ساعات، وتصنع بهذه القرية الزرابي الكثيرة، فكان أهلها يظلون بالركب نساء ورجالا يعرضونها للبيع. ورحلنا منها ليلا وهكذا سفر ركب الحجاج في زمن المصيف، ونزلنا على عشر ساعات بظاهر بلد يقال لها قنية[199]، وهي بلدة كبيرة فيها خطب عديدة وقد صلينا بها الجمعة بمسجد خارج سورها بإزاء ولي هنالك يقال له ملا هنكار[200]، ولما فرغنا من الصلاة دخلنا ضريحه فإذا ضريح منور فيه تربة الشيخ وبعض ذريته، وفي جانبه مجال مفروش بالخشب اجتمع في جوانبه أناس كثيرون ينتظرون الشيخ وهو من ذرية هذا الولي القائم في الوقت بأمور الزاوية، فأتى بهيئة وسكينة ووقار وقعد بمقعد معين له وصعد رجل من فوق مرتبته وجعل يقرأ آيات من القرآن ويفسرها بلغة الترك، وذكر شيئا من التوحيد والوعظ وأخذ في ذلك مدة، ثم شرعوا في استعمال الحضرة

---

(198) اسم عدد من القرى والمدن بالأناضول، والمقصودة هنا هي اللاذق الواقعة شمال قونية على الطريق المؤدي إلى قاراحصار وإسكيشهير، اشتهرت كما يورد ابن عثمان بصناعاتها النسجية (الزرابي والأغطية) وكانت عاصمة لمقاطعة إدارية إلى غاية بداية القرن (E., I., 5 -593).ن

(199) قونية: مدينة على الطريق بين عمورية وإنطاكية، تبعد عن اللاذقية بيوم وتقع في مفترق الطرق، كانت عاصمة لملوك الروم ودارت بها معارك بينهم وبين المسلمين ومن ثم خربت مرارا، لتشهد انبعاثها على يد الملك السلجوقي مسعود الأول(512-550هـ/ 1118-1155م) الذي اتخذها عاصمة له ولخلفائه، وتدل الآثار التي خلفوها على نمو المدينة وازدهارها. (الروض 484؛ E.,I., 5 -251)

(200) ملا خنكار أو مولانا خنكار، لقب شيخ طريقة الدراويش المولويين وصار يطلق على الأولياء عموما.

فأخذوا في نقر دفوف ورنة مزامير جماعة منعزلون في ناحية، ثم قام الشيخ وجماعة من الفقراء وجعلوا يطوفون في ذلك المجال، ومهما سامتوا قبر الشيخ إلا أومئوا له برءوسهم بسكينة ووقار، ثم دخل الفقراء الميدان وجعلوا يدورون وتركناهم على ذلك وانصرفنا لقرب وقت سفرنا، لأن السفر في هذه الطريق ليلا كما قدمنا، وقد رأينا هذه الجماعة وحضرتهم لما كنا بالقسطنطينة ويسمونها حضرة مولانا، وقد أخبرونا أنه إذا ولي سلطان جديد يتوجه أحد من ذرية هذا / 100 / الشيخ وهو الذي يكون معينا في الوقت حتى يبايع السلطان[201] ويأخذ عليه العهد في أن يسير في المسلمين بالعدل، وبعد ذلك يقلده السيف علامة على تمام البيعة والانقياد إلى حكمه وأمره ونهيه، وبعده يبايعه الأعيان والناس.

وأقمنا بهذه المدينة يومين وهي المدينة الثانية التي يقيم بها الحجاج بين القسطنطينة والشام، وبعد صلاة المغرب سافرنا فنزلنا على قرية خالية يقال لها إسمل على إحدى عشرة ساعة، وهذه البلاد التي مررنا بها من قبل مدينة قنية كلها صحراء ذات انفساح وفجاج، كثيرة الغبار والرياح والعجاج قليلة النبات، نباتها نبات بلد الصحراء تنبت الشيح والحرمل وما أشبه ذلك، فقلنا[202] بها وقرب المغرب سافرنا في بلاد مثل البلاد المتقدمة فنزلنا بعد طلوع الشمس على قرية يقال لها قربنار[203]، وهي قرية كبيرة إلا أنها في صحراء شديدة الرياح والعجاج لم يستقر لنا بها مقام ولا استراحة ولا منام، وقيل أنها على هذه الحالة في غالب الأوقات، وقد وصلناها على تسع ساعات ونصف، وبهذه القرية تصنع الأجربة جمع جورب التي تجعل في الأرجل من الصوف ومنها تجلب للبلاد، ومن أجل ذلك قيل لها والله أعلم قربنار، لأن الجراب والقراب[204] لفظة واحدة زيدت فيه النون والراء كما

---

(201) كتب في طرة ص.103 من (ب) ما يلي: "بل له وكيل في أبي أيوب الأنصاري ينوب عنه في ذلك، إذ لا يمكن أن يبقى أمر الخلافة معطلا حتى يأتي الشيخ من هذه البلاد والمسافة بعيدة".

(202) من القيلولة.

(203) وردت بقاف مضمومة ذات ثلاثة نقط وراء مفتوحة وباء مسكونة.

(204) وردت بقاف ذات ثلاثة نقط.

تزاد بعض الحروف في بعض النسب، وبها خان كبير يسع الآلاف معد لنزول الحجاج إذا صادفوا فصل الشتاء والثلج لأن هذه البلاد كثيرة البرد، وفي هذه البلاد التي مررنا بها خانات كثيرة لأجل ما ذكر.

وعند الاصفرار سافرنا من هذه القرية في أرض / 101 / مثل الأرض المتقدمة غبارا وعجاجا ونباتا إلى أن طلعت الشمس علينا بقرب قرية يقال لها أركله وصلناها على إحدى عشرة ساعة، وهي قرية كبيرة ذات بساتين وأرواض وأزهار وجداول وأنهار وأغصان وأطيار، فلو ترى الجداول بين الخيام تدور كأنها صل مذعور، ويسمونها نعني القرية بلسان الترك كتك شام بتاء مشوبة بشين، المعنى الشام الصغير لكثرة مياهها وأنهارها

وأغصانها وأشجارها. ثم رحلنا منها قرب المغرب وسرنا الليل كله في أرض صحراء ونزلنا بعد الفجر على ماء يقال له وادي قشلة وصلناه على تسع ساعات، وبهذا الموضع خان عظيم يسع الآلاف وبه مسجد بداخله فيه منبر الخطبة وبخارجه مسجد آخر ولم يكمل بناؤه، وهو مؤسس بقرب ضيعة بني بقصد نزول الحجاج إذا صادفوا وقت الشتاء والطين والثلج، وهو في غاية الضخامة محكم البناء بالحجارة العظيمة المنحوتة وثيق أبواب الغلق، رحم الله بانيه وأثابه وأكرم مثابه، ويسمى بلغة الترك ألن قشلة والقشلة بلغتهم هي الموضع الذي ينزل به العسكر، وقد رأيت منها بالقسطنطينية عدة مواضع يسمونها القشلات تنزلها العساكر إذا قدمت بسبب حركة الجهاد أو نحو ذلك، ولكل عسكر قشلة معينة وهي مشتملة على ديار كثيرة وبيوت عديدة كأنها مدينة، وبها حمامات ومسجد الخطبة وسقايات الماء المتعددات وديار الوضوء والأشجار مغروسة أمام بيوت كل جماعة، فكل جماعة تدخل موضعها المعلوم لها، وبالأبواب علامات كل فريق / 102 / يتبع علامته، وبها النقوش الفائقة وزليج البديع والعمل الرفيع، والأبواب المصبغة والأرض المفروشة والطرق المستقيمة، وبيوتها لها الشبابيك مطلة على ما وراءه (كذا) فالنظر فيها فرجة ونزهة، ولكل قشلة أوقاف معتبرة من ملوكهم رحمهم الله تعالى يصرف من مستفادها على أصحابها، هذا معنى القشلة.

ولما كان هذا الخان العظيم في الغاية وفوق النهاية ناسب أن يلحق بالقشلات فسموه بلغة الترك ألن قشلة، المعنى ولد القشلة لأن معنى ألن ولد. وهذه البلاد كثيرة البرد فقد سلكناها في آخر مايه[205] وزرعها لم يستو على ساق وبعضه لم يستر الأرض نباته. ومن الغد سافرنا منها في أول النهار في أرض سهلة وآخره وعر، فانتهينا إلى عقبة يقال لها الصندقلي نزلنا فيها من المحامل وركبنا الخيل لصعوبتها، ولما انحدرنا منها نزلنا بموضع بين جبال مشرف على وادي قطعناه قبل العقبة خمس مرات على ست ساعات، ويقال لهذا الموضع شفت خان معناه خانان اثنان سمي باسم خانين هنالك مؤسسين على حاشية الوادي، وهذه البلاد كثيرة البرد كثيرة الرعود، فقد تكلم علينا بعد أن نزلنا ونزلت صاعقة والعياذ بالله فذهبت برجل ودفناه مكانه، ولم يقع بجسده جرح ولا كسر وإنما مات من شدة صوت الصيحة والله أعلم.

ومن الغد رحلنا منها وسرنا في أرض متشعبة وطرق متعبة في شعبة مستطيلة بين جبال والوادي مار بوسط الشعبة، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوادي، فتفتح الطريق / 103 / في حاشية الجبل بالمعاول والآلات، فظللنا بقية يومنا في هذه البلاد الوعرة ذات الحجارة الكثيرة المنتشرة، بل ربما كنت أنزل عن الفرس في بعض الأماكن لصعوبتها، وأما المحامل فقد تركناها لما في ركوبها من المخاطرة إذا مر الإنسان في طريق محفور في حاشية الجبل والواد أسفله، مع توالي صب البرد والأمطار وإرسال السماء حلبها المدرار إلى أن وصلنا إلى موضع يقال له أوابل وهو موضع خال ليس به إلا دكاكين، إذا نزل الركب في ذلك المكان تأتي أهل القرية القريبة منه بالميرة يبيعونها بها وقد وصلناه على ثمان ساعات.

ومن الغد سافرنا في بلاد مثل البلاد المتقدمة أو أصعب حجارة وضيقا وصعوبة بين جبلين والوادي بينهما، فتارة تمر بوسط الوادي وتارة بإحدى العدوتين حيثما أمكن فتح الطريق في الجبل، لأن هذه الطريق كلها مأخوذة

---

(205) يعني شهر ماي.

من الجبل مفتوحة بالآلة، ومع ذلك فهي مرصفة بالحجارة مبني جانبها الذي من ناحية الوادي خشية أن يذهب بها السيل، هكذا سفر هذا اليوم إلى آخر النهار، وبمسافة هذا اليوم عدة فناديق (كذا) يأوي إليها المسافرون والحجاج إذا عاقهم المطر والثلج، فوصلنا أرضا يقال لها الشاقط بعد أن خرجنا من تلك الشعاب، فنزلنا حذاء فنادق ومسجد على ثمان ساعات. ومن الغد رحلنا فمشينا ثمان ساعات ونزلنا بظاهر مدينة متوسطة إلى الكبر أميل يقال لها أدنة[206] بها تسع خطب على حافة واديها المسمى جيحون[207]، وقد عبرناه في هذا اليوم مرتين وليس هو بجيحون أحد الأنهار المعلومة لأن ذلك في أرض العجم. /104/ وهذه المدينة معدة للإقامة من المواضع الخمس التي يقيم فيها الركب من القسطنطينية إلى الشام فأقمنا بها يوما، وبهذه المدينة أثر يدل على أنها كانت من أعظم المدن إلا أنه بها اليوم خراب، ومن بديع آثارها القنطرة المضروبة ببابها على نهرها في غاية الضخامة وعظم الحجارة الهائلة في بنائها وفرشها، فعدد أقواسها ستة عشر قوسا في غاية الكبر، وبين كل قوسين منفذ للماء آخر معين على إخراجه لأن الوادي يأتي بسيل كثير زمن الشتاء.

ومن غريب ما رأيت بهذا الوادي بيوت كبار مسقفة كلها من الخشب

---

(206) أذنة: مدينة تقع بين جنوب الأناضول وشمال الشام على نهر جيحان (أو صيحان) في الطرف الشمالي لسهل كلكيلية بينها وبين كل من طرسوس والمصيصة إثنا عشر ميلا، ونظرا لموقعها فقد كانت محط نزاع بين الإمبراطوريات الأناضولية والسورية منذ القدم، فانتقلت من حكم لآخر وتعرضت للتدمير إلى أن أعاد بناءها هارون الرشيد وأتمها الأمين لتصبح من أهم ثغور الشام، فشهدت وقائع الحروب ضد بيزنطة، كما سقطت في أيدي الصليبيين، وفي سنة 1516 أخضعها سليم الأول في حملته على مصر لتنضم لتصبح عاصمة لإيالة عثمانية، لعبت طوال تاريخها دورا تجاريا مهما نافست فيه طرسوس المجاورة. (الروض 20؛ (E., I., 1) 187.

(207) وهو ليس النهر المعروف حاليا بأموداريا في تركستان الروسية، بل يقصد "جيحان" وهو الاسم العربي لبيراموس، النهر الشرقي من النهرين المخترقين لسهول كليكية الذي ينبع شمال شرق ألبستان من الجبال التي تفصله عن حوض توخما صو رافد الفرات، ويمر على المصيصة حيث يعبره طريق أذنة بواسطة قنطرة قديمة مبنية بالحجارة. يصب في البحر المتوسط. (دائرة المعارف 7-204؛ (E., I., 2) 515.

على متن الوادي مربوطة بسلاسل في القنطرة، وفي داخلها أرحية تطحن القمح لأهل البلد تدور بدواليب مربوطة فيها يديرها الماء، يعبر لبعضها بفلك صغير وإلى بعضها بجسر من الخشب، فإذا كثر الماء في وقت الأمطار وخشي عليها أن يذهب بها السيل ترخى سلاسلها ويؤتى بها إلى شاطئ الوادي حيث تقل سورة الماء وقوة جريه.

ثم رحلنا بالليل من أجل الحر وسرنا ست ساعات ونزلنا على قريتين يقال لهما مصيص[208]، مؤسستين على وادي وهو فاصل بينهما وعليه أرحية من الخشب كما تقدم، وهذه البلاد كثيرة القطن فلأهلها اعتناء به كثير وظلنا مقيمين على شاطئ الوادي، وبالليل رحلنا منها فسرنا سبع ساعات ونزلنا بأرض يقال لها قرطقراط فيها قلعة وخان لنزول الركب، وهذه الأرض طيبة كثيرة الخصب والكلأ.

الوضع الأمني في المناطق الجبلية الكردية

وقد تلقانا عند القنطرة المذكورة رجل ثائر /105/ في شرذمة من خيله قيل إنه ثائر في هذه البلاد وله شيء معين يقبضه من الركب كل سنة، ويمر معه حتى يخرجه من بلاده مسيرة يومين، وأكرمه كبير الركب وخلعوا عليه خلعا متعددات وأخذ من الركب ما شاء من الخيام وما أشبه ذلك، وقد كان قبل يأخذ ذلك غصبا والآن كذلك غصب ولكنه بوجه آخر، وركب هو في قومه وسار أمامنا أول الليل وسار الركب في آخره وتمادينا على المسير إلى أن وصلنا قلعته التي هو مستوطن بها على عشر ساعات، وهي على ساحل البحر الشامي عند انتهاء طوله وعرضه، لأننا لما سافرنا من

---

(208) الأصح المصيصة، مدينة بالشام قرب إنطاكية وأذنة تبعد عن البحر المتوسط باثني عشر ميلا، بنيت عدة مرات بعد خراب لحقها بسبب الحروب بين العرب المسلمين والبيزنطيين و لذلك تسمى المعمورة،وكانت طيلة حذه الحروب قاعدة متقدمة ترابط بها طوالع أنطاكية. تقع على الضفة اليمنى لنهر جيحان وعليه قنطرة من حجر تربط بينها وبين كفر بايا التي تشكل قسمها الثاني، مما يفسر اعتبارها مدينتين من طرف الجغرافيين والرحالة القدامى. لها بساتين وزروع اشتهرت بالفراء الذي كان يصدر إلى كل الاقطار. (الروض 554؛ معجم البلدان 5-144؛(E.I., 6 763.

بعد ما قطعنا الخليج المسمى بالذيل المتقدم الذكر كان مسيرنا في الأرض التي انقطع بها البحر الشامي، فتركناه عن يميننا ونحن مسامتون لعرضه، وكان بعيدا عنا وصوبنا فيما بين الجنوب وعين المشرق زمن الاعتدال، ولما درنا معه إلى هذه القلعة صارت وجهتنا إلى عين الجنوب بسبب تمام عرضه.

وقلعة هذا اللص مبنية على قرية يقال لها بياض(209)، كثيرة البساتين والمياه إلا أنها مهدمة خربة، بعث السلطان العثماني نصره الله العسكر في البر والبحر إلى هذا المحارب فأعياهم وهرب إلى جبال قريبة من جبل يقال له كاور طاغي(210) المعنى جبل الكفار، وهو الآن مختلط بملل فهدموا بلاده وحيث رجع العسكر رجع هو هذا دأبه، فلما رأى السلطان عضال دائه جعله وزيرا على تلك النواحي مثل الوزراء المتفرقين عنده لضبط البلاد، وبعث له الآلة والخلعة مع أمير الركب الذي توجهنا في رفقته، فلم يخرج / 106/ عن عمله الذي كان يعمل في الركب من القبض من الحجاج، لكن كان يقبض ذلك قبل اليوم على طريق الغصب والقهر وعد الأحمال جهارا، واليوم صار يقبضه على وجه الخفارة، يزعم أنه يأتي بخيله حتى يجيز الركب من اللصوص وليس إلا هو بهذا الأمر معروف ومخصوص.

فظللنا في هذا اليوم نمر بجماعات من أصحابه متفرقين في البلاد، ولكل جماعة علم فيهنئون الناس بالسلامة ويقولون لهم هاتوا حق السلامة فيعطونهم، فظاهره سؤال لكن بالعدة والأسال. وبالليل رحلنا منها فسرنا

(209) وقع خطأ من الناسخ بإضافة نقطة على الصاد لأن القرية المقصودة هي "بياس"-بتشديد الياء. وهي قرية ساحلية على خليج إسوس عند سفح جبل اللكام، تعتبر محطة على الطريق بين المصيصة والإسكندرونة وتتبع ولاية أذنة. (دائرة المعارف 4 358).

(210) الأصح كاور داغ: إسم الجزء الشمالي من سلسلة جبال ألما داغ الممتدة في أقصى شمال الشام والمعروفة منذ القدم باسم أمانوس أو جبل اللكام عند الجغرافيين العرب، والتي تشكل الجزء الجنوبي الغربي لجبال طوروس، تطل بأجرافها على البحر المتوسط وينفصل وادي نهر العاصي وسهل العمق ذي المستنقعات جبال ألماداغ عن سلسلة جبال لبنان. وتنفصل ألماداغ بين الشام وكيليكية، حيث لاتوجد إلا ممرات جبلية ضيقة أسلكها ممر "بيلان" الذي يعتبر طريق المواصلات الوحيد المطروق منذ القدم بين آسيا الصغرى والشام. (دائرة المعارف 2 594.؛ E., I.. 2 -1004 (Idem, 5 -816

بقيته وطرفا من النهار، ومررنا في طريقنا على قرية يقال لها سكندرونة[211] مؤسسة على طرف البحر الشامي من ناحية أرض الشام، وهي قرية في منتهاه وبها بعض تجار النصارى ويقال لها مرسى حلب[212] لأنها أقرب المراسي إليها، وكان نزولنا على قرية كبيرة عامرة وبها خان كبير يقال لها بيلان[213] على ثمان ساعات.

لكن أهل هذه الجبال التي مررنا بها لم تنلهم الأحكام، فقد تعرضوا للركب يأخذون منه على وجه الطلب لكن بالعدة والعصبية والغلب، وربما يمدون اليد في بعض البهائم الخاملة حتى يستنقذها أصحابها بما يريدون. وهذه القرية مبنية بين جبال وعرة ذات أنهار وعيون ثرة، وطرقاتها في غاية الصعوبة، وقد رحلنا من منزلنا الذي نزلناه بقربها بعد صلاة المغرب ومررنا بها بالليل وما سلكناها إلا بالمشاعل العديدة على خطر، وربما سقط بعض الإبل من بعض جرفاتها فما أمكن استنقاذها، وتمادينا على المسير الليل كله وضحوة النهار بعده فوصلنا مدينة إنطاكية[214] المشهورة / 107 / على اثنتي

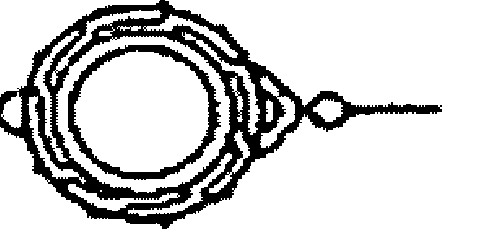
(211) إسكندرونة: مدينة على ساحل البحر المتوسط الشرقي، كانت تابعة لجند قنسرين وتعاقب العرب والبيزنطيون على السيطرة عليها خلال الحروب بينهم. وبعد اضمحلالها نمت كميناء لمدينة حلب التي عرفت ازدهارا اقتصاديا.ضمت المدينة وإقليمها سنة 1939 إلى تركيا.(E., I., 143. 4) .

(212) حلب، من أشهر وأقدم مدن الشام، تعود أهميتها إلى موقعها المتحكم في ملتقى الطرق التجارية منذ القدم، فتحها خالد بن الوليد سنة 16هـ وكانت عاصمة لإمارات عديدة وحاضرة ولاية حلب العثمانية، وقد أبدع ابن جبير في تلخيص ذلك حيث يقول: "بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير وعلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح وسلت عليها من بيض الصفاح". من أهم معالمها القلعة والمسجد الجامع أو مسجد زكريا الذي بني على عهد سليمان بن عبد الملك الأموي و المدرسة الحلاوية. (دائرة المعارف 8-22؛ رحلة ابن جبير 177).

(213) بيلان، يطلق الاسم على ممر إستراتيجي بشق جبال آمانوس على الطريق بين أنطاكية والأسكندرون، توجد في طرفه السوري بلدة بغراس التي دمرت وربما تكون هي المقصودة عند ابن عثمان(E., I., I- 937)) .

(214) إنطاكية، مدينة في شمالي سورية وسط سهل خصب في الحوض الأدنى لنهر العاصي، بناها أنطيخس وجدد بناءها سلوقوس الأول سنة 300 ق.م وسماها على اسم ولده أنطوخيوس. كانت من أكبر مدن الإمبراطورية الرومانية، ثم تعرضت للتخريب على يد الفرس سنة

عشرة ساعة فنزلنا بظاهرها، وهي مدينة كبيرة فيها نحو الخمس عشرة خطبة، وأرضها أرض حراثة وفلاحة، وهي مؤسسة في بسيط مستندة على جبل وحولها بساتين ووادي عذب يقال له العاصي[215]، وقد جرى لسان العامة في خرافة يحكونها أنه من النيل ولا أصل لذلك، فإن منبعه قريب من بعلبك[216]. ولهذه المدينة سور عظيم محيط بالمدينة وبعض البساتين وبالجبل مصعدا في قنته ومصوبا في شعابه، يستبعد الإنسان أن يكون ذلك من عمل الإنس وهو من بنيان الروم الذين كانوا بها قبل الاسلام، فلم تغن عنهم حصونهم من الله شيئا، إلا أنه اليوم به تهدم في عدة مواضع قيل ببعض الزلازل والأحداث وطول الزمان .



وصف خراب المدن وأسبابه وانتقادات ابن عثمان لولاة وعمال الجور

إلا أنها اليوم ليست بالحال الذي يناسب ذكرها وشهرتها، وإن كانت فيها حضرية فقد غيرها الزمان فهي اليوم ضعيفة جدا، إلا أن بناءها يدل على ضخامتها فكله مبني بالحجارة المنحوتة، وأزقتها وأسواقها كلها مرصفة

538م.، فتحها العرب سنة17هـ/ 638م واستردها البيزنطيون سنة 355هـ/ 966 م لتعود للنفوذ الاسلامي سنة 477هـ/ 1084م، ثم سيطر عليها الصليبيون مدة 170سنة إلى أن استردها السلطان بيبرس سنة 666هـ/ 1268م. اشتهرت في القديم بكونها مركزا أساسيا للتجارة بين الشرق والغرب، كما تعرف بصناعة الحرير. يصفها الحميري بقوله: " وهي مدينة حسنة الموضع كريمة البقعة ليس بعد دمشق أنزه منها...وهي إحدى عجائب العالم... والنصارى يدعونها مدينة الله ومدينة الملك وأم المدائن لأنها أول بلد أظهر فيه دين النصرانية". (دائرة المعارف 3-62؛ معجم البلدان 1-266؛ الروض 38).

(215) العاصي إسم نهر حماة وحمص بالشام ويعرف بالميماس، منبعه من بحيرة قدس ويصب في المتوسط قرب أنطاكية، وهو نهر عظيم عليه جسور ونواعير كثيرة تخرج الماء إلى ضفافه. (الروض 405؛ معجم البلدان 4 -67).

(216) بعلبك، مدينة قديمة أطلق عليها الروم هليوبوليس تشتهر بأطلالها الرومانية وخاصة معبد باخوس الذي تذهب الأسطورة العربية إلى أنه قصر سليمان الذي أمهره لبلقيس.ضمت إلى الدولة الإسلامية سنة 16هـ/ 637م وظلت تابعة إداريا لدمشق،كما كانت عاصمة للأمراء السلاجقة والبويهيين. (دائرة المعارف 3-700).

بالحجارة، وقد تكلمت في ذلك مع بعض أهلها فقال لي غيرها توالي القحط والوباء وقد وجدنا بقيته، فقد وصلناها في فصل المصيف والزرع في سنبله قائم في فدادينه لم يحصد لقلة الناس فقد أبادهم الوباء، ودخلت إلى حمام من حماماتها لأستحم فأخبرني صاحب الكيس أنهم كانوا في هذا الحمام ستين رجلا كلهم أصحاب كيس، ولم يبق منهم إلا رجلان وليقس على ما لم يقل، وزادهم عمال الجور فقد أخبرت عن أحد الوزراء مر بهم فنزل على رجل من كبار البلد، فأضافه نحوا من أربعين يوما وهو يصرف عليه وعلى أتباعه وحشمه / 108 / نحو مائة ريال رومي كل يوم، وبعد ذلك نهب ماله كله وقتله،

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق الذي لاقى مجير أم عامر

وهكذا هي أحوال عمال هذه الدولة يأكلون اللحم ويمتشون العظم جبر الله حال المسلمين.

ويكفي هذه المدينة فخرا وشرفا وبركة مدفن الرجل الصالح حبيب النجار[217] نفعنا الله تعالى ببركاته، وقد توجهنا إلى زيارة قبره وهو بوسط البلد، فدخلنا ضريحه فانحدرنا إلى تربته بنحو ست مدارج، فوجدنا في ذلك المكان قبرين أخبرني القيم أن القبر الأيمن لحبيب النجار والقبر الأيسر لشمعون الصفا صاحب نبي الله عيسى عليه السلام أحد الحواريين، وأرانا فوق قبر حبيب ثقبا ضيقا مستديرا على هيئة فم الجب قال، لما قتل أهل إنطاكية شمعون الصفا أحد المرسلين إليهم من قبل عيسى عليه السلام وقتلوا حبيبا حيث جاء من أقصى المدينة يسعى وقال يا قوم اتبعوا المرسلين، رموهما معا في هذا الجب فحفر الناس من جانب الجب ووسعوه من داخل

---

(217) حبيب النجار ولي إنطاكية، سمى العرب باسمه جبل سلبيوس لأن به قبر يعتقد أنه قبره ويزار كثيرا، وقصة هذا الولي وردت في سورة يس (الآية12 وما بعدها) وتدل على أصله النصراني، إذ هو الذي دعا قومه إلى اتباع الرسل يحيى ويونس و شمعون فتامروا بقتله، ويذهب المفسرون إلى أنه كان نجارا بصنع الأصنام ثم آمن لما رأى معجزات الرسل.(دائرة المعارف 7-290).

وجعلوا ضريحهما به، وأغلقوا فم البئر وبقي شكله تذكرة وصاروا ينحدرون إليتربتهما بمدارج، فمتعنا الله تعالى بزيارتهما ولله الحمد.

وأقمنا بهذه المدينة يوم وصولنا إليها واليوم الذي بعده إلى المغرب، لأنها من المواضع الخمس التي يقيم الركب فيها للاستراحة كما ذكرنا، وبعد صلاة المغرب سافرنا منها إحدى عشرة ساعة ونزلنا بأرض يقال لها الزنبق على وادي العاصي المذكور، وحوالي هذه الأرض قرى ومداشر وأجنات كثيرة، فكان / 109 / أهلها يأتون إلى الركب بالخضر الموجودة في الوقت بقصد البيع، ومن الليل سافرنا ست ساعات فنزلنا على بلدة يقال لها جسر الشغر[218] مؤسسة على وادي العاصي المتقدم، وعليه جسر محكم فأضيف إليها وسميت باسمه، وهي بلدة عامرة متوسطة فيها أربع خطب ولها بساتين كثيرة وزيتون كثير، فظللنا مقيمين بها وبالعشية سافرنا فسرنا عشر ساعات ونزلنا عند طلوع الشمس على قلعة المضيق على وادي العاصي أيضا، وهي أي القلعة مؤسسة فوق كدية مقطوعة لم يتصل بها شيء أقرب شبها بأكدير[219] المسمى بحصن المنكب من أرض المغرب، إلا أنه أعلى منها وتحتها في وسط الكدية قلعة أخرى وتحت الجميع في السهل خان عظيم للحجاج والمسافرين، ولأهلها إباء وامتناع فقد وجدناهم ممتنعين من قبول

---

(218) جسر الشغر بتشديد الشين وضمها، قرية بسوريا الشمالية سميت باسم جسر مقام على نهر العاصي في نقطة استراتيجية كانت منذ القدم عقدة المواصلات بمنطقة جبلية وعرة، حيث تلتقي الطرق العابرة لجبال أمانوس بالذاهبة إلى المناطق السورية الساحلية أو السهوب الجنوبية الشرقية، وكانت البلدة محطة لتوقف الحجاج حيث خان ومسجد ذي عمارة عثمانية. وبالقرب من موقع الجسر الذي نسبت إليه البلدة توجد قلعة الشغر التي بناها الإفرنج للدفاع عن إمارة إنطاكية ولا تزال آثارها قائمة. ولعل انهيار القلعة وتراجع أهميتها الإستراتيجية وتنظيم ركب الحج العثماني هو ما يفسر انتعاش جسر الشغر حيث استقر السكان بجوار الجسر وازدهر سوق اسبوعي بالبلدة(E., I., 2 -570) .

(219) وردت بكاف ذات ثلاث نقط لتنطق GA والأصح أكادير وهي كلمة أمازيغية تعني القرية المحصنة المنيعة التي تضم مخازن للحبوب والغلات لأفراد القبيلة الذين يلجأون إليها في أوقات الخطر، ويطلق لفظ أكادير على هذا البناء في منطقة سوس، في حين يطلق عليه لفظ 'إيغرم' في جهات أخرى من المغرب، وحصن المنكب إسم مدينة أكادير الحالية في موقعها الجبلي قبل الزلزال.

عامل بعثه السلطان إليهم ومنعوه من الدخول إليهم لا خروجا عن الطاعة وإنما هو فرارا من العامل لجوره هكذا يقولون.

وأخبرني بعض شيوخ سكانها أن فاتح هذه القلعة دامس أبو الهول البطل المشهور في كتب السير، وظللنا مقيمين بها وعند الاصفرار رحلنا منها فسرنا عشر ساعات ونزلنا عند طلوع الشمس على مدينة حماة[220]، وهي مدينة كبيرة فيها خمس وعشرون مسجدا للخطبة ولها بساتين وأجنات كثيرة، وهي مؤسسة أيضا على نهر العاصي المتقدم يشقها وعليه دواليب كثيرة لاستخراج الماء منه في غاية الكبر، علو الواحدة نحو الخمسين قدما، ويزرع بها القطن الكثير وينسج على أشكال وألوان؛ والعاصي هو اسم النهر الذي تقدم ذكره، قال في القاموس والعاصي نهر حماة /110/ واسمه الميامين والمقلوب لقب به لعصيانه فإنه لا يسقي إلا بالدواليب والنواعير بخلاف غالب الأنهار، وفي هذا المعنى قال الشيخ البركة سيدي عبد الغني النابلسي[221]:

يا حسن نهر به تزهو حماة وقد ... جرى به الماء في لين وتحدير
والناس يدعونه العاصي هناك وقد ... أطاع قهرا على حكم المقادير

---

(220) حماة، مدينة عريقة من أشهر مدن الشام، يحيط بها سور محكم وبظاهر السور ربض كبير جدا يسمى السوق الأسفل، فيه أسواق كثيرة وحمامات وجامع مفرد مشرف على نهر العاصي، عليه نواعير كثيرة تستقي الماء لري بساتينها وتزويد المدينة بالماء. وفي طرف المدينة قلعة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها. (معجم البلدان 2-300؛ دائرة المعارف 8-69؛ الروض 199).

(221) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي (1050-1143هـ/ 1641-1731م)، متصوف شاعر عالم بالدين والأدب مكثر في التصنيف، ولد ونشأ في دمشق عاصمة العلم والأدب في عهده، ورحل إلى بغداد ثم عاد إلى سورية فتنقل في فلسطين ولبنان والحجاز ومصر إلى إن استقر بدمشق وتوفي بها، انضم منذ شبابه إلى أوساط الصوفية وانتسب للطريقة القادرية والنقشبندية ونهل من كتابات ابن العربي وابن سبعين وعفيف الدين التلمساني، تميز في تآليفه بالجمع بين تياري التصوف المغربي الأندلسي والتصوف الفارسي الأناضولي، له مؤلفات كثيرة تناهز المائتين تتوزع بين التصوف والشعر وأدب الرحلة، منها "ديوان الدواوين" و "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية" و" حلة الذهب الإبريز في الرحلة إلى بعلبك وبقاع العزيز" و" الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز". (الزركلي 4-32؛ سلك الدرر 3-30؛ الجبرتي 1 - 232؛ (E., I., 1 - 62)

عصا فلم يسق أرضا من حدائقهم   إلا بحيلة وسواس النواعير

وما أحسن قول القاضي علاء الدين بن غانم في مدح حماة المحروسة:

حماة في بهجتها جنة   وهي من الغم لنا جنة
لا تيأسوا من رحمة الله قد   أبصرتم العاصي في الجنة

ولابن حجة[222] محاجيا في نواعيره:

حماة إن جزت بها   أنخ هناك الراحلة
وقل لهم محاجيا   ما مثل رام قافلة

ولما حططنا الرحال بظاهرها خرج أهل المدينة بجميع الأشياء للبيع والفواكه الموجودة في الوقت ولا سيما المشماش الحموي منسوب إليها فإنه في الغاية صادق الحلاوة، وكذا الأردية والإزر التي يحرم الناس فيها فمن هذه المدينة تشترى، فاشترينا منها كما فعل الناس.

وبها مدفن بشر الحافي[223] المشهور، وقبره خارج المدينة في شرقيها على ما يزعم أهل البلد، عليه قبة صغيرة ملبسة بالطين في مقبرة، فتوجهنا إلى زيارته وتبركنا بتربته نفعنا الله تعالى به. ومن رسالة القشيري ومنهم أبو نصر وهو بشر بن الحارث الحافي وأصله من مرو، سكن بغداد ومات بها وهو ابن اخت /111/ علي بن خشرم. مات سنة سبع وعشرين ومائتين وكان كبير الشأن، وكان سبب توبته أنه أصاب في الطريق كاغيدا[224] مكتوبا عيه

---

(222) أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (نسبة إلى حرفة عقد الأزرار التي زاولها في صباه)، تقي الدين ابن حجة (767-837 هـ/1366-1433 م)، إمام أهل الأدب في عصره ولد في حماة وبلغ ذروة مجده الأدبي عندما شغل منصب "منشئ "ديوان القاهرة. مصنفاته كثيرة منها " خزانة الأدب وغاية الأرب" و "قهوة الإنشاء" جمع فيه ما أنشأه من التقاليد السلطانية والمناشير عن الملوك الذين عمل في دواوينهم. قبره معروف في حماة. (الزركلي 2-67؛ دائرة المعارف 1-135؛ كشف الظنون 1366).

(223) بشر بن الحارث بن عبد الرحمان المروزي أبو نصر المعروف بالحافي(150-227هـ/ 767-841م)، من كبار الصالحين و أعيان الأتقياء المتورعين و من ثقات رجال الحديث، أسلم على يد علي بن أبي طالب. أصله من مرو، سكن بغداد وتوفي بها. (الزركلي 2- 54؛ وفيات الأعيان 1-274؛ ابن عساكر 3- 228).

(224) يقصد ورقة.

اسم الله وطئته الأقدام فأخذه واشترى بدرهم كان معه غالية وطيب بها الكاغيد وجعله في شق حائط، فرأى فيما يرى النائم كأن قائلا قال له يا بشر طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة. سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول مر بشر ببعض الناس فقالوا هذا الرجل لا ينام الليل ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة، فبكى فقيل له في ذلك فقال إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ولا أني صمت يوما ثم لم أفطر من ليلته، ولكن الله سبحانه يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفا منه وكرما.

وزرنا أيضا بهذه المدينة زاوية للسادة القادرية معمورة بالأدعية والأذكار وكمال الأناشيد في بث المواجيد وحسن الأسرار، مطلة على نهر العاصي آخذة بمجامع القلوب وأطراف النواصي لكل من شاهدها من الداني والقاصي، وبإزائها قبر الشيخ الكامل العالم العامل السيد عبد الرزاق من ذرية الشيخ الجليل الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني، وليس هذا الشيخ عبد الرزاق ولد الشيخ لصلبه وإنما هو من ذريته كان من أهل المائة الحادي عشرة ومات في آخرها.

وبهذه المدينة عقب للشيخ سيدي عبد القادر قائمون بأمور زاويتهم، وأول من استوطن حماة منهم وذلك في سنة أربع وثمانين وسبعمائة السيد شرف الدين يحيى الملقب بسيف الدين، فاستوطن حماة وكانت وفاته ببغداد، وهو شرف الدين يحيى بن شهاب الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن السيد عبد الرزاق أبي بكر بن شيخ / 112 / المشايخ ذي القدم الراسخ، البازي الشهب والطراز المذهب القطب الرباني والفرد الصمداني السيد محيي الدين أبي صالح عبد القادر الكيلاني، بكسر الكاف ويقال بالجيم. قال الشيخ علي الشبراملي المصري[225] في حواشيه على المواهب اللدنية للشهاب القسطلاني ما نصه: عبد القادر الكيلاني بكسر الكاف ويقال بالجيم المكسورة

---

(225) علي بن علي الشبراملي أبو الضياء نور الدين (997- 1087هـ/ 1588- 1676م)، فقيه شافعي مصري من شبراملس بالغربية، تعلم ودرس بالأزهر، من كتبه "حاشية على الشمائل". (الزركلي 4 :314؛ رحلة العياشي 1-145).

أيضا، قال في الأنساب الجيلي و الجيلاني بالكسر نسبة إلى جيل، ويقال لها جيل وجيلان وكيلان بلاد متفرقة وراء طبرستان.

وأقمنا بهذه المدينة اليوم الذي وصلناها فيه واليوم الذي بعده وهي آخر المواضع التي يقيم فيها الركب فيما بين القسطنطينة والشام، وفي العشية رحلنا منها فسرنا بقية النهار والليل وفي نصف الليل عبرنا وادي العاصي على جسر، وعن يسار الجسر كدية من ورائها قرية قيل إن أبا يزيد البسطامي طيفور مدفون بها، فهممت أن نصعد لزيارته فلم يمكنني من أجل أن الركب لم ينزل في ذلك الموضع فأتوجه ولم يمكنني التوجه إليه وحدي في الليل والتخلف عن الركب، فصرفنا النية إلى وجهته وزرناه نفعنا الله تعالى ببركاته، واسم هذه القرية رستن[226] بفتح الراء وسكون السين المهملة بعدها تاء مثناة فوقية مفتوحة ونون، قال في "القاموس" رستن كجعفر بلدة بين حماة وحمص[227] انتهى .

والبسطامي بفتح الباء الموحدة وقيل بكسرها نسبة إلى بلد بطريق نيسابور، ذكره الأسيوطي في لب اللباب، واسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي أحد مشايخ الصوفية وكان جده مجوسيا فأسلم، وكان لأبي يزيد أخوان صالحان عابدان وهو أجلهم. قال ابن خلكان[228]: وله /

---

(226) رستن، أو الرستن، بليدة قديمة على نهر الميماس المشهور بالعاصي، وهي بين حماة وحمص في منتصف الطريق بها آثار باقية تدل على جلالتها، نعتها ابن جبير بالمدينة وذكر أن بها آثارا عظيمة منها "جسر كبير معقود من الحجارة" على نهر العاصي، كما نقل عن الروم أن بها أموالا مكنوزة وأن الخليفة عمر بن الخطاب خربها. (معجم البلدان 3-43؛ رحلة ابن جبير 181).

(227) حمص، مدينة ذات تاريخ عريق في سهل العاصي الكبير وسط سوريا بين دمشق وحلب، لعبت أدوارا تجارية كبيرة لموقعها في ملتقى الطرق الكبرى ولخصب تربتها ووفرة مياهها، يورد الحميري في وصفها أن " المسافرين يتصدونها بالأمتعة والبضائع من كل فن: وأسواقها قائمة وخصبها تام... وفي نسائهم جمال وحسن بشرة..."، فتحت سنة 16هـ على يد خالد بن الوليد، وكانت تابعة خلال عهود طويلة لإمارات حلب كبني حمدان والأيوبيين. يوجد فيها ضريح صلاح الدين ومقام كعب الأحبار ومشهد لأبي الدرداء وأبي ذر. (دائرة المعارف 8-105؛ معجم البلدان 2-302؛ الروض 198؛ (E., I., 3 409.

(228) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الأربلي (607. 681 هـ/ 1211. 1281م)، المؤرخ الحجة والأديب صاحب "وفيات الأعيان" وهو أشهر كتب التراجم ومن

113/ مقامات ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة، توفي سنة إحدى وستين ومائتين. وقد ذكر أبو نعيم ترجمته: وفي دمشق الشام في نواحي المرج القبلي قبر على تل عال في داخل بيت بالقرب من قرية تسمى ترحت مشهور في تلك النواحي أن هذا القبر قبر أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه. وذكر الشيخ علي بن أبي بكر الهروي(229) في كتابه "الزيارات" أن في مدينة بسطام قبر الشيخ أبي يزيد البسطامي انتهى.

قال الشيخ القدوة عبد الغني النابلسي في كتابه "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز": وأبو يزيد البسطامي رضي الله عنه أحد مشايخ الطريقة النقشبندية أصحاب الهمم العالية والأخلاق العالية الرضية، والمكارم السنية والحضرات المحمدية والوراثة الأحمدية، وقد اتصل إلينا مدد هذه الطريقة والعهد الوثيق برضاع لبان هذه الحقيقة من طريق الباطن ومن طريق الظاهر إلى أن قال عن الشيخ بهاء الدين نقشبند(230) بواسطة بينه وبينه رضي الله عنه الذي سميت هذه الطريقة بالنقشبندية نسبة إليه، ومعنى

أحسنها ضبطا وإحكاما.ولد في أربل بالقرب من الموصل، انتقل إلى مصر وأقام فيها مدة وتولى نيابة قضائها، وسافر إلى دمشق فولاه الملك الظاهر قضاء الشام مدة عشر سنين عزل بعدها، فعاد إلى مصر ثم رد إلى قضاء الشام.ولي التدريس في كثير من مدارس دمشق وتوفي بها ودفن بسفح جبل قاسيون. (وفيات الأعيان 2- 420؛ الزركلي 1- 220؛ دائرة المعارف1-157).

(229) الشيخ تقي الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي (ت.611هـ / 1215م)، رحالة زاهد مؤرخ أصله من هراة ومولده بالموصل، "طاف البلاد وأكثر من الزيارات وكاد يطبق الأرض بالدوران "، كان محط رعاية الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب حيث بنى له مدرسة وبها دفن، كما رافق صلاح الدين في حملاته العسكرية مما مكنه من تأليف كتاب " التذكرة الهروية في الحيل الحربية"،و لعب دورا كبيرا في إعطاء زخم للتصوف وفيه ألف كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات ". (ابن خلكان 3-346؛ الزركلي 4-266؛ (E., I., 3- 182

(230) بهاء الدين نقشبند، شيخ طريقة صوفية معروفة باسمه، أصله من بخارى مثل جل الشيوخ المكونين لسلسلة من أخذ عنهم، والتي تنتهي عند أبي بكر الصديق و به تسمى النقشبندية بالبكرية، ويعرف عبد الغني النابلسي النقشبندية "بالطريقة المحروسة والحقيقة المأنوسة" القائمة على "إثبات نقش التوحيد في لوح القلب وإدامة استحضاره بحيث لا ينفك عنه...وهي طريقة السر الذي وقر في صدره (أبي بكر الصديق)". (الحقيقة والمجاز 45).

نقشبند ربط النقش باللغة الفارسية، يعني إثبات نقش التوحيد في لوح القلب وتحقيق القلب به وإدامة استحضاره بحيث لا ينفك عنه، ثم رفع الآخذين والمأخوذ منهم إلى أن وصل أبا يزيد البسطامي وهو عن الإمام جعفر الصادق(231) وهو عن الإمام القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق(232)، وأخذ أيضا عن الإمام محمد الباقر(233). فله طريقان أما طريق الإمام القاسم فإنه أخذ عن سلمان الفارسي(234) رضي الله عنه، وسلمان أخذ عن أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو

---

(231) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، أبو عبد الله الملقب بالصادق (80-148هـ/ 699-765م)، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين وذا منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه الإمامان أبوحنيفة ومالك. له أخبار مع الخلفاء العباسيين وكان جريئا عليهم صداعا بالحق، له رسائل مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون، مولده ووفاته بالمدينة. (ابن خلكان 1-327؛ الزركلي 2-126).

(232) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت.101 أو 102هـ/)، أمه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس. من سادات التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، روى عن جماعة من الصحابة وروى عنه جماعة من كبار التابعين. توفي بقديد بين مكة والمدينة وعمره 70 أو72سنة. (ابن خلكان 4-59؛ ابن سعد5-187). وأبوه محمد بن أبي بكر الصديق (10-38هـ/ 632-658م) ابن أول خليفة راشدي، ولد عام حجة الوداع ونشأ في كنف وحجر علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر. لعب دورا هاما في أحداث الفتنة الكبرى، حيث أعلن معارضته لعثمان بمصر عندما رفض هو ومحمد بن أبي حذيفة التحرك تحت راية الوالي عبد الله بن سعد بن أبي سرح ونشر قائمة بتجاوزات الخليفة، وقدم دعمه المباشر لثوار مصر خلال حصار منزل عثمان بالمدينة. ساند عليا بن أبي طالب وحضر معه وقعة الجمل و ساق أخته عائشة أسيرة إلى البصرة. ولاه علي على مصر بعد الجمل (36هـ/ 656م)، إلا أن معاوية وعمرو بن العاص ما لبثا أن سيطرا على مصر حيث قتل محمد بن أبي بكر على يد معاوية بن حديج وأحرقت جثته بعد لفها في جلد حمار (E., I., 7 -394) .

(233) محمد بن علي زين العابدين بن الحسين، أبو جعفر الباقر (57-114هـ / 676-732م)، خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان ناسكا عابدا عالما كبيرا، وقيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع فيه، ولد بالحميمة ودفن بالبقيع. (الزركلي 6-270؛ ابن خلكان 3-174؛ اليعقوبي 3-60).

(234) سلمان الفارسي (ت.36هـ/ 656م)، صحابي كان يسمي نفسه سلمان الإسلام أصله من مجوس أصبهان، عمر طويلا وكان عبدا اشتراه رجل جاء به إلى المدينة حيث علم سلمان بخبر الإسلام، فلازم النبي وافتدى نفسه بمال وأسلم. كان صحيح الرأي عالما بالشرائع، وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، جعل أميرا على المدائن إلى أن توفي، له 60حديثا. (الزركلي 3/ 111-112؛ ابن سعد 4 -56؛ تهذيب ابن عساكر 6-188).

رأس سلسلة النقشبندية وبه تسمى هذه /114/ الطريقة بالبكرية لنسبتها إلى أبي بكر رضي الله عنه، وهي طريقة السر الذي وقر في صدره رضي الله عنه بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك في قوله "لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكنه بشيء وقر في القلب"، وفي رواية "لسر وقر في صدره"، أي سكن فيه وثبت من الوقار وهو الحلم والرزانة، كذا في "نهاية" ابن الأثير[235]. وأبو بكر رضي الله عنه أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم أخذ عن جبريل وجبريل عن الله تعالى.

وأما طريق الإمام محمد الباقر فإنه أخذ عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين[236] وهو أخذ عن أبيه الإمام الحسين وهو أخذ عن أبيه الإمام الليث الغالب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه وعن بقية الصحابة أجمعين، ومنه تفرعت طرائق الصوفية كلها لأنه باب مدينة العلم كما يشير إليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " أنا مدينة العلم وعلي بابها"، والإمام علي أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن رب العزة جل جلاله وعظم نواله، وانظر بقية الكلام على ما يتعلق بهذا المعنى في مواضعه.

وعند طلوع الشمس أشرفنا على مدينة حمص المشهورة ذات الأخبار المأثورة، قال ياقوت الحموي[237] في "المشترك" حمص موضعان، الأول

---

(235) علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو الحسن ابن الأثير (555-630هـ / 1160-)، المؤرخ الإمام ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر وسكن الموصل وبها توفي، تجول في البلدان وسمع من شيوخها، كان إماما في حفظ الحديث والتواريخ وخبيرا بأنساب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتابا كبيرا سماه "الكامل" وله كتاب" أسد الغابة في معرفة الصحابة "، ويمتاز ابن الأثير بشدة التثبت فيما ينقل كما قد ينقد المصادر التي اعتمدها. (الزركلي 4-331؛ ابن خلكان 3-348؛ دائرة المعارف الاسلامية 1-83).

(236) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين (38- 94هـ/ 658- 712م)، رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ومن سادات التابعين مولده ووفاته بالمدينة، وفضائله ومناقبه أكثر من أن تحصر. (الزركلي 4- 277؛ ابن خلكان 3- 266؛ ابن سعد 5- 156).

(237) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (574- 626هـ / 1178- 1229م)، مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين والعلماء باللغة والأدب، أصله من الروم أسر وهو صغير فاشتراه تاجر

حمص مدينة مشهورة بالشام بين حماة ودمشق، قديمة بناها حمص بن الهرمز بن عمليق فيما زعموا، الثاني اسم لمدينة إشبيلية بالأندلس، كان بنو مروان الذين ملكوا الأندلس بعد نزول دولتهم عن المشرق لمحبتهم للشام سموا عدة بلاد بالأندلس بأسماء بلدان الشام انتهى(238) .

/ 115 / قال بعض أهل الأندلس مذيلا بيتين لبعضهم في مالقة:

مالقة حييت يا تينها ... من أجلك الأفلاك يأتينها
نهى طبيبي عنك في علتي ... ما لطبيبي عن حياتي نها

فذيله بقوله:

وحمص لا تنس لها تينها ... واذكر مع التين زياتينها

ومراده بحمص إشبيلية.

وصف مدينة حمص، عمرانها وعاداتها وحرفها

وكانت، نعني حمص الشام، فيما تقدم من الزمان محفوفة بالمياه الجارية في السواقي والغدران فكأنها جزيرة في بحر أو قلادة في نحر، والآن قد حال حالها ولبعضهم:

جزيرة حمص كعبة الحسن أصبحت ... يطوف بها دان ويسعى لها قاصي
لها حلة من نبتها سندسية ... تعلق في أذيال أستارها العاصي

فنزلنا على واديها المسمى بالعاصي ومنبعه قريب من بعلبك بنحو اثني عشرة ساعة، ولما أن حططنا الرحال ما قدمنا شيئا على التوجه إلى زيارة من

بغدادي اسمه عسكر بن ابراهيم الحموي ورباه وعلمه وشغله في تجارته ثم اعتقه. عاش من نسخ الكتب ورحل إلى خراسان هاربا من نقمة أهل دمشق المتعصبين للإمام علي، وصادف مقامه بخوارزم زحف التتار سنة 616هـ فتقفل راجعا إلى الشام حيث توفي فقيرا بحلب، أشهر كتبه "معجم البلدان" وله أيضا "معجم الأدباء" و "المبدأ والمآل". (الزركلي 8-131؛ ابن خلكان 6- 127).

(238) تشير كلمة انتهى إلى نهاية الاقتباس، لكن ابن عثمان يتركنا نعتقد باقتباسه من ياقوت الحموي بينما هو نقل عن عبد الغني النابلسي كما سبق التنويه بذلك، انظر الحقيقة والمجاز، ص. 31.

فيها من المشاهير الأعلام ساداتنا الصحابة الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فبدأنا بتربة المجاهد الضرغام صاحب الفتوحات والمغازي العظام، سيف الله أبي سليمان خالد بن الوليد وقبره خارج المدينة بالقرب منها في ربض وعليه قبة حافلة، فتبركنا بزيارته ومشاهدة تربته ومعه ولده عبد الرحمان بن خالد. وقد وجدت بمقام سيدنا خالد رضي الله تعالى عنه قصيدة من نظم بعض العارفين رأيت أن نرسمها تبركا بالقائل / 116 / والمقول فيه، من أحب شيئا أكثر من ذكره وسيأتي التعريف به بعد هذا إن شاء الله، ونص ما ألفيت بورقة:

الحمد لله هذه القصيدة الفريدة من نظم الإمام الهمام الكامل الأسد الضرغام، العارف بالله تعالى شيخ الأنام وبركة أهل الشام الشيخ عبد الغني بن إسماعيل الشهير بابن النابلسي نفعنا الله به والمسلمين، يمدح صاحب هذه الحضرة الشريفة والمرتبة العلية الحنيفة الصحابي الكبير والإمام الشهير خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه بطلب بعض الصلحاء الأشراف وهو السيد محمد من أهل تلك النواحي والأطراف، وذلك يوم السبت المبارك السادس والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة إحدى ومائة وألف وهي قوله: بسم الله الرحمان الرحيم،

إن حمصا بخالد بن الوليد ... هي حصن لشيخها والوليد
قرشي من كعب بن لؤي ... نسل قوم ذوي مكارم صيد
نسل مخزوم بن يقظة كانت ... أمه من ذوات أصل مجيد
أخت ميمونة[239] الشريفة قدرا ... زوجة المصطفى الرسول الوحيد
شاهد منه قد تلاه لدينا ... نسب مثل عقد در[240] نضيد
كان يمتن بالوفا يوم عيد ... ويخلف الوعيد يوم الوعيد
جبل من هدى تشعشع نورا ... فاهتدى من له رءى من بعيد

(239) أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، زوجة النبي من بني هلال بن عامر تزوجها سنة 7هـ في عمرة القضاء. (الإصابة 4 - 397؛ الحقيقة والمجاز 38).

(240) سقطت من النسختين ووردت في الحقيقة والمجاز، مصدر سابق.

هو سيف الله الذي ما انتضاه الله إلا أزال رأس العنيد
لقب خصه الرسول به يو م غزى مؤتة[241] بجهد جهيد
117 / و فرى من جماجم ورقاب ذلك اليوم فهو يوم الحصيد
كان يدعى فيستجيب سريعا لحروب العدا بعزم شديد
فكأن الذي دعاه إليها قد دعاه لقصعة من ثريد
أسد كان من أسود المغازي كاسرا كل ضيغم صنديد
ما تلوى في كفه الرمح إلا عوضته الرؤوس جيدا بجيد
وعجيب سيف به صال سيف وهو في غمده وفي التجريد
صارم كيفما توجه أفرى مطلق الحد في ذوي التقييد
لابس في الوغا ثياب الموالي لقتال المجردين العبيد
وهو في الجود والمكارم بحر ما على بر بره من مزيد
المصطفى[242] النبي إلى أن نال في صدقه مقام الشهيد
طالبا نصره ببيض سيوف ما لها في الحروب من تسويد
مظهرا دينه المتين بقرم منه يوم الهياج شهم جليد
خاض في الله كل غمرة حرب كهفها دونه الردى بالوصيد
وجلاها بعزمه في وجوه من صحاب تفوق أوجه عيد
كان في الحرب ذا افتخار وعجب قصد أمر من الأمور رشيد
حيث حمص به تفوح كمسك فتفوه البلاد بالتحميد
راح منها العاصي بمشرب صدق سيره خالص من التنكيد
118 / ولديها أبو الوليد مقيم للذي يشتكي وللمستفيد
رابض كالهزبر بالقرب منها خوف ذي لبدة من البغي سيد
درك في ضمانه لبنيها من عدو عاث عليهم مريد

(241) مؤتة، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، بها كانت تطبع السيوف المشهورة بالمشرفية. بعث إليها الرسول الجيش سنة 8هـ والتقى بجيش هرقل المعسكر بقرية مشارف بالقرب من البلقاء، فانحاز المسلمون الى قرية مؤتة حيث دارت المعركة عندها وسقط فيها عدد كبير من قادة المسلمين، منهم زيد بن حارثة وجعفر الطائر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وحزن الرسول حزنا شديدا عليهم. (معجم البلدان 5-219؛ الروض 566).

(242) " صحب المصطفى " في " الحقيقة والمجاز " للنابلسي.

يا سقى الله عهد خالد فيها كان ركن الهدى على التخليد
غزوات مع الرسول أتاها باشتداد يوم الجلاد حميد
شهد الفتح فتح مكة حتى فاز بالحظ والمقام الفريد
وأتى يقتفي جموع حنين فرمى شملهن بالتبديد
وسلوا خيبر الخبيرة عنه يوم ما عن سهامه من محيد
حيث وافى ذوي الضلال بعزم في هوى المصطفى قوي عتيد
قوم سوء أبوا هداية حق فأتوا بالضلال والتشديد
أخذتهم سيوف أحمد هلا نظروا كم مجدل أو طريد
فاتهم فالهدى طهارة ماء فكفاهم تيمم بالصعيد
كان ركنا في الجاهلية صلدا فحماه الإسلام بالتشييد
مائة قال من حروب دخلنا بين جمع من الكماة عديد
ثم مني لم يبق موضع شبر سالما من آثار ضرب الحديد
وعلى مفرشي أموت فلا نامت عيون الجبان والرعديد
ثم من بعد ذاك مالي رجاء غير نطقي بكلمة التوحيد
كم له في بني حنيفة قتل يوم حرب اليمامة العبديد
ورمى في الوغا مسيلمة الكذاب بالخزي والنكال الشديد
119 / وعلاه الهمام بالسيف حتى كان يوما كأنه يوم عيد
يا لوحشي الذي حاز فيه ضربة أورثته أنس السعيد
وبدين الإله طهر منهم عصبة الشك فيه والترديد
ردة أشبهت إقالة بيع أوجبته السيوف بالتهديد
وأبو بكر الخليفة لما لم بالحق كل شمل شريد
وغدا كاشفا لغمة دين طبق عزم المبدى له والمعيد
رضي الله عنه في كل وقت وزمان على ممر الجديد
وعلى الصحب أجمعين وآل هم رجال الفخار والتمجيد
سادة الناس ما لهم في المعالي من مثيل أصحاب رأي سديد
نصروا الدين دين أحمد ممن شان بالذب عنه والتجديد
قد وفى يا أبا سليمان قلبي لك بالود تارك التفنيد

كنت قبل ما زرت قبرك يوما بضلوع وهت وقلب عميد
وتمتعت من حماك بقرب فمرادي مني كحبل الوريد
وأنا اليوم في دمشق غريب بين قومي لأجل إلف فقيد
فاشتياقي الكثير أوجب عندي سير مدحي إليك سير البريد
بعدت بينك الديار وبيني فانطوى نحوك انطواء البيد
بعقود من النظام تسامت فائقات على نظام لبيد
أنا عبد الغني نابلسي أصله قد أتى بهذا القصيد
/ 120 / يرتجي من إلهه كل خير بحصول القبول والتأييد
ودوام النعيم في إنعام وطريف من المنا وتليد
وعلى أحمد النبي صلاتي وسلامي بغاية التأكيد
ما تثنت بين الرياض غصون فوقها الطير ضج بالتغريد.

قال النووي[243] في "تهذيب الأسماء واللغات": هو أبو سليمان وقيل أبو الوليد خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي المخزومي سيف الله، أمه لبابة الصغرى بنت الحارث أخت ميمونة أم المؤمنين، أسلم خالد بعد الحديبية[244] وشهد غزوة موتة، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ سيف الله، وشهد خيبر وفتح مكة وحنينا، وكان من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة. ثبت في صحيح البخاري عنه أنه قال:

"لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما ثبت في يدي إلا صفحة يمانية"، وله الآثار العظيمة المشهورة في قتال الروم بالشام والفرس بالعراق وافتتح دمشق، وكان في قلنسوته شعر من شعر رسول الله صلى

---

(243) أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسين الحزامي الحوراني النووي (631-676هـ / 1233-1277م)، علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران بسورية) من كتبه "تهذيب الأسماء واللغات" و"خلاصة الأحكام من أمهات السنن وقواعد الإسلام" و"مختصر طبقات الشافعية". (الزركلي 8-149؛ طبقات الشافعية للسبكي 5-165).

(244) الحديبية، اسم بئر على مرحلة من مكة، دخلت التاريخ لإبرام صلح فيها بين الرسول وقريش سنة 6 هـ تحت الشجرة المذكورة في القرآن فيما عرف ببيعة الرضوان. (دائرة المعارف 7-327؛ الروض 190).

الله عليه وسلم، يستنصر به وببركته فلا يزال منصورا. ولما حضرت خالد الوفاة قال: "لقد شهدت مائة زحف أو نحوها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء، ومالي من عمل أرجى من الله إلا لا إله الا الله، فأنا متتوس بها". وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في سنة إحدى وعشرين، وكانت وفاته في حمص وقبره مشهور على نحو ميل من حمص، /121/ وقيل توفي بالمدينة قاله أبو زرعة الدمشقي عن دحيم، والصحيح الأول. وحزن عليه عمر والمسلمون حزنا شديدا انتهى كلام النووي.

ثم بعد زيارة خالد بن الوليد نفعنا الله به، زرنا خارجا عنه بقبة أخرى قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابي على حسب ما يزعمه أهل حمص، والمعتمد عليه ما قاله الصاغاني[245] في "در السحابة في وفيات الصحابة" وعبارته: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توفي بمكة ودفن بفخ وقيل بذي طوى[246] انتهى، وفي "القاموس" ذو طوى مثلث الطاء يعني المهملة وينون موضع قرب مكة، وقال في المصباح ذو طوى وادي بقرب مكة على نحو فرسخ، ويعرف في وقتنا بالزاهر في طريق التنعيم، ويجوز صرفه أو منعه[247] وضم الطاء أشهر من كسرها، فمن نون جعله اسما للوادي ومن منعه جعله اسما للبقعة، مع العلمية أو منعه للعلمية مع تقدير العدل عن طاو انتهى.

---

(245) رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي الصاغاني (577-650هـ/ 1181-1252م)، أعلم أهل عصره في اللغة وكان فقيها محدثا، ولد في لاهور بالهند ونشأ بغزنة من بلاد السند، دخل بغداد ورحل إلى اليمن وتوفي ببغداد ودفن بمكة تلبية لوصيته، له كتب كثيرة منها "مجمع البحرين" و "العباب" و "در السحابة في مواضع وفيات الصحابة". (الزركلي 2-214).

(246) ذو طوى، موضع اختلف في ضبطه بدقة كما يشير إلى ذلك العبدري، وإن اتفق على وجوده على وادي بين ثنية الحصحاص وثنية المقبرة المسماة كدى قرب مكة. (الروض 260؛ معجم البلدان 4-44؛ العبدري 167).

(247) يقصد أنه يمكن تصريف الاسم أو عدم تصريفه.

وقال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات": توفي ابن عمر بمكة سنة ثلاث وسبعين بعد قتل ابن الزبير[248] بثلاثة أشهر وقيل بستة. وقال يحيى بن بكير: توفي ابن عمر بمكة بعد الحج ودفن بالمحصب وبعض الناس يقول بفخ، وفخ بالخاء المعجمة موضع قرب مكة. وقال ابن عبد البر في" الاستيعاب": مات عبد الله بن عمر بمكة وكان أوصى أن لا يدفن في الحل، فلم يقدر على ذلك من أجل الحجاج بن يوسف، فدفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين، وكان الحجاج قد أمر رجلا فسم زج رمحه، وزاحمه في الطريق ووضع الزج في ظهر قدمه، وذلك أن الحجاج خطب يوما وأخر الصلاة فقال ابن عمر: إن الشمس لا تنتظرك، فقال الحجاج لقد هممت /122/ أن أضرب الذي فيه عيناك، فقال إن تفعل فأنت سفيه مسلط، وقيل إنه أخفى ذلك عن الحجاج ولم يسمه، انظر تمامه.

ثم توجهنا إلى زيارة كعب الأحبار[249] رضي الله عنه، ثم إلى جعفر الطيار أخي علي رضي الله عنهما وهما بمقبرة خارج المدينة عليهما قبة. وقال الهروي في زياراته إن في دمشق الشام قبلي مقبرة باب الصغير قبر كعب الأحبار، ثم قال بعد ذلك والصحيح أن كعب الأحبار، وذكر معه جملة من الصحابة والصحابيات، أنهم في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن الحوراني[250] في كتابه" الإشارات إلى أماكن الزيارات": وفي بلد حمص قبر

(248) عبد الله بن الزبير بن العوام (1هـ-73هـ/ 622-692م)، أمه أسماء بنت أبي بكر بويع له بمكة سنة 64 هـ كما بايعه أهل العراق منتزعا بذلك الحجاز والعراق من سلطة الأمويين مدة تسع سنين، ولما ولي عبد الملك بن مروان بعث إليه الحجاج بن يوسف الذي حاصره بمكة ثمانية أشهر انتهت بقتل ابن الزبير وجز رأسه وأرسل إلى دمشق. (ابن خلكان 3-71).

(249) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري المشهور بكعب الأحبار (ت. 32هـ / 652م)، تابعي من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم زمن أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو الكتاب والسنة عنهم، كان من العلماء والرواة الثقاة رغم اتهامه أحيانا بتسريب الإسرائيليات إلى الإسلام. ساند الخليفة عثمان وخرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي بها عن سن 104 سنة. (الزركلي 5-228؛ ابن الأثير 2-9؛ الطبري 2-185؛ شذرات الذهب 1 . 40؛ (E.. I., 4 -330

(250) عثمان بن أحمد بن محمد بن رجب بن سويح بن سعيد السويدي الحوراني (ت.بعد 1117هـ / بعد 1705م)، واعظ في الجامع الأموي من أهل الشاغور في دمشق، له كتب منها "الإرشاد إلى طريق الرشاد "و" الإشارات إلى أماكن الزيارات". (الزركلي 4-203).

كعب الأحبار على الصحيح، وهو كعب بن ماتع بالمثناة فوق التابعي، أسلم في خلافة أبي بكر وتوفي في خلافة عثمان، ومات بحمص ودفن بها، ويقال له كعب الأحبار لكثرة علمه ومناقبه وحكمه وأحواله.

قلت: ولم يضبط التاء المثناة فوق من اسم ماتع، هل هي بالفتح أو بالكسر، وفي القاموس الماتع الطويل الجيد، ووالد كعب إلى آخره فانظره، لكن مقتضاه الكسر على وزن فاعل، ويؤيده ما ذكره الفارابي[251] في "ديوان الأدب" في باب فاعل بكسر العين قال، ويقال جبل ماتع أي طويل وشراب ماتع إذا اشتدت حمرته، وماتع من أسماء الرجال فتعين أن يكون بكسر التاء لا بفتحها. وما وقع في كتاب الإصابة لابن حجر سهو من الناسخ، حيث قال كعب بن ماتع بفتح المثناة ويقال كعب الحبر.

وأما جعفر الطيار رضي الله عنه، فقد ذكر المناوي[252] في "طبقاته" في ترجمته ما نصه: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الطيار ذو الجناحين

(251) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي التركي (ت.339هـ/ 950م)، الحكيم المشهور صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم ومن أكبر فلاسفة المسلمين، استقر زمنا ببغداد ينهم علوم المنطق والفلسفة على يد أساتذة المدرسة الفلسفية الأرسطية حتى برع فيها، ورحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان الذي قربه إليه وأصبح من خاصته. وكان زاهدا في الدنيا منشغلا بعلومه إلى أن توفي بدمشق وقد ناهز 80 سنة. عمل الفارابي على المصالحة بين الفلسفة والدين محاولا تبيان كيف يمكن للفلسفة أن تساهم في تقديم تفسيرات مقبولة للمسائل الهامة التي كانت تشغل المسلمين في زمانه. (ابن خلكان 5-153 ؛ (E., I., 2) 797

(252) الشيخ محمد المعروف بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي الحدادي (952-1031هـ/ 1545-1621م)، عالم شافعي وصوفي مصري، أصل عائلته من حدادة بتونس استقرت بمنية الخصيب ونسبها نسبه، ولد وتوفي بالقاهرة من عائلة علم ودين، فجده هو شيخ الإسلام يحيى المناوي الذي تتلمذ على يديه، كما أخذ على الصوفي الكبير عبد الوهاب الشعراني وأصبح مريدا للطريقة الخلوتية والنقشبندية وغيرهما.اشتغل بالتدريس في المدرسة الصالحية وذاع صيته، توفي مسموما على الأرجح.ترك مؤلفات عديدة في الحديث والفقه والطب والفلسفة والتصوف وغيرها من الحقول، من أهم كتبه "الكواكب الدرية في ترجمة السادات الصوفية" المعروف أيضا ب "طبقات المناوي الكبرى" و" الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور" و"الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية". (كشف الظنون7 ؛ (E., I., 7) 565.

والهجرتين[253]، الجواد / 123/ أبو الجواد، الأسد الصرغام الباسل المقدام السخي المطعام، خطيب العارفين مضيف المساكين، مهاجر الهجرتين مصلي القبلتين، البطل الشجاع الجواد الشعشاع فارق الخلق وامن الحق، وقد قيل التصوف الانفراد بالحق عن ملابسة الخلق، كان يحب المساكين ويقعد معهم ويحدثهم ويحدثونه، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يسميه أبا المساكين، وقصته مع النجاشي في أول اجتماعه به وقراءته عليه سورة البقرة، وقوله إن عيسى عبد الله وغير ذلك معروف ومشهور، استشهد بمؤتة من أرض الشام مقبلا غير مدبر، مجاهدا للروم في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم سنة ثمان، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه رآه في الجنة يطير مع الملائكة انتهى.

والمناوي صاحب الطبقات بضم الميم قال في "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" مانصه: والمناوي بضم الميم نسبة إلى منية الخصيب بلد بصعيد مصر، وهو الشيخ محمد المعروف بعبد الرءوف المناوي الحدادي المتوفى سنة 1535[254] انتهى كلامه. وما ذكره من ضبط منية بضم الميم هو نص السيوطي في "لب اللباب في تحرير الأنساب" ونصه: المناوي بالضم نسبة إلى منية بني خصيب بلد بصعيد مصر انتهى كلامه. ولم يضبطها المقريزي[255] في خططه وإنما قال: منية الخصيب هذه بلدة تنسب إلى

---

(253) يشير هنا إلى كون جعفر هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية وحصل على حماية النجاشي بعد تلاوة سور من القرآن تورد ذكر مريم العذراء وعيسى عليه السلام عندما وفد مبعوثو قريش يطالبون بطرد المهاجرين. ومكث جعفر وصحبه في المنفى إلى أن هاجر النبي إلى المدينة، فقدم عليه وهو بخيبر سنة 7هـ (ابن سعد 4 -24؛ معجم البلدان، مؤتة؛ E., I., 2- 382)

(254) ورد التاريخ بالأرقام الهندية في (أ) بينما ترك بياض مكانه في (ب)، وهو غير مضبوط إذ توفي المناوي سنة 1031هـ.

(255) المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (766-845هـ/ 1364-1442م)، مؤرخ مصري سليل أسرة علم وجاه، تلقى تعليمه على عدد كبير من أشهر علماء زمانه. اشتغل مثل أبيه بوظائف الحسبة والقضاء والتدريس بمصر ودمشق، وفي الشام قرر التفرغ لعلم التاريخ وعاد إلى مصر حيث توفي باالقاهرة في رمضان سنة 845 هـ خلف العديد من المؤلفات أشهرها " كتاب المواعظ و الاعتبار في ذكر الخطط و الآثار" المعروف اختصارا بالخطط، والذي تناول فيه طبوغرافية الفسطاط والقاهرة والإسكندرية وتاريخ مصر عموما،

الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد، ثم قال ياقوت في كتاب " المشترك": المنية ثلاثة وأربعون موضعا وجميعها /124/ بمصر غير واحدة. والمقريزي بفتح الميم نسبة إلى مقريز محلة ببعلبك، وهو الشيخ أحمد بن علي المقريزي المتوفى بمصر سنة825(256)، كذا في كشف الظنون انتهى.

وقيل بهذه المقبرة قبر الإمام العادل عمر بن عبد العزيز نفعنا الله به وقيل في دير سمعان، قال في "المصباح المنير" قال الصنعاني: وقد سموا سمعان مثل عمران والعامة تفتح السين ومنه دير سمعان انتهى.

وقال ياقوت في "المشترك": دير سمعان أربعة مواضع، وسمعان هو شمعون الصفا من الحواريين وله ديرة كثيرة، والذي بلغنا منها هذه أحدها دير سمعان في غوطة دمشق، وفيه دفن عمر بن عبد العزيز في الصحيح من الأخبار ولا يعرف الآن، ودير سمعان من نواحي إنطاكية دير كبير كالمدينة فيما بلغني، ودير سمعان قرب المعرة يقال فيه قبر عمر بن عبد العزيز والأول أصح، ودير سمعان من نواحي حلب بين جبل عليم والجبل الأعلى، انتهى. قال في القاموس: دير سمعان بالكسر وهو موضع بحلب وموضع بحمص، به دفن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، انتهى. فعلى هذا يكون المذكور هنا من دير سمعان خمسة مواضع ويكون الذي رجحه صاحب المشترك أن عمر بن عبد العزيز مدفون في دير سمعان الذي في غوطة دمشق وعلى ما في القاموس بحمص.

ثم دخلنا المدينة لزيارة جماعة من الصحابة رضي الله عن جميعهم، منهم عكاشة بن محصن الصحابي، وهو عكاشة بن محصن بضم العين المهملة على حسب ضبط الفارابي في ديوان الأدب، وتخفيف الكاف وتشديدها وجهان

وكتاب " اتعاظ الحنفا " الذي ضمنه تاريخ الفاطميين و كتاب " السلوك لمعرفة الملوك " ويعرض لتاريخ الأيوبيين والمماليك(177- E., I., 6) .

(256) ورد التاريخ بالأرقام الهندية في (أ) وترك بياض مكانه في(ب) وهو خطأ، إذ توفي المقريزي سنة 845هـ

مشهوران، ورواية الأكثرين بالتشديد كما ذكره النووي /125/ في "تهذيب الأسماء واللغات"، وهو ابن محصن بكسر الميم، استشهد في قتال المرتدين في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كذا ذكره النووي في التهذيب، وقال الصاغاني في "وفيات الصحابة": عكاشة بن محصن الأسدي استشهد ببزاخة. وفي "النهاية" لابن الأثير بزاخة بضم الباء الموحدة وتخفيف الزاي، موضع كانت به وقعة للمسلمين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه انتهى. والظاهر أن هذا الموضع المسمى ببزاخة في أراضي اليمامة، فعلى هذا يكون قبر عكاشة حيث استشهد لا في حمص ولا في غيرها من البلاد .واليمامة كما في القاموس دون المدينة في وسط الشرق عن مكة، على ست عشرة مرحلة من البصرة وعن الكوفة نحوها، انتهى. وفي "المصباح" واليمامة بلدة من العوالي وهي من بلاد بني حنيفة وبها تنبأ مسيلمة وهي من بلاد البحرين.

ثم زرنا عمرو بن أمية الضمري(257) رضي الله عنه، وعليه قبة بوسط المدينة وقوسه معلق بها إلى الآن وكذا قلنسوته، ووضعتها على رأسي تبركا ويدعونه الآن بابا عمرو. وقال الشيخ البركة سيدي عبد الغني بن النابلسي في رحلته "الحقيقة والمجاز": ومررنا في الطريق على مقام شريف فيه قبر منيف، يقال له عند بعض الناس قبر بابا عمرو، ويزعمون أنه كان ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر لنا بعض الناس أنه قبر عمرو بن عنبسة الصحابي رضي الله عنه، قلت وليس في الصحابة من اسمه عمرو بن عنبسة بالنون قبل الباء الموحدة، وإنما هو عمرو بن عبسة بالباء الموحدة بعد العين المهملة من غير نون .

قال النووي في "التهذيب": عمرو بن عبسة بعين مهملة /126/ ثم

---

(257) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله الضمري (ت.نحو 55هـ/نحو 675م)، شجاع من الصحابة اشتهر في الجاهلية وشهد مع المشركين بدرا وأحدا ثم أسلم، عاش أيام الخلفاء الراشدين وشهد وقائع كثيرة، مات بالمدينة في خلافة معاوية، له 20 حديثا.(الطبري 3- 31؛ الزركلي 5- 73)

باء موحدة مفتوحتين، ثم سين مهملة على وزن عدسة، وهذا الضبط لا خلاف فيه بين أهل الحديث والأسماء والتواريخ، وبعضهم يزيد فيه نونا وهو غلط فاحش، أسلم قديما وسكن حمص وتوفي بها، وذكر الصغاني في "وفيات الصحابة" أنه توفي بمصر، وذكر ابن عبد البر في "الاستيعاب" عن عمرو بن عبسة أنه قال: ألقي في روعي أن عبادة الأوثان باطل فسمعني رجل وأنا أتكلم فقال: يا عمرو إن بمكة رجلا يقول كما تقول، قال: فانقلبت إلى مكة أول ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو مستخف، فقيل لي إنك لا تقدر عليه إلا بالليل حين يطوف بين يدي الكعبة، فما شعرت إلا بصوته يهلل، فقمت إليه فقلت: من أنت قال: نبي الله، قلت: وما نبي الله قال: رسول الله، قلت: وبم أرسلك الله قال: بأن نعبد الله لا نشرك به شيئا ونكسر الأوثان ونحقن الدماء، قلت: ومن معك على هذا قال: حر وعبد يعني أبا بكر وبلال، فقلت: أبسط يدك أبايعك، فبايعته[258] على الإسلام، قال: فقد رأيتني وأنا رابع الإسلام، قال: فقلت أقيم معك يا رسول الله فقال: لا ولكن إلحق بقومك فإذا سمعت بأنني قد خرجت فاتبعني، قال: فلحقت بقومي فمكثت وأنا ننتظر خبره حتى أتت رفقة من يثرب فسألتهم عن الخبر، فقالوا خرج محمد من مكة إلى المدينة، انتهى.

ومنهم سعد بن أبي وقاص[259] الصحابي الكبير والإمام[260] الشهير رضي الله عنه، والصحيح ما ذكره النووي في "التهذيب" قال في ترجمة سعد بن أبي وقاص: توفي بقصره بالعقيق على عشرة أميال أو سبعة من

---

(258) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(259) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف (23ق.هـ-55هـ/ 600- 675م)، الصحابي الأمير فاتح العراق ومدائن كسرى وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة وأحد المبشرين بالجنة، أسلم وهو ابن 17 سنة وشهد بدرا وافتتح القادسية ونزل أرض الكوفة حيث ظل واليا طوال عهد عمر، أقره عثمان زمنا ثم عزله ومات بالعقيق قرب المدينة وحمل إليها. له 271 حديثا. (الزركلي 3-87؛ تهذيب ابن عساكر 6- 93).

(260) "الأمير" في (ب).

المدينة ودفن بالبقيع؛ وكان آدم اللون طوالا ذا هامة، ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من الصوف فقال: كفنوني فيها فإني كنت لقيت المشركين فيها /127/ يوم بدر وهي علي، وإنما كنت أخبئها لهذا.

ثم زرنا قبر أبي موسى الأشعري(261) رضي الله عنه على حسب ما يقال أنه مدفون فيه، فقرأنا له الفاتحة ودعونا الله تعالى: [بما نرجو من الله قبوله](262)، واسمه عبد الله بن قيس ولي زبيد وعدن للنبي صلى الله عليه وسلم، وولي الكوفة والبصرة لعمر رضي الله عنه، ولم يزل على البصرة إلى صدر خلافة عثمان رضي الله عنه وعاش إلى خلافة علي، ثم انقبض إلى مكة وقيل إنه توفي بداره بالكوفة بجانب المسجد سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة اثنتين وخمسين، كذا ذكره ابن عبد البر في "الاستيعاب"، فعلى هذا يكون قبره في مكة أو في الكوفة لا في حمص.

ثم زرنا قبر ثوبان رضي الله عنه ومعه في قبته وحشي الحبشي(263)، وثوبان بفتح الثاء المثلثة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة بعدها ألف ونون، هكذا ضبطه ابن ماكولا(264) وغيره، وهو مولى رسول الله صلى الله عليه

---

(261) أبو موسى بن قيس الأشعري (حوالي 5 ق.هـ- 42هـ؟/ 614- 661م)، صحابي وقائد عسكري، غادر بلاده اليمن مع جمع من قومه والتحق بالرسول أثناء غزوة خيبر (سنة 628م)، شارك أيضا في حنين وبعثه النبي سنة 10هـ/ 631 مع معاذ بن جبل إلى اليمن لنشر الإسلام حيث كان واليا لأبي بكر هناك، وفي سنة 17هـ/ 638 عينه عمر بن الخطاب عاملا على البصرة خلفا للمغيرة بن شعبة، ففتح خوزستان وساهم في فتح العراق وفارس حيث شارك في معركة نهاوند، عزله عثمان بعد تنامي الشكاوي ضده في البصرة، فطالب سكان الكوفة بتعيينه عليهم. وبعد مقتل عثمان بايع عليا باسم أهل الكوفة فظل في منصبه إلى أن عزل عقب النزاع بين علي وعائشة.كان أبو موسى ممثل علي في حادثة التحكيم في صفين سنة 37هـ/ 657م، وبعدها اعتزل الحياة السياسية إلى حد لم يضبط الإخباريون تاريخ وفاته الذي يرجح أنه سنة 42هـ/ 651م (E., I., 716.).

(262) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(263) وحشي بن حرب الحبشي (ت.نحو 25هـ/ 645م)، صحابي من سودان مكة كان من أبطال الموالي في الجاهلية وهو قاتل حمزة عم النبي يوم أحد، وفد على النبي مع وفد أهل الطائف وأسلم، شهد اليرموك وشارك في قتل مسيلمة، سكن حمص ومات بها في خلافة عثمان.(الزركلي 8-111؛ الإصابة 3 - 594).

(264) ابن ماكولا، الأمير سعد الملك علي بن هبة الله بن علي (421- 475هـ/ 1030- 1082م)، أمير

وسلم، ابن بجدد بموحدة مضمومة ثم جيم ساكنة ثم دال مهملة مكررة الأولى مضمومة، ويقال ابن جحد الهاشمي من أهل السرات، موضع بين مكة واليمن وقيل إنه من حمير، أصابه سبي فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه، ولم يزل معه في الحضر والسفر، فلما توفي عليه السلام خرج إلى الشام ونزل حمصا وابتنا (كذا) دارا بها، وتوفي بها سنة خمس وأربعين وقيل أربع وخمسين، كذا في "التهذيب". ووحشي هو وحشي بن حرب مولى بني نوفل وهو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وقصته معلومة. ثم خارج قبتهما قبر سعيد بن زيد(265)، ويحكى أنه معه في تلك البقعة جماعة من الصحابة، فاغتنمنا زيارتهم ودعونا الله عندهم رضوان الله عليهم أجمعين، ثم زرنا /128/ دحية الكلبي(266) الصحابي الجليل رضي الله عنه، الذي كان ينزل جبريل على صفته على حسب ما هو بين أهل تلك البلدة مشهور، والراجح أنه مدفون في دمشق الشام وفي قرية المزة(267)،

مؤرخ من العلماء الحفاظ الأدباء، أصله من جرباذقان نواحي أصفهان، ولد في عكبرا قرب بغداد وسافر إلى الشام ومصر والجزيرة وما وراء النهر، من كتبه "الاكمال "وهو من أهم مصادر الأسماء الأعلام "وعليه اعتماد المحدثين و أرباب هذا الشأن"، و"الوزراء". قتله غلمانه الترك بجرجان. (الزركلي 5-30؛ كشف الظنون 1637؛ ابن خلكان 3-305).

(265) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أبو الأعور (22ق.هـ- 51هـ/ 600- 671م)، صحابي هاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها إلا بدرا لغيابه في مهمة كلفه بها الرسول، وهو أحد العشرة المبشرين ومن ذوي الرأي والبسالة، شهد اليرموك وحصار دمشق وولاه أبو عبيدة دمشق، مولده بمكة ووفاته بالمدينة، له 48 حديثا. (الزركلي 3- 94؛ ابن سعد 3- 289؛ تهذيب ابن عساكر 6-127).

(266) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي (ت.نحو 45 هـ/ نحو 665 م)، صحابي ثري يصفه الإخباريون بالجمال إلى حد أن نساء المدينة يخرجن بقضهن لرؤيته. حضر كثيرا من المواقع ومنها اليرموك لكنه اشتهر كدبلوماسي لخبرته التجارية وتنقله وعلاقاته، إذ بعثه الرسول إلى القيصر هرقليوس يدعوه إلى الإسلام سنة 6 أو 7هـ/ 627-628م. ثم نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية. (الزركلي 2- 337؛ ابن سعد 4-184؛ E., I., 2 .283)

(267) المزة بكسر الميم وتشديد الزاي، قرية كبيرة غناء وسط بساتين يرويها رافد لنهر البردي بينها وبين دمشق نصف فرسخ، وبها فيما قيل قبر دحية الكلبي صاحب الرسول. تعرف أيضا بمزة كلب لكون قبيلة كلب العربية استوطنتها خلال العهد الأموي. وقد زارها ابن بطوطة ووصفها بأنها من أكبر قرى غوطة دمشق. (معجم البلدان 5-122؛ E., I., 7 .213)

ويؤيده ما ذكره الشيخ العيني الحنفي(268) في كتابه "عمدة القاري في شرح البخاري" قال: دحية بفتح الدال وكسرها ابن خليفة بن قرة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج، بخاء معجمة مفتوحة ثم زاي ساكنة ثم جيم وهو العظيم، واسمه زيد بن مناة سمي بذلك لعظم بطنه، ثم ساق بقية نسبه إلى معد بن عدنان، ثم قال إنه كان من أجمل الصحابة وجها، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورته. وذكر السهيلي(269) عن ابن سلام(270) قوله تعالى: [وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها](271)، قال: كان اللهو نظرهم إلى وجه دحية لجماله، وروى أنه كان إذا قدم من الشام لم تبق معصر إلا خرجت تنظر إليه، والمعصر التي بلغت سن المحيض. قال ابن سعيد أسلم قديما ولم يشهد بدرا وشهد المشاهد كلها، وبقي إلى خلافة معاوية وسكن المزة قرية بقرب دمشق، ومزة بكسر الميم

---

(268) أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني الحنفي (762هـ- 855/ 1361- 1450)، ولد بعين طاب- قرية بين حلب وأنطاكية - في أسرة علم، سافر إلى دمشق والقدس والقاهرة ليستقر في هذه الأخيرة في خدمة السلاطين المماليك محتسبا ثم ناظرا للأحباس وأخيرا قاضي الحنفية الأعلى لمدة 12 سنة (829- 840هـ)، كما كان مدرسا بالدرسة المؤيدية. كان العيني من الذين أثروا في الحياة الفكرية لزمانه، وكانت علاقاته سيئة مع اثنين من أكبر العلماء المعاصرين له، المقريزي الذين أزاحه عن الحسبة وشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني الذي جادله بخصوص تعليقه على صحيح البخاري. خلف العيني مصنفات عديدة أهمها ' عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان' و' المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية' و' عمدة القاري في شرح البخاري'، دفن بمدرسته العينية(814- E., I, I) .

(269) أبو زيد عبد الرحمان بن الخطيب عبد الله بن أحمد السهيلي (508هـ-581هـ/ 1114-1185م)، حافظ عالم باللغة والسير ولد في قرية سهيل بمالقة، نبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه وأكرمه وأقام يصنف كتبه إلى أن توفي، من كتبه "الروض الأنف ' في شرح سيرة الرسول، و"التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام'. (ابن خلكان 3-143؛ الاستقصا-1-187؛ الزركلي 3-313).

(270) أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (139-231هـ/ 756-845م)، لغوي وعالم حديث من البصرة، اتصل بعلماء و أدباء كبار منهم الإصمعي وأبي زيد الأنصاري والمفضل الظبي والشاعر بشار، وأخذ الحديث عن بعض الرواة الثقاة ليأخذ عنه ابن حنبل والسجستاني وغيرهما. له مؤلفات عديدة منها ' بيوتات العرب' و'طبقات الشعراء ' وهو أشهرها(E., I., 3 -952)

(271) الآية 11 سورة الجمعة.

وتشديد الزاي المعجمة، وليس في الصحابة من اسمه دحية سواه، انتهى كلام العيني رحمه الله.

ثم زرنا ترجمان القرآن عبد الله بن مسعود[272] رضي الله عنه، وقال الصغاني في "وفيات الصحابة" : عبد الله بن مسعود رضي الله عنه توفي بالمدينة ودفن بالبقيع. وقال النووي في "التهذيب" : نزل بالكوفة في الجزيرة وتوفي بها سنة اثنتين وثلاثين، وقيل عاد إلى المدينة ودفن بالبقيع، وعلى هذا فليس هو مدفون في حمص ولا في غيرها، إنما هو بالكوفة /129/ أو بالمدينة، واتفقوا على أنه توفي وهو ابن بضع وستين سنة. ومن "التهذيب" أيضا: هو عبد الله بن مسعود بن غافل بالغين المعجمة والفاء، ورفع نسبه إلى مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار الهدلي[273] حليف بني زهرة الكوفي، وأمه أم عبد بنت عبدود بن سواء بن عبدود أيضا أسلمت وهاجرت، فهو صحابي إبن صحابية، أسلم قديما حين أسلم سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطاب بزمان. جاء عنه قال لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا، كان كثير الولوج على رسول الله صلى الله عليه وسلم والاتصال به، ففي "صحيح مسلم" عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي حتى أنهاك، والسواد بكسر السين السوار، وكان يعرف بصاحب السواد والسواك والنعل.

ثم زرنا قبر دامس أبي الهول مولى كندة البطل المشهور، ثم زرنا عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق[274] رضي الله عنهما، ويقولون إنه عبد الرحمان

(272) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (ت.32هـ/ 653م)، صحابي من أوضع طبقات أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن، كان صاحب سر الرسول ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، ولي بعد وفاة الرسول بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان وتوفي بها.كان محدثا وحجة في القرآن، له 848 حديثا. (الزركلي 4-137؛ دائرة المعارف 1-275).

(273) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(274) عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق (ت.53هـ/ 673م)، صحابي ابن صحابي من أشجع قريش، حضر اليمامة وشهد غزو إفريقية كما حضر وقعة الجمل مع أخته عائشة ودخل مصر. خاطب معاوية حين أراد أخذ البيعة لابنه يزيد: "أهرقلية كلما مات قيصر كان قيصر مكانه؟

بن عوف[275]، فسألت من له خبرة بالبلد قال إنه عبد الرحمان بن أبي بكر، وإنما يقولون له عبد الرحمان بن عوف خوفا عليه من الروافض، (لأن تلك النواحي لا تخلو منهم)[276]والصحيح أنه مدفون بمكة كما يأتي في زيارات دمشق. وقولهم عبد الرحمان بن عوف، الصحيح كما في التهذيب أنه توفي سنة اثنتين وثلاثين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وقيل ثمان وسبعين ودفن بالبقيع، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو وقيل عبد الكعبة، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمان، فهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أهل الشورى، ومن مناقبه التي لا توجد لغيره من الناس /130/ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى وراءه في غزوة تبوك. فقوله لا يوجد لغيره من الناس احترازا من صلاته عليه السلام خلف جبريل حين أعلمه بالمواقيت. وزرنا[277] بخارج المدينة قبر عمرو بن معدي كرب الزبيدي[278]، ثم أعجلنا السفر فانقلبنا إلى الرحال، وإلا فلا يكفي الإنسان عمر في شفاء الغليل في زيارة هؤلاء السادات الكرام نفعنا الله تعالى ببركاتهم أجمعين.

وبخارج المدينة عن يمين المار من ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه

لا نفعل والله أبدا "، فبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم وردها وخرج إلى مكة حيث مات قبل أن تتم البيعة ليزيد. (ابن خلكان 3- 69؛ الزركلي 3- 311).

(275) عبد الرحمان بن عوف بن عبد عوف (44ق.هـ- 32هـ/ 580- 652م)، صحابي من المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم. ولد بعد عام الفيل ب10 سنوات وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها، وكان ذا ثروة كبيرة من التجارة توفي بالمدينة وله 65 حديثا. (الزركلي 3- 321).

(276) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(277) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(278) عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي (ت.21هـ/ 642 م)، فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة 9 هـ فأسلم وعاد، ولما توفي النبي ارتد عمرو ثم رجع إلى الإسلام، نبعثه أبو بكر إلى الشام وشهد اليرموك حيث فقد عينه، وبعثه عمر إلى العراق فشهد القادسية. (ابن سعد 5-383؛ البلاذري 328؛ الزركلي 5-86).

إلى ضريح كعب الأحبار وجعفر الطيار رضي الله عنهما، منخفض من الأرض قريب من السور يقال له الكثيب الأحمر عندهم، الذي يقال إنه استشهد فيه ثلاثمائة رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأنا لهم الفاتحة ودعونا بما نرجو من الله قبوله، ومن أجل ذلك لا يمشي الناس هناك إلا حفاتا (كذا). الحاصل هذه البلدة بقعة من بقاع الجنة، لكثرة ما اشتملت عليه من الصحابة والأولياء رضوان الله عليهم أجمعين .

ولهذه المدينة سور عظيم من أعظم الأسوار، وأزقتها وأسواقها كذلك كلها مرصفة بالحجارة من عمل الروم، إلا أن ديارها ليست بمرتفعة كثيرا، وجدراتها التي سقطت وأعيدت بالبناء لم تعد على شكل ما كانت عليه زمن الروم بالحجارة كما هو موجود في بعضها، فإنما يجددونها بالطين لا غير، ولها القلعة الحصينة التي لا تكاد تفتح إلا بتيسير من الله تعالى، ما رأيت مثل ذلك العجب، إلا أن سورها هد من جهات كثيرة، وقد كان لها سرب تحت الأرض ينزلون منه إلى المدينة ورأينا أثره. ويقال إن بها المصحف العثماني[279] وإنما يخرج للناس /131/ يوم الجمعة، ولم نصادف يوم الجمعة فنراه، ويحكى أن من عادة أهل حمص أنهم إذا احتاجوا إلى المطر يخرجون هذا المصحف ويستسقون به، ويدعون الله تعالى فيحصل لهم السقي وقد تكرر ذلك مرارا.

وينسج بهذه المدينة الحرير الكثير، فقد كان أهلها يجوسون خلال خيام الركب بثياب الحرير يبيعونها، وبها نصارى كثيرون من بقية أهلها الأقدمين تحت ذمة المسلمين، فقد

مغادرة حمص

وكان مقامنا بها اليوم الذي وصلنا فيه، وفي عشية هذا اليوم رحلنا منها والنفس غير مطاوعة، فسرنا الليل كله وعند الإسفار نزلنا على ضيعة يقال لها الحسية على ثمان ساعات، وبها خان كبير ينزله الحجاج

(279) نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان.

والمسافرون، وأرضها أرض صحراء لا نبات فيها إلا الحرمل وما أشبه، فظللنا مقيمين بظاهرها وبعد صلاة العصر سافرنا منها لكثرة عجاجها ورياحها وبها حجارة كثيرة، فسرنا بقية يومنا والليلة بعده، وفي الإسفار نزلنا على قرية يقال لها النبق[280] على عشر ساعات، وبهذه القرية خان كبير أيضا وبها ماء عذب، يضرب به المثل عندهم في العذوبة مجلوب إليها تحت الأرض، فظللنا بها النهار وفي عشيته سافرنا منها إلى طلوع الفجر، فنزلنا على قرية يقال لها القطيفة على ثمان ساعات، فأقمنا بها إلى أن صلينا المغرب، وسافرنا منها في أرض كثيرة الحجارة فوصلنا ظاهر دمشق الشام بعد طلوع الفجر على ثمان ساعات، فنزلنا فصلينا الصبح وبقينا إلى أن طلعت الشمس، جعل ذلك فسحة لعامل البلد وأهلها لكونهم يخرجون لملاقاة الركب النبوي.

استقبال دمشق للركب النبوي والحفاوة التي لقيها ابن عثمان

وتقدمنا إلى البلد فوجدنا أهلها جميعا خرجوا لملاقاة الركب بالفرح والإجلال، والطبول والمزامير والخيول في مهرجان عظيم، ولما دخلنا المدينة تلقانا أناس توجهوا بنا إلى الدار المعينة لنزولنا، امتثالا لأمر السلطان الأعظم عبد الحميد خان أدام الله دولته وخلد سلطنته، فإذا دار من خيار ديارهم فيها مياه كثيرة في عدة مواضع، لكون أرض الشام من أكثر البلاد مياها فإنه يشقها سبعة أنهار، وأجروا علينا من المؤن والعلوفات ما هو فوق الكفاية في إكرام عظيم، جزا (كذا) الله عنا هذا السلطان خيرا.

بدء المقام في دمشق بزيارة الأضرحة

وأول ما بدأنا به بعد حط الرحال أن توجهنا لزيارة قبر نبي الله يحيى بن زكرياء على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فمررنا بطريقنا إليه بضريح صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مرداس، فتبركنا

(280) بتاف ذات ثلاثة نقط.

بزيارته وبمشاهدة تربته نفعنا الله به، وتوجهنا من عنده إلى زيارة تربة رأس نبي الله يحيى، وضريحه داخل مسجد الأمويين أمام محراب الإمام مالك، لأن أئمة المذاهب الأربعة كلهم يصلون بهذا المسجد ولكل إمام محراب، لكن المذهب المالكي قليل أتباعه في هذا البلد والكثير هنالك شافعية وحنفية، فتبركنا به وزرنا قبره والحمد لله الذي سخر لنا هذا، وأما جسده فهو في جامع الدلة بجانب قرية يقال لها الزبداني، بينها وبين دمشق نحو ثمان ساعات، وتبركنا أيضا بمصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، طلبناه من القيم عليه فأخرجه لنا من خزانته، وقبلنا الموضع الذي سقط عليه دمه رضي الله عنه ولا زال كما هو، /133/ وقع على قوله تبارك وتعالى [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] من قوله تعالى: [كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] في سورة البقرة[281].

وذكر الشيخ البركة سيدي عبد الغني بن النابلسي في رحلته "الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز" ما نصه: وقد رأيت في مصر المحروسة في جامع عمرو بن العاص في مقصورة هناك مصحفا على صورة هذين المصحفين، يعني مصحف قلعة حمص ومصحف جامع الأمويين، عتيقا متقطع الأوراق يقال إنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما سنذكره في محله إن شاء الله تعالى. وبلغنا أيضا أن في ثغر الإسكندرية المحروسة مصحفا يقال له مصحف الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه ولكنا لم نره. وذكر الشيخ العلامة علم الدين السخاوي الشافعي، في شرحه على القصيدة الرائية للإمام الشاطبي[282] في علم الرسم العثماني قال: إن عثمان رضي الله عنه لما كتب تلك المصاحف سير منها مصحفا إلى الكوفة

---

(281) الآية 57.

(282) القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي (538-590هـ/ 1144-1194)، إمام القراء وصاحب قصيدة "حرز الأماني ووجه التهاني" في القراءات، والتي أبدع فيها حتى صارت عمدة القراء، كان عالما بالحديث والتفسير واللغة والنحو، ولد بشاطبة (الأندلس) وتوفي بمصر. (ابن خلكان 3-71؛ نفح الطيب 1-339؛ الزركلي 5-180).

ومصحفا إلى البصرة ومصحفا إلى الشام وأبقى في المدينة مصحفا، قال وروي أنه سير أيضا إلى البحرين مصحفا وإلى مكة مصحفا وإلى اليمن مصحفا فتكون الجملة سبعة مصاحف على هذا، والرواية في ذلك تختلف قيل إنه كتب خمس نسخ الأربعة الأولى ومصحف مكة، وأما مصحف البحرين ومصحف اليمن فلم يعلم لهما خبر.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: أرسل عثمان إلى كل جند من جنود المسلمين مصحفا وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذي أرسل اليهم، ثم قال الشارح المذكور: فلما فرغ عثمان رضي الله عنه من أمر المصاحف حرق ما سواها. وقال الإمام /134/ مالك رضي الله عنه: مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه تغيب، فلم نجد له خبرا بين أشياخ الهدى الذين يقتدى بهم في الدين ويعمل بنقلهم وروايتهم. وقال ابن قتيبة[283]: كان مصحف عثمان الذي قتل وهو في حجره عند ابنه خالد، ثم صار مع أولاده وقد درجوا، قال: وقال لي بعض مشايخ أهل الشام أنه بطرسوس، وطرسوس هذه بليدة صغيرة على ساحل البحر قريبة من حمص، وقد خرب الآن غالب أماكنها وفيها قلعة غالبها خراب، فلعل هذا المصحف العثماني كان فيها، ثم لما خربت خيف عليه فنقل إلى قلعة حمص والله أعلم بحقيقته.

وزرنا بالمسجد أيضا موضعا يقولون إنه مقام نبي الله هود عليه السلام، مكتوب عليه هذا مقام هود عليه السلام ولعله تعبد في ذلك المكان، ويقال إنه قبر معاوية بن أبي سفيان.

تكسير جامع الأموية بدمشق الشام[284]

وهذا المسجد من أعظم مساجد الإسلام وأجلها وأجملها وأكثرها

(283) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213-276هـ/ 828-889م)، من أئمة الأدب واللغة والنحو والمصنفين الكبار، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور فنسب إليها وتوفي ببغداد. من كتبه "غريب الحديث" و"عيون الأخبار" و"أدب الكاتب". (ابن خلكان 3-42؛ دائرة المعارف 1- 260؛ الزركلي 4- 137).

(284) تكسير: مساحة عند المهندسين.

عمارة، وهو كبير، فطوله من الجدار الذي عن يمين المستقبل إلى جداره الذي عن يساره ستمائة قدم، وربما تنقص أو تزيد بقليل لاختلاف الأقدام، وعرضه من محرابه إلى جدار آخر المسجد ثلاثمائة وسبعة وثلاثون قدما، له ثلاث بلاطات عرض كل بلاط اثنان وخمسون قدما، وعرض الصحن مثل البلاطات ثلاثمائة وستة وخمسون قدما، وعرض بلاط آخر الصحن خمسة وعشرون قدما، وكله على أعمدة الرخام عالي السمك، وله من الأبواب أربعة رحم الله بانيه ومطهره من رجس الشرك والشك، ومنقذه من أيدي الكفرة المعتدين وأبقاه عامرا بالملة الحنفية إلى يوم الدين.

زيارة قبر محيي الدين بن عربي وإيراد قصيدة في مدحه

ثم شفعنا هذه الزيارة بزيارة حضرة /135/ الأستاذ الأفخم والركن الأعظم، والشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، الشيخ محيي الدين بن العربي الحاتمي الأندلسي[285] قدس الله تعالى سره، وهو مدفون بالصالحية ربض من أرباض دمشق في أصل جبل قاسيون، فمتعنا الله تعالى بزيارته ولله الحمد على ذلك.

وقد رأيت في ورقة ملصقة بأحد جدراته قصيدة في مدح الشيخ، من نظم الشيخ البركة العارف بالله تعالى صاحب العرفان والحقائق، وكاشف الحجب والأستار عن الغوامض والدقائق، الشيخ عبد الغني النابلسي المتقدم الذكر وسيأتي خبره، وقد رأيت أن نرسم هذه القصيدة تبركا بهذين الشيخين

(285) أبوبكر محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي (560-638 هـ/ 1165-1240م) المشهور بمحيي الدين ابن عربي، فيلسوف متصوف من أئمة المتكلمين وقدوة القائلين بوحدة الوجود، ولد في مرسية وانتقل إلى اشبيلية حيث درس الحديث والفقه ثم في سبتة؛ وزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز واستقر بدمشق حيث توفي. له مؤلفات عديدة منها "الفتوحات المكية" و"نصوص الحكم" و"مفاتيح الغيب" وغيرها. وقد أثارت آراء ومذهب ابن عربي اختلافا كبيرا في موقف المسلمين من عقيدته، فكثر محبوه والمعجبون به كما كثر الناقمون عليه، ووصفت عقيدته بأعظم المتناقضات، إذ هو عند البعض قطب الله ووليه وعند البعض الآخر أكبر زنديق. (جذوة الاقتباس 175؛ نفح الطيب 1-404؛ الزركلي 6-281؛ دائرة المعارف 1-231).

الجليلين، المادح والممدوح رضي الله عنهما وهي هذه:

خذا حيث هبت نسمة البان والرند ... وعرجا على تلك المعالم من نجد
وبثا غراما يا خليلي كلما ... طفته دموع العين يزداد بالوقد[286]
عسى ربة الخيلان تخلف منة ... علي وتوفي في الوعيد وبالوعد[287]
وإن جئتما بالصالحية منزلا ... فقوما وقولا فيه بالشكر والحمد
وزورا ضريحا من أتاه فإنه ... ببهجة محي الدين في جنة الخلد
فتى بين أهل الله كان مقدما ... له في المعالي رتبة العلم الفرد
هو العارف الطائي من نسل حاتم ... كريم السجايا جوده جل عن عد
حوى شرف التقوى وحاز سنا الهدى ... ونال رضا المولى وحل درى السعد
تجرد بالعرفان عن قشرة السوى ... وقصم العدا كالسيف جرد عن غمد
/ 136 / فأصبح بحرا في الحقائق زاخرا ... يموج فيلقي الدر بالزجر[288] والمد
وفي كل علم كامل متحقق ... سواه لديه لا يعيد ولا يبد
خصوصا إمام[289] القوم فهو إمامها ... وليس له في نفحها الند من ند
تصانيفه فيها الهدى لمن اهتدى ... ومن زاغ كانت في بصيرته تردي
فكم جاء فيها للورى بعقيدة ... لذى غير أهل الجهل واسطة العقد
ولا يفهم التوحيد إلا موحد ... بريء من الشرك الخفي سالم العقد
ومن أين للعميان رؤية نوره ... وما حظهم منه سوى البعد والطرد
بقطرة علم عندهم وهو بحرها ... أعابوا عليه حين غابوا عن القصد
وقد أكثروا في القول إذ فقدوا الحيا ... من الله فليبكوا على ذلك الفقد
وفي كل عصر علم ختم ولاية ... عن الأوليا يخفى فكيف أولوا الجحد
هنيئا لأهل الاعتقاد فإنهم ... به في رياض العز يمشون والمجد
يطاف عليهم من سنا كلماته ... بكأس رحيق فيه سكر بلا حد
فإن فهموا هاموا وإلا تمتعوا ... بألفاظ معشوق ألذ من الشهد

(286) "في الوقد" عند النابلسي، الحقيقة والمجاز، ص.16.
(287) "في الوعد" عند النابلسي.
(288) الصحيح الجزر كما يتضح من صيغة البيت، وقد وردت كذلك أصلا عند النابلسي.
(289) "علوم" عند النابلسي وهو الأصح.

ويا قبح حال المنكرين بخبثهم ... وهل تقدر الجعلان تعبث بالورد
ولا يعرف الفتيان غير الفتا ولا ... يبين ضياء الشمس للأعين الرمد
ومن عجب أن الكلاب تنابحت ... وما علمت أن النباح على الأسد
ومن يقرب السم الزعاف حياته ... نزاع فلا يغتر فيها أولوا الرشد
سقى الله من قاسون قبرا كأنه ... من القرب شمسا أشرقت ومن البعد
137 / يضم هماما لم تزل بركاته ... على الشام في دفع البلية والجهد
وبلغه عني إلهي تحية ... مباركة تأتيه خالصة الود
وإني ابن إسماعيل عبد الغني من ... بنابلسي الأصل مشتهر الجد
ولا زال رضوان من الله دائما ... على هيكل الأنوار في ذلك اللحد
مدا(كذا) الدهر ما ناح الحمام مغردا ... فهيج من أهل الهوى لوعة الوجد
وما نسمات الحي هبت فأذكرت ... لذيذ خطاب الحب في سالف العهد
له الله عن عبد الغني مبلغ ... تحية صب طامع منه بالرد

وقد رأيت ديوان الشيخ عبد الغني فوقفت على قصيدته هذه، فوجدته كتب على هذا البيت ما نصه: وكان موضع قولي "وبلغه عني إلهي تحية" إلى آخر البيتين هذا البيت وهو "له عن عبد الغني مبلغ" إلى آخره، ثم غيرناه إلى البيتين المذكورين. فاتفق أن بعض أصحابنا في ثاني ليلة رأى روحانية الشيخ الأكبر قدس الله سره، ينشدني من فمه بيتين فحفظهما ثم لما أصبح كتبهما وعرضهما علي وهما قوله:

أيا ربة الألحان ديري كئوسنا ... على من له في الحب أوفر منصب
وحيي أناسا قد شغفنا بحبهم ... لهم منحة منا وود مقرب

التعريف بالشيخ عبد الغني النابلسي وإيراد قصائد له في مدح ابن عربي

ثم توجهنا من تربة سيدي محيي الدين إلى ضريح الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الغني النابلسي، وهو في الصالحية أيضا مدفون فزرناه وتبركنا به ولله الحمد، وعليه مقام شهير وزاوية مشهورة وله صيت كبير، وهو /138/ أعظم من ذلك كله رضي الله عنه تعالى ونفعنا بركاته، وله جملة من ذريته من أهل العلم والخير والدين، والحياء والحشمة والسكينة

والسمت الحسن، والإعتكاف على قراءة العلم كثر الله في المسلمين أمثالهم، ومن يشابه أباه فما ظلم، وأكرمونا واستدعونا إلى منازلهم وأتونا بطعامهم لما عرفوا نسبتنا في هذا الجنس.

وهذا[290] الشيخ كان من العلماء العاملين ومن أهل الطريقة العارفين، من أهل الظاهر والباطن مشارك في العلوم، مؤلف له تآليف كثيرة في فنون، فصيح بليغ ناظم ناثر في الأغراض كلها، وها إنا نورد بعض ما تيسر من نظمه في عدة فنون من العلوم، والأثر يدل على المسير خبر معلوم، ولنذكر نسبته ونشأته.

فأصل سلفه من جماعين بلد من عمل نابلس، وهي مدينة قريبة من بيت المقدس مقدار يوم بين دمشق الشام وبيت المقدس، ثم انتقل جدهم سعد الله وأخوه أبو عمر منها إلى دمشق، واستوطناها واستقرا بالصالحية منها مقر أمثالهم وأضرابهم من الصلحاء،كل جنس إلى جنسه يألف. وأما نسبه فنقول، قال بعض تلامذته لما كتب ترجمته في ديوانه المسمى بديوان الحقائق: شيخنا الأستاذ الكامل والعالم المحقق العامل، معدن الأنوار وزمزم الأسرار، سيدي ومولاي الشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني المقدسي النابلسي الدمشقي، متعه الله تعالى بالمقام العشقي، وأدام إسعافه / 139/ وإمداده ورحم الله تعالى آباءه وأمهاته وأجداده، انتهى من كتاب "ديوان الحقائق".

توفي رحمه الله تعالى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف وله نيف وتسعون سنة، كان رحمه الله تعالى حنفي المذهب قادريا نقشبندي الطريقة، وله رضي الله عنه تأليف سماه "الرد المتين على متنقصي العارف محي الدين" وقد رأيته، وللشيخ المذكور في أول تأليفه المذكور قصيدة همزية وفي آخره قصيدة يائية رأيت أن أثبتهما، أما الهمزية فهي قوله:

---

(290) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

ظهر الحق ما عليه غطاء بك وازداد نائل وعطاء
وتجلت على القلوب معان عجزت عن خطورها العقلاء
أيها القطب قد تشرف قطر لك فيه قبر عليه بهاء
وزهت جلق بكونك فيها فهي في الأرض روضة غناء
لم أخصص بها مكانا ولكن سكن الصالحية الصلحاء
ورأينا المنا وأشرق فينا منك محي الدين الهدى والضياء
وتبدت كواكب الحق تزهو ولها كتبك العظام سماء
من فصوص يقول من قد رآه ختمت بالمصنف الأولياء
كلمات تجل عن كل فهم ليس فيه من الإله اهتداء
وإذا أنكرته قوم أجبنا لا ترى الشمس مقلة عمياء
والفتوحات يا لها من كتاب تتقوى بفهمه الضعفاء
وهو يحوي حقائقا وعلوما ولأهل السلوك فيه ارتقاء
كمل الفقه بالذي فيه حتى نقصت عن علومه الفقهاء
ولقد جئتنا بكل كتاب من علوم جاءت بها الأنبياء
حيث أصبحت بالوراثة عنهم في مقام تحفه اللئلاء
وإذا أنكرت عليك أناس فالنبيون نالهم إيذاء
جهلتك العدا جهالة در قلبتها بكفها الأغبياء
وأعابت عليك والنور نور ما له من فم الحسود انطفاء
فسقى الله تربة لك ضمت صوب عفو له الرضا أنواء
أمد الدهر ما تجلت بروق فانجلت عن وميضها الظلماء

وأما القصيدة اليائية فهي قوله :

كان محي الدين يهدي كل حي لفريق من ذوي القرب وحي
ثم فينا بقيت أنفاسه بعده يا طيب ذاك الشذي
نفحات لذويها انتشرت وانطوت تلك عن المزكوم طي
فهلموا يا رفاقي و قفوا عند هذا الباب كي يفتح كي
واقبلوا نصحي وإن شئتم دعوا كل عي ينجلي عنكم وغي
كُتْبُه النور لمن يبصرها وهي تروي كل صادي القلب ري

مـن كـتـاب الـلـه والـسـنـة قـد … خـرجـت تختـال فـي أبهـى حـلي
رام أن يـطـفـئ قـوم نـورهـا … فـأبـى الـلـه ومـا آبـوا بـشـي
قـطـب أهـل الـلـه يـابـن الـعـربي … خـاتمـي المنـتـمـى مـن نـسـل طـي
/ 141 / كـنـت خـتـمـا لـكـبـار الأوليا … جـامـعـا إرث نـبـي مـن قـصـي
ولـقـد حـزت عـلـومـا شـرفـت … هـي مـن داء الـضـلالات دوي
وتـرقـيـت مـقـامـا عـاليا … لـويـت عـنـه رجـال الـلـه لي
عـصـرك الـفـائـت مـا أشـرفـه … بك يـا شـمـسـا لـهـا الأغـيار في
وإذا عـنـك عـيـون عـمـيـت … قـد عـذرنـا فـيـك ألحـاظ الـعـمـي
لا يـرى المحـرم إلا محـرم … هـو مـن جـيـران ذاك الخـسـي
إن محـي الـديـن أحـيـا الـديـن قـل … والمسـمـى غـالـبـا طـبـق الـسـمـي
زره واغـتـنـم فـضـل قـبـر ضـمـه … وانـتـشـق مـن نـحـوه طـيـب الـشـذي
وتـوسـل عـنـد مـولاك بـه … كـلـمـا نـابـك خـطـب يـا أخـي
فـالـذي يـقـصـده فـاز ومـا … خـاب مـن يـلـجـأ إلى ذاك الحـمـى
لم يـزل رضـوان ربي دائـمـا … عـنـه مـا حـن اشـتـيـاقـا ذو الـهـوى

وقال رضي الله عنه وهو من نظمه في كتاب "السر المختبي في ضريح ابن العربي" قدس الله سره:

إن محـي الـديـن الإمـام الـهـمـام … وهـو بـين الأصـابـع الإبهـام
أصـبـع مـن أصـابـع الحـق مـدت … لـلـبـرايـا فـكـان فـيـهـا الخـتـام
مـشـكـل كـلـه عـلـومـا وذاتـا … وضـريحـا حـارت فـيـه الأفـهـام
مثـل مـا الحـق فـيـه ضـلـت أنـاس … وأنـاس بـه اهـتـدوا واسـتـقـامـوا
وكـذا المرسـلـون أجمـع نـور … عـنـد قـوم وعـنـد قـوم ظـلام
فـاعـتـبر يـا أخـا الإنـارة وانـصـف … وتـأمـل إن زادت الأوهـام
/ 142 / إنمـا قـبـره تـرابـك هـذا … ولـه فـيـك كـيـف كـنـت مـقـام
ولـه نـفـسـك الـتـي أنـت فـيـهـا … كـفـن والحـنـوط ذاك الـكـلام
وإذا صـحـت الـبـصـائـر كـانـت … كـالمرايـا يـلـوح فـيـهـا المرام
وإذا أظـلـمـت فـكـل حـيـاة … فـهـي مـوت بـين الـورا وسـلام

وقال رحمه الله في كتابه "الرد المتين على متنقصي العارف محي الدين":

كلام الفصوص احرص عليه فإنه حقائق علم في البرية فاخر
وطبق كتاب الله والسنة التي عن المصطفى جاءت هدى للأواخر
فقم بهما في فهمه متأملا ولا تلتفت وارغم جميع المناخر

وقال رضي الله عنه في حق المذكور:

يا من يروم خواتم الحسنى له ليفوز في يوم القيامة بالخصوص
أنظر إلى هذا الكتاب محققا إن الخواتم لا تتم بلا فصوص

وقال أيضا رحمه الله ورضي عنه:

يا طالب التحقيق إن رمت العلا وقصدت أوج منازل التمكين
فعليك بالكتب المصنفة التي للعارف العربي محي الدين

وقال أيضا رضي الله عنه:

يقولون الأسامي في البرايا على طبق المسمى قد أتينا
لقد صدقوا فمحي الدين أحيى لأهل الله دين المرسلينا

/143/ وكلام هذا السيد الجليل في زيارة الأنبياء والصالحين ومقاماتهم، وفي أهل الحقائق والطرائق وعلاماتهم وأوصافهم وحالاتهم، ليس له نظير ولا مثيل، فلا حصر ولا غاية ولا انتهاء ولا نهاية، فمن نظمه رحمه الله في هذه الطريقة، فمن الباب الأول من كتابه "الديوان الكبير والبدر المشرق المنير"، المسمى "بديوان الدواوين وريحان الرياحين في تجليات الحق المبين على جميع أنواع الصيغ والتلاوين":

بسم الله الرحمان الرحيم والله بكل شيء عليم

الحمد لله المخترع الوجود من غير مثال سابق، ومفيض النعماء والجود على عبده الطائع والآبق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار ما تعاقب الليل والنهار، فيقول فلان وقد سبق التعريف به: هذه نسمات أنسية ونفحات قدسية، أثمرت بها رياض القلوب ولمعت منها بوارق الحقائق من مطالع الغيوب، جمعتها لمن كان من أهل هذا البيت، وقد وضع الله تعالى في سراج بصيرته من الهداية زيت، والحسد في النفوس داء والجاهلون لأهل العلم أعداء، وبالله المستعان وعليه التكلان

وهو حسبي ونعم الوكيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، لسان الجمع المنزه عن التشبيه والتعطيل، المبرء من كل تكييف وتمثيل:

أطوف على ذاتي بكاسات خمرتي وأستمع الألحان في حان حضرتي
وأنفخ مزماري وأصغي لصوته وأضرب دفي حين ترقص قينتي
وأنشق من روضي نسيم حقائق ويسرح طرفي في حدائق نشأتي
/ 144 / وعندي إلى رؤيا جمالي تشوق كثير وما عشقي لغير حقيقتي
ويا لهف أحشائي على حسني الذي فؤادي به صب ويا فرط لوعتي
أحن إلى ذاتي صباحا وفي المسا وغاية قصدي في العوالم رؤيتي
وقد وعدتني اليوم نفسي بوصلها غدا فمتى مني تقوم قيامتي
وأرفع عن وجهي خماري مجردا ثيابي عن ذاتي وأهتك سترتي
أبى الحب إلا أن أكون مولها بقلب على طول النوى متفتت
وشوق كثير واصطبار ممنع وسقم وأشجان علي شديدة
وإني لأرجو من حقيقتي اللقا وأطلب منها أن أفوز بنظرة
فلا عجب إن بحت بالسر للورى وعربدت في هذا الوجود بسكرة
وقمت بمحبوبي على كل ناسك وغبت عن الأكوان بل عن هويتي
وعندي انتظار كل يوم وليلة إلى رؤيتي بل كل وقت وساعة
وما أنا إلا من أحب وإن من أحب أنا من غير شك وشبهة
أردت ظهوري لي وما كنت خافيا فطورت في الأطوار من كل صورة
وقد كنت قدما في عمى ليس فوقه ولا تحته أيضا هواء بوحدة
وللقلم الأعلى تنزلت من يدي وللوح حتى للذوات الكثيرة
وقد كنت عرشي واستويت عليه من قديم زماني في الوجود برحمتي
ومنه إلى الكرسي تنزلت بل إلى سماواتي السبع الطباق العلية
وطورت أملاكي فلي كنت عابدا وطورت أفلاكي فطرت بقدرة
/ 145 / وعدت نجوما مشرقات على الورى أزيد ضياء في ظلام الدجنة
وطورت شمسا في طلوع نهاركم وما الليل إلا من نتائج غيبتي
وطورا هلالا تحسبون الشهور بي وأجلو عليكم ضوء شمس الظهيرة
وقد صرت أياما لكم ولياليا ودهرا وساعات وكل دقيقة

وطورت شكل الجان في الأرض   قبلكم وجئت لهم رسلا لإبلاغ حجة
وقد كنت تكذيبا لرسلي منهم   فصرت لهم أوفى هلاك ونقمة
وفي كل أطوار الشياطين بينكم   ظهرت بوسواس لأصحاب شقوتي
وطورت في شكل العناصر ثم في   مواليدها في الأرض تلك الثلاثة
ففي معدن طورا وطورا ظهرت   في نبات وحيوان لتتمم حكمتي
وكنت رياحا من شمال ومن صبا   أهب فأروي عن حديث الأحبة
وكنت بحارا زاخرات على المدا   تفيض فتبدي موجة بعد موجة
وطورت أرضا ثم صرت جبالها   لإرسائها فوق البحار المحيطة
وإني على ما كنت فيه ولم أزل   ولي رتبة التنزيه أرفع رتبة
وما كثرة الأطوار مني غيرت   صفاتي ولا ذاتي ولا قدر ذرتي
وهل أنت في تخييل ذاتك فاطنا   تغيرت عما كنت في كل مرة
فيجلو عليك الفكر ما قد أردت من   زخاريف أشباح هنا مستحيلة
وذاك كهذا غير أن الخيال مع   تخيله في الغير لا في الهوية
وماهي إلا أنت لا شيء ها هنا   سواك فحقق سر تلك الحقيقة
146 / وإياك والتشبيه في كل موضع   توهمت فيه الغير وافطن لبستي
وخذ كلما ألقي عليك منزها   ولا تخش عارا إن فهمت إشارتي
وهذا الذي قد قلته كله أنا   ظهرت به لي قاصدا لنصيحة
ولما انقضت أطوار ذاتي بمقتضى   صفاتي وأسماء العظام الجليلة
وتم التباس بالذي أنا مظهر   له من شخوص فصلتها إرادتي
وسويت جسم الكل بي فهو قابل   لوحيي وتفصيلي استعد لجملة
جمعت من الأشياء طينة آدم   ومنها إلى الكل الدقائق مدت
وخمرتها حتى تناسق نشوها   وسويتها حتى لنفحي استعدت
ولما استتم الأمر واستكمل الذي   أردت من الإجمال في البشرية
ففي تلك من روحي نفخت وقد سرت   نسائم أمري في رياض الطبيعة
فقمت سميعا باصرا متكلما   مريدا عليما ذا حياة وقدرة
فلم يبد مني غير ماهو كائن   لدي وبي مني على حكرمتي
فكنت كماء لونه من إنائه   وكالشمس تبدو خضرة بالزجاجة
وأسجدت أملاكي بأمري لمظهري   فكان سجودي لي وآدم قبلتي

ولما أبى إبليس عني تكبرا ... ولم يأت لي من بعد أمري بسجدة
من الملإ الأعلى له كنت مخرجا ... وآب بخسران وطرد ولعنة
وأسكنته في الأرض أظهركامنا ... به من شقا أصحاب قبضة يسرتي
وأظهرت في ذاك الملا فضل آدم ... وأنزلته أعلى مقام بجنة
/ 147/ وأخرجت حوا منه فهي له كما ... هو الآن لي من حيث وضعي وصورة
وعن بعض أشجار هناك نهيته ... ولي كان مني النهي عني لحكمتي
ولما اقتضى فعلي لما كنت عنه قد ... نهيت كمال الصورة الآدمية
أتيت بأقسام إلى موسوسا ... وأوقعت نفسي في غرور وغفلة
وذقت كما ذاق العدو تباعدي ... وما الأكل إلا الفرق والجمع توبتي
وقد لاح عصياني علي وقد بدت ... طفقت بأوراق أخصف سوءتي
ومن بعد ذا أهبطت للأرض هيكلي ... وكنت بها في العالمين خليفتي
وسخرت لي كل الوجود تفضلا ... على سورتي مني وأتممت منتي
وعرفت ما بيني وبيني كلاهما ... على عرفات بعد طول التشتت
فكأن نكاح الأمر في الخلق ظاهرا ... بنا في كلا الشخصين قبل التحية
وأظهرت من صلبي جميع مظاهري ... بصورة ذر للعهود الوثيقة
وأشهدتهم عني ألست بربكم ... فقالوا بلى طرا بنفس مطيعة
وأوهمتهم غيرا فأنكر بعضهم ... وأوف بعهدي بعضهم مع لبستي
وأول أطواري الكوامل أنني ... لآدم شئتا كنت وهو عطيتي
وطورت نوحا جاء ينذر قومه ... وكنت له التكذيب منهم ببعثتي
وألفا سوى خمسين عاما لبثت في ... جماعتهم أبغي بهم نشر دعوتي
وهم يعبدون الغير بل يعبدونني ... ولا غير لكن وهمهم هو سترتي
ولما أبوا واستكبروا كافرين بي ... دعوت عليهم واستجبت لدعوتي
/ 148/ وأرسلت طوفانا عليهم فأغرقوا ... ولم ينج إلا من معي في سفينة
وطورت إدريسا فلي كنت رافعا ... مكانا عليا في أجل مكانتي
وطورت إبراهيم يدعوا إلي بي ... على قومه وأتيته آي حجتي
وقد قال ذا ربي له كنت كوكبا ... كذا قمرا أيضا وشمسا بوجهتي
ولا فرق إلا بالأفول ألم تكن ... إذا لا أحب الآفلين مقالتي
كما قلت سموهم لقوم تعلقوا ... بما قيد الإمكان من مطلقيتي

وجئت إلى النمرود أدعوه للهدى ... فلم يمتثل حتى ثوى بالبعوضة
وأضرم لي نارا وأرسلني بها ... فعادت بأمري لي علي كجنة
وقد كنت مني طالبا أنني أرى ... لحق يقيني كيف إحياء ميت
فجاء جوابي لي بأربعة فخذ ... من الطير واجعل في العلاكل قطعة
ونادى بهم يأتين سعيا وبعد ذا ... فكن عالما لا شيء إلا بقدرتي
وطورت إسماعيل لما بلغت مع ... أبي السعي ذبحي قد رأيت بنومتي
وناديت لما أسلما حين تله ... أصدقت حتى كان بالكبش فديتي
وطورت إسحاق الغيور ولم تكن ... على غير تحريم الفواحش غيرتي
وطورت يعقوبا بليت بيوسف ... وأسلمني حبي له كل محنتي
وفرقت ما بيني زمانا وبينه ... ووا أسفا ناديت من طول فرقتي
وعيناي من حزني قد ابيضتا وقد ... مننت بجمع الشمل بعد تشتتي
ويوسف قد طورت زاد ملاحة ... بوجه سبا كل الوجوه المليحة
149 / وبالثمن البخس اشتراني مشتر ... وفي الجب ألقتني من الكيد إخوتي
وقد عشقت حسني زليخة والهوى ... أضر بها حتى قد همت وهمت
وطورت هودا كان يشهد قومه ... على أنه عن شركهم ذو براءة
ولوطا لقد طورت أيضا وصالحا ... أتيت إلى قومي لإبلاغ دعوني
فزاغوا وعن أمري عتوا وتكبروا ... وقد عقروا لما عصوني ناقتي
وطورت موسى ضارب البحر بالعصا ... وقد شق حتى قومه فيه مرت
وآنس نارا من جوانب طوره ... فرام ليأت الأهل منها بجذوة
فنال الهدى في شكل مقصده وقد ... تجلى له من مظهر الاحدية
وقد حاز منه رؤية بسؤاله ... ولكنها الأطواد بالصعق دكت
وعيسى لقد طورت يبرئ أكمها ... وأبرص والأموات يحيي بدعوة
وأرسلت روحي طبق ما هو عادتي ... إلى الأم حتى كان مظهر نفختي
وأظهرت ما قد كان في الأب مضمرا ... وبينت للأقوام سر الأمومة
فضلوا وزاغوا من مثال ضربته ... لفهم علوم في الوجود دقيقة
وقالوا بأني قد غدوت له أبا ... وقد خص من دون الورى ببنوتي
وأين الوجودان اللذان تباينا ... وما عز خلاق كذل خليقة
ومن بعد هذا جئت في طوركلما ... مضى من رسول أو نبي لأمة

وأصبحت في شكل النبي محمد إلى الله أدعو الناس في أرض مكة
فآذتني الأقوام نفيا وحاولوا بأفواههم إطفاء نور النبوءة
/ 150 / وأظهرت دين الحق بعد خفائه فأصبحت الكفار في سوء حالة
ونكست أصنام الضلال وفي الورى أزلت ظلام الظلم عن فرط سطوتي
وطورت أصحابا ومن هو تابع لهم بالهدى مثل الكرام الأئمة
ومن بعد ذا ما زلت أظهر دائما على أمد الأزمان في كل هيئة
وطورت أهوال القيامة والذي يكون غدا في يوم عرض الخليقة
وإياك من قول بأن تفهم الذي تدين به الكفار بين البرية
فإني بريء من حلول رمت به عقول تغذت بالظنون الخبيثة
وما بانحلال واتحاد أدين في حياتي وإن دانتهما شر أمة
وكل الذي أبديته لك ناظما فمن فوق أطوار العقول السليمة
فإن كنت من أهل المعارف لم تلم لأنه تلقاه بنفس تزكت
وإن كنت مطموس البصيرة جامدا على ما ترى من صورة بعد صورة
فإنك معذور بقلة فهم ما أقول لضعف في قواك الكليلة
فواظب على التنزيل دأبا عليه لا تكن من أناس بالتشبه ضلت
ودع عنك تجسيما ولاتك جاهلا بأوصاف من أبداك في كل حالة

فهو رحمه الله في هذا الفن مفرد لا يشرك وغاية لا تدرك، وأما ما في غير ذلك من فنون الشعر، من الغزل وذكر البساتين والأشجار والمياه والأطيار، والتواريخ المضمنة في القريض فمدى طويل عريض، وفي الأحاجي والألغاز فقد كاد أن يأتي فيها بالإعجاز، وفي الأمداح لا يعبأ بمن غدا أو راح، / 151/ فهو في الجميع بحر زاخر ليس له انتهاء ولا آخر. فمن ذلك قوله رضي الله عنه: ومن جملة من جاريته في ميدان الآداب، وراسلته مراسلة النسائم في الحدائق عقب السحاب، الحسيب النسيب السيد محمد الحسيني المعروف بالحصري، في ذي القعدة من شهور سنة سبعين وألف فأرسلت إليه بقولي:

دب الحياء بخده فتضرجا رشا أبان عن الشقيق بنفسجا
وأماله سكر الدلال فعربدت لحظاته هيهات ما أحد نجا

رحص البنان أغن أحور أوطف كالبدر أبهى من رأيت وأبهجا
لم يكفه دعج العيون ملاحة حتى تشربش بالبها وتتوجا
وتفضضت وجناته وتذهبت والحسن دمج سالفيه ودبجا
يختال كالغصن الرطيب بمعطف لدن أرانا السمهري معوجا
ويظل يكسر مقلتيه تذللا أين النجاة لعاشق أين النجا
ومعربد اللحظات أطلق حسنه فتقيدت بشهوده مقل الرجا
صلت الجبين بدا كبدر زاهر يا صاحبي قفا هنا وتعرجا
قد ذاب قلبي في هواه صبابة وبحسنه لكمين شوقي هيجا
وفنى اصطباري في الهوى وتجلدي والدمع أمطر في الجفون وأثلجا
يا يها القمر الذي القمر الذي من صدغه من صدغه ليل سجا
حتى م يلحاني عليك سفاهة من ليس يدري ما الهوى وتبهرجا
جد بالوصال فإن لي بك مدخل لم يبق لي عن حسن وجهك مخرجا
152 / من لي بمن فضح البدور ملاحة وبطرفه فتن الغزال الأدعجا
فاضت مياه الحسن في أعطافه والجسم أزبد فوق ردف موجا
لجماله انتمت البدور كما انتما لمحمد المجد المؤثل والتجا
حبر لو أن الدهر ينصف أهله لتنعل العظما وفيه تتوجا
رب الفضائل ما دعي لملمة إلا جلا عنها الهموم وفرجا
بحر ولكن لا يقر قراره طود ولكن من يلوذ به نجا
فصحت بلاغته وقد بلغت فصا حته فلو قسا رآه تلجلجا
ورث المفاخر كابرا عن كابر ما منهم إلا جواد مرتجا
في آل بيت لا يضام نزيلهم في العالمين ولا يخيب له رجا
شم الأنوف رفيعة أحسابهم سلكوا التعفف للشهامة منهجا
يا أيها الندب الذي فاق الورى بالعلم والعرفان حتى أبهجا
ومن ارتقى هام السماك نباهة وبلطف هاتيك السجايا قد سجا
مني إليك دجى حروف أظهرت من حسن معناها الصباح الأبلجا
روضات آداب زهت بيوانع الأ لفاظ أعيى نظمهن أولي الحجا
تمشي الخواطر في ظليل ظلالها فتطيب نشرا فائحا وتأرجا
قلدتها عقد المديح تحصنا جيدا وصغت لها التغزل دملجا

فأنعم بها ياذا المكارم والتقى ... واسلم ودم كهف الأفاضل ملتجا
وحماك مانوسا وجبك مقصدا ... للواردين وظل جودك سجسجا
/ 153 / ما غرد القمري على أعواده ... وسرى النسيم إلى الحدائق مدلجا

وقال رحمه الله:

لله حسن حديقة ... يومي بها يوم قصير
قد غردت أطيارها ... في غصن بانتها النظير
بتنا بها متجردين موسدين بلا نكير
ما راع إلا نرجس ... فيها ومنشور كثير
هذاك يغمز بالعيو ... ن وذا بأصبعه يشير

وقال رحمه الله تعالى:

وحديقة وافيتها متنزها ... ورءوس نرجسها طوارق حرك
والأقحوان يظل يركع بالصبا ... فكأنما هو عابد متنسك
فجلست بينهما كأني سخرة ... هاذاك يغمز ذا وهذا يضحك

وقال رضي الله عنه:

صفق الجدول والغصن رقص ... والربى رق نسيما وخلص
قم بنا ننهب لذات الصبا ... في خلال العيش فالدهر فرص
قم زمان الورد بالخير أتى ... فزت يا من عمره باللهو خص
يحرم القاعد عن نيل المنا ... إن في الدهر مساغا وغصص
كم فتى مد شباك المزح في ... الروض فاصطاد سرورا وقنص
يا سقى الله زمانا سالفا ... كم أخذنا فيه باللهو رخص
رقت الأوقات حتى انقطعت ... والهنا زاد بها حتى نقص
/ 154 / حيث شيطان رقيبي ملني ... وعلى أعقابه عني نكص
وحبيبي عاد من بعد الجفا ... جمش الروح بوصل وقرص
آه لو ترجع أوقات مضت ... نحوها طرف انتظاري قد شخص

ومن نظمه ما كتبه إلى بعض المشائخ بدمشق الشام مهنئا له بعرس ابنه ومؤرخا ذلك:

مني الهناء إليك بل منك الهنا   لي بالذي لك من إلهي رمته
يا صاحب القدر الرفيع ومن سما   عن كل ما حاولت فيه وقلته
أضحت تقول لي المسرة عندما   أرخت بالعرس المبارك جئته

التاريخ بالعرس المبارك إلى آخره.

وقال رضي الله عنه في جواب أبيات متضمنة لغزا وردت عليه من بعض الأفاضل:

عقود من العقيان رصعها الدر   أتت منك لي أم سحر بابل أم خمر
أم الخود ما بين الترائب أقبلت   فولى سناء الشمس وانكسف البدر
أم الروض يزهو الزهر فيه وعرفه   يزيد اعترافا حيث ينتشر النشر
أم الراح يجلوها علي مهفهف   بلحظ وعطف ضمنه البيض والسمر
بلى تلك أبيات بها الغير في بلا   أتتني فمني فك معقودها البكر
تثنت بإسماعيل في حومة الثنا   وغنت إلى أن قيل غانية بكر
فشطراسمه قل لفظ اسم مفسر   بلا شبهة فيما يشير به الشعر
وشطر اسمه الثاني أعيل فإنه   بقولك هذا في الأنام لك الفخر[291]
ويوخذ منه العي وصف ذوي الهوى   كذا ألف التعريف واللام ياحبر
155 / فهذا الذي عندي استبان عسى به   يكون انتفى الإشكال وانفرج الأمر

وزاد في جوابه هذا لغزا عرضه على السائل وهو هذا:

وأي رباعي تعالى مكانة   به تضرب الأمثال يأيها البحر
غدا ربعه صدغ الذي أنا مغرم   به ثم ماضي الفيء ربع له قدر
وربعاه في التنزيل أول سورة   تبين ولا تخفى إذا تلي الذكر
أجبني إلى ما قد قصدت أخا الحجا   فمعروف هذا اللغز ليس له نكر

ولم يذكر جوابا عنه وقد نسخ لي جوابه، وفي المجلس جمع من أدباء أهل الشام، فعرضته على كل أديب لعله يجيب، فأقروا بالعجز دون احتشام، فقلت ورأيت أن نذكره وهو:

---

(291) سقط هذا البيت من (أ) وورد في (ب).

فلبيك يا أصل المعارف والنهي ... إجابة مأمور إلى من له الأمر
عقيلة أفكار جلوت قد ازدهت ... بحليك لكن دون منظرها ستر
فأرخت عليه كل أسود فاحم ... وفرع أتيت تحته القمر البدر
فأبرزتها مجلوة لمنصة ... تتيه كما تبدي الحيا غادة بكر

الجواب: فاحم، فالألف هو مراده بقوله ربعه صدغ الذي أنا مغرم إلخ، لأن الشعراء يشبهون الصدغ والعذار بالألف لقوامه، قال الشاعر:

خط على خد[292]. مثل ما ... دبت على[293] أرجل أنمل

والفاء هو المراد بقوله ماضي الفيء لأن ماضيه فاء، فهذان ربعان فاء وألف، والخاء والميم هو المراد بقوله وربعاه في التنزيل أول سورة إلخ، فإذا جمعت هذه الحروف صارت فاحم وصف للصدغ، ويرشح أن مراده ذاك قوله صدغ الذي أنا مغرم إلخ، فأنه ينظر إليه بصرف خبر والله أعلم.

وقال رضي الله عنه في جواب مسألة فقهية رفعت إليه:

لقد شاقني نظم أتى منك سائل ... كأن عليه ذائب التبر سائل
فخذ يا كريم الأصل مني جوابه ... تشيعه عني إليك الأصائل
سؤالك عن أكل التراب وحله ... وحرمته ماذا تقول الأفاضل
فقد صرحوا طرا بحرمة أكله ... وإن كان فيه لا تضرر حاصل
كما جاء بالإطلاق في ذرر وفي ... طهورية بالطين عبر ناقل
وحرمته قالوا لقول نبينا ... عليه صلاة مع سلام يشاكل
/ 156 / إذا ما أراد الله شرا بعبده ... أتاه البلا في خصلتين يعاجل
فيبلى بأكل الطين مع نتف لحية ... وهذا صريح في الذي يتداول
فيفهم منه أن حرمة أكله ... لنهي أتى فيه روته الأفاضل
ولم يكن التحريم من ضرر به ... فيحرم في الحالين فلينته آكل

---

(292) كلمة غير واضحة كتبت استدراكا بخط عسير القراءة.

(293) كلمة غير واضحة.

قصيدة للنابلسي يصف فيها رحلته إلى القدس

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه مضمنا رحلته إلى بيت المقدس في هذه القصيدة وهي:

بحمد الله من ألهم ... وعنا قد أزال الهم
ومن زادنا فضلا ... وبالتوفيق قد أنعم
بدأنا رحلة كانت ... على الدنيا بها يختم
وقد فزنا بما نهوى ... وأدركنا الثواب الجم
مع الإخوان والأحبا ... ب أهل المسلك الأقوم
فسرنا من دمشق الشا ... م سير المعرب المعجم
إلى القدس الشريف القد ... ر ذات المنظر الأفخم
وزرنا الأنبيا والأو ... ليا من جاههم يخدم
وبسم الله سافرنا ... وعدنا باسمه الأعظم
وجاوزنا على خير ... وحزنا أشرف المقدم
وقد كان الربيع الغض ... فينا ضاحك المبسم
وأزهار الرواي قد ... أهاجت شوق من يشتم
157 / ومن ينظر إليها يبصر الدينار والدرهم
وعرف الطيب من بعد ... على تلك النواحي نم
وذر الغيث منظوم ... لأثواب الربا نمنم
وقد سرنا على استقلا ... لنا بالغير لا نأتم
متى أرضا أردناها ... نزلنا مرجها الأنعم
ومعنا ما له نحتاج ... من لبس ومن مطعم
ولما أن قصدنا السير لا نلوي ولا نسأم
وللأصحاب ودعنا ... وأهل البيت والمحرم
وصلينا صلاة الصبح ... وسط الجامع الأقدم
مجاور دارنا الأموي ... بقوم شملهم ينظم
وزرنا الرأس من يحيى ... لأنواع الدعا نلزم
وزرنا الوالد المرحو ... م مع من عنده يرحم

وفي باب الصغير الكل زرناهم كما تعلم
وقد زرنا أرسلان الولي الكامل الضيغم .
ومن في قبره ممن بهم ذاك الحما مفعم
وزرنا الشيخ محيي الدين من قلبي به مغرم
وأقواما حوى قاسون منهم جانبا أعظم
/ 158 / وخصصنا الذي تدري وعممنا قبورا ثم
وقميني لقد زرنا وشيخا معه توءم
وذاك الشيخ محمود الذي ذكري له ألزم
وباقي من حواه السفح من قاسون واستلزم
إلى أن جئت داريا بقومي والجوى خيم
وزرنا من بداريا ومن أشياخنا المعظم
وأمواتا وأحياء ومن ربي بهم أعلم
وبتنا بين أقوام بها من جاءهم يغنم
إلى أن سعسعا جئنا وفيها شملنا ملتم
وبالخان الذي فيه نزلنا زادنا نطعم
وبتنا ثم أصبحنا على الخيل التي تلجم
نسير إلى قنيطرة من النقار لم تسلم
وجئناها خانها حتى لقد بتنا بها نكرم
وجئنا جسر يعقوب وكان الليل قد أظلم
وفوق النهر حطينا عمود الخيمة المحكم
على ذاك الربيع الطلق إذ تلك النواحي عم
وقد بتنا به حتى تجلى الصبح واستحكم
بجب يوسفي قد نما شوق لنا قد تم
/ 159 / ومنه الماء أخرجنا لذيذا طعمه في الفم
ونحو المنية الأقوا م ساروا بالقضا المبرم
بها بتنا على روض تسامى مدحه عن ذم

وفيها بركة ولكن   لها ماء هو الأوخم
وأصبحنا إلى وادي   عيون تجارهم في هم
ووافيناه بعد العصر نلقى وجهه أقتم

وقالوا شيخه أضحى   من الأعدا مراق الدم
فلم ننزل به حتى   ذهبنا للفلا نقحم
وفي ناعورة بتنا   بأعلى ذلك المقسم
وأصبحنا إلى جنيين ينموا شوقنا فاعلم

وقد جاءت تلاقينا   مجاديب كموج اليم
وقد ضفنا وكيلا للشريف الحاكم الأحكم

وبتناها ثلاثا من   ليال عيشها نغنم
وسرنا بعدها حتى   أتينا يعبدا ننضم
وضفنا مصلح السامي   ويسموا من له يمم
وبتنا عنده والفجر بالأنوار قد أعلم

إلى أن برقة جئنا   ومن أنجد بنا أتهم
وفي نابلس حطت   بنا الخيل التي تكرم
/ 160 / وفيها لم تزل تسموا   وربي فضله عمم
على أغا نزلنا في   حماه ذلك الأكرم
وكنا عنده في حضرة أوقاتها تغنم

وبتنا خمسة الأيا   م لم تحزن ولم تهتم
وحفتنا مسرات   وشاهدنا بدور التم
وسافرنا لجماعين   ذات الرونق الأجسم
ديار بني قدامة أهل   فضل كلهم أشهم
وجئنا عين بيرود   فتحنا جفنها المنضم
وأصبحنا وقد جئنا   لأرض البيرة الأعظم
وأصبحنا على القدس الشريف الواضح الأقوم

وقد وافت تلاقينا   كرام نارهم تضرم

وحطينا بسلطانية علياء تجلو الغم

وجاءتنا كبار من ... أهالي ذلك الميسم
وجئنا الصخرة الغرا ... وذاك المشهد الأضخم
وزرنا المسجد الأقصا ... ونورا للنهى أفخم
وكم من مسجد فيه ... لعاص يغفر المأثم
وردنا عين سلسوان ... يحاكي ماؤها زمزم
وداود النبي زرنا ... وفزنا بابنه الأفهم
/ 161 / سليمان النبي صلى ... عليه من له عظم
وفوق الطور زرنا العا ... لي العالم الأعلم
وجسمانية فزنا ... بها بالقبر من مريم
وسرنا للنبي موسى ... ومن ربي له كلم
وبتنا ليلة فيه ... بصحب جارهم يكرم
وقد سرنا إلى حبرون ... وهو الداء والمرهم

وقد زرنا خليل الله إبراهيمه الملهم

وإسحاقا ويعقوبا ... ويوسف ذا البها المفهم
وكل في قبالته ... له أهل لذي معلم
وأنوار شهدناها ... مزيلة لما أظلم
وفي باقين قد زرنا ... أهالي مسجد يهدم

ومن كفر البريك القبر لوط فيه لم يقدم

وغار الأنبيا فيه ... وإبراهيم بن أدهم
وكم قطب وصديق ... ومن يفهم و لا يفهم
وكم شيخ ومجذوب ... تبركنا بهم نهتم
وقد زرنا لعيسى مو ... لدا أضحى ببيت اللحم

وقد عدنا لبيت المقدس الباهي السنا الأغنم

وودعناه إذ ذقنا ... فراقا طعمه علقم
/ 162 / وسرنا بعد ذا يسمو ... لنا في البيرة المقدم
وجئنا سنجلا بتنا ... بها الليل قد أعتم

ونابلسا أتيناها   لنا رزق بها يقسم
وقد بتنا ثلاثا من   ليال ما بها نسرغم
وقد جئنا نباطية   وأجلى أمرنا المبهم
وجنينا بها يومين كنا والأسى يهزم
ويوما ثالثا فيه   لقينا السيد المكرم
شريفا كاملا يحيى   به الجود الذي يعدم
وودعناه حتى في   عيون تجارهم ننعم
وبتنا ثم أصبحنا   نرى بالمينة المغنم
وبالجب السبهي حتى   أتينا الجسر لا نندم
وبتنا فيه في خير   قنبطرة بها نلزم
لدى الخان الذي فيها   وبتنا لا نرى مغرم
وجئنا سعسعا وبعد هذا شوقنا هيم
إلى وادي دمشق الشا   م ذات الجانب الأسلم
وبتنا ثم أصبحنا   نرى طفل السرى يفطم
وأقبلنا على الإخوا   ن منا الشوق لا يكتم
فلاقونا بترحيب   وعنهم حالهم ترجم
163 / ووافينا لأهلينا   وربي في العلا كرم
وزاد الله إنعاما   علينا لم يزل أدوم
ونلنا فضله أرخ برحلة قدسه الأكرم
وصلى الله مولانا   على طه وقد سلم
وكل الآل والأصحا   ب من أوصافهم ترقم
مدا الأيام ما طير   بأعراب الغنا أعجم

تلخيص بعض ما جاء في كتاب النابلسي "الرد المتين"

وأما كتابه المسمى ب"الرد المتين على متنقصي الشيخ محي الدين"، فشيء بعيد عن الأوهام ولا تكاد تدركه إلا بإلهام الأفهام، وقد رأيت أن نذكر بعضا من مسائله المعترض بها، وما أجاب به الشيخ سيدي عبد الغني

نفعنا الله ببركاته فنقول، قال بعد خطبته في التأليف المذكور: وسميتها "الرد المتين على متنقصي العارف محي الدين"، ولا تظن بأنني متعصب له رضي الله عنه وإنما أنا متعصب للحق حيث كان، وقصدي الإصلاح بين الفريقين المنكرين والمعتقدين بحسب الإمكان، مع أني لست بجازم أن هذه الرسالة-يعني المعترض بها- لابن إمام الكاملية وإن نسبت إليه، وجميع ما فيها من مقالة كل عالم، إنما ردي لها على فرض صحة الإحالة عليه، وأسأل الله تعالى أن يحفظني من الخطأ والخطل، وأن يوفقني لسلوك جادة الإنصاف ويقيني الزلل، إنه على ما شاء قدير وبالإجابة جدير. وأحببت أن أصدر هذه الرسالة بأبيات من نظمي في مدح الشيخ رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركاته، /164/ لتكون براعة استهلال فيما نحن بصدده أمدنا الله تعالى بمدده آمين، وقد تقدمت القصيدة الهمزية وهي "ظهر الحق ما عليه غطاء" إلى آخره، وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود،

قال الطاعن: قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام لما سأله ابن دقيق العيد[294] عن الشيخ رضي الله تعالى عنه: هو شيخ سوء كذاب، فأقول: نقل الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله في مقدمة كتابه "اليواقيت والجواهر" عن شيخ الإسلام المخزومي أنه قال: وأما إشاعة بعض المنكرين عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعن شيخنا الشيخ سراج الدين البلقيني رحمهما الله تعالى أنهما أمرا بإحراق كتب الشيخ محي الدين فكذب وزور، ولو أنها أحرقت لم يبق بمصر والشام نسخة، ولا الآن كان أحد ينسخها بعد كلام هذين الشيخين وحاشاهما من ذلك، ولو أن ذلك كان لم

(294) تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد (625-702هـ / 1228-1302م)، قاض من أكابر العلماء بالأصول يصفه العبدري الذي لقيه بالقاهرة ب" الشيخ الفقيه المحدث الأصولي المتفنن عالم الديار المصرية...صاحب المدرسة الكاملية، لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا من علم لاتكدره الدلاء...فهو الآن قطب مصر وعلمها "، ولد بينبع ونشأ بقوص وتعلم في دمشق والأسكندرية والقاهرة. ولي قضاء الديار المصرية سنة 695هـ وتوفي بالقاهرة، له كتب منها "إحكام الأحكام" و "تحفة اللبيب في شرح التقريب". (شذرات الذهب 6 .S؛ رحلة العبدري 138؛ الزركلي 6- 283).

يخف لأنه من الأمور العظام التي تسير بها الركبان في الآفاق ويتعرض لذكرها أصحاب التواريخ.

وقال المخزومي رحمه الله: وأما ما نقله بعضهم عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه كان يقول ابن عربي زنديق فكذب وزور، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي[295] صاحب القواعد، عن مشايخه عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام قال: كنا في درس الشيخ عز الدين في باب الردة فذكر القارئ لفظة الزنديق، فقال بعضهم هذه اللفظة عربية أو أعجمية، فقال بعض العلماء هي فارسية معربة أصلها زادديق، وهو الذي يضمر الكفر ويظهر /165/ الإيمان، فقال شخص من الطلبة مثل من، فقال شخص بجانب الشيخ عز الدين بن عبد السلام: مثل محي الدين بن عربي، ولم ينطق الشيخ عز الدين بشيء.

قال الخادم: فلما قدمت له عشاءه وكان صائما سألته عن القطب من هو، فقال: لا أدري القطب في زماننا هذا إلا الشيخ محي الدين بن عربي وهو يتبسم، فأطرقت مليا متحيرا فقال ما لك، ذلك مجلس الفقهاء ما وسعني فيه غير السكوت. قال المخزومي: فهذا الذي رويناه عن الشيخ عز الدين بالسند الصحيح، انتهى.

فعلمنا أن ما ذكر لم يثبت عن الشيخ عز الدين أوكان قبل اعتقاده في الشيخ رحمه الله تعالى، وعلى فرض عدم ذلك كله فنقول: هذا الطعن غير صواب ولا مقبول من وجهين، أما أحدهما فلأنه ورد في الحديث كما نقله الشيخ الأسيوطي رحمه الله تعالى في "الجامع الصغير" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شهادة المسلمين بعضهم على بعض جائزة ولا تجوز

---

(295) أبو سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي (694-761هـ/1295-1359م)، محدث فاضل ولد وتعلم في دمشق ورحل رحلة طويلة ثم أقام في القدس مدرسا في الصلاحية سنة 731هـ وتوفي فيها. من كتبه "المجموع المذهب في قواعد المذهب" في فقه الشافعية و "النفحات القدسية". (الزركلي 2-321؛ في خلال جزولة 1-55؛ فهرس الفهارس 1-117؛ الدرر الكامنة 2-90).

شهادة العلماء بعضهم على بعض لأنهم حسد)، قال الشارح المناوي رحمه الله في شرحه الكبير: حسد بضم الحاء والتشديد بضبط المصنف أي هم أشد حسدا بعضهم لبعض، ولهذا قال ابن عباس[296] رضي الله عنه إنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة. ومن هذا القبيل ما قيل عدو المرء من يعمل بعمله، انتهى. وهذا الكلام جار في جميع من سنذكره من الطاعنين.

وأما الثاني فلأن العلم على قسمين: علم الأقوال وعلم الأحوال، ويقال له علم الأذواق وهذا أخص من الأول، والأول يكتسب بالتعلم والتعليم والثاني لايحصل إلا بالمنازلة والمتابعة، قال تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام /166/ [هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا] الآية[297]. ولكل من العلمين اصطلاحات اصطلح عليها أربابها (فيما بينهم)[298]، لا يفقهها على ما هي عليه إلا من كان من أهل ذلك العلم، بل نقول إن كان كل إمام من أهل علم الأحوال له اصطلاحات في كلامه وتصانيفه، لا يعلمها إلا من فتح عليه في مقامه ذلك، فليس لغيره وإن كان من علماء الأحوال أن يتصرف في فهمها إلا على الوجه الصحيح الموافق للكتاب والسنة، لأن الأصل معناه على ما صرح به الشيخ رضي الله تعالى عنه كما سيأتي، إن طريق أهل الله مبني على الكتاب والسنة، وكل ما عدا ذلك فهو جهل وليس بعلم، فمن وجد كلاما ظاهره الإشكال فعليه تأويله ورده إلى موافقة الكتاب والسنة، أو تسليمه لقائله على حسب ما اصطلح عليه في شأنه ذلك، ولا يجوز له الخوض فيما لا يعلم. قال تعالى: [ولاتقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا][299]، لا سيما والأصل في هذه الأمة العدالة، فلا يثبت غيرها في

(296) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (3ق.هـ-68هـ/ 619-687م)، حبر الأمة والصحابي الجليل، ولد بمكة ونشأ فيها في بدء عصر النبوة فلازم النبي وروى عنه الأحاديث الصحيحة.شهد مع علي الجمل وصفين وسكن الطائف ومات بها. (الزركلي 4 .95).

(297) الآية 66 سورة الكهف.

(298) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(299) الآية 36 سورة الإسراء.

أحد بمجرد احتمال في كلامه، ولاشك أن هؤلاء الطاعنين متأخرون عن الشيخ رضي الله عنه، فطعنهم إنما هو مستند إلى كلامه لا إلى رؤيته، إلا القليل ممن لا يعتد به لتعصبه.

وفي البحر الرائق شرح الكنز في كتاب الشهادات قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: يقتصر الحاكم على ظاهر العدالة في المسلم ولا يسأل حتى يطعن الخصم، لقوله عليه الصلاة والسلام (الناس عدول بعضهم على بعض إلا محدودا في قذف)، ومثل ذلك عن عمر رضي الله عنه. ولأن الظاهر هو / 167/ الأنزجار عما هو محرم في دينه وبالظاهر كفاية، إذ لا وصول إلى القطع انتهى. وقوله حتى يطعن الخصم، لايصلح هؤلاء الطاعنون أخصاما للشيخ رضي الله عنه لعدم توجه حق لهم عليه دنيوي ولا أخروي.

وفي شرح "الجامع الصغير في الفقه" لمحمد بن الحسن[300] من أئمة الحنفية، قال عمر رضي الله عنه المسلمون عدول بعضهم على بعض، وقال تعالى: [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس][301] أي عدولا، فصارت العدالة ثابتة في الأصل لهذه الأمة، فوجب العمل بها حتى يثبت غيرها انتهى. وها هنالم يثبت بأقوال هؤلاء الطاعنين شيء لأن في كلامه رضي الله تعالى عنه ما يناقض طعنهم فيه مما سنذكره، وإنما طعنهم فيه مستند إلى أفهامهم الفاسدة في عباراته على ما سنعبر به إن شاء الله تعالى، وهذا الوجه جار في جميع من سنذكره من الطاعنين أيضا.

وذكر الشعراني رضي الله عنه في مقدمة كتابه "اليواقيت والجواهر"، عن الإمام مجد الدين الفيروزبادي مؤلف "القاموس"، أنه أطال في ذكر

---

(300) أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني الفقيه الحنفي (132-189هـ/ 749-804م)، ولد بواسط ونشأ بالكوفة وطلب العلم حيث لقي جماعة من أعلام الأئمة منهم أبو حنيفة وصاحبه أبو يوسف الذي تفقه عليه. صنف الكتب الكثيرة منها "الجامع الكبير" و "الجامع الصغير"، جرت بينه وبين الإمام الشافعي مناظرات بين يدي هارون الرشيد ببغداد، ولم يزل ملازما للرشيد حتى خرج معه إلى الري حيث توفي محمد، وكان الرشيد يقول: "دفنت الفقه والعربية بالري". (ابن خلكان 4 .184؛ الشذرات 1-321).

(301) الآية 143 سورة البقرة.

مناقب الشيخ محيي الدين ثم قال: وبالجملة فما أنكر على الشيخ إلا بعض الفقهاء القح الذين لا حظ لهم في مشرب المحققين، وأما جمهور العلماء والصوفية فقد أقروا بأنه إمام أهل التحقيق والتوحيد، وأنه في العلوم الظاهرة فريد وحيد، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: ما وقع الإنكار من بعضهم على الشيخ إلا رفقا بضعفاء الفقهاء، الذين ليس لهم نصيب تام من أحوال الفقراء، خوفا أن يفهموا من كلام الشيخ أمرا لا يوافق الشرع فيضلوا، ولو أنهم /168/ صحبوا الفقراء لعرفوا مصطلحهم وأمنوا من مخالفة الشريعة انتهى.

وذكرالشيخ الأسيوطي رحمه الله تعالى في رسالته "تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي": وقد كان بين الشيخ عز الدين بن عبد السلام وبين الشيخ محي الدين بن عربي إخاء وصحبة، أخبرني الشيخ عبد العزيز بذلك لأن الشيخ عز الدين كان منكرا بظاهر الحكم، وحكى عن خادم الشيخ عز الدين أنه دخل مع الشيخ إلى الجامع بدمشق، فقال الخادم للشيخ عز الدين أنت وعدتني أناك تريني القطب، فقال له: ذلك القطب، وأشار إلى ابن عربي وهو جالس والحلقة عليه، فقال له: ياسيدي فأنت تقول فيه ما تقول، فقال: هو القطب فكرر عليه القول وهو يقول له ذلك.

وقال الطاعن المذكور: يقول بقدم العالم، فأقول: مثال ذلك مثال أعجمي سمع أعرابيا يتكلم بالشهادتين فقال عنه إنه أخطأ حيث لم يفهم كلامه، وإنما مراد الشيخ رضي الله عنه بذلك، حيث صرح في مصنفاته، القدم في حضرة العلم الأزلي، ولاشك في صحة هذا الكلام ووجوب الإيمان به على جميع الأنام، والذي يرشدنا إلى هذا قول الشيخ رضي الله عنه في كتابه "إنشاء الجداول والدوائر في حق الإنسان الذي هو نسخة من نسخ الأكوان" وعبارته: الإنسان قديم محدث موجود معدوم، أما قولنا قديم فلأنه موجود في العلم القديم متصورا فيه أزلا، وهو من بعض مراتب الوجود المذكورة، وأما قولنا محدثفإن شكله وعينه لم تكن ثم كانت، فيخرج من هذا أن زيدا موجود في العلم موجود في الكلام معدوم /169/ في العين أزلا مثلا، فقد تصور اتصافه بالوجود والعدم أزلا انتهى.

ومراده بمراتب الوجود المذكورة ما ذكره قبل ذلك، من قوله لكل شيء في الوجود أربع مراتب: الأولى وجود الشيء في عينه، الثانية وجوده في العلم، الثالثة وجوده في الألفاظ، الرابعة وجوده في الرقم، انتهى كلامه رضي الله عنه.

وجميع ما في مصنفاته من هذا المقام مخرج على مثل هذا الكلام، وقد صرح بحدوث العالم في كتابه "الفتوحات المكية" في الباب التاسع والستين حيث قال: العالم كله موجود عن عدم ووجوده مستفاد من موجد أوجده وهو الله تعالى، فمحال أن يكون العالم أزلي الوجود، لأن حقيقة الوجود أن يوجد مالم يكن موصوفا عند نفسه بالوجود وهو المعدوم، لا أنه يوجد ما كان موجودا أزلا فإن ذلك محال، فإذا العالم كله قائم بغيره لا بنفسه والسلام، انتهى. فانظر هذا التصريح الذي يرغم أنوف المعترضين ويترك عباراتهم المتزخرفة منبوذة بكل وصف مهين.

وقال الطاعن المذكور أيضا: ولا يحرم فرجا، فأقول: يرد هذا شهادة الطاعن الآخر كما سيأتي، وهو تقي الدين الفاسي[302] حيث قال: وأما من أثنى عليه فلفضله وزهده وإيثاره واجتهاده في العبادة، ونقل هذا أيضا رضي الله تعالى عنه في سبب شرحه لترجمان الأشواق، أنه لما قدم حلب سمع من بعض الفقهاء أنه قال قول الشيخ في أول هذا الترجمان، أنه قصد بما فيه من الأبيات الغزلية علوما وأسرارا وحقائق ليس بصحيح والله أعلم، وإنما فعله الشيخ تسترا حتى لاينسب إليه لسان /170/ الغزل مع ما هو عليه من الدين والصلاح.

فانظر إلى قول هذا الفقيه المعترض في حق الشيخ رضي الله عنه، مع

(302) محمد بن أحمد بن علي أبو الطيب تقي الدين الفاسي المكي الحسني (775-832 هـ/ 1373-1429م) مؤرخ عالم بالأصول حافظ للحديث، أصله من فاس ومولده ووفاته بمكة، دخل اليمن والشام ومصر مرارا وولي قضاء المالكية بمكة مدة. قال المقريزي "كان بحر علم لم يخلف بالحجاز بعده مثله"، من كتبه "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين" و"إرشاد الناسك إلى معرفة المناسك". (الزركلي 5-331).

ما هو عليه من الدين والصلاح تعلم أن الفضل ما شهدت به الأعداء، وواعجبا يجوز أن يقال فيه مثل هذه المقالة القبيحة التي لاتصدر من أدنى طالب متفقه. وكلامه رضي الله عنه في كتابه "الفتوحات المكية" في الباب الثاني ومائتين ما نصه: واعلم أن آداب الشريعة كلها ترجع إلى ما نذكره، وهو أن لا يتعدى العبد في الحكم موضعه، أي موضع الحكم في جوهر كان أو في عرض، أو في زمان أو في مكان، أو في وضع أو في إضافة، أو في حال أو في مقدار، أو في عدد أو في مؤثر أو في مؤثر فيه. فأما آدابها في الجوهر فهو أن يعلم العبد الشرع في ذلك فيجريه فيه بحسبه، وأما آداب العبد في الأعراض فهو ما يتعلق بأفعال المكلفين، من وجوب وحظر وإباحة ومكروه وندب، وأما آدابه في الزمان فلا يتعلق إلا بأفعال العبادات المرتبطة بالأوقات، فكل وقت له حكم في التكليف ومنه ما يضيق وقته ومنه ما يتسع، وأما آدابه في المكان كمواضع العبادات مثل بيوت الله تعالى، فيرفعها عن البيوت المنسوبة إلى الخلق ويذكر فيها اسمه، وأما آدابه في الموضوع فلا يسمى الشيء بغير اسمه، فيغير عليه حكم الشرع بتغير اسمه، فيحل ما كان محرما ويحرم ما كان محللا، كما في حديث (سيأتي على أمتي زمان يسمون فيه الخمر بغير اسمها)، أي فتحا لباب استحلالها بالاسم. وقد تفطن لما ذكرناه الإمام مالك رضي الله عنه، فسئل عن خنزير البحر فقال: هو حرام، فقيل له /171/ إنه من جملة سمك البحر، فقال: أنتم سميتموه خنزيرا فانسحب عليه حكم التحريم لأجل الاسم، كما سموا الخمر نبيذا أو تريدا واستحلوها بالاسم، وقالوا إنما حرم علينا ما كان اسمه خمرا.

وأما آداب الإضافة فهو مثل قول الخضر عليه السلام فأردت أن أعيبها، وقال فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا وذلك للإشتراك بين يحمد ويذم، وقال فأراد ربك لتخصيص المحمدة فيه، وأما آداب الشيء الواحد يكتب ذما بالنسبة إلى جهة، ويكتب حمدا بالإضافة كحال السفر في الطاعة وحال السفر في المعصية، فيختلف الحكم بالحال، وأما الأدب في الأعداد فهو أن لايزيد في أفعال الطهارة على أعضاء الوضوء ولا ينقص، وكذلك القول في

أعداد الصلوات والزكوات ونحوها، وكذلك لا يزيد في الغسل على قدر الوضوء عن صاع، وأما آدابه في المؤثر فهو أن يضيف القتل مثلا والغصب إلى فاعله ويقيم عليه الحد، وأما آدابه في المؤثر فيه كالمقتول قودا هل بصفة ما قتل به أو بأمر آخر، وكالمغصوب إذا وجد في غير يد الذي باشر الغصب، فهذه أقسام آداب الشريعة كلها، انتهى كلامه رضي الله عنه.

وقد نقل هذه العبارة عنه الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه المسمى "بالكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر"، ونقلها أيضا العلامة الشيخ عز الدين الخليلي مفتي المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في كتابه "الحق الواجب الناطق بأن المخلوق ليس عين الخالق"، ثم قال: فانظر إلى إحاطة الشيخ بعلوم الشريعة المطهرة المنورة، واختصاره وجمعه لآدابها التي تكاد تخرج عن /172/ الحصر في كلمات يسيرة، تعرف أنه رحمه الله تعالى بحر زاخر لا يعلم له أول من آخر، وتعلم دقته وغوصه على المعاني البعيدة الغريبة، واستخراجه الفوائد والفرائد العجيبة، وكيف لايكون كذلك وقد شهد له الأضداد بأنه بلغ رتبة الإجتهاد، والفضل ما شهدت به الاعداء، ذلك فضل الله يوتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم وفوق كل ذي علم عليم.

ومنها، أي من المسائل التي أنكرت عليه، ما قاله الطاعن ونصه: قال الشيخ بدر الدين بن جماعة[303]: وأما إنكاره، يعني ابن عربي، ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد فهو كافر به عند علماء التوحيد، فأقول: هذا الكلام لم يصح عن ابن جماعة، فقد صرح الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه

---

(303) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة (639-733هـ/ 1241-1333م)، فقيه شافعي لامع من عائلة موزعة بين مصر والشام، أصله من حماة. ترقى في مراتب العلم من خطيب المسجد الأقصى وقاضي القدس عندما التقاه العبدري بالقدس في محرم سنة 689هـ/ يناير 1290 إلى أن صار قاضي قضاة مصر في القاهرة ودمشق المملوكيتين. ألف كتبا عديدة أهمها كتاب في الفقه الدستوري "تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام" وقد خلف ذرية تعاقبت على مناصب القضاء في القطرين خلال العهد المملوكي. (العبدري 230-231؛ E.I., 3 771.)

"اليواقيت والجواهر" عن الشيخ سراج الدين المخزومي، أنه قال في كتابه الذي رد به على من رد على الشيخ، أنه قد شرح كتاب الفصوص جماعة من أعلام الشافعية وغيرهم، منهم الشيخ بدر الدين بن جماعة وأنه سئل عن الشيخ فقال: مالكم ولرجل قد أجمع الناس على جلالته انتهى. ولعل قوله السابق على فرض صحته، قاله قبل اطلاعه على مقام الشيخ رضي الله تعالى عنه، ومع ذلك فنقول: دعواه بأن الشيخ رضي الله تعالى عنه أنكر الوعيد الوارد في الكتاب والسنة باطلة لا أصل لها على ما ستعرف من كلامه رضي الله تعالى عنه، وأنا أذكر لك[304] كلامه بحروفه ثم أبينه لك أوضح بيان وبالله أستعين.

قال رضي الله عنه في كتابه "الفتوحات المكية" في الباب العشرين وثلاثمائة: السكنى لأهل النار /173/ في النار لا يخرجون منها، كما قال تعالى خالدين فيها يعني في النار، ولم يقل فيه ويريد العذاب، فلو قال عند ذكر العذاب خالدين فيه أشكل الأمر، فلما عاد الضمير على النارلم يلزم العذاب، فإن قال قائل وكذلك لا يلزم النعيم كما لايلزم العذاب، قلنا وكذلك كنا نقول، ولكن قال الله تعالى في نعيم أهل الجنة إنه عطاء غير مجذوذ، أي عطاء غير مقطوع، وقال لامقطوعة ولا ممنوعة، لهذا قلنا بالخلود في النعيم والدار، ولم يرد مثل هذا قط في عذاب أهل النار فلهذا لم يقل به.

فإن قلت فقد قال تعالى: [خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا][305]، قلت إنما ذلك في موطن من مواطن الآخرة، والضمير على الوزر لا على العذاب، فإذا أقيم العبد في حمل الأثقال التي هي الأوزار يحملها كما قال تعالى: [وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون][306]، فهو زمان مخصوص بقوله خالدين فيه، أي

---

(304) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(305) الآية 101 سورة طه.

(306) الآية 13 سورة العنكبوت.

في حمل الأوزار من الموضع الذي يحملونه من خروجهم من قبورهم إلى أن يصلوا إلى النار فيدخلونها، فهم خالدون فيه في تلك المدة لايفتر عنهم[307] ولا يأخذه من على ظهورهم غيرهم، ومن أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه، فأعاد الضمير على الوزر وجعل ليوم القيامة هذا الحمل، ويوم القيامة مدته من خروج الناس من قبورهم إلى أن ينزلوا منازلهم من الجنة أو النار، وينقضي ذلك اليوم فينقضي بانقضائه جميع ما كان فيه، ومما كان فيه الخلود في حمل الأوزار، فلما انقضى اليوم لم يبق للمخلود ظرف يكون فيه، وانتقل الحكم إلى النار والجنان والعذاب والنعيم المختص بهما.

وما ورد في العذاب شيء /174/ يدل على الخلود فيه كما ورد في الخلود في النار، ولكن العذاب لابد منه في النار وقد غيب عنا الأجل في ذلك، وما نحن منه من جهة النصوص على يقين، إلا أن الظواهر تعطي الأجل في ذلك، ولكنها كمية مجهولة لم يرد بها نص، وأهل الكشف كلهم مع الظواهر على السواء، فهم قاطعون من حيث كشفهم فيسلم لهم إذ لا نص يعارضهم، ونبقى نحن مع قوله تعالى: [إن ربك فعال لما يريد][308] فأي شيء أراد فهو ذلك، لا يلزم أهل الايمان أكثر من ذلك إلا أن يأتي نص بالتعيين متواتر يفيد العلم، فحينئذ يقطع به المومن وإلا فلا، فسبحان المسبح بكل لسان والمدلول عليه بكل برهان، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه.

فإن قلت قد ورد في القرآن قوله تعالى: [لا يخفف عنهم العذاب][309] وقوله: [لا يخفف عنهم من عذابها][310]، وقوله: [كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب][311]، وكل ذلك قاض بتسرمد العذاب فكيف يقول بانقطاعه، قلت: مراد الشيخ رضي الله عنه بالعذاب

---

(307) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(308) الآية 107 سورة هود.

(309) الآيتان 86 و 162 من سورة البقرة والآية 88 من سورة آل عمران.

(310) الآية 36 سورة فاطر.

(311) الآية 56 سورة النساء.

المتقطع، الألم الذي يجده المعذب في نفسه عند مسيس النار، وعقاب الزبانية ولسع الحيات والعقارب له، لا مراده بالعذاب المنقطع صورة هذه الأشياء فإنه قائل بتسرمدها على الكفار كالخلود في النار، فإن قلت: لم لم يجز أن يكون المراد بالعذاب الوارد في القرآن، هو حصول الألم عند هذه الأشياء المذكورة لا هي مجردها، قلت: العذاب حيث ورد في النصوص فالمراد به صورة هذه الأشياء المذكورة المحسوسة، من مسيس النار وعقاب الزبانية ولسع الحيات والعقارب، ونحو ذلك مما جرت العادة /175/ أن الله تعالى يخلق الألم عنده، لا المراد به الألم نفسه، لأن الألم هو العذاب الذي يقول به المنكرون لحشر الأجساد القائلون بالمعاد الروحاني فقط، وهم الفلاسفة وقد كفروا بذلك، ولأن الله تعالى قال ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المومنين﴾[312]، والمشهود من الزاني والزانية عند الرجم إنما هو صورة الفعل لا الألم. أرأيت أن الأكل إسم لمجرد إيصال ما يحتمل المضغ من الطعام إلى الجوف، والشرب إسم لمجرد إيصال ما لا يحتمل المضغ من المائعات إلى الجوف، وليس الشبع والري من مسماهما بشيء، ولكن جرت عادة الله تعالى أن يخلق الشبع عند استعمال الطعام المسمى ذلك بالأكل، والري عند استعمال الماء المسمى بالشرب، وقد لا يخلق ذلك فيكون الأكل والشرب موجودين والشبع والري مفقودين.

وفي مسألتنا هذه إذا تخلف وجود الألم لا يلزم فقدان العذاب، لما عرفت أن العذاب الوارد في النصوص إسم لصورة هذه الأشياء المذكورة، مما جرت العادة أن الله تعالى يخلق الألم عندها، فليس الألم من مسماها بشيء كما ذكرنا في الشبع والري، ولاشك أيضا عند كل أحد أن إدراك العذاب غير العذاب، كما أن السماء والأرض يبقيان وإن زال عن المدرك إدراكهما فافهم .

وأما قوله تعالى: [كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب]، فليس ذوقهم للعذاب خاصا بتألمهم به دائما، بل يمكن أن يقال

---

(312) الآية 2 سورة النور.

يذوقونه أولا عند مسهم له محض ألم وجيع، ثم يتطورون في طور آخر فيذوقونه لذة وعذوبة، فيبقى العذاب أبدا ويبقى ذوقهم له أبدا ولكن تتبدل جهة الذوق فقط، فليس في هذه الآية صريح تسرمد الألم والوجع على أهل النار /176/ فتأمل والله أعلم.

وقال الشيخ رضي الله عنه في كتاب "الفتوحات المكية" أيضا في الباب التاسع والثمانين ومائتين: والشقي له جزاء بما أوعده من الشر في دار القرار، لوجود العذاب الدائم الذي لا يجري إلى أجل مسمى، من حيث الجملة حكما إلهيا عدلا كما كان النعيم في السعيد فضلا، لا يتبدل ولا ينخرم ولا ينسخ وفي هذا خلاف بين أهل الكشف. وكذلك أيضا الخلاف في أنه هل يتسرمد العذاب عليهم في النار، أو يكون لهم فيها نعيم بها كما لخزنتها، وإن لم يخرجوا منها[313] فإن الله تعالى قال لكل واحدة منهما على ملؤها، فتتنوع عليهم أسباب الألم ظاهرة وهم يجدون عنها اللذة في نفوسهم باطنا، بعد ما يأخذ العذاب الألم منهم حق العقوبة الموازي لمدة الكفر في الدنيا، فإذا فرغ الأمد جعل لهم في نعيم في النار والسلاسل، بحيث لو دخلوا الجنة تألموا لعدم موافقة المزاج الذي ركبهم الله عليه، فهم يتلذذون بالنار والزمهرير وما فيها من لذغ الحيات والعقارب، كما يتلذذ أهل الجنة بالظلال والنور ولثم الحور الحسان الذي مزاجهم يقتضي ذلك، ألا ترى أن الجعل يتضرر بريح الورد، وكذلك من خلق على مزاجه فما تم مزاج إلا وله لذة بما يناسبه، ألا ترى المجروح يتألم بريح المسك، فاللذات تابعة لملائمة (كذا) الطبيعة، فكما أن أهل الجنة يتعذبون برؤية النار، كذلك أهل النار الذين هم أهلها يتألمون برؤية الجنة، فلو دخلوها هلكوا، فهذا الأمر حق في نفسه لا ينكره عاقل، وإنما الشأن هل أهل النار على هذا المزاج بهذه المثابة، أو هم على مزاج يقتضي لهم الإحساس بالآلام والعذاب.

والنقل الصحيح /177/ الصريح، النص الذي لا إشكال فيه إذا وجد مفيد للعلم بلا شك والله على كل شيء قدير، وإن كنت لا أجهل الأمر

(313) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

في ذلك، ولكن لا يلزمني الإفصاح عنه لأن الإفصاح عنه لا يرفع الخلاف من العالم، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه.

فإن قلت: فما نتيجة العذاب حينئذ إذا لم يتألموا به، قلت: نتيجته أن ينقلب عذوبة خاصة بهم في حقهم بعد انقضاء مدة الألم، لا كالعذوبة التي يدركها أهل الجنة في نعيمهم، فكلما زاد العذاب وقوي زاد تنعمهم الخاص به كما أشار إليه الشيخ رضي الله تعالى عنه في أبيات الفصوص:

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذابا من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صائن

ومن تأمل قوله تعالى: [فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب][314] فهم المراد بطريق الإشارة القرآنية لا العبارة، فإن السور هو الحجاب الذي قال تعالى وبينهما حجاب ولم يتوقف في شيء من ذلك، لا سيما وكل إنسان يعلم من نفسه أنه إذا أصابه ألم من مرض أو مصيبة مثلا، ثم طالت مدة ذلك الألم عليه بحيث ألف ذلك الألم، فإنه لا يجد له إدراكا في نفسه بل ربما تألم لفقده مع أن مدة الدنيا قليلة، وإنما كان عذاب الآخرة ليس كأمراض الدنيا ولا كمصائبها التي تنسى بطول المدة، لأن مدة عذابها أطول فتذهب شدة العذاب في طول المدة وما ذلك على الله بعزيز.

وقال الشيخ رضي الله عنه أيضا في "الفتوحات / 178/ المكية" في الباب الرابع والتسعين ومائتين: إعلم أنه لما رأى بعض العارفين تعظيم هذه الأمور مشروعا، يعني التي أقسم الله تعالى بها من الموجودات والمعدومات بقوله: [فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون][315]، ألحق كل ما سوى الله تعالى بالسعادة التي هي في حق أصحاب الأغراض من المخلوقين، وصولهم إلى أغراضهم التي لاتخلق لهم في الحال، ولم يبق صاحب هذا النظر أحدا

(314) الآية 13 سورة الحديد.

(315) الآيتان 38 و 39 سورة الحاقة.

في العذاب الذي هو الألم، فإنه مكروه لذاته وإن عمروا الدنيا فإن لهم في ذلك نعيما ذوقيا لا يعرفه غيرهم، فإن لكل واحدة من الدارين ملؤها فأخبر الله تعالى أنه يملأها ويخلد فيها مؤبدا، ولكن ما ثم نص تسرمد العذاب الذي هو الألم، إلا الحركات السببية في وجود الألم في العادة بالمزاج الخاص الخاس بالألم، فقد يرى الضرب والقطع والحرق في الوجود ظاهرا، ولكن لا يلزم من تلك الأفعال الألم ولا بد، وقد شاهدنا هذا من نفوسنا في هذا الطريق وهذا من شرف الطريق، وفيه يقول أصحابنا ليس العجب من ورد في بستان وإنما العجب ممن يجد اللذة في غير السبب المعتاد، وهو كان مطلوب أبي يزيد رضي الله تعالى عنه في قوله:

وكل لذائذي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

ولهذا سمي عذابا لأنه يعذب في حال ما عند قوم فالمزاج يطلبه، وإذا كان الحق يأمر بتعظيم ما سواه مما يضاف إليه، وما ثم إلا مضاف إليه إما نصا أو عقلا، فيبعد أن يتسرمد عليه العذاب الذي هو الألم، وقد كان الله ولا شيء معه، ولم يرجع إليه وصف لم يكن عليه مما أوجده وخلقه، وكذلك هو يكون وإنما قلنا ذلك من أجل من يقول يبقى اسم من الأسماء الإلهية لا أثر له، قلنا وإن لم يكن له أثر /179/ فليس كما له بوجود الأثر عنه، فإن العين واحدة فافهم ذلك.

وهذه من أشكل المسائل في هذا الطريق، فالله سبحانه وتعالى يقول إن رحمته سبقت غضبه، يريد أن حكمه برحمة عباده سبقت غضبه عليهم، ولا يظهرالسبق في نفس الشأو، فإنه قد يكون الفرس واسع النفس بطيء الحركة، والآخر ضيق النفس سريع الحركة والشأو طويل، فلا يزال الواسع النفس وإن أبطأ يدخل على الضيق النفس حتى يزيد عليه ويتركه خلفه، فلا حكم بالسبق إلا في آخر الشأو، فمن حاز قصب السبق فهو السابق، ولهذا يطول في المسابقة بين الخيل في المسافة، فهو مشروع في معرض التنبيه على هذا المقام، وآخر المسافة هو الذي ينتهي إليه الحكم في السبق، والرحمة سبقت غضب الله عز وجل على خلقه، فهي تحور العالم في الدارين بكرم الله تعالى وما ذلك على الله بعزيز، وإن كان في النار فلهم فيها نعيم فإنهم

ليسوا منها بمخرجين، ويصدقه قوله تعالى ورحمته وسعت كل شيء. فقد أظهرت في هذه المسألة ما لم يكن باختياري، ولكن حق القول الإلهي باختياره فكنت فيه كالمجبور في اختياره، والله ينفع به من شاء لا إله إلا هو، انتهى كلامه رضي الله عنه.

والحاصل أن الإنصاف في هذه المسألة أن يقال: إن الشيخ رضي الله تعالى عنه لم يكن منكرا شيئا من الوعيد الوارد للكفار في الآخرة، وإنما قوله بأن الله تعالى يخلد الكفار في النار وفي العذاب والسلاسل والأغلال أبد الآبدين ودهر الداهرين؛ على طبق ما جاءت به الشريعة المطهرة، ولكن الحق الذي لا شبهة فيه أن /180/ هذه المسألة مبنية على سر عظيم لله تعالى في صدور الذين أوتوا العلم، لو ظهر لبطل كل شيء وحجاب الغيرة يمنع من ظهوره، وهو من وراء طور العقل ومن أظهر شيئا منه كان مغلوبا في إظهاره، ولا يزيده الظهور إلا خفاء وقد أدمجه الله تعالى في قوله: [وإن إلى ربك المنتهى وإنه هو أضحك وأبكى][316].

ومن فهم القرآن من الله تعالى لا من شيخ يعلمه فهم ذلك، ومن لا فلا وإن عاش عمر الدنيا، ولكن الآن نقول تقريبا للعقول، إن أهل النار في ترقيهم وسلوكهم بالعذاب يصلون إلى عين الغضب الإلهي، فإذا وقعوا فيه انتهى سيرهم وذلك قوله تعالى: [وإن إلى ربك المنتهى]، كما أن أهل الجنة يصلون في ترقيهم بالنعيم إلى عين الرضى فيقعون في الرضوان، فينتهي سيرهم وذلك قوله تعالى: [وإن إلى ربك المنتهى]. ثم إذا رد أهل النار لنفوسهم تلذذوا بالعذاب، فيصير عذوبة بالنسبة إلى عين الغضب الإلهي الواقعين فيه، لا أن العذاب نفسه ينقلب عذوبة وإنما عذوبته نسبية، وكذلك أهل الجنة إذا رجعوا إلى نفوسهم تألموا من نعيم الجنة، فيستغيثون منها حتى يردوا إلى شهود الحق لا على أن النعيم ينقلب عذابا، فتأمل هذا والله يتولى هداك.

---

(316) الآيتان 42 و 43 سورة النجم.

ونقول أيضا إن أهل الكشف إذا أشرفوا على حقيقة النشأة الأخروية وانكشفت لهم أحوال الناس فيها، ظهر لهم منها ما لم ينبه عليه الشرع صريحا من كيفية النعيم والعذاب، وحقيقة الثواب والعقاب مما لم يحتج الشرع الى بيانه، فسكتت الأنبياء عليهم السلام عن التصريح به وأجملته ولم تفصله، لأنه من علم الهداية لا من علم المجاهدة، والأنبياء عليهم السلام / 181/ إنما جاءوا إلى كافة الخلق من عند الله تعالى بعلم المجاهدة، وعلم الهداية يتولى الله تعليمه لمن يشاء من عباده.

قال تعالى: [والذين جاهدوا فينا] يعني على الكيفية التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام من عنده [لنهدينهم سبلنا][317]، أي نوصلهم إلى الإطلاع على حقائق الأشياء الدنيوية والبرزخية والأخروية، والإطلاع المذكور هو مقام الولاية لأن الله تعالى يتولى تعليمه للعبد، فكشف الشيخ رضي الله تعالى عنه حين حصل له علم الهداية من الله تعالى عن حال أهل النار، فوجد العذاب الذي هو الحركات المخصوصة من الزبانية والسلاسل والأغلال، والحيات والعقارب والتهاب النار والحميم والزقوم، كل ذلك متسرمد لا شبهة فيه على حسب ماوردت به النصوص، ولكن وجود الألم الناشئ في أجسام المعذبين بذلك العذاب ومن أرواحهم بخلق الله تعالى عند مقارنة ذلك ليس متسرمدا، بل له أمد و حد ينقطع عنده فيبقى العذاب على ما هو عليه، ولكن ينقطع ألمه عنهم بعد استيفاء الألم لمدة الكفر الواقع منهم في الدنيا، وكان تخليدهم في النار وفي عذابها المذكور أبد الآبدين ودهر الداهرين في مقابلة نيتهم في الدنيا، فإن نيتهم كانت فيها أنهم يبقون على الكفر ما عاشوا، والألم الذي يحصل لهم من ذلك العذاب في مقابلة كفرهم بالفعل، ولا شك أن كفرهم بالفعل في الدنيا له مدة متناهية، فيدركون الألم مقدار موازنته عند الله تعالى، ثم ينتقلون إلى جزائهم على كفرهم بالقوة بسبب نيتهم ذلك، فيصير العذاب في حقهم صورة عذاب في ظواهرهم، كما أن كفرهم بالقوة في الدنيا كان صورة كفر جزاء وفاقا.

---

(317) الآية 69 سورة العنكبوت.

/182/ فإن قلت: يلزم من انقطاع الألم في حقهم تعطيل اسم إلهي وهو المنتقم كما ذكر الشيخ رضي الله عنه فيما تقدم، وأسماء الله تعالى يستحيل تعطيلها، قلت: لا يلزم ذلك بل يغلب اسمه الرحمان على اسم المنتقم كما ورد من أن رحمته سبقت غضبه، فيبقى فعل المنتقم على ما كان عليه من أثره الذي هو العذاب ظاهرا، يشوبه اسم الرحمان فيغلب عليه فيزول الألم باطنا، وذلك أن اسم الرحمان مهيمن على كل اسم إلهي فكان من هذا الوجه في مرتبة الاسم الله الجامع، ولهذا قال تعالى: [قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى][318].

ولما كان جميع ما تحت العرش آثار الأسماء الإلهية، قال تعالى [الرحمان على العرش استوى][319] ولم يذكر غيره من الأسماء، وعن أبي يزيد رضي الله تعالى عنه أنه[320] لما سمع قول الله تعالى: [إن بطش ربك لشديد][321]، قال: بطشي أشد من بطشه، لأن بطشه مشوب برحمة بخلاف بطشي، وما قال ذلك إلا لعلمه بأن اسم الرحمان مهيمن على كل اسم إلهي، وأثر كل اسم إلهي مشوب بأثره، فإذا غلب في حق أهل النار على اسمه المنتقم، بحيث أعدم أثره على البواطن وأبقى أثره في الظواهر بحسب جريان العادة لا مانع من ذلك.

أرأيت بأن المريض إذا وصف له الطبيب طعاما شديد المرارة ولم يعلمه بخاصيته مثلا، فإنه يتعذب ويتألم باستعماله حتى يعلم بخاصيته ونفعه، ثم بعد علمه بذلك ربما يصير يتلذذ به ولا يجد له ألما لما يشاهده من نفعه، مع بقاء المرارة فيه على حالها بل ربما نقول مع بقاء الألم في ذلك على حاله، ولكن حصلت /183/ اللذة لغلبة حال آخر أشد من الأول، كقيراط من الصبر[322] المر إذا وضع في أوقية من العسل، فإن حلاوة العسل تغلب

(318) الآية 110 سورة الإسراء.
(319) الآية 5 سورة طه.
(320) سقطت من (أ) ووردت في (ب).
(321) الآية 12 سورة البروج.
(322) عصارة شجر مر.

بحيث لا يبقى لذكر الصبر حكم مع بقاء عينه، وكذا هذا فإنه ورد في الحديث بأن الرب يضع قدمه في جهنم فتقول قط قط، وفي رواية لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك، نقل ذلك في "الدر المنثور". وإذا تأملت قول جهنم قط قط في هذا الموضع، وقوله ينزوي بعضها إلى بعض وفهمت الإشارة بذلك من الشارع ظهر لك الحق.

و إذا كان الوارد في أهل الجنة أنهم إذا رأوا الله تعالى ينسون نعيم الجنة، مع أن نعيمها باق في ذاته لا يزول وإنما الزائل إدراكهم، فلا مانع أن في النار كذلك يزول إدراكهم لعذابها بوضع الجبار قدمه فيها، مع بقاء العذاب في ذاته وعدم زواله، وهذه المسألة تحتاج إلى بسط الكلام فيها بأكثر من ذلك، والله الهادي إلى أقوم المسالك، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه في هذه المسألة، ومن أراد استقصاء المسائل التي أجاب فيها عن الشيخ محي الدين فعليه بتأليفه "الرد المتين على منتقصي الشيخ محيي الدين" ففيه عجائب وغرائب.

وقد مدحت الشيخ المذكور بقصيدة رأيت أن نثبتها وهي هذه:

دمشق الشام حازت كل فضل   سقاه الله من قطر بهي
مباركة مقدسة تسامت   فخارا ليس أمره بالخفي
حوت دنيا ودينا ثم ذكرا   جميلا فاح بالعرق الزكي
184 / هي البستان في الدنيا تثنت   لدان غصونها من صرف سقي
إذ الأنهار تسقيها دراكا   تطوف راقلات في حلي
إذ الأطيار تنشدها ارتياحا   تناغيها بلحن أعجمي
جداولها على الحصباء تجري   تكسر جسمها بعثار جري
ونرجسها لذاك الحزن يرنوا   بلحظ من مدامعه ندي
وروح نسيمها يأتي عليل   المهب بالغذاة وبالعشي
تجاه الصالحية أرض خير   ومدفن كل حبر أو ولي
حوت أشباح أقوام كرام   من أوتاد و أبدال ندي
حوت بحرا من الأذواق طام   وبدرا ساطع النور البهي

وطودا شامخا أربى برضوى ... رسوخا قد أتى بهدى جلي
عوارفه بحار زاخرات ... ونسبة غيره مثل القري
مناقبه الكثيرة لا تناهى ... فنشر حديثه في كل حي
دواوينه من الأمداح ملئى ... لصحب أو ولي أو نبي
فلم يترك إلى غير مقالا ... وآب الكل ذو حصر وعي
فصاحته من الرحمان فيض ... فما سحبان أو غيلان مي
مجلي المشكلات إذا أتته ... مقفلة بفهم الألمعي
وعلم راجح فيما يراه ... وعزم قاطع بأشد فري
ودافع عن جناب الشيخ حقا ... وأبدى نصرة ابن العربي
/ 185 / سقاه الله أكؤسا دهاقا ... بحضرته بمشرب روي
فكم أجلى من أوهام لقوم ... وأنقذ آخرين بلج غي
نوالي الشكر للرحمان دأبا ... على قربي من القبر الزكي
هو المعروف إن ناداه عاف ... هو المعروف في الخطب الجلي
يسارع للصريخ إذا رآه ... ويكشف كربه من غير لي
أيا عبد الغني إياك أعني ... فداركني أيا عبد الغني
أيا غوث الورى من كل خطب ... تحيزت لجانبك العلي
أيا دخري أيا كنزي أجبني ... فواغوثاه ما يبين عي
فإني لا أبالي في زماني ... وإن خلفت أهلي أو ولي
إذا كان اتصال في حماكم ... بلحظ منكم وجميل رعي
ونادتني عنايتكم سريعا ... أمنت محمد من كل شي
بشرق أو بغرب أو بجوف ... وقبلته أو البحر الطمي
فعار أن يضيع و لو عقال ... على حامي الحما السامي القوي
قصدتك أن توجهني بأمن ... إلى المختار من بين قصي
ورفقتنا وكلهم أتاكم ... يؤم حماك من بلد قصي
وأوبتنا جميعا في أمان ... إلى أوطان قومي مع بني
ومنشئها ابن عثمان ينادى ... محمد مغربيا مالكي
ويسأل راغبا من كل قار ... دعاء بالمفاز الأخروي
/ 186 / بجاه المصطفى الهادي أجبنا ... وأرشدنا إلى السبيل السوي

وصـــل يـــا إلـــهـــي ثـــم ســـلـــم   عـــليه مـــن رســـول مـــصـــطـــفـــى

زيارة تربة أرسلان الدمشقي

ومن جملة من تبركنا بزيارة قبره، العارف بالله تعالى القدوة البركة إمام أهل الحقائق والإيمان، الشيخ أرسلان الدمشقي[323] رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته، كان هذا الرجل من العارفين بالله تعالى من أهل المائة السادسة، معاصرا لسيدنا القطب مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ونفع به، وكان من العلماء أهل الظاهر والباطن، وله رسالة في علم التوحيد يقول في أولها: كلك شرك خفي وما بين إلا إذا خرجت عنك، فكلما أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنت، تصدى لشرحها جماعة من المحققين منهم الشيخ البركة القدوة العارف بالله سيدي عبد الغني النابلسي، وسمى شرحه لها "خمرة الحان ورقة الألحان في شرح رسالة الشيخ أرسلان"، وقد ختم شرحه هذا لهذه الرسالة بقصيدة نونية رأيت أن نثبتها وهي:

زدت نـــورا يـــا أرســـلان   وعـــليك الـــلـــه مـــنـــان
حـــلـــة الـــتـــوحـــيـــد فـــيـــك زهـــت   ومـــن الـــتـــحـــقـــيـــق تـــيـــجـــان
يـــا أبـــا الـــعـــرفـــان أنـــت فـــتـــى   كـــم بـــدا لي مـــنـــك عـــرفـــان
قـــســـور يـــوم الـــوغـــا بـــطـــل   كـــامـــل مـــا فـــيـــه نـــقـــصـــان
بـــيـــن أهـــل الـــلـــه ذو شـــرف   وعـــلـــى الخـــيـــرات مـــعـــوان
ذوالـــكـــرامـــات الـــتـــي اشـــتـــهـــرت   ذكـــرهـــا فـــي الـــنـــاس يـــزدان
187 / مـــن رجـــال الـــلـــه همـــتـــه   كـــم بهـــا تـــرتـــج أركـــان
كـــلـــه صـــدق ومـــعـــرفـــة   كـــلـــه ديـــن وإيـــمـــان
مـــات حـــتـــى فـــي الـــضـــريـــح لـــه   بـــالـــهـــدى روح وريحـــان
وكـــأن الـــتـــراب وهـــو بـــه   دس مـــنـــه فـــيـــه قـــرآن

---

(323) أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمان الجعبري الدمشقي (ت.699 هـ/ 1300م)، أحد الزهاد الصالحين من أهل دمشق وقبره فيها معروف، له رسالة في التوحيد وكان الشيخ أرسلان نشارا ينشر الخشب ويتصدق بثلث أجرته. (كشف الظنون 1-867؛ الزركلي 1 . 288).

كان بالمنشار مكتسبا … عيشه في الله فينان
ينشر الأخشاب وهو على … من هداه فيه تكلان
لم يمل مال به لسوى … مع أن المال فتان
ثم إن الله رام بأن … يعقب الأسرار إعلان
فأراه منه بارقة … غيثها بالكشف هتان
عندما المنشار كلمه … قائلا ما فيه بهتان
ما لهذا قد خلقت فدع … عنك هذا يا أرسلان
وغدا المنشار منكسرا … حيث منه بان برهان
وهو بحر في ولايته … كم أمدت منه غدران
صاحب الوقت الذي اقتبست … من سناه الإنس والجان
غوث مثلي كم به كرب … فرجت عني وأحزان
تنقضي حاجات قاصده … سيما إن جاء لهفان
نور حق ما له أبدا … عن دمشق الشام كتمان
طالما قد كان مشتغلا … بالتقى في الله نشوان
/ 188 / وله الأسرار قد كشفت … وأزيلت عنه أكوان
وهو فرد في حقائقه … زان منه الحسن إحسان
حيث أبدى في رسالته … ما به كم حار إنسان
علم توحيد به محيت … عن قلوب القوم أوثان
خمرة في الحان صافية … أشرقت من نورها الحان
وجميع الكون من طرب … عند أهل السمع ألحان
كم بها الأرواح قد سكرت … فانثنت تختال أبدان
عقدها بالانتظام له … لفظها در ومرجان
كلما قد جئت روضتها … فاح ورد لي وريحان
أطربت سمعي من نغمتها … فاستشارت في أشجان
واللسان اليوم فاه بما … أودعته فيه آذان
فلهذا قمت أشرحها … وأنا بالنور ملآن
ثم جاء الشرح وهو بها … من غيوث الفتح ريان
روض حسن يانع سرحت … فيه بالتاريخ غزلان(324)

فاقتطف منه فقد ظهرت — مثمرات فيه أغصان
كل لفظ من عبارته — لأولي الألباب بستان
شاده عبد الغني لمن — عقله في الله ولهان
وهو بالتوحيد مشتغل — ما له عن ذاك سلوان
189 / شرب الأكوان أجمعها — وهو صادي القلب ظمئان
لا لذي كيف ولا شبهة — ربه تبر وعقيان
دينه تجسيم خالقه — وهو أعمى القلب حيران
طبعه كالصخر ليس به — رقة والقلب صوان
قائم بالنفس همته — بطنه والفرج حيوان
غافل عن ربه وإذا — قال ربي فهو كفران
حيث لا يدري الإله سوى — فوقه والفوق طغيان
تقذف المعنى عقيدته — من كلامي وهو طعان
قذف ورد يانع نضر — عندما شمته جعلان
قل له عني كلامي لم — يدره فكر وإمعان
خل عنك الغي ليس ترى — هذه الأنوار عميان
فليكف السوء عن كلمي — إن خلف اللفظ ثعبان
ليس قصدي الجاهلين وإن — مدحوا قولي وإن شانوا
وإذا شمس الضحى ظهرت — ما لها بالقول أبطان
ومن الله الثواب لنا — نرتجي والله محسان
وعليه الأجر مكتملا — رحمة منه وغفران
حيث بالتوفيق ألهمنا — علم قوم قبلنا كانوا
ثم أبقانا نفصله — بعدهم طبق الذي دانوا
190 / عن أرسلان الإله عفا — وعليه منه رضوان

---

(324) ورد في هامش ص.197 من نسخة (ب) ما نصه: " قوله غزلان هو تاريخ شرحه للرسالة "، ويوافق سنة 988هـ حسب طريقة الحساب بالحروف المعروفة لدى المغاربة ب" الحمارة الصغيرة"، انظر الناجي الأمجد، الخط المغربي والهوية المفقودة، المخطوط العربي وعلم المخطوطات، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1994، ص. 91.

جـنـة الـفـردوس بـمـأواه حـولـه حـور وولـدان
وسـقـا قـبـرا حـواه حـيـا مـن عـظـيـم الـلـطـف هـتـان
دائـم الأزمـان مـا انـعـطـفـت بـالـصـبـا فـي الـروض أغـصـان

والشيخ أرسلان الدمشقي المذكور من أهل الكمال، وقبره مشهور بدمشق مقصود عند الأزمات ونزول الملمات، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وهو أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمان بن عبد الله الجعبري الأصل الدمشقي النشار الزاهد القدوة، صحب شيخه أبا عامر المؤدب وصحب أبو عامر الشيخ ياسين.

قال الشيخ شمس الدين الجزيري: قال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل(325) الشاعر: كان الشيخ أرسلان يعمل في صنعة النشر في الخشب، وذكروا عنه أنه بقي مدة عشرين سنة يأخذ ما يحصل له من الأجرة ويقسمه ثلاثة أجزاء، ثلث لنفقته وثلث يتصدق به وثلث لكسوته ومصالحه، وكان أولا يتعبد بمسجد صغير داخل باب توما أحد أبواب مدينة دمشق، ثم انتقل إلى مسجد خالد بن الوليد -وهو مكان خيمة خالد رضي الله عنه لما حاصر دمشق- وعبد الله تعالى فيه إلى أن توفي بعد الأربعين وخمسمائة.

قال: وحكى الشيخ داوود بن يحيى الحريري وكان صدوقا قال: حكى لي جماعة أن الشيخ أرسلان لما شرع في بنيان المعبد، سير إليه الشيخ أبو البيان(326) صرة ذهب مع بعض أصحابه حتى يصرفه في المكان المذكور، فلما اجتمع به الرسول وعرض عليه الصرة قال /191/ الشيخ أرسلان: أما

---

(325) أبو المعالي نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر الشيباني الدمشقي(603-677هـ/ 1206-1278م)، شاعر متصوف ولد بدمشق، انتسب إلى طائفة الحريرية الرفاعية التي كانت محط انتقاد وهجوم السلفيين السنة. جال ابن إسرائيل على طريقة المتصوفة الزهاد الفقراء وألف ديوانا زاخرا بتجاربه الصوفية ومتعه الدنيوية كذلك، بحيث عاشر علية القوم ومدحهم.(E.. I.. 3 -835)

(326) نبا بن محمد بن محفوظ القرشي المعروف بابن الحوراني الشيخ أبو البيان (ت.551هـ / 1156) شيخ الطائفة البيانية الصوفية بدمشق، كان عالما عاملا إماما في اللغة، شافعي المذهب سلفي العقيدة له تآليف وشعر كثير، وكان هو والشيخ أرسلان شيخي دمشق في عصرهما. (الزركلي 8 - 6).

يستحيي شيخك يرسل لي هذا وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهبا وفضة، وأشار بيده فرأى الرسول الطين ذهبا وفضة فبقي الرجل في خدمته وانقطع عنده، وكان بدار الأستاذ طبقة صغيرة وإلى جانب الطبقة دكان حياكة، وفي هذا المكان كان ينشر وهناك كلمه المنشار مرتين، وفي الثالثة تقطع ثلاث قطع وقال: يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فترك العمل وجلس في هذا المعبد.

ويذكر أن الشيخ أرسلان أعطى الملك نور الدين الشهيد(327) قطعة من المنشار فكانت عنده، ولما احتضر نور الدين الشهيد المذكور أوصى أن تجعل تلك القطعة في كفنه. ومن كراماته ما روي عن أبي الخير الحمصي قال: ورد على الشيخ أرسلان خمسة عشر رجلا فأخرج لهم خمسة أرغفة لم يكن عنده غيرها، فقال: كلوا بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وأنت خير الرازقين، فأكلوا حتى شبعوا وفضل خلفهم فضلة حسنة، فقسمها عليهم بالسوية وكل منهم كان شديد الجوع، ثم سافروا طالبين بغداد فأخبروا أنهم ما زالوا يأكلون ذلك حتى دخلوا بغداد ومع كل واحد بقية.

وحكى الشرف الحصري أن نور الدين الشهيد بعث إلى الشيخ أرسلان ألف دينار مع مملوكه وقال: إن أخذها فأنت حر لوجه الله، فجاء إليه بها وهو يبني معبده المشار إليه، فقال: ما يستحيي محمود يبعث هذا وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهبا وفضة، فرأى المملوك الحيطان ذهبا وفضة فتحير وقال: يا سيدي قد علق عتقي على قبولك هذا الذهب، فأخذه وصرفه في الحال على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام. /192/ وحدث الشيخ محمود الكردي الشيباني قال: رأيت الشيخ أرسلان مرة بعرفات والمشاعر، فلما قدمت الشام سألت عن الشيخ فقالوا: ما غاب

---

(327) أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي الملقب الملك العادل نور الدين(511-569هـ/)، من ملوك بني أيوب في الشام ملك دمشق (549هـ) وحماة وبعلبك، وافتتح عدة حصون من بلاد الروم كما سير الأمير أسد الدين شيركوه الى مصر ثلاث مرات قبل أن يملكها السلطان صلاح الدين نيابة عنه.كان ملكا عادلا زاهدا مجاهدا بنى المدارس بجميع مدن بلاد الشام، توفي بقلعة دمشق ودفن بمدرسته بها.

عنا، ورأيته جالسا مستغرقا والأسد يتمرغ على قدميه.

ومن كلامه قدس الله سره قوله: لو أحتجب عني طرفة عين تقطعت من ألم البين، الحس مفتاح كل شر والغضب يقيمك على أقدام الذل، والإعتذار مكارم الأخلاق والعفو عند القدرة والتواضع في الدولة والعطية بغير منة، وإذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا لقدرتك، الكريم من احتمل الأذا (كذا) ولم يشك عند البلوى، ومن نظمه رضي الله عنه:

يا من علا فرأى ما في الغيوب وما ... تحت الثرا وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه ... أنت الدليل لمن حارت به الحيل
إنا قصدناك والآمال واثقة ... والكل يدعوك ملهوفا ومبتهل
فإن عفوت فذو من وذو كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

ومناقبه وفضائله أكثر من أن تحصى، وله مع أهل دمشق وغيرهم من الكرامات والمكاشفات حيا وميتا ما لا يحصى كثرة، وهو المشهور بخفير الشام وهو أمر محق عند الخاص والعام، وقد نوه بذكره و عد مناقبه وكراماته غير واحد من المؤرخين، كابن قاضي شهبة الأسدي[328] والشيخ محمد البصري[329] والشيخ محمد[330] الحوراني في زيارات دمشق، وذكره في طبقات الأولياء كل من الشيخ عبد الوهاب الشعراني والشيخ عبد الرءوف / 193/ المناوي وغيرهم، قدس الله تعالى سره ونفعنا به وببركاته دنيا وأخرى.

---

(328) أبو بكر تقي الدين أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي (779-851هـ/ 1377-1447م)، فقيه الشام في عصره ومؤرخها وعالمها، من أهل دمشق، اشتهر بابن قاضي شهبة لأن أبا جده (نجم الدين عمر الأسدي) أقام قاضيا بشهبة من قرى حوران- أربعين سنة. من تصانيفه "الإعلام بتاريخ الإسلام " و " مناقب الإمام الشافعي" و " مدارس دمشق وحماماتها "، توفي في دمشق. (كشف الظنون 127و1101؛ شذرات الذهب 7-269؛الزركلي 1-61؛ دائرة المعارف 1-260).

(329) محمد بن علي بن الطيب أبو الحسين البصري (ت.436هـ/ 1044م)، أحد أئمة المعتزلة الأعلام ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفي بها، كان جيد الكلام مليح العبارة غزير المادة إمام وقته، له التصانيف الفائقة في أصول الفقه منها " المعتمد " و "غرر الأدلة " و " شرح الأصول الخمسة". (ابن خلكان 3-271؛ الزركلي 6-275).

(330) الصحيح عثمان، أنظر تعريفه أعلاه، ص. 109

ثم توجهنا إلى زيارة قبر بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضريحه في جبانة باب الصغير خارج دمشق مشهور، وهو كما ذكره النووي في التهذيب أبو عبد الله ويقال أبو عبد الكريم ويقال أبو عبد الرحمان ويقال أبو عمرو بلال بن رباح الحبشي القرشي التميمي، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أمه حمامة مولاة لبني جمح وكان قديم الإسلام والهجرة، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ممن تعذب في الله فصبر على العذاب وكان أمية بن خلف يعذبه ويتابع عليه العذاب، (فقدر الله تعالى أن بلالا قتله ببدر، وكان بلال ممن أسلم أول النبوءة ومن أول من أظهر إسلامه وكانوا يطوفون به ويعذبونه)[331]، وكان من مولدي مكة وقيل من مولدي السراة، اشتراه بخمس أواقي وقيل بسبع أواقي وقيل بتسع وأعتقه لله عز وجل، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وكان بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته سفرا وحضرا، وهو أول من أذن في الإسلام، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الشام للجهاد فأقام بها إلى أن مات.

وقيل إنه أذن لأبي بكر رضي الله عنه مدته وأذن لعمر رضي الله عنه مرة حين قدم إلى الشام، فلم ير باك أكثر من ذلك اليوم، وأذن في قدمة قدمها إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، طلب منه ذلك الصحابة فأذن ولم يتم الأذان، وكان عمر رضي الله عنه يقول أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. وثبت في صحيح البخاري /194/ ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال: دخلت الجنة فسمعت خشف نعليك بين يدي، وفي صحيح البخاري ومسلم[332] عن قيس بن أبي حازم قال: قال بلال لأبي بكر: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فامسكني، وإن كنت

---

(331) سقطت هذه الجمل من (أ) وإن وضعت علامة محل سقوطها ووردت في (ب).

(332) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

إنما اشتريتني لله عز وجل فدعني وعمل الله.

وفضائله مشهورة توفي بدمشق سنة عشرين وقيل إحدى وعشرين وقيل ثماني عشرة وهو ابن أربع وستين سنة، وقيل كان قرن[333] أبي بكر رضي الله عنه وقيل توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل ابن سبعين[334] ودفن بباب الصغير من دمشق وقيل بباب كيسان منها وقيل بحلب. وقال السمعاني في "الأنساب" في ترجمة بلال المؤذن إنه دفن بالمدينة وهو غلط، والصحيح الذي عليه الجمهور أنه باب الصغير، قالوا كان آدم شديد الأدمة نحيفا طوالا خفيف العارضين، انتهى محل الحاجة منه.

زيارة قبور الصحابة والخلفاء وزوجات الرسول

وزرنا معه في قبته ضريح محمد بن عقيل بن أبي طالب[335] رضي الله عنه، وبالجبانة المذكورة السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما زوجة الزبير رضي الله عنه، وبها أيضا السيد الجليل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[336] وقد تقدم أن تربته في ظاهر حمص فجمعنا بينهما ولله الحمد، والسيدة سكينة بنت الحسين[337] والسيدة زينب بنت علي بن أبي

---

(333) الصحيح قرين.

(334) بياض في الأصل بالنسختين.

(335) هو الأخ الأكبر للإمام علي بن أبي طالب ومن الضالعين في تاريخ وأنساب قريش، اعتنق الإسلام بعد أن حارب المسلمين في بدر حيث أسر، وتورد المصادر معلومات متناقضة حول دوره في الوقائع الكبرى مثل فتح مكة وغزوة خيبر و مؤتة. وخلال اندلاع الصراع بين أخيه ومعاوية انضم عقيل إلى معسكر الأمويين، وتعزو المصادر هذا الموقف إلى رفض الخليفة علي بن أبي طالب أخذ مبلغ من بيت المال لتسديد دين على عقيل، والراجح أن هناك أسبابا سياسية تفسر الخلاف بينهما. خلف عقيل أبناء كثيرين انضموا إلى ثورة الحسين على يزيد بن معاوية واستشهد أكثرهم في كربلاء، توفي ودفن بالمدينة(E., I., I - 348).

(336) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب (1-80هـ/622-700م)، صحابي ولد بالحبشة وهو أول من ولد بها من المسلمين، أتى البصرة والكوفة والشام وكان كريما حتى سمي "بحر الجود" كما كان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفين.مات بالمدينة. (الزركلي 4-76؛ تهذيب ابن عساكر 7-325).

طالب بنت الحنفية[338]، والسيدة فاطمة بنت الحسين[339]، والسيد عبد الله بن زين العابدين، وزوجة النبي صلى الله عليه وسلم المطهرة أم حبيبة[340] والزوجة المطهرة أم سلمة بنت أبي أمية[341] والزوجة المطهرة ميمونة.

وزرنا ضريح خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين / 195/ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه والنسب مشهور فلا نطيل به. قال النووي في " تهذيب الأسماء واللغات" : بقي معاوية في دمشق أميرا عشرين سنة وخليفة عشرين سنة، وقال الحافظ بن طولون[342] في كتابه "بهجة الأنام" : في الحائط القبلي من جامع دمشق قبر معاوية وهو الذي تسميه العامة قبر هود

---

(337) سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت.117هـ/ 735م)، نبيلة شاعرة كريمة من أجمل النساء وأطيبهن نفسا، كانت سيدة نساء عصرها تجالس الأجلة من قريش وتجمع إليها الشعراء من وراء الخمار فتسمع لهم وتناقشهم وتجيزهم، تزوجت من مصعب بن الزبير ومن عبد الله بن عثمان بن عبد الله ومن زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان.كانت إقامتها ووفاتها بالمدينة. (الزركلي 3-106؛ ابن خلكان 2-394؛ ابن سعد 8-346).

(338) زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب (ت.62هـ/ 682م) شقيقة الحسن والحسين، تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فولدت له بنتا ثم تزوجها الحجاج الثقفي، حضرت زينب مع أخيها الحسين وقعة كربلاء وكانت من بين السبايا إلى دمشق.(الإصابة 4 - 314؛ ابن سعد 8-340؛ الزركلي 3/ 66-67).

(339) فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (40-110هـ/ 660-727م)، تابعية من راويات الحديث، لما قتل أبوها حملت إلى الشام مع أختها سكينة وعمتها، ولما عادت إلى المدينة تزوجها ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي، ثم تزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فمات بدوره، فأبت الزواج بعده إلى أن توفيت.(ابن سعد 8-345؛ الزركلي 5-130).

(340) أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية (25ق.هـ-44 هـ/ 596-664 م)، صحابية من أزواج النبي وهي أخت معاوية، كانت من فصيحات قريش ومن ذوات الرأي والحصافة تزوجها الرسول بعد أن مات عنها زوجها الذي ارتد عن الإسلام وهما مهاجرين في الحبشة سنة 7هـ. لها 65 حديثا. (ابن سعد 8 76؛ الإصابة 4 - 423؛ الزركلي 3-33).

(341) أم سلمة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، من أزواج النبي تزوجها سنة 4 هـ، وقد ورد خطأ في النسختين أنها بنت "أبي سفيان". (الإصابة 4 - 407).

(342) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي (880-953هـ/ 1475-1546م)، مؤرخ وعالم بالتراجم والفقه من أهل الصالحية بدمشق، قال الغزي: "كانت أوقاته مليئة كلها بالعلم والعبادة وله مشاركة في سائر العلوم"، ألف كتبا كثيرة منها " الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية" و " القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ". (الزركلي 6-291).

عليه السلام، انتهى. وهو الآن معروف خلف مزار رأس نبي الله يحيى بن زكرياء عليه الصلاة والسلام، وهذا قول غريب والمعروف أنه بباب الصغير، ويقال إنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يكفن في قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يجعل على جسده، وكان عنده ثلاث أظفار النبي صلى الله عليه وسلم، فأوصى أن تسحق وتجعل في عينيه وفمه وقال: افعلوا ذلك وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين انتهى.

وزرنا قبر أبي الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي(343) ومعه زوجته أم الدرداء، ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه وتوفي بدمشق في خلافة عثمان أيضا سنة إحدى وقيل اثنتين وثلاثين من الهجرة، قال النووي: وقبره في باب الصغير بجنب قبر معاوية رضي الله عنهما، قال وكان له امرأتان كل واحدة يقال لها أم الدرداء صحابية وتابعية، تزوج التابعية بعد الصحابية انتهى. وفي قلعة دمشق قبر يقال إنه قبر أبي الدرداء رضي الله عنه فجمعنا بين الزيارتين ولله الحمد، وزرنا قبرا هنالك يزعمون أنه قبر كعب الأحبار رضي الله عنه، فانظره مع ما تقدم وجملة من الصحابة حواليه لم تعرف أسماؤهم.

وهناك(344) ضريح السيد عمر بن عبد العزيز فانظره مع ما تقدم، ومنهم السيد أويس بن أويس الثقفي الصحابي سكن الشام ومات بها في خلافة عثمان رضي الله عنه، /196/ ودفن بباب الصغير، وقال النووي في " تهذيب الأسماء واللغات ": بل بزقاق القلي قال أبو إسحاق إبراهيم الناجي وزقاق القلي بنيت المدرسة الصابونية مكانه.

وبهذه الجبانة التي بباب الصغير جماعة من الصحابة ذكر العلماء أنهم

---

(343) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس بن أمية بن مالك بن عدي الخزرجي الأنصاري، من شباب صحابة النبي اعتنق الإسلام متأخرا بعد معركة بدر وآخاه النبي مع سلمان الفارسي. تصفه المعاجم بالزاهد ومن أهل العلم وحكيم جماعة المسلمين الأولى إلا أن شهرته تعود لكونه من أكبر العلماء بالقرآن، كان في عهد عثمان إماما وقاضيا في دمشق حيث درس القرآن في مسجدها وبها توفي سنة 32هـ/ 652م. (دائرة المعارف 1-339؛ E.I.,1-117)

(344) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

دفنوا في باب الصغير ولم تتعين أماكنهم، وفيها من التابعين والعلماء العاملين والأولياء والصالحين ما لا يحصى، فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى. ثم زرنا خارج باب تومة قبر ضرار بن الأزور الأسدي[345] شهد فتح دمشق ومات بها، قال ابن الحوراني (في كتاب الزيارات)[346] وقبر ضرار بن الأزور الأسدي بظاهر دمشق خارج الباب الشرقي على جانب الطريق، وضريحه عليه أنس ومهابة وجلالة وقبره ظاهر يزار ويتبرك به في محلة الجذما انتهى، فتبركنا بزيارته والتمتع بمشاهدة تربته وقرأنا الفاتحة ودعونا الله بما نرجو قبوله، ثم عمدنا إلى زيارة قبر أبي بن كعب[347] الصحابي رضي الله عنه على ما يقال إنه مدفون هنالك خارج باب توما بالقرب من مقبرة الشيخ أرسلان، ومما اشتهر عند أهل دمشق الشام أن كل ميت من اليهود والنصارى إذا مروا به على مزارته ينقلب إلى الأرض، ولأجل هذا لا يمرون بموتاهم على مزارته، ولكن إذا وصلوا إلى قرب مزاره ذهبوا من الطريق الآخر المحاذي لسور البلد. فدخلنا إلى ضريحه وقرأنا عليه ما تيسر من القرآن ودعونا الله تعالى بما نرجو قبوله.

وذكر النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أن أبي بن كعب توفي بالمدينة ودفن بها، قيل سنة ثلاثين من الهجرة في خلافة عثمان، قال أبو نعيم الأصبهاني: وهذا هو الصحيح، /197/ وقال ابن عبد البر: والأكثر أنه مات في خلافة عمر. وهو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن

---

(345) ضرار بن مالك الأزور بن أوس بن خزيمة الأسدي (ت.11هـ/633م)، أحد أبطال الجاهلية والإسلام وهو قاتل مالك بن نويرة بأمر من خالد بن الوليد. قاتل يوم اليمامة أشد قتال حتى قطعت ساقاه ومات بعد أيام في اليمامة وقيل في غيرها. (ابن عساكر 7-30؛ الزركلي 3-215).

(346) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(347) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد (ت21هـ/642م)، صحابي أنصاري كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود مطلعا على الكتب القديمة، ولما أسلم كان من كتاب الوحي وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع الرسول وكان يفتي على عهده. شهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه، توفي بالمدينة. (ابن سعد 3 القسم الثاني ص. 59؛ الزركلي 2-82).

معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمر بن الخزرج الأكبر الأنصاري، قال محمد بن سعيد عن الواقدي(348): أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة أبي بن كعب، وهو أول من كتب في آخر الكتب وكتب فلان بن فلان. ومناقبه كثيرة فمنها ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على أبي بن كعب سورة [لم يكن الذين كفروا]، وقال أمرني الله عز وجل أن أقرأها عليك، وهي منقبة عظيمة لأبي لم يشاركه فيها أحد من الناس، وفي الترمذي وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أقرأ أمتي أبي بن كعب"، وترجمة هذا السيد الجليل كبيرة ومناقبه أثيرة.

ومررنا بقبر قالوا إنه قبر حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي ذكره النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أن حسان بن ثابت توفي بالمدينة. قال أبو نعيم وجماعة من الأئمة: عاش حسان ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، و توفي سنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرين سنة، وشاركه في هذا حكيم بن حزام فعاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام وتوفي سنة أربع وخمسين، ولا يعرف لهما ثالث في هذا، والمراد بالإسلام حين انتشر وذاع في الناس وذلك قبل الهجرة بنحو ست سنين.

ثم توجهنا إلى زيارة صهيب الرومي(349) الصحابي نفعنا الله به، وقبره في الميدان من محروسة دمشق، قال المناوي في "طبقاته": صهيب بن سنان

---

(348) أبو عبد الله محمد بن عمر واقد الواقدي (130-207هـ/)، كان إماما عالما له تصانيف في المغازي وغيرها، تولى القضاء ببغداد بأمر من المأمون الذي كان يكرمه ويبالغ في رعايته، توفي ببغداد. (ابن خلكان 4-348؛ ابن سعد 7-334).

(349) صهيب بن سنان بن مالك (32ق.هـ-38هـ/ 592-659م)، صحابي من أرمى العرب سهما وأشدهم بأسا و أحد السابقين إلى الإسلام، كان أبوه من أشراف بني النمر ولاه كسرى على الإبلة (البصرة) وكانت منازله في أرض الموصل التي أغار عليها الروم وسبوا صهيبا وهو صغير، فنشأ بينهم إلى أن اشتراه رجل من بني كلب وقدم به إلى مكة حيث أعتق وظل يعرف بالرومي، واشتغل بالتجارة إلى أن جاء الإسلام فأسلم وهاجر وشهد المشاهد كلها، توفي بالمدينة، له 307 حديثا. (ابن سعد 3-161؛ ابن عساكر 6-447؛ الزركلي 3-210).

الرومي السابق /198/ المهاجر المطعم المتاجر، أسرع الإجابة لله وللرسول وصار بربه يجول ويصول، وهو من السابقين الأولين المعذبين في الله، كناه المصطفى بأبي يحيى، ولم يشهد مشهدا إلا وكان حاضرا ولا غزا غزوة إلا وكان عن يمينه وشماله، مات سنة سبع أو ثمان وثلاثين رضي الله عنه.

ثم ذهبنا إلى مقبرة مرج الدحداح فقرأنا الفاتحة لمن بها من المشايخ والعلماء والصلحاء، وفي هذه المقبرة قبر أبي الدحداح الصحابي ولكنه غير معروف على التعيين وإليه تنسب المقبرة، ويقال إن هناك قبر عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وقد عمرت عليه عمارة مشهور ذلك عند أهل الشام. والصحيح ما ذكره (الترمذي في "سننه" في أبواب الجنائز حيث قال: حدثنا الحسين بن حريث حدثنا عيسى بن يونس[350] عن ابن جريج[351] عن عبد الله)[352] بن أبي مليكة[353] قال: توفي عبد الرحمان بن أبي بكر بالحبشي، قال: فحمل إلى مكة فدفن. فلما قدمت عائشة رضي الله عنها أتت قبر عبد الرحمان بن أبي بكر قالت متمثلة بأبيات متمم بن نويرة[354] في أخيه مالك:

---

(350) عيسى بن يونس بن عمرو السبيعي الهمذاني (ت.187هـ / 803م)، محدث ثقة كثير الغزو للروم ومن بيت علم وحديث كان يغزو عاما ويحج عاما، ولد بالكوفة وسكن الحدث (قرب بيروت) مرابطا وبها توفي. (تذكرة الحفاظ 1-257؛ الزركلي 5-111).

(351) أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (80-150هـ / 699-767م)، فقيه الحرم المكي وإمام أهل الحجاز في عصره يقال إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، رومي الأصل من موالي قريش مكي الولادة والوفاة. (ابن خلكان 3-163؛ تاريخ بغداد 10-400؛ الزركلي 4-160).

(352) سقطت هذه الجملة من (أ) ووردت في (ب).

(353) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ت.117هـ/ 735م): قاض من رجال الحديث الثقاة ولاه ابن الزبير قضاء الطائف. (تهذيب التهذيب 5-306؛ الزركلي 4-102).

(354) أبو نهشل متمم بن نويرة اليربوعي، شاعر مشهور بمراثيه المؤثرة في أخيه مالك بن نويرة وصورة قتله خلال حروب الردة على يد خالد بن الوليد، وقد أحدث ذلك ضجة في حينه بالمدينة بسبب إقدام خالد بن الوليد على الزواج من امرأة ابن نويرة، وساهم شعر متمم في زيادة تأثر الناس إلى حد يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لمتمم: "لو كنت أقول الشعر كما تقول لرثيت أخي كما رثيت أخاك". (ابن خلكان 5-15).

وكنا كندماني جديمة حقبة | من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا | أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا | لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ثم قالت والله لو حضرتك ما دفنتك إلا حيث مت ولو شهدتك ما زرتك.

والحبشي بضم الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وكسر الشين المعجمة والتشديد موضع قريب من مكة، وقال الجوهري هو جبل بأسفل مكة، كذا في "نهاية" ابن الأثير. وقال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" في ترجمة / 199/ عبد الرحمان بن أبي بكر: توفي بالحبشي، جبل بينه وبين مكة ستة أميال وقيل نحو عشرة، ثم حمل على رقاب الرجال إلى مكة سنة ثلاث وخمسين، وقيل خمس وخمسين وقيل ست والصحيح الأول، وكانت وفاته فجأة.

ولما أبى البيعة ليزيد بن معاوية بعثوا إليه بمائة ألف درهم ليستعطفوه فردها وقال: لا أبيع ديني بدنياي رضي الله عنه، أمه أم رومان بضم الراء على المشهور وحكى ابن عبد البر ضمها وفتحها. سكن عبد الرحمان المدينة وتوفي بمكة، قال: ولا يعرف أربعة ذكور مسلمين متوالدين بعضهم من بعض أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو قحافة وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمان وابنه محمد بن عبد الرحمان، انتهى كلام النووي باختصار. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه "الإصابة في أخبار الصحابة" في ترجمة عبد الرحمان بن أبي بكر: وكان موته فجأة في نومة نامها بمكان على عشرة أميال من مكة فحمل إلى مكة فدفن بها، ولما بلغ عائشة خبره خرجت حاجة فوقفت على قبره، فبكت وأنشدت أبيات متمم بن نويرة المتقدمة ثم قالت: لو حضرتك لدفنتك حيث مت ولما بكيتك، انتهى.

قال سيدي عبد الغني بن النابلسي الدمشقي في "زياراته": قلت: ولعل هذا المدفون بدمشق الشام هو عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر لا عبد الرحمان بن أبي بكر، وقد أخبرني بعض الأصحاب أنه وجد مكتوبا على

قبره عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر، وهذا السيد عبد الغني حجة وعمدة ومن العلماء العارفين ومن أهل البلد وصاحب البيت أدرى بما فيه.

ثم عدنا مرة ثانية /200/ إلى الصالحية لزيارة مقام الأربعين الأبدال فإنه في جبل قاسون صعب المرتقى، فلما وصلنا إلى الجبل وهو فوق مقبرة الصالحية، ترجلنا عن الخيل وصعدنا على أرجلنا في مسالك متعبة وطرق متشعبة مصنوعة بالمكاتل والمعاويل والآلات، محفورة في الحجارة يصعد في بعض الأماكن منها بالمدارج. وهذا المقام هو بيت مستطيل فيه أربعون محرابا، وبوسط المحارب محراب يقال إنه محراب الخضر عليه السلام يقال إن الأبدال الأربعين مجتمعون هنالك، وهذا بخبر بعض الصالحين من أهل الكشف وآثار ذلك ظاهرة، فقد أخبرنا بالتواتر عن أهل البلد أنهم يرون بالليل القناديل تمر بناحية مقام الأربعين، ومعلوم أن الجبل ليس به أحد. ولا شك أن الأبدال الأربعين بالشام كما تقدم الكلام على ذلك.

وتحت هذا المقام شبه الكهف يقال له مغارة الدم، ويقولون بهذه المغارة قتل قابيل هابيل ابني آدم، وعن يسار مستقبل هذا المقام شق في الجبل يقولون أصحاب الكهف كانوا هناك، والذي ذكره المفسرون أنهم في طرسوس بلدة صغيرة على ساحل البحر قريبة من حمص، فتبركنا بتلك المزارات وصلينا هنالك ركعتين ودعونا الله بما نرجو قبوله.

وفي أسفل هذا الجبل فوق المقبرة قبر نبي الله ذي الكفل فزرنا تربته المباركة ولله الحمد، وممن زرنا قبره الصحابية الجليلة المجاهدة المشهورة بالإقدام والبأس والشجاعة خولة بنت الأزور[355] أخت ضرار بن الأزور، وقبرها خارج باب تومة في الطريق التي تمر إلى ضريح الشيخ أرسلان، فقرأنا هنالك الفاتحة ودعونا الله تعالى وبضريحها أنس نفعنا /201/ الله بها.

---

(355) خولة بنت الأزور الأسدي (ت.نحو 35هـ/نحو 655م)، شاعرة من أشجع نساء عصرها تشبه بخالد بن الوليد في حملاتها وهي أخت ضرار بن الأزور، لها أخبار كثيرة في فتوح الشام وفي شعرها جزالة وفخر، توفيت في أواخر عهد عثمان. (الدر المنثور 184؛ الزركلي 2-325).

ثم ذهبنا إلى مسجد الأقصاب فزرنا قبور السادات الشهداء، وقد دفنت فيه أقصاب سوق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، ويقال إن الدعاء عندهم مستجاب ذكر ذلك غير واحد ويسمى الآن مسجد السادات. ثم زرنا مشهد الحسين ويسمى مسجد الرأس وهو معروف الآن بدمشق داخل باب الفراديس، وهو مسجد عليه جلالة ومهابة، يقصد للزيارة والدعاء والتبرك والتماس الحوائج وهو في غاية القبول، كذا ذكره الحوراني في "الزيارات". وهو تحت طاق في جدار المحراب عن يمين المستقبل، ويحكى أن أسفل ذلك المسجد دهليز كبير معمور بالصحابة والمجاهدين دفنوا هنالك جملة واحدة، ومن أجل ذلك سمي الباب باب الكراديس والله أعلم واليوم يقولون له باب الفراديس.

وفي مصر أيضا كما هو مشهور مشهد يسمى مشهد الحسين، قال الشيخ عبد الغني بن النابلسي: ولعل هذه الأماكن وضعوا فيها رأس الحسين حين جاءوا به من بلاد العراق من كربلاء ولا يدرى رأسه في أي مكان دفن، وذكر النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أن الحسين رضي الله تعالى عنه قتل يوم الجمعة وقيل يوم السبت يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين بكربلاء من أرض العراق وقبره مشهور يزار ويتبرك به انتهى.

نور الدين الشهيد محمود الملك العادل(356)

وممن زرناه وتبركنا به نور الدين الشهيد، ولا بأس أن نذكر ترجمته تبركا به ونذكر بعض مناقبه وما خصه الله به فنقول: ومن كتاب "إيقاظ الغافل بسيرة الملك العادل" تأليف أبي الوفا المقدسي الشافعي / 202/ الحسيني رحمه الله تعالى ما نصه: فهذه ترجمة نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى لخصتها من أصول معتمدة، فأقول وبالله العصمة من الزلل: هو نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن نسيم الدولة بن اقسنغر التركي السلجوقي مولاهم، ولد بحلب يوم الأحد عند طلوع

(356) ورد هذا العنوان في هامش الصفحة 211 من (ب).

الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ونشأ على الخير وقراءة القرآن وقلة المخالطة، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده ويتوسم فيه النجابة، كان معتدلا أسمر واسع الجبهة جميلا لحيته شعرات في حنكه، مات أبوه سنة إحدى وأربعين وخمسمائة فتوجه إلى حلب بإشارة أسد الدين شيركوه(357) لأن من ملك حلب ملك الشام.

قال ابن عساكر: فتح نور الدين نيفا وخمسين حصنا، وقال ابن الجوزي(358) استرجع من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة وكانت نيته فتح القدس فاخترمته المنية، وخطب بالحرمين الشريفين وأظهر السنة وأباد الرفض وأبدل بدعتهم في الآذان "حي على خير العمل"، وعدل وبنى المدارس والجوامع وأصلح طرق دمشق ووسع أسواقها، وأسقط المكوس من مملكته وعاقب على الخمر والفواحش، وكان وافر الشجاعة متعرضا في حرب الكفار للشهادة، يتمنى أن يحشر من بطون السباع وحواصل الطير، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين وبنى المكاتب لليتامى وبنى المارستان بدمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب الأقاطيع ليكفوا عن الحاج، وأمر بإكمال سور المدينة وأجرى إليها العين التي تأخذ عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والجسور والخانات /203/ والقناطر، وجدد كثيرا من قنى السبيل بدمشق وغيرها، ووقف كتبا كثيرة في مدارسه وله أوقاف ذارة على جميع أبواب الخير.

---

(357) أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين (ت.564هـ/)، عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، ساهم في الحروب الصليبية إلى جانب أمراء أسرته وتولى وزارة مصر سنة 564هـ لكنه توفي في نفس السنة ودفن بالقاهرة، ثم نقل جثمانه إلى المدينة وتولى مكانه صلاح الدين. (ابن خلكان 2-479؛ ابن عساكر 6-358).

(358) * الحوراني * في (ب)، ابن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قيزغلو الملقب بالسبط (581أو 582-654هـ/1185أو 1186-1256م)، واعظ ومؤرخ شهير حفيد ابن الجوزي البغدادي، استقر بدمشق حيث خدم السلاطين الأيوبيين. ألف كتابا ضخما في التاريخ العام سماه " مرآة الزمان" الذي شكل مرجعا لكثير من مؤرخي الشام الذين جاءوا بعده كابن كثير والذهبي(E., I., 3 - 775) .

كان حسن الخط كثير المطالعة للعلوم ملازما للجماعة في الصلاة، عاكفا على القرآن وفعل الخير دينا لم يسمع منه فحش ولا في غضبه، يحب النصح في الدين وفي بعهده، لايستغاب ولا يفحش في مجلسه عفيف عما في أيدي الناس. قال ابن الأثير: طالعت تواريخ الملوك قبله فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة منه، قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وانعام يسديه، قال ابن الأثير: وهو الذي جدد للملوك سنة العدل والإنصاف وترك المحرمات بعد ما فسد الحال انتهى.

لم يترك في بلد مكسا ولا ضريبة، وكان ملكه في الشام ومصر والجزيرة والموصل وأعمالها وغير ذلك، والقوي والضعيف والقريب والغريب عنده في الحق سواء، يتولى كشف الحال بينهما بنفسه ولا يتعدى حكم الشرع. حكى أنه دخل الخزانة فرأى مالا كثيرا قد تجدد فسأل عنه، فقيل هو من فائض مال الأوقاف، فأمر برده إلى الشهرزوري وهو كان القاضي حينئذ ليرده على الأوقاف، فأعاده الشهرزوري إلى الخزانة فغضب نور الدين وقال: ردوه إلى القاضي وقولوا له أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاطبة عليه بين يدي الله تعالى.

قال ابن الأثير: وكان يورث أولاد جنده الأقاطيع ليقوي عزمهم على القتال /204/ ولا يقولوا نموت فتضيع أولادنا، وكان يتولى أمور الجند ومصالحهم بنفسه ويتفقد عددهم وخيلهم، ومع ذلك كان شديد الهيبة والوقار، وكان يلزم الصغير والكبير منهم بوظائف الخدمة، ولا يجلس عنده أمير من غير أمره له بالجلوس، حتى أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية وغيرهما إلا نجم الدين أيوب[359] وإلا صلاح الدين

---

(359) أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين (ت.568 هـ/)، والد السلطان صلاح الدين، كان في أول أمره متسلما قلعة تكريت هو وأخوه أسد الدين شيركوه ثم اتصل بخدمة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، ولما وزر ابنه صلاح الدين للعاضد صاحب مصر توجه إليه والده نجم الدين سنة 565هـ وبقي عنده حتى استقل صلاح الدين بملك الديار المصرية، وخلال حملة لصلاح الدين على الكرك حدث أن سقط والده من

يوسف[360]، وكان يقوم للصوفي وللفقيه ويتلقاه ويجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الجزيل ويقول هذا من بعض حقهم في بيت المال ولهم المنة علينا إذا رضوا.

وكان مجلسه كله في ذكر العلم وأحوال الصالحين والمشاورة في الجهاد، والمنقبة العظيمة التي خصه الله تعالى بها التي حاز بها الفضل والخصوصية في الدنيا والآخرة، ما ذكره جمال الدين المطري في "تاريخ المدينة الشريفة"، وكذا حسن الدياربكري[361] في تاريخه "الخميس"، أن الفقيه علم الدين يعقوب بن أبي بكر، المحترق أبوه ليلة حريق المسجد، حدثه أن جمعا ممن أدرك زمن نور الدين حدثه أن نور الدين رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة منها: يا محمود أنقذني من هذين الشخصين يشير إلى أشقرين تجاهه، فسار هو ووزيره بألف راحلة وما يتبعها من خيل[362]، فدخل المدينة على حين

فرسه وتوفي سنة 568هـ ودفن بجانب أخيه أسد الدين بالقاهرة ثم نقل جثمانهما بعد سنين إلى المدينة المنورة. (ابن خلكان 1-255).

(360) أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب الملك الناصر صلاح الدين (532-589هـ/ 1138-1193م)، صاحب الديار المصرية والشامية والفراتية واليمنية، من أسرة الأيوبيين الأكراد وأشهر سلاطينهم، ازداد بتكريت ونشأ في كنف أبيه وعمه أسد الدين شيركوه وشهد الحروب الكثيرة مع الإفرنج، ولما مات أسد الدين استقر الأمر لصلاح الدين يوسف بعد صراع مع الملك العادل نور الدين صاحب الشام، وذاع صيت صلاح الدين بعد معركة حطين ضد الإفرنج سنة 583هـ وتحرير عكا ونابلس و القدس وغيرها من أرض فلسطين، توفي بدمشق "وكان يوم موته يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم". (ابن خلكان 7-139؛ دائرة المعارف 14-263).

(361) حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري، مؤرخ ولي القضاء بمكة وتوفي بها، اشتهر بكتابه تاريخ الخميس في أقوال نفس نفيس"، أجمل فيه السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء والملوك إلى زمن مراد الثالث العثماني (1574)، كما ينسب إليه وصف دقيق للحرم المكي. وهناك اضطراب في تحديد تاريخ وفاته، إذ يجعله الزركلي في سنة 1559 وحاجي خليفة سنة 1553، إلا أن شهادة قريبة منه زمانيا تذهب إلى أن وفاته كانت سنة 990هـ/ 1582. (الزركلي 2-256؛ E., I., 2) 358

(362) يورد عبد الغني بن إسماعيل النابلسي نقلا عن السمهودي رواية عن هذه الحادثة ويقول بأن الملك العادل بعد رؤيته تلك: " أرسل إلى وزيره وتجهزا في ليلتهما على رواحل خفيفة في عشرين نفر..."، وواضح أن هذه الرواية هي الأقرب إلى الحقيقة إذ الأمر خطير ويستدعي

غفلة فزار وجلس في المسجد، فطلب الناس للصدقة وفرق الذهب والفضة، فلما فرغ سأل هل بقي أحد فأخبر برجلين من الأندلس نازلين وراء قبلة الحجرة الشريفة، من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعروفة بالعشرة، يقولان نحن في كفاية لا نقبل شيئا فجد في طلبهما، /205/ فلما رآهما إذا هما اللذان أراه إياهما النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فذكرا أنهما أحبا المجاورة عند النبي صلى الله عليه وسلم، فاستدرجهما وتهددهما فأقرا أنهما من النصارى بعث بهما ملوك الكفار لنقل النبي صلى الله عليه وسلم، ووجدهما قد حفرا نقبا تحت الحائط القبلي وجعلوا ترابه في بئر في الدار وقربوا من القبر الشريف، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرق الحجرة وأحرقا.

وسأله أهل المدينة الخارجين عن السور أن يبني لهم سورا يحفظ مواشيهم وأولادهم، فأمر به فبني عام ثمانية وخمسين وخمسمائة[363] وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق انتهى. وزاد صاحب "الخميس" أنه لما قتل ذينيك الكافرين اللعينين حفر حفيرا دائرا بالحجرة النبوية كثير العمق وأمر بالرصاص فأذيب وصبه في الحفير حتى ملأه، انتهى.

قال: وكان كثير الزهد ولا يغتر بما يجبى إليه، وكان لا يأكل إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من المال المرصد للمصالح، فيأخذ ما أفتي بحله فقط. وقيل كانت نفقته من الجزية في كل شهر ألف قرطاس لمأكله وملبسه، وربما استفضل منها شيئا فتصدق به في آخر الشهر، ويقال إن قيمة ألف قرطاس مائة وخمسون درهما. وكان يصرف الهدايا في بناء المساجد وترميم المهجور منها وشراء وقف لها، ومنع الخمر من مملكته وحد على شربها كثيرا، وكان له أوراد ليلية ونهارية وإذا حضر من أشغال المسلمين شيء قدمه على الأوراد ثم

السرعة والتكتم، وهو ما كان متعذرا مع حشد ألف راحلة وما يتبعها من خيل حسب الرواية التي نقلها ابن عثمان عن "تاريخ الخميس". (الحقيقة والمجاز 349-350).

(363) سقطت "خمسمائة" في النسختين.

أتمها، ومناقب هذا السيد الكامل والملك العادل تحتمل تأليفا مستقلا رحمه الله /206/ تعالى ورضي عنه وقد أفردت بالتأليف.

وقال ابن خلكان في ترجمة نور الدين الشهيد بعد التعريف به كما سبق: وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف، وكان بينه وبين أبي الحق سنان بن سليمان بن محمد، الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، وكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتابا يتهدده فيه ويتوعده بسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان وكتب جوابه أبياتا ورسالة وهما:

يا ذا الذي بقراع السيف هددني لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

قام الحمام إلى البازي يهدده[364] لأسود البر أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه يكفيه ما قد تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفصيله ومجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، فيا لله العجب ذبابة تطن في أذن فيل وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد كان من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين، أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأما ما صدر منك من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أماني كاذبة وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف وردي وشريف، وإن عدنا إلى الظاهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا إسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (ما أوذي نبي ما أوذيت)، وعلمتم ما جرى على /207/ عترته وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال والأمر ما زال ولله الحمد في الآخرة والأولى، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وقد علمتم حالنا وكيفية رجالنا، وما يتمنونه

(364) بياض محل الكلمة في (أ) و"استنطقت في (ب)، ابن خلكان، 5-186.

من الفوت ويتقربون به إلى حياض الموت، قل فليتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين، وأمثال العامة السائرة (أو للبط تهددون بالشط، فهيئ للبلايا جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا، فلأظهرن عليك منك ولأفتننهم فيك عنك)[365]، فتكون كالباحث على حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز. وفي نسخة زيادة على هذا: فإذا وقفت على كتابي هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ومن حالك على اقتصاد واقرأ أول النحل وآخر صاد[366].

الصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. وبالجملة كانت ولادته يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بقلعة دمشق بعلة الخوانيق، والدعاء عند قبره مستجاب مشهور، انتهى باختصار.

تعرف ابن عثمان على علماء دمشق الأحياء

ومن الأعلام المدفونين بالصالحية الإمام الكبير والنحوي الشهير، محمد بن مالك الجياني[367] صاحب "الألفية والتسهيل" رحمه الله تعالى ورضي عنه، وممن لقيته من الأحياء البركة سلالة العلماء والصالحين، والفقيه المحدث الشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ القدوة العمدة، سيدي عبد الغني بن النابلسي رحمه الله تعالى ورضي عنه، وحفيده هذا سلك مسلك أسلافه في الدين والاعتكاف على قراءة العلم، وله مشاركة في علوم، صاحب وقار وسمت حسن. وقد توجهنا /208/ إلى زيارة جده سيدي عبد الغني المذكور، فأدخلنا إلى مكانه وأكرمنا أكرمه الله، وأراني رحلة له إلى

---

(365) سقطت هذه الجمل من النسختين حيث ترك بياض قدر نصف سطر، وخرجت من ابن خلكان، 5-168.

(366) إشارة إلى الآية الأولى من سورة الفتح﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، والآية 86 من سورة ص [ولتعلمن نبأه بعد حين].

(367) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني (600-672هـ/ 1204-1274م)، أحد الأئمة في علوم العربية، ولد في جيان بالأندلس ورحل إلى دمشق فتوفي بها، أشهر كتبه "الألفية "في النحو و "الضرب في معرفة لسان العرب" و " الكافية الشافية " وغيرها. (الزركلي 6-233؛ نفح الطيب 1-434).

بيت المقدس نحى (كذا) فيها نحو جده، وأطلعنا على عدة تآليف لسيدي عبد الغني منها تأليف في حلية العشبة المسماة في الوقت[368] بطابة[369]، ومنظومة عدد فيها منافعها و سماه الصلح بين الإخوان.

ومنهم الفقيه اللبيب الحسيب الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي الشافعي[370]، اجتمعت معه في جامع الأموية وأدخلنا إلى بيت له في المسجد كبير في ناحية الصحن، يقعد فيه بقصد المطالعة والإفتاء، وأتى إلينا إلى منزلنا الذي كنا به ودار الكلام بيننا في الشيخ الجليل صاحب الكرامات سيدي أرسلان الذي تقدم ذكره، فقلت له: من هو هذا الرجل، فقال لي: أبعث إليك التعريف به فأبطأ، فأرسلت إليه بطاقة نصها: "الحمد لله وحده، أحيي طلعة ذلك الهلال المرقوب بسلامته من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا زينة وجمال وللدين كمال، وللمستمعين فال وللمعتفين آمال، تحية حب معتكف على حبكم لا يبرح، وذي وجد بمحاسنكم لا يكيف لعدم انتهائه ولا يشرح، ويستنجر منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ أرسلان، فقد كان عليكم في ذلك الإعتماد والتكلان، والله تعالى يتولى هداكم ويفسح في بقاء مدتكم ومداكم، ولا تبخل علينا برؤيتك، أنفسنا تفديك ثق ولاتجعلنها بيضة الديك.

فبعث الترجمة ومعها أبياتا نصها:

يا واحد الفضل وفرد النهى ... وأكمل الناس مقاما وحال
209 / ومن رقى مجده رتبة ... قد قصرت عنها فحول الرجال
ومن بميدان العلوم اغتدى ... إن جال لم يبق لغير مجال

---

(368) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(369) يقصد التبغ.

(370) أبو الفضل كمال الدين محمد بن محمد شريف بن شمس الدين الغزي العامري (1173-1214هـ/1759-1799م)، مؤرخ نسابة أديب كان مفتي الشافعية في دمشق حيث ولد وتوفي، له شعر جيد وكتب منها "التذكرة الكمالية" و"المورد الأنسي في ترجمة الشيخ عبد الغني النابلسي". (الزركلي 7-70).

لا عجب من بدر فضل أضا ... فمن جهات الغرب يبدو الهلال
تبارك الواهب قلبي له ... وجل من قد خصه بالكمال

فأجبته بقولي:

وأنتم أهل لكل الذي ... ذكرتم بلا بقاء احتمال
وحزتم علما ومكرمة ... لله أنت يافصيح المقال
خلقا وخلقا وانبساطا له ... أدب غض للنفوس استمال
وحلية حلاك رب العلا ... بها لكم على القلوب اشتمال
فما عسى يثني عليكم به ... وأنتم للذين صرتم كمال

استنكار ابن عثمان لممارسات القضاة وانتشار الرشوة والفساد

ومنهم مفتي الحنبلية الشيخ إسماعيل الجزاعي، فقد كان منزله بالقرب منا وكان يتردد إلينا كثيرا. وقد نزلت نازلة بدمشق وذلك أن القاضي سجن رجلا حكم له، حتى يؤدي عشر الشيء المتنازع فيه كما هي عادة قضاة المشرق، نسأل الله السلامة والعافية من هذه الورطة التي وقعوا فيها، فقد عمت بها البلوى في القسطنطينية وبلاد الترك والشام والعراق ومصر وجميع بلاد المشرق، وباعوا آخرتهم بدنياهم متفقين على ذلك من غير توقف ولا تأمل، ولا تخوف ولا استحياء ولا تستر، فليس للوعظ فيهم عمل ولا تأثر، فكأنها عندهم جباية من أصول فيسمونه بالمحصول، /210/ فتجد القاضي يناضل على قبضه ويصول، من غير ارتياء ولا استحياء ولا حشمة، ولا اعتبار بعار أو وصمة، كأنه حق واجب ويزاد للجليس والحاجب، فإن كانوا مع إظهارهم لهذا الأمر جليته معتقدين حليته، فقد باءوا بالصفقة الخاسرة وجوه يومئذ باسرة، فيا حسرتا على الأحكام الشرعية المرضية المرعية، فقد ضاعت حقوقها وساغ عقوقها.

وطلب مني أن نشفع عند قاضي البلد في هذا الرجل، وهذا القاضي لم يكن بيني وبينه اتصال، فلا كان والرجل ألح علي به كثيرا، وقد وقع بيننا وبين قاضي مكة المشرفة معرفة ومحبة لما أتينا من القسطنطينية، فقد جئنا في رفقة واحدة، فقد وجهه السلطان برسم أن يكون قاضيا في الحرم

الشريف، وجمعتنا الطريق فصارت بيننا وبينه المعرفة، فكتبت له أبياتا ليشفع هو عند القاضي المذكور، الآتي بهذا الفعل المنكور وهي:

الحمد لله الذي يثيب ... ويجتبي إليه من ينيب
معذرا صلاح هذي الأرض ... بدفعه ببعضنا عن بعض
والخلق عيال على كماله ... أحبهم ذو النفع لعياله
لحادث يشكى لذي مروءة ... يسلي هموما نزلت بهمه
غاية مأربي لكم وحرصي ... أن تنقذوا عبدالجليل الحمصي
جعل في الأغلال والقيود ... في ظلمة في باطن الأخدود
حتى يؤدي لقاضي البلد ... ربع كيس من قروش العدد
211 / من غير ما جرم ولا جناية ... فلتدركنه منكم عناية
من أجل ما حكم فيه وقضا ... أعيذكم بالله من سوء القضا
ما أنزل الله بها سلطانا ... فالظلم يخلي الدور والأوطانا
حرمة مال المؤمنين كالدم ... عن النبي رواه ذو التقدم
وقد أتانا راغبين أهله ... ونحن جئناك فأنت أهله

فتوسط له عند القاضي، وباللتي واللتيا[371] أسقط له نصف حقه، واستخلصناه بمشقة من رقه، بعد أن علق بأظفاره مثل ما علقت أظافر سنور بفأرة، وبقي ينهق تحسرا مثل حمار فارد من كثرة ما هو شاره.

ومن الغريب أن القاضي الذي بعثنا له بالأبيات ليشفع عند قاضي البلد في قضية الرجل المذكورة، رأينا منه أشياء ونحن في طريق الحجاز أبشع من سيرة القاضي الأول، وذلك أنه مهما مات أحد من الحجاج إلا بعث أصحابه في الحين، فيحصروا متاعه ويأخذ عشره وورثته قائمون موجودون، بل ربما مرض أحد فثقف متاعه قبل موته، ويناضلون على هذا ويخاصمون عليه إن ظهر من يصدهم عنه ولو بشفاعة، ويرون أنه حقهم نفذه لهم السلطان، فإن كانوا مع هذا يعتقدون الحلية فهو كفر ولا حول ولا قوة الا بالله، فقد ضاعت الأحكام الشرعية في هذه الديار المشرقية، فلا تجد

(371) تعبير شائع في مؤلفات المغاربة يقصد به "بعد جهد ومشقة".

أحكامهم إلا بعادة أو قانون مصطلح عليه، وإن سلكوا فيها على المنهاج الشرعي فبأقل رشوة يستمالون عن الحق.

ومن أغرب ما حكى لي في ذلك صاحبنا الفقيه الأجل الأديب الشيخ كمال الدين محمد الغزي /212/ الدمشقي، أن [...][372] سافر في البحر فأخذه النصارى أسيرا وذهبوا به إلى مالطة، فعرفوه من أهل العلم فخلوا سبيله، فبينما هو ذات يوم يدور فدخل إلى كنيسة فوجد راهبها قاعدا وحواليه الكتب، فرأى فيها تفسير أبي السعود[373] والبيضاوي وغير ذلك، فأخذ سفرا من تفسير أبي السعود فتصفحه فإذا في آخر ورقة منه مكتوبا فيه: كتبه فلان الفلاني المقدسي، فقال للراهب: إستنسخت هذا الكتاب في بيت المقدس أو اشتريته، فقال له: إنني استنسخته لما كنت قاضيا هنالك، فقال له: وكيف كنت قاضيا ببيت المقدس وأنت من الرهبان، فقال له: إني كنت مملوكا لقاضي عسكر بإسطنبول، فلما طالت خدمتنا معه كبرني وجعلني قاضيا ببيت المقدس، فانظر هذه المفسدة العظيمة ولا حول ولا قوة الا بالله، جبر الله حال المسلمين.

وصف مقتضب لدمشق

رجع إلى خبر دمشق: هي مدينة عظيمة بما أضيف إليها، فعدد الحمامات التي بها نحو الستين ومن المرمات التي تنسج الحرير ما يزيد على الخمسة عشر ألفا كما أخبرني بعض أهلها، عامرة الأسواق مؤسسة في بسيط

---

(372) بياض في النص في النسختين؛ ويذكر الزياني حكاية مطابقة مشيرا إلى أن شخصا يدعى إبراهيم الدمياطي حج معه، فحكى له كيف وقف في مالطة على راهب يطالع كتبا إسلامية فلما استفسره عن السر قال له بأنه نسخها عندما كان قاضيا بالقدس. (الترجمانة، 192)

(373) أبو السعود بن محمد الآمدي (896-982هـ/ 1490-1574م)، نسبة لآمد المعروفة الآن بديار بكر، فقيه عثماني من أصل كردي ظل شيخا للإسلام ثلاثين عاما وكان من أكبر أعوان السلطان سليمان القانوني، صنف تفسيرا للقرآن استقاه من تفسير البيضاوي والكشاف للزمخشري، مما بوأه مكانة مرموقة لدى السلاطين العثمانيين، وقد حزن السلطان سليم الثاني حزنا شديدا لوفاته. (دائرة المعارف 1-348).

من الأرض، قريبة من جبل قاسون الذي في سفحه الصالحية وهي قرية عظيمة من قرى دمشق، كثيرة المياه -نعني دمشق- كثيرة البساتين وكلها على السقي.

مراسيم خروج الركب النبوي من قلعة دمشق

وقد أقمنا بها ثمانية وثلاثين يوما، وقبل خروجنا منها بأربعة أيام تأهب الوزير إلى السفر، لأنه يخرج قبل الركب بثلاثة أيام بالمحمل وعلم النبي صلى الله عليه وسلم، وليس هذا العلم هو نفس علم النبي عليه الصلاة والسلام، لكن لما كانوا يسافرون به إلى مقامه الشريف في كل سنة نسب إليه.

ويوم خروج العلم من القلعة /213/ ودفعه إلى الوزير يوم مشهود، فتوجهنا إلى رؤية ذلك ودخلنا إلى القلعة، ثم إلى ضريح صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمر بن زيد الأنصاري أبي الدرداء، فزرناه ودعونا الله تعالى عند قبره وأقمنا هنالك ننتظر خروج العلم، ثم بعد هنيئة أتى قائد القصبة ويقال له أغات الكشايرية، لأن هذه القصبة لها قائد مخصوص من قبل السلطان، ومعه عسكر إلى نظره فليس للوزير عليه سبيل، ومن حسن سياسة السلطان أن الوزير لا يدخل إلى هذه القلعة لا بوجه ولا بحال، وإذا أراد أن يدخل يمنعه قائد القلعة بعسكره خشية أن يتعصب فيها ويظهر الإستبداد والشقاق، لأن هذا الوزير عمله متسع ومجيأه (كذا) كثير، وبلاد السلطان بعيدة فلا يؤمن من ذلك، وبسبب هذا رسموا على الوزراء أن لا يدخلوا إلى القلعة.

ولهذه القلعة مدافع كثيرة دائرة بها وحفير، وسور عظيم في غاية الضخامة من بنيان الروم الذين كانوا هنالك قبل الإسلام، فإذا أراد الوزير أن يظهر خلافا وشقاقا وعصيانا على المملكة، فإن العسكر الذي بالقلعة يرمونه بالمدافع من القلعة ويهدون داره، فهم هنالك عليه لا له؛ ولما جاء أغات الكشارية الذي هو رئيس القلعة دخل إلى ضريح أبي الدرداء مع أعيان العسكر، ودخلنا معهم وأتوا بصندوق فتحوه وأخرجوا منه علم النبي صلى

الله عليه وسلم، وأحضروا قصعة من النحاس وأباريق من ماء الورد والطيب والبخور، ثم غسلوا جامور العلم وهو من الذهب بماء الورد في تلك القصعة، وطافوا /214/ على الحاضرين بتلك الغسالة، فشرب الناس منه على سبيل التبرك وتمسحوا به، وبخروه وركبوه في صعوته أي عصاه، والناس في هذه الحالة يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى فرغوا من هذا العمل، ثم رفعوا العلم الشريف وخرجوا به بالطبول والآلات وقصدوا به دار الوزير، وحضر القاضي والمفتي وسلموه للوزير بأشهاد، ويكون في هذا اليوم- نعني يوم خروج العلم- مهرجان عظيم وتخرج مدافع كثيرة بعشية هذا اليوم إيذان برحيل الوزير.

ومن الغد خرج الوزير في موكب عظيم ومعه عسكره، وتوجه إلى قلعة يقال لها مزيرب، ليتلاقى هنالك مع العرب حتى يكمل أغراضه في شأن الإبل التي تحمل له الميرة وغير ذلك، وبقي الركب بعده ثلاثة أيام، وفي ليلة التاسع عشر من شوال كان خروجنا من دمشق الشام، فركبنا عشية بقصد زيارة صالحيها لكن لم يتيسر لنا ذلك لكثرتهم نفعنا الله ببركاتهم، فطلعنا إلى الصالحية منبت الصالحين، فعمدنا أولا إلى تربة الإمام سيدي محمد بن مالك صاحب "الألفية والتسهيل"، لكوننا لم نزره قبل فزرناه وتبركنا به، وقبره من وراء جدار قبة نبي الله ذي الكفل، وليس عليه قبة نفعنا الله به فدعونا الله هنالك، ثم التفتنا إلى الصالحية وقصدنا جميع صلحائها بتعيينهم في أماكنهم، وكذلك صلحاء دمشق فزرناهم على هذه الكيفية خصصنا من علمنا وعممنا من لم نعلم.

ومشينا في تلك العشية إلى موضع يقال له الربوة في غربي دمشق، بين بساتين متعددة وأنهار مطردة /215/ ذات ظل ظليل ونسيم عليل، وهي المذكورة في القرآن في قوله تعالى: [وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين][374] على خلاف في ذلك، ثم رجعنا إلى بيت نزولنا واشتغلنا بالتأهب والإستعداد وشد حوائجنا، وبعثت بأبيات للفقيه الجليل المحدث صاحبنا الشيخ سعد

---

(374) الآية 50 سورة المؤمنون.

الدين النابلسي ونصها:

خليلي قد حثثت الصبر حثا فسار مخلفا في القلب وعثا
وقد أنشأ الفراق سحاب بين عبوسا عارضا ما فيه غيثا
فأرسل من صواعقه دويا تصير له جبال الصبر برثا
وآذن بالرحيل عن خليل صفي لا له في الورد نكثا
تزان به الصدور لذي دروس فإن ينطق فهو السحر نفثا
أسعد الدين ساعدني فقلبي رهين عندكم وأطال مكثا
وكيف يكون لي جسم سفير وقلبي ما يريد فيه لبثا
وهل جسم بلا قلب ترفق بجسم صيرت أعضاه رفثا
وقد قالوا الفراق أخ لموت فجهز نحونا جيشا وبعثا
فإن تمنن فبالذي قد ملكتم وإلا صار ملكا لكم وورثا
وصبري بعد تسليمي عليكم جميل حبكم لا يطيق بثا

فكان جوابه قدومه بنفسه لتشييعنا إلى أن جاوزنا المدينة بكثير .

وصف آخر لدمشق

وبعد صلاة العشاء وطلوع القمر حملنا وركبنا الأمخات تحملها الإبل، وسرنا وأسواق المدينة مسرجة كلها عامرة بالبيع والشراء، والدكاكين مفتوحة والسكك ملئى بالناس رجالا ونساء بقصد توديع الحجاج، فتجاوزنا المدينة وخرجنا على بابها المسمى بوابة الله، فما جاوزناها إلا على مسيرة ساعة وبقي طرف من المدينة من وراء بيتنا.

الحاصل أن دمشق بلد كبير، نعني بما أضيف إليه، وأما خصوص سور دمشق القديمة فليست غاية في الكبر وإنما هي متوسطة، وأما بما أضيف إليها وزيد فيها خارج السور فهي كبيرة جدا مستطيلة لناحية القبلة، وتمادينا على المسير فصلينا صلاة الصبح في الطريق، وبعد طلوع الشمس بنحو ساعة وصلنا الخيام على خمس ساعات على قرية يقال لها ذو النون، فأتى أهلها بالخضر الموجودة في الوقت من تفاح وغيره وخبز وعلف وتبن، فأقمنا هنالك إلى أن صلينا العصر وحملنا وسرنا عشية ذلك اليوم والليلة

بعده، ووصلنا الخيام عند طلوع الشمس بمسير ست ساعات بقرب قريتين يقال لهما الصنمين[375].

وهذه المرحلة كثيرة الحجارة صحراوية نباتها الشيح، فظلنا مقيمين بها حتى انكسر حر الظهيرة وتحركت الأرواح[376]، ورحلنا قرب العصر فصلينا العصر لآخر وقتها وبقينا نازلين /216/ إلى أن صلينا المغرب وسرنا، وبعد صلاة الصبح أشرفنا على الخيام وقد كان الوزير تقدم أمامنا كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، فخرج لملاقاة الركب النبوي بعساكره وأوقفها عن يمين الطريق ويسارها وركب الحجاج سائر بينهما، إلى أن وصلنا الخيام على عشر ساعات بموضع يقال له مزيرب يقيم به الحجاج، فأقمنا به ستة أيام لقضاء ما بقي من الأغراض.

تنظيم شؤون الركب النبوي وممارسات الأعراب غير النزيهة

وهناك يتم الكلام على الكراء مع المقومين الذين يحملون الحجاج ويقومون بأكلهم وشربهم، على أن يؤدوا إليهم قدرا معلوما للراكب والفرس والجمل والأكل والمحمل والمحارات، ويسمون هؤلاء القوم مقومين لأنهم يقومون بأمر الحجاج في جميع ما ذكر حتى الخيام يبنونها لهم، فلا تجد أحدا في هذا الركب الشامي يطبخ أو يبني خيمة، إلا إذا أراد أن يطبخ شيئا زائدا على ما يأتي به المقوم.

وفي السابع والعشرين من شوال بعد أن فرغ الباشا، وهو الأمير الموجه مع الركب النبوي، من ترتيب أموره والكراء من العرب على حمل أثقاله وشؤونه، آذن بالرحيل بإخراج المدافع، ومن الغد بقرب العصر استعملنا المسير في أرض ذات انفساح، فما انفصلنا عن الدار بنصف ميل إلا وأحمال الباشا التي حملت الأعراب ملقاة في الأرض وفروا بالكراء وهلم جرا.

---

(375) الصنمين، قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان. (معجم البلدان 3-431).

(376) عامية يقصد بها الرياح الخفيفة.

فصلينا الصلوات لأوقاتها، وفي نصف الليل أشرفنا على الخيام قرب قرية يقال لها الرمتة[377] على ثمان ساعات بسير الإبل، وقد كانوا عازمين على أن ينزلوا بموضع أمامها يقال لها المفرق، لكن ثبطنا أمر هذه الأحمال التي رمت بها شياطين الأعراب حتى ييسر /217/ لها الباشا الإبل لحملها. فكملنا الليل هنالك وأقمنا النهار إلى العصر وسرنا عشية والليل كله، وصلينا الصبح عند الخيام بحوز قرية يقال لها المفرق، وهذه البلاد كلها بسيطة ذات انفساح كثير، صحراوية نباتها الشيح والحرمل وما أشبه ذلك، فظللنا مقيمين هنالك في حر شديد، وبعد صلاة العصر ركبنا وسرنا وصلينا المغرب لوقتها، وتمادينا على المسير فأنخنا هنيئة بعد نصف الليل ثم جددنا المسير، وبعد طلوع الفجر نزلنا لأداء الصلاة ثم سافرنا، وبعد صلاة الصبح بساعة نزلنا على واد جار يقال له الزرقا[378]، فكان مسيرنا اثنتي عشرة ساعة فظللنا مقيمين على هذا الوادي، وغسل الناس ثيابهم وبتنا به فاستراح الناس والإبل.

ومن الغد رحلنا بقرب الزوال فسرنا خمس ساعات، ونزلنا قرب العصر بموضع يقال له خان الزبيب فصلينا الظهر والعصر، والماء كان محمولا عندنا لأن الموضع ليس به ماء، وإنما سار الناس هذه المسافة بالنهار لأن الطريق ذات حجارة كثيرة وصعود وهبوط، ففيه مشقة على الإبل ولاسيما بالليل، فمن أجل ذلك ساروا بها نهارا متحملين مشقة الحر؛ وإنما قيل لهذا الخان خان الزبيب لأن الحجاج كانوا إذا قفلوا من مكة، تلقاهم أهل الشام بهذا الموضع ببيع الفواكه والمأكولات الطرية، وأما اليوم فإنما يأتون لمزيرب.

وبقينا هنالك إلى أن صلينا المغرب، وسافرنا الليل كله وضحوة من

---

(377) يرسمها عبد الغني النابلسي "الرمثا" وهو الإسم الذي لازالت تعرف به اليوم، "وهي قرية عظيمة ينسب إليها الشيخ عبد الرحمان الرمثاني المدفون بجبل لبنان من أرض البقاع"، ارتبطت بدورها بطريق الحج فكان أهلها يبيعون المؤن للحجيج. (الحقيقة والمجاز 487).

(378) الزرقاء: نهر بالأردن يصب في الغور بناحية معان، عرف قديما بالمسبعة لكثرة أسوده. (معجم البلدان 3- 137؛ الحقيقة والمجاز 486).

النهار بعده ووصلنا موضعا يقال له البلقا[379]، نزلنا فيه على مسير سبع عشرة ساعة، والبلقا إسم قلعة على ماء هنالك، /218/ فظلنا مقيمين عليها ولما صلينا العصر سرنا بقية النهار والليل كله، وصلينا الصبح بموضع يقال له وادي النسور، وليس هناك واد وإنما هو منخفض من الأرض، ثم تمادينا على المسير فنزلنا قرب الزوال على قرية يقال لها قطرانة، مبنية على بركة ماء كبيرة مؤسسة على وادي يحمل بالسيل وقت الأمطار، فبنوا في وسطه سدا وصرفوا ماءه إلى هذه البركة بقصد الحجاج، وهي كبيرة مربعة الشكل في كل ربع ثمانون خطوة، كثيرة العمق فقد ظهر من مدارجها نحو اثنتي عشرة وبقي فيها من الماء عمق اثني عشر قدما.

ووضع الباشا والناس في هذه القلعة أثقالهم التي لا يحتاجون إليها حتى يرجعون، وكذلك يخففون من الميرة التي تردهم إذا رجعوا، ويجعل كل واحد متاعه في بيت من بيوتها أو ناحية من نواحيها، وبها أناس ساكنون حصينة السور والغلق وعليها المدافع. وقد وصلنا هذه المنزلة على مسير ثماني عشرة ساعة، فقلنا بها إلى أن صلينا العصر وسرنا بقية النهار والليل كله، وبعد طلوع الشمس انحدرنا في مضيق بين جبال كثيرة الحجارة يسمونه بغاز الحسا، والحسا قلعة هنالك بها بركة ماء وقلعة، لكن بلغ الخبر أن ماءها لا يكفي الركب فتركها الباشا للرجوع كي يجتمع ماؤها، فتركها يسرة ومر بهذه الطريق فيها بعض عيون وخضرة وقصب كثير بين هذه الجبال، فنزل الحجاج عليها على مسير ثماني عشرة ساعة، فقلنا هنالك إلى أن صلينا العصر وشرب الناس واستقوا.

انعدام الأمن واستنفار خفر الركب لمواجهة غارات البدو

وطول هذا البغاز /219/ أي المضيق الذي بين هذه الجبال كثير نحو

(379) أطلق هذا الاسم من طرف الجغرافيين القدامى على النصف الجنوبي من شرق الأردن، ويقصد به أيضا ناحية عمان فقط والهضبة الكلسية الواقعة بين وادي الزرقاء شمالا ووادي المجيب جنوبا، اشتهرت أوديتها العميقة بخصبها و كثرة ووجودة حنطتها، مما جعل الخلفاء الأمويين يتخذونها متنزهات لهم، ويشير ياقوت إلى ان البلقا من قرى حلب أيضا. (دائرة المعارف 4-106؛ الحقيقة والمجاز 486؛ (E., I., I 1028

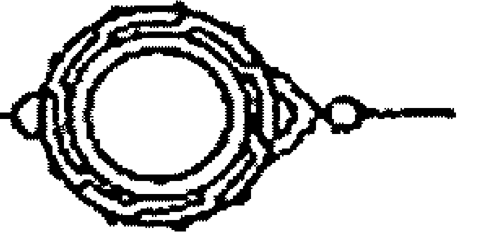
أربع ساعات أو ما يزيد عليها وهو مخوف، وقبل أن نصل إليه تقدم العسكر أمامنا بالليل فسبقوا إليه وتمسكوا به، وتفرقوا على قننه عن اليمين والشمال مشرفين على الوادي، وراياتهم وعلاماتهم مركوزة في الأرض والركب مار بين الفريقين، وإنما تقدم العسكر إلى هذا المكان خشية أن يتمسكوا به العرب، فلا يتركون الحجاج يسيرون إلا أن يرضوهم بما يريدون.

وعند العصر سافرنا من هذا المكان الشاق، الذي كادت أن تلتف به الساق بالساق، الذي هو مأوى لكل شيطان ومريد (كذا) من الإنس عاق، ثم خرجنا منه وتمادينا على المسير في أرض بسيطة كثيرة الحجارة، وبعد طلوع الشمس بنحو ساعتين نزلنا على قلعة أمامها بركة ماء مثل البركة المتقدمة يقال لها عنزة، مسماة باسم قبيلة من العرب هي في أرضهم فسميت بهم، ولكون هذه القبيلة خفراء لهذه القلعة وما يوضع فيها، فنزلنا عليها وشرب الناس واستقوا وسقوا الإبل والدواب وطبخ الناس غذاءهم وعشاءهم.

وسافرنا منها في الإصفرار وعند الفجر صلينا الصبح بقرب الدار، ثم توجهنا إلى الخيام عند قريتين بموضع يقال له معان(380)، فيها عيون وبساتين وصلناها على سبع ساعات وقد وجدنا فيها عنبا ورمانا، إلا أن هاتين القريتين استولى عليهما الخراب، وقد أباد أهلها الجوع والقحط فلم يبق منهم إلا قليل، وقد أخبرت أن هاتين القريتين كانتا على أحسن حال وأكمله من العمارة والتجارة، وتيسر الأشياء فيها من العمارة والعلوفات /220/ وسائر الأقوات، وأما اليوم فيكفيك من شر سماعه.

---

(380) معان هي الآن مدينة بالأردن في طرف بادية الشام في الطريق إلى الحجاز من نواحي البلقاء، اشتهرت بمياهها وبساتينها ومن ثمة كانت محطة على طريق الحج. (الروض 555؛ معجم البلدان 5- 153؛ الحقيقة والمجاز 485).



شق الطرق في الجبال وإعجاب السفير بذلك

وهذه المنزلة هي المنزلة الثانية التي يقيم بها الركب بين الشام ومكة، لإراحة الأنفس والإبل يوم الوصول وليلة غده وبعده إلى عشية النهار، فرحلنا منه بعد المقام المذكور عند الزوال وسرنا بقية النهار والليلة بعده، وبعد طلوع الشمس بساعة، نزلنا بموضع يقال له العقبة[381] على مسيرة ثمان عشرة ساعة على غير ماء، وقد كنا حملناه معنا من معان، وقد كان في هذا الموضع قلعة وبركة ماء فخربت وبقيت هذه المرحلة من غير ماء، فنزلنا بها إلى نصف النهار وطبخ الناس ما أكلوا وصلينا الظهر وسرنا فانحدرنا مع هذه العقبة، وقد كانت من قبل صعبة يمر بها جمل في إثر جمل إلى زمن عثمان باشا رحمه الله لما كان أميرا على الشام، ففتحها بالمعاويل ووسعها وسواها، فهي اليوم يمر بها الستة والسبعة من الإبل رحمه الله وجازاه خيرا، ولما انحدرنا منها انتهينا إلى رمل ومن هناك إلى مكة كله رمل وهذا أول الحجاز .

ثم تمادينا على المسير بقية النهار والليل كله، وكنا ننزل لأداء الصلاة لأوقاتها وفي نصف الليل للإستراحة، وبعد صلاة الصبح وصلنا الخيام على مسير اثنتي عشرة ساعة على قلعة يقال لها المدورة، وإلى جانب القلعة أرض ماؤها قريب يحفر عليه شيء قليل وينبع الماء، منه يستقي الحجاج ويشربون، وقد أداروا على هذه المنابع سورا يرد عنها الرمل لئلا يغطيها ويعفي أثرها، فهو يتلقى ما تأتي به الرياح من الرمال، فظللنا هناك[382] مقيمين من الصباح إلى عشية /221/ النهار، وسافرنا الليل كله وصلينا الصبح عند الخيام بموضع يقال له ذات حج، وهناك قلعة مؤسسة على بركتين من الماء ماؤهما كثير إلا أن رائحته كريهة، وقد حمل الناس الذين لهم خبرة الماء من المدورة الدار التي قبل هذه[383]، فحملنا الماء معنا كما فعل الناس، فكنا نشرب من

---

(381) العقبة، منزل في طريق مكة من الشام بين واقصة والقاع، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل فيه مضايق بين جبال تمر بها القوافل وركب الحجاج. (معجم البلدان 4-134).

(382) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(383) يورد النابلسي أن بذات حج بركة ماء تحرسها كل سنة طائفة من عسكر الشام، ويروي أنه "استقى الناس من ذلك الماء الكثير وحملوا الماء لأن بعد ذلك ثلاث منازل لا ماء فيها إلى قلعة معان". (الحقيقة والمجاز 485).

الماء المحمول ونتوضأ من ماء ذات حج، وقد وصلناها بعد مسير عشر ساعات فظللنا بها إلى أن صلينا العصر، ثم سرنا العشية والليل كله وصلينا الصبح عند الخيام بموضع يقال له القاع[384]، بأرض بسيطة عريضة مستوية عرية من النبات وليس بها ماء، فقلنا بها إلى العصر وسافرنا والحر كأنه لهيب النار تلك العشية والليل، وصلينا الصبح عند الخيام بتبوك[385] وهناك قرية وقلعة وبركة ماء فظللنا بها، وهناك بساتين فكان أهلها يأتون بالرمان والعنب يبيعونه من الحجاج، وقد وصلنا هذه المنزلة بمسير اثنتي عشرة ساعة، فظللنا بها النهار كله وعند المغرب سافرنا الليل كله، ونزلنا عند صلاة الصبح بموضع يقال له ظهر مغر على غير ماء، والعادة أنهم إذا رحلوا من تبوك ينزلون على قلعة يقال لها الأخضر[386] بينها وبين هذه الدار نحو عشر ساعات، لكن وصل الخبر إلى الوزير بأن الدولاب الذي يستقى به الماء للبركة فسد، فبعث دولابا آخر من الطريق وتثاقل في المسير، فبات في ظهر مغر ليستقوا الماء الكافي، لأن البلاد التي من الأخضر إلى أمام فيها مسيرة ثلاثة أيام (لا ماء فيها)[387] إلى مدائن صالح[388].

---

(384) القاع، منزل بطريق مكة بعد العقبة لمن يتوجه إلى الحجاز ومنه يرحل إلى زبالة، يقال له كذلك قاع البزو. (معجم البلدان 4-298؛ الحقيقة والمجاز 484).

(385) تبوك، قرية على طريق الحج بين دمشق والمدينة، كانت أيام النبي على الحدود الشمالية لبلاد العرب دخلت التاريخ لحدوث الغزوة الشهيرة التي قام بها النبي لإخضاع عرب الشمال سنة 9 هـ. (دائرة المعارف 4-575).

(386) الأخضر، منزل قرب تبوك بينه وبين وادي القرى،كان قد نزله الرسول في مسيره إلى تبوك، فيه قلعة يستقر بها عساكر الشام لحماية بركة الماء من الأعراب، كما يوجد بئر اشتهر أن الذي حفره الخضر عليه السلام فيزوره الناس ويتبركون به. (معجم البلدان1،-123؛ الحقيقة والمجاز 484).

(387) سقطت من (أ) وأضيفت في الهامش في (ب).

(388) مدائن صالح، قرية في شمال غرب العربية السعودية بنيت قرب خرائب وأطلال الحجر (بكسر الحاء) التي تشير بقاياها الأثرية إلى الأهمية التي كانت لها قديما. وقد اختفى اسم الحجر وصار البدو يسمون الموقع بمدائن صالح، ويتميز هذا الموقع الأثري بالقبور ذات الأعمدة المصقولة والواجهات المنقوشة والمنحوتة في الأجراف الصخرية فيما يشبه آثار البتراء. وقد وردت في القرآن قصة ثمود- أهل هذه المنطقة - مع النبي صالح وناقته وكيف دمر الزلزال هذه القرية(E.,I., 3 - 377).

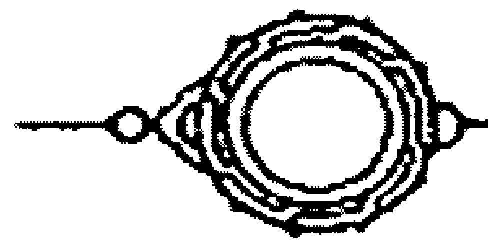
فقلنا في ظهر مغر إلى قرب العصر ثم سافرنا، /222/ ونزلنا عشية فصلينا العصر لآخر وقتها وبقينا إلى أن صلينا المغرب، وسرنا في بلاد كثيرة الحجارة وقد تقدم أمامنا العسكر بالنهار إلى موضع ضيق بين جبال، يخشى من العرب أن يتمسكوا به ويمنعوا الركب من المسير، فمررنا بهذا المضيق ووجدنا العسكر نازلا به على قنن الجبال يمينا وشمالا بعلاماتهم، والوزير نازلا أسفله على فم المضيق بخيله، وبقوا هنالك إلى أن خرج الركب كله؛ وقد كان هذا المضيق في غاية الصعوبة والضيق قبل اليوم يمر الركب كله جمل في أثر جمل، إلى زمن عثمان باشا رحمة الله عليه وذلك قبل تاريخه بنحو ست عشرة سنة، فوسعه وقلع الصخور العظيمة والحجارة الكثيرة ونحت الجبال يمينا وشمالا، فصار الناس يمرون به اليوم بأربعة وخمسة من الإبل متساويات تقبل الله منه، وهذا الوزير هو صاحب العقبة الأولى وله آثار كثيرة في هذه الطريق، فقد ابتنى قلعا متعددات وبركا للماء كثيرات، كثر الله في المسلمين مثله، يبقى الثناء وتذهب الأموال.

وفي آخر الليل وصلنا الأخضر بعد مسير نحو عشر ساعات، وبه قلعة حواليها خمس برك يخرج إليها الماء من القلعة فتمتلأ (كذا)، فاستقى الناس بالليل وفي أول النهار ما يكفيهم ثلاثة أيام لا ماء فيها، وعند العصر اعتمدنا على رحمة الله تعالى وسرنا فقطعنا ذلك البغاز أي المضيق المذكور قريبا، وفيه من أوله إلى آخره نحو خمس ساعات، وتمادينا على المسير الليل كله، وبعد طلوع الشمس بساعة نزلنا في موضع بين جبال بعد سير خمس عشرة ساعة، /223/ وليس هذا الموضع معروفا لنزول الركب بل الموضع المعروف للنزول قلعة يقال لها المعظم[389]، بقي بين هذا الموضع وبينها أربع

---

(389) المعظم، وادي عذب الهواء وحلو الماء ومتسع الأرجاء، يورد الشيخ إبراهيم الخياري في رحلته حسب ما نقله النابلسي أنه " قد اشتمل على قلعة عظيمة محكمة البناء...وبجانب القلعة...بركة ماء مربعة متسعة...مبنية بالحجر"، ويرجح النابلسي أنها سميت بالمعظم لكون الملك المعظم هو بانيها وجعلها معسكرا لجنوده قبل أن ينقض عليهم الأعراب ويخربوا القلعة. (الحقيقة والمجاز 483).

ساعات لكن فسد ماؤها، فلما لم يكن فيها ماء وخشي الناس من الحر نزلوا في ذلك الموضع إذ لافائدة في المسير إلا التعب، فبقينا نازلين إلى أن صلينا الظهر وسرنا فوصلنا القلعة المذكورة عند العصر، وتمادينا على المسير بقية النهار والليل كله ونزلنا بعد طلوع الشمس بساعة بموضع قرب الحمراء، وهي قلعة لكن لا ماء فيها بمسير ست عشرة ساعة، وبقرب الزوال استعملنا المسير النهار والليل كله ومن الغد إلى قرب الزوال ثلاثا وعشرين ساعة، ونزلنا بمدائن صالح وهناك قلعة بها آبار وعيون.



مرور الركب بآثار الأنباط واندهاش ابن عثمان من الموقع

وهذه البلاد جبالها كلها على شكل المدائن مقلوب أعاليها سافلها والعياذ بالله، وبيوتهم كانت منحوتة في الجبال، والظاهر أنها قرى قوم لوط لأنهم هم الذين وقع بهم القلب، وأما قوم صالح فأهلكهم الله تعالى بالصيحة والله اعلم.

فبلغ الناس إلى هذا المحل على آخر رمق من نفوذ(كذا) الماء وكثرة الحر والعطش، وهذه المرحلة من أصعب الأرضين وأكثرها حجارة وصخورا وصلدا عظيما، فاستقى الناس لأنفسهم وللإبل والدواب وحملوا الماء أيضا للدار الأخرى لأنها لا ماء بها أيضا، وقلنا في هذا المكان من شدة الحر إلى أن صلينا المغرب وسافرنا الليل كله، وبعد طلوع الشمس نزلنا بموضع يقال له سهل المطران مسامة (كذا) لآبار الغنم، وبها قلعة بقيت عن يميننا وقد كانت تظهر لنا عن بعد، وهي المرحلة /224/ الثانية من مدائن صالح إن لو ذهبنا على العوالي، لكن تركنا العوالي عن يميننا وبها مياه وبساتين ونخيل، وقد أتى أهلها إلى المدائن بالتمر والليم[390] وغير ذلك، فترك الوزير طريقها لطولها ولكون أهلها فيهم إذاية بالسرقة ونحوها، وأتى مع هذه الطريق لاختصارها وخلائها من هؤلاء الشياطين وإن كانت لا ماء بها.

فظللنا مقيمين بهذه الأرض إلى العصر وسرنا بقية النهار والليل كله ومن

---

(390) يقصد البرتقال.

الغد إلى الظهر، ونزلنا على قلعة وبها ماء يقال له البير الجديد، وصلناها على سير إحدى وعشرين ساعة، وقد وصلنا عند طلوع الشمس من ذلك اليوم قلعة أخرى يقال لمائها الزمرد، فأبى الوزير أن ينزل بها وترك ماءها إلى الرجوع، فأقمنا عند البير الجديد بقية النهار فشرب الناس والإبل وطبخوا ما أكلوا، وبعد العشاء سافرنا الليل كله ومن الغد النهار كله إلىالإصفرار، ونزلنا على قلعة يقال لها هدية[391]، لكن ما رأينا فيما تقدم أشد حرا من هذا اليوم مع عدم الماء وشدة اللهيب والحر، فقد مات من الآدميين في هذا اليوم من العطش مائة وخمسة وسبعون، منهم من رأيناه على قارعة الطريق ومنهم من أخبرنا به، أما الإبل فشيء كثير.

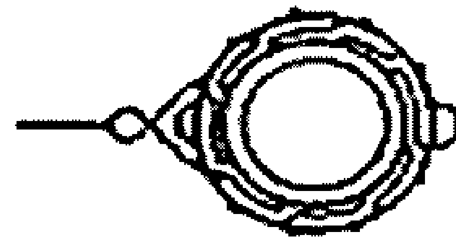
وهذه القلعة، أي قلعة هدية، مؤسسة بين جبال في أرض ماؤها قريب يحفر عليه مقدار ذراع أو أقل وينبع ماؤها، إلا أنه ليس بعذب ففيه مساسة وقد أسهل بطون الناس، وقد نزلناها على مسير عشرين ساعة فبتنا بها واستقى الناس لأنفسهم والإبل، وحملنا معنا الماء منها للدار التي /225/ بعدها لكونها لا ماء فيها، وعند الإصفرار سافرنا منها فسرنا الليل كله وبعد طلوع الشمس بساعة نزلنا بأرض يقال لها الفحلتين[392] على سير اثنتي عشرة ساعة، وهذه البلاد كثيرة الحجارة والطريق فيها مارة بين جبال، فقلنا بهذه المنزلة إلى أن صلينا العصر وسافرنا إلى ضحوة الغد، ونزلنا بأرض منفسحة بين جبال يقال لها آبار ناصف، يحفر الناس الآبار في الرمل ويستخرجون الماء وهو أحسن من ماء هدية، وقد وصلناه على خمس عشرة ساعة، وبعد صلاة الظهر سافرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى الزوال، ونزلنا بظاهر المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وبنينا الخيام بسفح جبل سلع،

(391) منزلة على طريق الشام من المدينة، "وهي أرض واسعة ذات رمال ووعر وأحجار وجبال، وفيها حفر كثيرة من الماء لكنه يوجب إسهال البطن بسبب ما ينبت هناك من السنا". (الحقيقة والمجاز 481)

(392) منزلة على الطريق بين الشام والمدينة المنورة، كانت تسمى كذلك حصن عنتر، اشتهرت عند الحجاج بقلة الماء وشدة الحر وكثرة الغبار. (الحقيقة والمجاز 481).

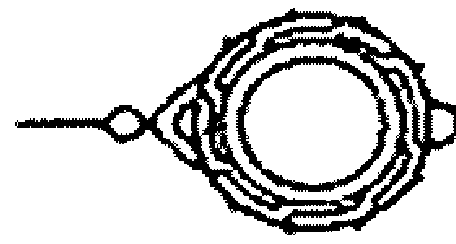
إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم   واقر السلام على عرب بذي سلم

الوصول إلى المدينة المنورة وزيارة قبر الحبيب



ولما نزلنا الخيام أول ما فعلنا أن تطهرنا ولبسنا ثيابا بيضا وتطيبنا، وقصدنا الملاذ الأعظم والمقصد الأفخم، حضرة سيدنا وسيد الثقلين سيدنا ومولانا، ووسيلتنا إلى ربنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما وصلنا باب المدينة ترجلنا وسرنا على أقدامنا إلى باب المسجد الحرام الشريف، وقصدنا موضع محرابه صلى الله عليه وسلم وصلينا فيه ركعتين، وتقدمنا إلى الضريح المبارك الميمون وقابلنا تربته الطيبة من الشباك ولله الحمد، وتبركنا برؤيته والدعاء عند مقامه الشريف وكذا صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ورجعنا إلى الخيام ثم رجعنا من الغد أيضا ففعلنا مثل ما تقدم، ومن الغد كذلك .

زيارة قبور الصحابة والخلفاء الراشدين وزوجات النبي



وخرجنا إلى البقيع[393] فزرنا أولا تربة سيدنا العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، /226/ وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه، والإمام زين العابدين والإمام جعفر الصادق[394] والإمام محمد الباقر، والسيدة

---

(393) البقيع، بقيع الغرقد، مقبرة إلى جنوب شرق المدينة المنورة دفن بها إبراهيم ولد النبي وبناته وزوجاته والجمهور الأعظم من الصحابة والأئمة مثل الحسن بن علي وعثمان بن عفان ومالك بن أنس، ولذلك فهي من المزارات التي يؤمها الحجاج. (دائرة المعارف 4-35؛ رحلة ابن جبير 145).

(394) أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الملقب بالصادق (80-148هـ/699-765م)، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أجلاء التابعين وذا منزلة رفيعة في العلم، أخذ عنه الإمامان أبوحنيفة ومالك وواصل بن عطاء، و له أخبار مع الخلفاء العباسيين إذ كان جريئا عليهم صداعا بالحق، ولكنه اتخذ مواقف سياسية انتظارية رغم تشوف الشيعة إلى تزعمه لانتفاضاتهم بحيث بقي على الحياد مثلا خلال ثورة محمد النفس الزكية (145هـ/762م). توفي مسموما بإيعاز من المنصور حسب رواية الاثني عشرية ودفن بالبقيع. له رسائل مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون. (ابن خلكان 1-327؛ الزركلي 2-126؛ E., I., 2-384)

فاطمة[395] بنت رسول الله صلى اله عليه وسلم وكلهم في قبة واحدة، وزرنا بعده أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت الفاروق عمر بن الخطاب[396] وأم ميمونة وجويرية[397] وجميعهن في قبة واحدة.

ثم زرنا بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة واحدة، ثم تربة عقيل بن أبي طالب، ثم إلى تربة الإمام الأعظم مالك بن أنس رضي الله عنه، ثم إلى جانبه نافع[398] شيخ القراء، ثم إلى زيارة سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه في قبة واحدة على قول بعض المزورين بقية العشرة الكرام ولكن غير صحيح، فإن أبا عبيدة بن الجراح تربته في الغور في نواحي القدس، والإمام علي رضي الله عنه بالكوفة وسيدنا حمزة[399] في ظاهر المدينة قبالة أحد، وأبو بكر وعمر في الحجرة

---

(395) فاطمة الزهراء بنت رسول الله (18ق.هـ-11هـ / 605-632م)، من خديجة بنت خويلد، تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب، عاشت بعد أبيها 6 أشهر ولها 18حديثا. (ابن سعد 8-11؛ الإصابة، النساء ت. 830؛ الزركلي 5-132).

(396) حفصة بنت عمر بن الخطاب (18 ق.هـ-45 هـ/ 604-665م)، صحابية جليلة من أزواج النبي ولدت بمكة وهاجرت إلى المدينة مع زوجها الذي توفي عنها، فتزوجها الرسول سنة 2 أو 3 هـ ظلت مقيمة بالمدينة إلى أن توفيت بها، روى لها البخاري ومسلم 60حديثا. (الزركلي 2-264-265؛ الإصابة 4-273؛ ابن سعد 8-56).

(397) جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار (ت.56هـ/ 676م)، إحدى زوجات النبي كان أبوها سيد قومه في الجاهلية، وسبيت مع بني المصطلق فافتداها أبوها ثم زوجها للرسول، وكان اسمها "برة" لكن الرسول سماها جويرية. كانت من فضليات النساء أدبا وفصاحة، توفيت بالمدينة وروى لها البخاري ومسلم 7 أحاديث. (الزركلي 2-148؛ ابن سعد 8-83).

(398) نافع القارئ، أبو رويم نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم الليثي (ت.59هـ /)، أحد القراء السبعة المشهورين وإمام أهل المدينة، كان أسودا شديد السواد صبيح الوجه حسن الخلق ذا دعابة، أصله من أصبهان واشتهر بالمدينة حيث انتهت إليه رياسة القراء، وتوفي بها. (ابن خلكان 5-368؛ الزركلي 8-5).

(399) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي (54ق.هـ-3هـ/ 556-625م)، عم النبي وأحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام، ولد ونشأ بمكة. تردد في اعتناق الإسلام ولما علم بتعرض أبي جهل للنبي والنيل منه ضربه وأظهر إسلامه فكان ذلك سندا للرسول وللمسلمين، هاجر مع النبي إلى المدينة وحضر بدرا وغيرها وقتل في معركة أحد ودفن بالمدينة. (الزركلي 2-278؛ طبقات ابن سعد؛ تاريخ الخميس 1-164).

النبوية وسيدنا عثمان والعباس في البقيع، وطلحة قتل يوم الجمل وكذا الزبير بن العوام لأنه مات يوم الجمل بوادي السباع والله اعلم.

وزرنا جماعة من الصحابة شهداء قتلوا في فتنة يزيد بن معاوية، وبعدهم زرنا سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقبته في آخر البقيع، ثم زرنا مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها، وقبتها بقرب ضريح سيدنا عثمان، ثم إلى تربة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي سعيد الخذري وهو خارج سور البقيع، ثم فاطمة بنت أسد /227/ والدة سيدنا على بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم عمدنا إلى قبة فيها عمات النبي صلى الله عليه وسلم.

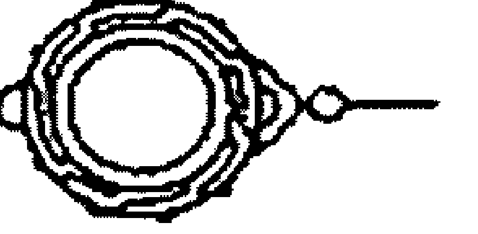
فكان مقامنا في المدينة المنورة في التوجه إلى مكة اليوم الذي وصلنا واليوم الذي بعده، واليوم الثالث سافرنا عند الظهر فسرنا ساعتين ووصلنا ذا الحليفة[400]، ويسمى اليوم ببيار علي لأنه هنالك آبار كثيرة، فنزل الناس هنالك وابتنوا الخيام واستقوا الناس الماء لتلك الليلة ولليوم بعدها لكونها لا ماء فيها، وبقينا هنالك نازلين إلى أن صلينا العشاء بنحو ساعة، حتى تهيأ من تعين عليه الإحرام من هذا الميقات، وسرنا الليل كله ومن الغد إلى قرب الزوال، فنزلنا موضعا يقال له الشهداء على مسيرة ست عشرة ساعة من المدينة، وهذه البلاد إلى هذا الموضع كلها جبال وأرضها كثيرة الحجارة كثيرة الحر، فقلنا هنالك وعند العصر سافرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى الضحى، فنزلنا على قرية يقال لها الجديدة[401]، مؤسسة على جبال على عين ماء جارية عذبة ليس هناك بين المدينة ومكة أفضل من مائها، وقد وصلناها

---

(400) ذو الحليفة، مكان يبعد ستة أو سبعة أميال من المدينة، وهو عبارة عن "بطحاء سهلة لينة...وهنالك بير يعرف ببير علي وعليه نزول الركب وبه آثار بنيان ورسوم داثرة" على حد تعبير العبدري، وكان ينزل به الرسول (ص) إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة اليوم، وثبت أنه (ص) وقت لأهل المدينة ذا الحليفة. (الروض 196؛ العبدري 201).

(401) قرية على الطريق بين المدينة ومكة، يصفها النابلسي بأنها "قرية واسعة كبيرة فيها الماء وتسمى بالخيف لكثرة النخل في واديها". (الحقيقة والمجاز 438).

على خمس عشرة ساعة ووجدناها مخربة، خربها سلطان مكة سرور[402] عند توجهه إلى المدينة وقد وجدناه هناك، لأن أهلها أهل فساد وإذاية كثيرة للحجاج على ما يحكى، فظللنا بها وبعد صلاة العصر سافرنا منها فخرجنا بين جبال ووجدنا أثر الحصار من فعل أهلها، وأغلقوا طرقها بالحجارة الكثيرة والشجر وبيوتهم على حافتي الطريق، وفي بلادهم نخيل كثير.



التقاء الركب الشامي بالركبين المصري والمغربي

ثم خرجنا من هذا المضيق /228/ إلى أرض منفسحة واسعة، فسرنا بها بقية النهار والليل كله ومررنا فيه بالصفراء[403]، وهي قرى ذات بساتين ونخيل كثير، فكان أهلها يبيعون بالليل على قارعة الطريق التمر والليم على ضوء جريد النخل، ثم صلينا الصبح بحنين[404]وهي أيضا أجنات ونخيل وماء، ثم تمادينا على المسير فنزلنا بدرا على خمس عشرة ساعة من الجديدة، وهناك تلاقينا مع الركب المصري والمغربي وقد سبقناه نحن إلى الدار فظللنا هنالك، وماء بدر رديء وقد كنا حملنا الماء معنا من الجديدة لأنه عذب.

وتلاقينا مع حجاج أهل المغرب، وناولونا مكاتب جاءوا بها من المغرب من عند سيدنا أمير المؤمنين ومن الأهل فجددنا العهد بخبرهم، وقد طلع في هذا الركب المصري سيدنا يزيد بن أمير المؤمنين؛ وبقرب العصر سافرنا وتخلف المصري يأتي خلفنا، فسرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى قرب الزوال، فوصلنا موضعا يقال له القاع وهي أرض بسيطة متسعة، نزلناها

(402) الشريف سرور بن مساعد بن سعيد (1168-1202هـ/ 1753-1788 م)، شريف حسني من أمراء مكة ثار على عمه أحمد بن سعيد أربع عشرة مرة ونشبت بينهما حروب انتهت باستيلاء سرور على الإمارة سنة 1185هـ واستمر فيها إلى أن توفي بمكة. (الزركلي 3-81).

(403) الصفراء، قرية فوق ينبع على مسير ثلاثة أيام من المدينة كثيرة النخيل والمزارع تسقيها عيون ينبع، وتتميز بكثرة حصونها ويسكنها الأنصار وجهينة ونهد. (الروض 362؛ معجم البلدان 3-412؛ رحلة ابن جبير 139).

(404) حنين، واد عميق ذو نخيل ومياه على مسيرة يوم من مكة على طريق الطائف، شهد الوقعة الشهيرة التي حدثت بعيد فتح مكة وانهزم المسلمون في بدايتها رغم كثرة عددهم كما ورد في سورة التوبة. (دائرة المعارف 8-132).

على خمس عشرة ساعة على غير ماء، وبقينا هنالك إلى أن صلينا الظهر وسرنا بقية النهار والليل كله ومن الغد إلى الزوال، فنزلنا رابغ(405) على عشرين ساعة وهو ميقاتنا، وهنالك قرية كبيرة حواليها نخيل وماؤها رديء، وبحر القلزوم(406) المسمى الآن بالسويس يرى منها وقد كان ظهر لنا بالأمس عشية، لكن وجدنا أهل رابغ فارين من بيوتهم خوفا من الشريف سرور سلطان مكة، فظللنا بها وبتنا ومن الغد إلى قرب العصر فأحرم الناس وأحرمت من هنالك مفردا، وسافرنا الليل كله ومن الغد نزلنا قديدا(407) موضعا به نخيل /229/ وقرى، لكنها خربة خربها سلطان مكة في وجهته هذه إلى المدينة. وقد توجه الناس لسقي الماء من آبار بعيدة عن المحط، وبعد صلاة العصر سافرنا بقية النهار وفي نصف الليل نزلنا موضعا يقال له خليص(408)، به ماء عذب على ثمان ساعات من الدار الأخرى بعد أن مررنا في آخر المسافة على موضع يقال له عقبة السكر(409)، وهو شرف من الرمل في غاية الصعوبة تدخل فيه أرجل الإبل والبهائم إلى السوق، فبقينا بخليص بقية الليل ومن الغد بعد الظهر سافرنا، وحملنا الماء معنا من خليص

---

(405) رابغ، واد يقطعه الحجاج بين البزواء والجحفة دون عزور، له ذكر في المغازي وأيام العرب. (معجم البلدان 3-11؛ الحقيقة والمجاز 439).

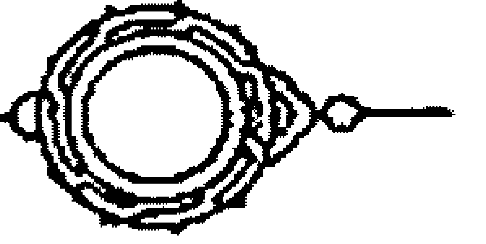
(406) الأصح القلزم وهو البحر الأحمر نسبة إلى مدينة القلزم (كليسما القديمة) الواقعة قرب السويس، ولهذا البحر شهرة سيئة عند العرب بسبب الزوابع والصخور المرجانية.(دائرة المعارف 3-382).

(407) قديد، واحة كثيرة المياه والبساتين بها حصن صغير في الطريق بين مكة والمدينة بسكنه أخلاط من العرب، يبعد عن البحر بخمسة أميال وبينه وبين الجحفة ستة وعشرون ميلا. كانت توجد بها مناة التي دان بها الأوس والخزرج وغيرهم إلى أن هدمها أبو سفيان بأمر من الرسول. (الروض 454).

(408) قلعة على مسيرة ثلاثة أيام من الجحفة في اتجاه مكة، يصفها العبدري بأنها "قليعة منيعة على شرف مرتفع ولها نخل كثير وماء جار طيب"، كانت محطة للحجاج حيث يقام سوق كبير يجلب إليه الأعراب "الغنم والتمر والإدام فيكثر العيش بها ويرخص" على حد تعبيرالعبدري. (العبدري 166).

(409) كانت تعرف زمن العبدري بعقبة السويق "وهي عقبة كثيرة الرمل وليست بطويلة ولكنها شاقة لوعثها والناس يقصدونها بشرب السويق ويستصحبونه برسم ذلك من مصر ويخلطونه مع السكر". (العبدري 166).

لأن المحط الذي بعده لا ماء فيه، فسرنا بقية النهار والليل كله وعند طلوع الشمس نزلنا الخيام بموضع يقال له سبيل الجواخي على ثلاث عشرة ساعة، وسافرنا منه عشية والليل كله ومن الغد عند الضحى نزلنا بظاهر مكة المشرفة، وهو اليوم السابع من ذي الحجة[410]، فنزلنا الخيام واغتسلنا بها للطواف لأنه لم يمكن لنا الاغتسال بذي طوى[411] لعدم مرورنا عليها.



الوصول إلى مكة وبدء شعائر الحج

وتوجهنا إلى البيت ودخلنا على باب السلام، وليس هو باب السلام الذي كان يدعى باب بني شيبة، لأن ذلك في داخل المسجد اليوم، وهو باب المسجد القديم وهو في مقابلة المقام وباب البيت، وهو الذي ينبغي الدخول منه وهو اليوم مقوس بالبناء في موضعه القديم علامة عليه، وأما باب السلام الذي يسمى الآن باب السلام، فهو أحد أبواب المسجد المزيد وليس هو في مقابلة باب البيت فهو منحرف عنه بعض الإنحراف، وباب المسجد الذي هو في مقابلة بابه الداخلي هو باب النبي /230/ صلى الله عليه وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي من تلك الناحية لأن داره عليه السلام كانت في زقاق الحجر وهو في تلك الناحية.

فطفنا بالبيت طواف القدوم وصلينا ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم، ودعونا بالملتزم بما نرجوا من الله قبوله، وخرجنا من باب الصفا فسعينا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم رجعنا إلى البيت فقعدنا به نتبرك بمشاهدته، وبعثنا بعض أصحابنا ليكتري لنا دارا لنزولنا فهيأها لنا وانتقلنا من الخيام إليها، ومن منة الله كانت قريبة من المسجد الحرام (فكنا نستغرق غالب الأوقات في المسجد)[412]

---

(410) ذي الحجة 1201 الموافق لـ20 شتنبر 1787.

(411) ذو طوى، موضع اختلف في ضبطه بدقة كما يشير إلى ذلك العبدري، وإن اتفق على وجوده على وادي بين ثنية الحصحاص وثنية المقبرة المسماة كدى قرب مكة. (الروض 260؛ معجم البلدان 4-44؛ العبدري 167).

(412) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

وخطب الخطيب خطبة يوم السابع إحدى خطب الحج، ومن الغد وهو يوم التروية خرج الناس من مكة قاصدين عرفات، ولم ينزلوا بمنى ولا باتوا بها فقد أميتت هذه السنة، وصار الناس في هذا الزمان يخرجون من مكة اليوم الثامن، ويروحون إلى عرفات وينزلون في موضع الوقوف، فسرنا كذلك ووصلنا الخيام بعد العشاء، وبين مكة وعرفات نحو أربع ساعات فبتنا بالخيام وقلنا بها، وقد عمر هنالك سوق عظيم خرج الناس من مكة بجميع المأكولات والمشروبات والأمتعة من مكة وغيرها، والأعناب والرمان من الطائف وجميع الفواكه، وعند النزول توجه الناس إلى مسجد نمرة، وقد خلفناه من ورائنا لكونه في طرف الحرم ونحن تجاوزناه إلى عرفات وهي في الحل، فخطب الخطيب وهذه الخطبة الثانية من خطب الحج جمع الناس فيه بين الظهرين .

وهذا المسجد أفسدته الأعراب فتدخل إليه مواشيها وأعدوه مقيلا لها، / 231/ فكله ملئان ببعر الغنم، وهو كبير مسقفه ثلاث بلاطات وباقيه فضاء عار من السقف؛ ورجع الناس إلى الخيام وبعد العصر بهنيئة ركب الناس ووقفوا، فمن وجد فسحة قرب من الجبل ومن لم يجد فسحة وقف بمكانه، وصعد الخطيب على ناقته إلى الجبل واستمر في خطبته إلى أن غربت الشمس، ودفع الناس من عرفات وتقدم وزير الشام بمحمله وعسكره وطبوله، وكذا باي مصر بمحمله وعسكره وطبولهم تنقر والمزامير والعسكر يخرج المدافع، وكل واحد من الفريقين يجهد في أن يتقدم على الآخر، فسبق أمير الشام فتقدم بمحمله وعساكره وتبعه أمير مصر كذلك والحجاج من ورائهم، واستمروا كذلك بعد أن مررنا بين المأزمين العلمين، وهما بناءان أحدهما عن يمين الطريق والآخر عن اليسار، إلى أن وصلوا المزدلفة، ونزلنا بها بغير خيام لأن الخيام تقدموا بها أمامنا، فلما حططنا بالمزدلفة وقد وصلناها بعد العشاء صلينا بها العشاءين جمعا وقصرا للأخيرة، والتقطنا جمار العقبة منها وبتنا بها، ولما طلع الفجر صلينا الصبح لأول وقتها وسرنا بغلس إلى المشعر الحرام، فرجعنا إليه لأننا خلفناه وراءنا فهو في آخر المزدلفة، فوقفنا به للدعاء إلى الأسفار ثم رجعنا على أدراجنا إلى أن وصلنا الخيام

بمنى، وتمادينا على المسير إلى العقبة فرمينا الجمار ثم رجعنا إلى الخيام، فذبحنا شاة ترتبت علينا من فدية، لكوني لما أحرمت أبقيت رأسي مستورا خشية من أذى الحر، ثم حلقنا وتوجهنا إلى مكة من فورنا في ثياب إحرامنا، فطفنا طواف الإفاضة ثم رجعنا /232/ إلى منى فبتنا بها، ومن الغد رمينا الجمار الثلاث الأولى التي تلي مسجد منى والثانية التي في السوق، وختمنا بالعقبة ثم رجعنا إلى الخيام، ومن الغد رمينا الجمار أيضا كما تقدم وتعجلنا في المسير إلى مكة، بل وتعجل الناس كلهم ولم يبت أحد ليلة الرابع بمنى، وقد أميتت سنة التحصيب أيضا فلم ينزل به أحد.

وفي الليلتين اللتين بتنا فيهما بمنى كان يقع بالليل مهرجان عظيم، فيوقد أمير الشام مصابيح كثيرة على كيفية مخصوصة وترتيب عجيب، ويرفعها على أعمدة طوال وكذلك أمير مصر وكذلك سلطان مكة، ويبيتون ليلتهم كلها يرمون بالمحاريق، أهل الشام يرمون لناحية أهل مصر وأهل مصر يرمون لناحية أهل الشام فتنشأ هنالك فرجة عظيمة[413].

ثم بعد ذلك توجهنا للإتيان بالعمرة، فأحرمنا بها من وادي التنعيم، وهناك بركة معدة للماء لكن بها بعض خراب فليس بها ماء اليوم، وبإزائها مسجد فدخلنا إليه وأحرمنا منه، ثم أتينا إلى مكة فطفنا ثم رجعنا إلى المسعى، فسعينا وحلقنا وتممنا وله الحمد وله المنة. وبقينا بعد ذلك في مدة مقامنا بمكة ملازمين البيت والصلاة فيه، والطواف والوضوء من زمزم

---

(413) يصف عبد الغني النابلسي احتفال أمراء الحج المصري والشامي بانتهاء مناسك الحج قائلا: "ثم جلسنا نتأمل بوادر السرور بما يصنع في هاتيك الليالي فرحا بإتمام طاعة رب العالمين من إيقاد المشاعل الكثيرة والقناديل المختلفة الوضع على العيدان منشورة، ورمي البارود في الأوراق يعلو ويهبط كالنجوم، ومنه ما ينتشر في الجو وينقض انقضاض الرجوم، متفننين في فعل ذلك أنواع الفنون، مما تحير فيه الأسماع وتشخص العيون، كما هو عادتهم في كل سنة يستعدون له من بلادهم. ثم إذا فرغوا من ذلك الرمي بالبارود ضربوا الطبول والبوقات ونفخوا في الزمور والصنجات، ثم بعد ذلك يضربوا المدافع الهائلة والمكاحل الصغار التي لها مقابلة، يفعل هذا كله الحاج المصري فإذا فرغ فعل ذلك نظيره الحاج الشامي ويتفاخرون في ذلك بأنواع الاختراعات العجيبة والنكت البديعة الغريبة". (الحقيقة والمجاز 461-462).

والشرب منه إلى أن آذن الناس بالرحيل، فتأهبنا وشددنا حوائجنا ودخلنا إلى البيت فطفنا طواف الوداع، وسألت عن كدى لأخرج منه فلم يعرفه من كان حاضرا معنا، إلا أنه ذهب بي إلى أحد أبواب المسجد في الناحية التي من وراء البيت، وقال من هذا الباب يخرج المودع، فظننت (كذا) أنه ذلك / 233/ وهو مناسب لكون الدخول من أمام، وهذا الباب الذي يخرج منه من وراء، فخرجنا وقلوبنا منكسرة وأنفسنا من الفراق متحسرة لا حرمنا الله من رؤيته .

مغادرة مكة ووصف المسجد الحرام

ثم قصدنا بيوتنا فوجدنا المحامل لركوبنا موجودة، فركبناها وسرنا إلى الخيام وقد كانت مبنية في موضع يقال له الشيخ محمود على نحو ساعة من مكة.

وأما المسجد الحرام فهو من أكبر مساجد الإسلام وأعظمها، ولسنا نعني المسجد الحرام القديم وحده فذاك صغير جدا، وحده ظاهر بوسط المسجد وهو محل المطاف، وإنما قصدنا المسجد الحرام على الهيئة التي هو عليها الآن من الزيادة والتوسعة، فطوله من المشرق إلى المغرب أحد وأربعون قوسا مرفوعة على أعمدة الرخام، وفي عرضه ثمانية وعشرون قوسا كذلك، عرض كل قوس خمسة عشر قدما ونصف، وعرض أصل كل عمود قدم ونصف وفي بعضها ثلاثة أقدام، فتكون مساحة طوله بتقريب من أجل الأعمدة سبعمائة قدم وخمسة أقدام، وعرضه أربعمائة قدم وستة وسبعون قدما بتقريب أيضا من أجل الأعمدة، لكونه ضل عني عدد الأعمدة التي في أصولها ثلاثة أقدام من غيرها، ومسقفه ثلاث بلاطات فقط دائرة به من الجهات الأربع، ووسطه براح متسع جدا وعدد أبوابه نحو الأربعين، أخبرني بذلك بعض أهلها، وفي وسطه بيت الله الحرام .

قصيدة لابن عثمان يلخص فيها مناسك الحج

وقد سألني بعض الإخوان من الطلبة الملازمين لنا، أن ننظم لهم المناسك على مذهب إمامنا مالك رضي الله تعالى عنه، فلم يمكنني إلا

مساعفته فنظمتها / 234/ وختمتها بدعاء دعونا به عند مواجهة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأردت أن نثبتها وهي هذه:

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

قال محمد هو ابن عثمان	الحمد لله الرءوف الرحمان
معلم الإنسان ما لم يعلم	من فضله علمنا بالقلم
ثم صلاته على المختار	شفيعنا في الحشر من النار
وحزبه ورهطه الأخيار	وآله وصحبه الأبرار
وبعد حمد الله والصلاة	على نبي هو النور الذاتي
لما أخذت في طريق الحج	أسير في بيداء ذات فج
سألني البعض من الإخوان	عليه صيب من الرضوان
نظم المناسك على تقريب	معينة الأمي لا الأريب
فلم أجد بدا من الإسعاف	عوفيت من قهر ورد عاف
والله أسأله أن يعيننا	على الذي قصدته تعيينا
سميتُه نور الضيا الوهاج	على دلالة مريد الحج
الحج فرض مرة في العمر	خلاف في تأخيره أو فور
وعمرة إيت بها في السنة	واحدة موافقا للسنة
أركانه أربعة مفروضة	الإحرام والسعي كذا الإفاضة
/ 235 / طوافه بعد وقوف عرفه	ليلة نحر ساعة تلك الصفه
فهذه إن تركت لا تجبر	بسهوه أو جهله لا يعذر
وواجب من غير ركن يجبر	فالدم إن تركته لا يهدر
إحرام ميقات طواف من قدم	فالدم إن تركته عمدا حتم
لا مع عذر ولنسيان دهم	تلبية والنطق بها منعدم
أو أهملت في أول الإحرام	أو بعده مثله في الأحكام
وركعتا الطواف حيث تركت	أو فصلت وعن طواف بعدت
تجرد من المخيط قبله	وصلك بالسعي الطواف فعله

والمشي في الطواف والسعي معا لقادر من غير تفريق اسمعا

كذا الوقوف في النهار واجب ... فالدم إن تركته يا صاحب
والبدء بالحجر في الطواف ... إن لم يعده قبل الإنصراف
والدفع من عرفة من اللغوب ... ولم يجاوزها إذا بعد الغروب
ترك ثلاث بمنى يوجد دم ... ولو في جل ليلة يوجب ذم
من ذاك أن يمشي من قد ... وصفه قبل دخول مكة لعرفة
لغير عذر ومع الإمكان ... مؤخرا لبعض ذي الأركان
رمي جمارك ولو حصاة ... إن خرج الوقت من الآفات
كذا وقوف عرفة نهارا ... فالدم إن تركته جهارا
لغير عذر ثم إن تؤخرا ... رمي جمار أو حصاة مضطرا
236 / عن النهار كله لسليل ... فاحذر وكن متبعا لقول
نزول مزدلف مع حط الرحال ... رمي ونحر حلقه وهو حلال
تقديم جمرة على الإفاضة ... والدم في العكس مع المضاضة
وركعتا الطواف إن أديتها ... في البيت والحجر وما أعدتها
فالدم في البعض بالاتفاق ... وهو على مشهورها في الباقي
سننه غسل صلاة ركعتين ... لبس ردا نعلين ثم أزرتين
ووصله مع حضور نية ... إحرامه بكلمة التلبية
وجددنها عند كل حال ... تجددت بفعل أو مقال
لدى نزول وهبوط وصعود ... كذا قيام أو مقام وقعود
خلف صلاة رؤية الرفاق ... سماعه تلبية الخلاق
وسوقه الهدي وإن لم يجب ... عليه فهو أفضل التقرب
إشعار ما يشعر مع تقليد ... لما يقلد بلا تفنيد
قصد إلى مكة بالإحرام ... تقبيله الحجر واستيلام
اليمني أول الأشواط ... من سنن الطواف لا الأشراط
كذا دعاءه وذكر الله ... دون قراءة بلا اشتباه
والرمل في الثلاثة الأشواط ... والمشي في الباقي بلا اختلاط
تقبيله الحجر الأسود لدى ... خروجه للسعي دع من عاندا
رقيه على الصفا والمرو ... مستقبل البيت بصدق النجوى
237 / كذاك ما بينهما مع الخبب ... بطن مسيل فاعله لا يخب

وثامن الشهر اخرجن لمنى | بقدر ما تدرك ظهرا ومنى
وبت بها ليلة يوم عرفة | وأقصر صلاتك وكن ذا معرفة
إلا إذا كنت بها مستوطنا | كمن بمزدلفة قد قطنا
أو عرفات كلهم يكمل | من قصرها يمنعهم المنزل
واقصد إلى عرفة بعد الطلوع | مبيت مزدلفة بعد الرجوع
وجمعك الظهرين قل في نمرة | بإثر خطبة نعم بلا مرة
واجمع عشاءك بمزدلفة | لمغرب تحز كمال الصفة
تقصير مرأة وحلق الرجل | إلا لخوف من أذى أو وجل
إلا صغيرة هما سنيان | طواف للوداع خذ بيان
وغير ذا أفعاله مندوبه | عما تكن أفعاله مطلوبه
أما المباح فهو غير ما ذكر | نعم فجزءياته لا تنحصر
أذكر ما يوهم منها منعا | إفادة لطالب ونفعا
فمنه أن يغسل بالأشنان | كلتي يديه فخذن بيان
ورعيه البهيم في الحرام | وهشه للشجر الكرام
وأكله الأدهان مثل السمن | بغير طيب فكلن في أمن
يرد من له عليها رجعية | إذ هي في الشرع كمثل الزوجية
ويشتري العبيد والجواري | ويستري من ذلك الجواري
/ 238 / يحرم في الثوب الذي فيه علم | من الحرير ولعذر احتجم
فإن يكن شعرا لذاك قد حلق | ففدية راتقة لما فتق
وينشد الشعر الذي لايذكر | فيه النساء والخنا والمنكر
لا سيما إن كان فيه وعظ | ففيه ذكرى للنفوس حظ
ومنه الإستظلال بالبناء | وثابت الشجر والخباء
كالظل من محارة ومحمل | لا يستظل منهما بداخل
من استظل برداء على عصا | ففدية وإن تعمد عصى
ويتقي الشمس وريحا بيد | والسيف قد أبيح للمتقلد
العربي منه لا العجمي | عرض حمالة لذا منهي
وشده نفقة بوسطه | جرابه بصدره وربطه
يزيل ما تحت أظافر وسخ | من قذرات أوعفونات وسخ

وطرده عن رحله وقوته ... طيور مكة لخوف فوته
وذبحه الأنعام والدجاج ... وصيد ماء كله لا جناح
محظوره ثلاثة تفسر ... مكروهها ومفسد ومجبر
فالمفسد الجماع بالإطلاق ... كمني بنظر الأحداق
نعني إذا أدامه أو فكر ... تحريك مركوب عليه يجري
قبل الوقوف مطلقا وبعده ... بشرطه فلتفهمن قصده
أما إذا أمنى بلا استدامه ... عليه هديه ولا ملامه
239 / كذا إذا أمذى وإن يقبل ... على فم عليه هدي فقل
ثم على غير فم فالهدي ... كجسه إن كان منه مذي
وحيث قلنا بفساد الحج ... فواجب تكميله بعج
مع القضا في قابل بفور ... والهدي ثم ذبحه أو نحر
مجبوره لباسه المخيط ... وجعله لعضوه المحيط
ولو قليلا مثله كخاتم ... فإن يكن عمدا فهو آثم
وستر مرء وجهه ورأسه ... وإن بطين من أذى حرسه
ومرأة وجهها أو الكفين ... لغير سترة بغير مين
وتلبس النساء ربات الحجال ... من المخيط ما يشأن لا رجال
مؤنث الطيب عليه جرم ... فعله قصدا عليه جرم
الا إذا ألقاه ريح أو بقي ... من قبل إحرام وبالقرب اتقي
أو من خلوق كعبة أصابه ... فإن يقل جبر ما أعابه
دهنه لحية ورأسا أصلعا ... وجسدا لمن أصيب قل لعا
إلا إذا كان بكف أو قدم ... لعلة بغير طيب كالعدم
إبانة الظفر لغير عذر ... ورفع ضر وسخ أو شعر
وقتله لقملات كثرت ... وطرحها عنه كما لو قتلت
عقد نكاح محرم لا يبرم ... عن نفسه وغيره محرم
قبل البنا وبعده ينفسخ ... ولو بالأولاد فليس يرسخ
240 / يمنع صيد حيوان البر ... كذا التعرض له ببشر
ولو بأدنى سبب كفزعه ... فمات من سببه بروعه
وجروه وفرخه وبيضه ... فلا تطف بها فذاك بعضه

إلا العقارب أو الحيات ... فارة فتلك مؤذيات
كذا غراب وحداءة وفي ... لصغير منهما خلاف اقتفي
وعادي السباع مثل الذئب ... إن كبرت فاقتل بلا تتريب
ووزغ يقتله الحلال ... لا محرم وليجتنبه قالوا
بقتل صيد يجب الجزاء ... بحكم عدلين به احتذاء
بمثل ما قتل من أنعام ... أو قيمة الصيد من الطعام
أو عوض ذلك من الصيام ... بعدد الأمداد من أيام
وإن يكن كسر لمد يعرض ... فصم له يوما فلا يبعض
وقطع ما ينبت في الحرام ... سوى السنا وادخر كلامي
صيد المدينة على تحديد ... شجرها بريد في بريد
جابر محظور له أشياء ... هدي وفدية كذا الجزاء
سوى نكاح جبره لا يلزم ... وكن بالإستغفار ممن يعزم
ترفه ثم إزالة أذى ... يوجب كل منهما نوع فدى
وهي أن تنسك شاة من غنم ... أو ستة بدله إذا أطعم
من المساكين لكل واحد ... مدان أو صوم ثلاثة زد
/ 241 / والحكم في الجزاء قد تقدما ... بيانه إن كنت ممن علما
والهدي في النقص بحج واجب ... أو عمرة بتركه لواجب
أو المقدمات للجماع ... والمذي حاصل بلا نزاع
كذا إذا أمنى بغير فكر ... والوطء قبل حلقه للشعر
وفي الفساد والتمتع وفي ... قران أو فوات ذا فلتعرف
ووطئه بعد إفاضة إذا ... أخر جمرة عن ذلك خذا
كذا إذا وطئ قبل حلقه ... بعد إفاضة فهديا يلقه
إن جعل النسك فيها هديا ... فأجره في الحكم فيه جريا
يجمع فيه بين حل وحرام ... بمكة يذبح شرط ملتزم
أو في منى بشرط أن يوقفه ... بعرفات عند من عرفه
مكروه ضد سنة ومندوب ... فاجتنبه تفز بالمطلوب
ومثل ذاك شده بعضده ... نفقة له كذا بفخذه
وكب وجهه على وساد ... والنهي عنه بالعموم بادي

ولبس مصبوغ بغير طيب / لمقتدي به من المرهوب
وشمك الطيب المذكر كذاك / حجامة طلت دماء أعداك
جلوس بالمكان فيه طيب / وحمله فإنه مريب
وغمس رأس بعده تجفيف / فحاذرن فإنه مخيف
242 / من ذاك أن تنظر في المرءات / خشية أن تصلح من أشعاث
ولبس مرأة قباء مطلقا / فحصلن وقيدن وحققا
الإحرام بالحج أو القران / قبل الزمان وكذا المكان
وإن ترد ترتيبه فاستمع / وارعني سمعك للسرد وع
أول ما يفعل في الميقات / عن قادة أئمة ثقات
غسل وتنظيف ولبس نعلين / وأزرة ردا صلاة ركعتين
قراءة بالكافرون والإخلاص / وفقت للصدق وحسن الاخلاص
تلبيدك الوفرة بالغاسول / والصمغ من قبل من المنقول
وقلد الهدي مع الاشعار / ولا يكن من الجلال عار
تقليده تعليق شيء في العنق / لبقر لا غنم أو الأنق
الأفضل أن يفتل شيئا مما / تنبته الأرض عليه وسما
واستحضرن نية ما تحرم به / عند التوجه لقصد مطلبه
أفضلها الافراد عند مالك / عليه مغفرة خير مالك
وذاك أن تحرم بالحج فإن / أتممته فأت بعمرة تسن
وإن ترد حجك بالتمتع / فافعل كما أصفه لك وع
فأت بعمرة على الكمال / أحرم بحجك على التوال
بشرط أن تكون قد حللت / بأشهر الحج الذي نويت
ثم القران اقرن بحج عمرة / صحيحة وقدمنها نية
243 / أو اردفن حجك من قبل الطواف وبعده كراهة بها اتصف
وبعد ركعتين للطواف / قد منعت كيفية الارداف
وقل إذا مشيت أو ركبت / تلبية الرسول إذ أجبت
مع التوسط في ذكرها وفي / رفعك للصوت وليس بالخفي
صغة ذكرها كما تقدما / بيانه حتى تصل الحرم

واتــرك إذا تــلــبــيــة واســتــقــبــل ... الــبــيــت بــالــغــيــر فــلا تحــتــفــل

وليغتسل بذي طوى لذا الطواف من غير ذلك حاذرا مما يخاف

وادخــل نهــارا مــن كــدا الــثــنــيــة ... أمــام مــكــة بــقــصــد نسية

بــاب بــنــي شــيــبــة مــنــه فــادخــل ... واقــصــد إلى الحــجــر ثــم قــبــل

بــوضــع فــيــك ثــم إن لم تــقــدر ... فــســبــد والــعــوذ ولــتــكــبــر

كــذا اليــمــاني اســتــلــمــه بــاليد ... فــي كــل شــوط مــا فــعــلــت أعــد

وليطــفــن ســبــعــة بــالــبــيــت ... طــواف قــادم بــغــيــسر ريــث

يــرمــل فــي ثــلاثــة مــن أول ... الأشــواط ليس غــيــر كــل رجــل

شــروطــه طــهــارة مــن الحــدث ... وســتــر عــورة طــهــارة الخــبــث

وكــونــه ولاء لا تــمــاري ... وجــعــلــك الــبــيــت عــن اليــسار

بــداخــل المســجــد عــن شــذروان ... يخــرج كــل بــدن فــي الــدوران

وســتــة مــن أذرع مــن حــجــر ... وركــعــتــا الــطــواف بــعــد تجــري

ويــســتــحــب فــعــلــهــا خــلــف المقام ... ثــم دعــاء بــعــدهــا بــالمــلــتــزم

244 / وعــد إلى الحــجــر لــلــتــقــبــيــل ... واخــرج ولاء لــلــصــفــا الجــلــيل

مــن بــابــه وارق عــلــيه لــلــدعــا ... مــســتــقــبــلا لــبــيــت الــلــه خــاضــعــا

ثــم انــحــدر مــلازمــا لــلــذكــر ... واقــصــد إلى المروة ذات اليــســر

وخــب فــي بــطــن المسيــل خــبــبــا ... وارق عــلى المروة نــلــت الأربــا

وافعل كما يفعل في أعلا الصفا من الوقوف والدعا أهل الصفا

تــفــعــل ذلــك مــرار ســبــعــا ... المشــي مــرة كــذاك الــرجــعــى

أربــع وقــفــات عــلى الــصــفــا تــقــف ... ومــثــلــه بــمــروة ولــتــنــصــرف

صــحــتــه وقــوعــه بــعــد طــواف ... صــح وفــرضــيــتــه فــيــهــا خــلاف

مــع شــروط لــلــصــلاة المــكــنــة ... (أكرم ببقعة علت في الأمكنة)[414]

وعــد إلى تــلاوة الــتــلــبــيــة ... إلــى رواح مــصــلــى عــرفــة

فــإن يــكــن ثــامــن يــوم الــنــحــر ... فــاخــرج إلى مــنــى تــفــز بــالــدخــر

وبــت بــهــا وبــعــده تــقــدم ... إلى مــصــلى عــرفــات تــكــرم

---

(414) سقط هذا الشطر من (أ) وورد في (ب).

واجمع بها الظهرين قصرا ... واصعد إلى الوقوف للغروب تسعد
بشرط ادراك لجزء الليل ... عوفيت من ضر لذا يا خل
وادفع لمزدلفة مع الإمام ... ومر بين المأزمين لا ازدحام
في حط رحلك كمال الأرب ... واجمع عشا مقصرا للمغرب
وبت بها في طاعة الإله ... ولا تكن عن ذكره بالساهي
وصل صبحك مع الإمام ... وغلس للمشعر الحرام
245 / تقف للدعاء للاسفار ... وسر كما أنت إلى الجمار
ولقطها أولى من المزدلفة ... ويرمينها برمي خذفة
بحجر مثل حصاة الخذف ... كالفول فارم آمنا من خوف
اعني بها عقبة بها يحل ... من كل شيء محرم إلا ما قل
الصيد والنساء ثم الطيب ... والنحر والحلق به تطيب
ثم ارجعن لمكة في نسق ... وطف إفاضة وصل ما بقي
وصل ركعتين للقيوم ... واسع إذا لم تسع في القدوم
ثم ارجعن إلى منى بفور ... وصل عندها صلاة الظهر
وبت بها لياليا ثلاثا ... أو ليلتين إن تشا انبعاثا
في كل يوم بعدها ترمي الجمار ... أولى ووسطى عقبة ولا تمار
ثان وثالث هما ورابع ... ليوم نحرك الأضحى يا رافع
في كل جمرة بسبع حصيات ... مثل حصا الخذف ولاء نقيات
تقف للدعاء إثر الأولين ... لا بعد عقبة وسر من دون مين
بقدر ما تسرع في قراءتك ... بقرة مع إظهار فاقتك
قبل صلاة الظهر من بعدالزوال ... لرمي ذي الجمار وقت للكمال
والرمي من قبل الزوال باطل ... وبعد إن صلى الكمال عاطل
ومن تعجل فلا يبيت ... قبل غروب ثالث بفوت
إن غربت عليه شمس لزمه ... رمي جمار رابع قد دهمه
246 / والعود أحمد لبيت الله ... ولا تكن عن أبطح باللاهي
وصل فيه إن تشأ تقربا ... ظهرا وعصرا وعشا ومغربا
وادخل إلى مكة ليلا تصب ... بما ذكرت لك سنة النبي
ولازم البيت وفعل الطاعة ... والصف والصلاة والجماعة

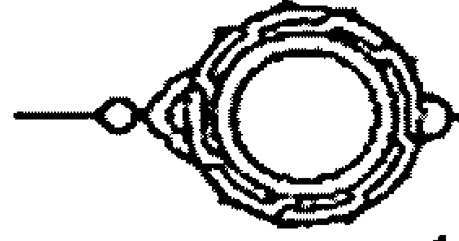
بـأدب سـكـيـنة وقـار | مـعـظـمـا لحـرم الـغـفـار
وعـمـرة كـالحـج إن لم تـقـرن | فـأت بها مـن بـعـد حـج تـزن
مـن الجـعـرانـة أو تـنـعـيـم | فـأت بها وفـزت بـالـتـنـعـيـم
أحـرم لـهـا كـالحـج واسـع وطـف | واحـلـق وقـد تمـت بـلا تـكـلـف
وإن تـرد حمـل عـصـى الـتـسـيـار | فـطـف مـودعـا لـبـيـت الـبـار
واخرج موجها إلى صوب السفر ولتحمد الله على نيل الظفر
فـإن تـقـم بـعـده بـعـض يـوم | بـطـل حـكـم وأعـد بـالـعـزم
ومـن كـدى اخـرج بـضـم الـكـاف | بـعـزم صـادق وقـلـب صـاف
وسـر إلى سـر الـوجـود الـهـادي | بـجـد سـيـر تحـظ بـالمراد
مـكـبـرا حـيـث عـلـوت شـرفـا | مـصـليا عـلى الـرسـول المصطـفـى
حـتـى إذا الى المديـنـة وصـل | والـفـوز بـذاك الجـوار قـد حـصـل
فـيـنـبـغـي الـغـسـل مـع الـتـطـيـيـب | تحـسـين هـيـئـة مـن المطـلـوب
صـلاة ركـعـتـين مـن قـبـل الـدخـول | وليمـش راجـلا إلى خـيـر رسـول
إن دخـل المسـجـد حـيـى بـالـركـوع | إن كـان فـي وقـت جـواز يـا خـضـوع
أو يقصد القبر الشريف في الأزل المصطفى لما من الوحي نزل
247 / خـيـرة خـلـق الـلـه بـالإطـلاق | المجـتـبـى لحـضـرة الخـلاق
مـسـتـقـبـلا لـه ولا يـلـتـصـق | بـه ولا يـطـف ولا يـعـتـنـق
مـنـكـس الـرأس لما جـنـاه | لـنـفـسـه مـن الخـطـا أدنـاه
مـتـصـفـا بـالـذل وانـكـسـار | مـسـتـحـضـرا لـلـفـقـر واضـطـرار
وأنـه بـين يـديـه واقـف | حـرمـتـه مـيـتـا كـحـي عـارف
إذا دعـاه فـلـيـنـادي بـالخـضـوع | بـأدب وبـالـوقـار والخـشـوع
مـعـتـقـدا أنـه بـاب الـلـه | مـن غـيـر لـبـس لا ولا اشـتـبـاه
فـلا سـبـيـل لـلـدخـول إلا | مـنـه عـطـاء ربـنـا وفـضـلا
يـا سـيـدي يـا سـنـدي يـا أمـلي | يـا ثـقـتـي فـي فـاقـتـي أنـت الـولي
هـذا الـعـبـيـد قـد أتـاك راجـيـا | مما جـنـا مـن الخـنـا وبـاكـيـا
قـد أثـقـلـت عـاتـقـه ذنـوب | وأوهـن الـقـلـب لـهـا كـروب
فـلـم يـدع مـن اقـتـراف ذنـب | شـيـئـا ولا مـن اكـتـسـاب عـيـب

ولم يجد لدائه من نافع ... سواك يا ذخيرتي يا شافع
وعمره مضى وقد تولى ... في غير ما يرضي وأنت أولى
للذب عن عبدك والدفاع ... فليس غيرك له يراعي
ملتجئا إلى ملاذ للورى ... ناء المدى في مجدك سامي الدرى
إذا تمسك امرؤا بذيله ... في وحل فلا ينثني عن نشله
أنت الذي أنعشتنا من بعدما ... كان الضلال في البسيط عمما
/248/ فكلنا لفضله عتيق ... ياعمر الفاروق يا عتيق
لنا اشفعا عند النبي المجتبى ... وأسمعانا مرحبا فمرحبا
فإنني عبد له حقيق ... عند الكرام يكرم الرقيق
بجاه جبريل وما به نزل ... عليه نحن عاكفون لم نزل
والآل والأولاد والأزواج ... فاطمة ذات السنا الوهاج
وصاحبيك من عموم الناس ... كذاك حمزة مع العباس
وبابن عمك أبي الغصنين ... سيدنا الحسن والحسين
والصحب طرا وخصوصا عشرة أكرم برفقة كرام بررة
لا تحرمن عبدا أتاك طامعا ... من جاهك السامي ملاذا شافعا
من أرض مغرب غريب الدار ... ذا فاقة وكثرة انكسار
مؤملا منك أخير مأمول ... ومطلب الانتاج من كل رسول
علما به عملنا موصول ... وحجنا البيت له قبول
وتوبة خالصة نصوحا ... والبعد عن شهوتنا نزوحا
والإشتغال عن غير بالله ... وآمرا من نفسنا وناه
وإن أكن من الشقا بوسم ... لأجل عصياني وكثر جرم
فبدلن شقاوتي سعادة ... وعوضن حرماني بالإفادة
فأنت إن أقسمت لا تحنث ... والله يمحو ما يشاء ويثبت
والعبد بين الله و الرسول ... فكيف يرجع بغير سول
/249/ ياسيدي فلن يضيق عني ... جاهك في يوم المعاد إني
بين العشائر بهذا الوسم ... ناديت إني منكم في حرم
ومثلكم ذمته لا تخفر ... وجاهكم عند الإله أكبر

يا ربنا أشكو إليك همي   وحزني وكربتي وغمي
برفقتي مع فرقة قد نغصوا   عيش الهنا ظل شبابي قلصوا
لاقيتهم والفرع من شبيبتي   أسود غربيب فأفنوا قوتي
في خدمة أكثر ما جنيت   بها على نفسي بما سعيت
فلم يزل يبتزني من عمري   غض شبابي وفتي أمري
حتى لقد ابيض ليل مظلم   من هامتي وهو نذير معلم
يظن ذا العبد الذي يروع   من لم يكن في قربه يضيع
يعتد ما جره قدح خاسر   من قربه والوجه وجه باسر
وما درى بأنه أفاتني   من عمري أضعاف ما أفادني
فاغنني اللهم يا إلهي   عنه بفضلك به أباهي
واكفنيه اللهم أنت الكافي   فحاله ليس عليك خافي
وكل ما أضمر لي من شر   فعجزنه ربنا بسر
الاسم الأعظم الجليل القدر   وماله من سطوة أو قهر
وبالضحى وعلق والقدر   والمصطفى صاحب هذا القبر
وبجميع سور القرآن   وما حوت من قاطع البرهان
/250/ حتى يرى لعجزه مبهوتا   كأنه من حجر منحوتا
أخرص لسانه وكف يده   وعزمه انقض واردد كيده
وكل من يريدنا بشره   فرده ياربنا في نحره
واكفني اللهم ما في الغيب   من تعب ومحنة وعيب
وأرزقني اللهم رزقا واسعا   وكن بقوتك عني دافعا
واختم لنا الختم الذي ترضاه   موفقا لنا لمقتضاه
مومنا لنا من الأكدار   مدة مكثنا بهذي الدار
مسهلا لسكرات الموت   موسعا في القبر يا ذا الغوث
مريحنا من تعب في المحشر   موردنا من سلسبيل الكوثر
(محاسبنا حسابك اليسير   معاملا بفضلك الكبير)(415)

(415) سقط هذا البيت من (أ) وورد في (ب).

مـــوجـــرنــــا يــارب مـــن الــنـــار | واجـــعــل لــنــا فـــي رفـقـة المخـتـار
فـــي جــنــة الــفـــردوس مــع زيـادة | أكـــرم بـــهـــا مـــزيـــة مـــفـــادة
وصـــل يـــارب عـــلى الـــزكـــي | مـــحـــمـــد المـصـــطـــفـــى المكـــي
وآلـــه وصـــحـــبـــه الأعـــلام | مـــا خـتـمـت صـــلاة بـــالـــسـلام



التلميح لحادث سطو مولاي اليزيد على أموال الهبة

وكان مقامنا في مكة المشرفة إلى السابع والعشرين من ذي الحجة(416) لكن لم نستوعب زياراتها، فقد قطع عنها ما ليس يرسم في حساب، ومنع من الإتيان بها شوائب فتنة عريقة الإنتساب، ومن طلب من الأيام دوام الصفا، فقد أخطأ في قصده وهفا، لكنه الدهر فتارة يهش وتارة يهر، فلما فاتنا ذلك القصد، بما عرض من الصد، جبرناه بالملازمة في البيت الذي هو المطلوب، معتكفين على طواف ودعاء جابر كسر القلوب،/ 250 مكرر/ (417)، ولله در القائل:

لـقـد طـاب الـطـواف لـنـا ورقـت | حـمـيـاه ولـذ لـنـا الـمـدار
ومـلـنـا لـلـيـسـار لـفـرط سـكـر | فـإن الـكـأس مجـراهـا الـيـسـار

والنظر إلى الكعبة عبادة، وروي أن الناظر إلى الكعبة كالمجتهد في العبادة في غيرها من البلاد، فهي خير أرض الله وأطيبها لديه، وأحب البلاد إلى الله وأكرمها عليه، تضاعف فيه السيئات كما تضاعف فيه الحسنات، فالحسنة فيها بمائة والخطيئة بمائة من الخطيئات، والصلاة وصوم رمضان فيها بمائة ألف، [ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم](418) ولو بقول خلق.

كان لعبد الله بن عمر فسطاط في الحرم يصلي فيه، وفسطاط في الحل يخرج إليه إذا عاتب خدمه وذويه، حذرا من شتم الخدم في الحرم وصونا له

---

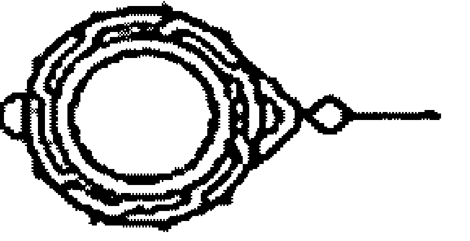
(416) الموافق لـ 10 أكتوبر 1787.

(417) كتبت هذه الصفحة كلها في الهامش بنسخة (أ).

(418) الآية 25 سورة الحج.

أن يعاقب فيه من اجترم؛ ولا يحل القتال فيه لأحد إلا سيد بني أد بن أدد، قال تعالى: [لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد][419]، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت حرمتها إلى الأبد، فهي البلد الأمين وواسطة العقد الثمين، وبه أقسم الله تعالى في كتابه المبين. المقام بها سعادة والخروج منها شقاوة، هي أقرب الأرض إلى السماء وأعلاها ربوة، ضعف فيها كل عمل وأسعف بمأموله كل ذي أمل، فهي ذات الأسماء والكنا والألقاب، وربة البراقع والنقاب، فهي مكة وبكة والبلد والبلدة، والأمين والحرم والكعبة وطيبة، والرأس والبيت العتيق الثمين والعرش والعريش، والقادس والمقدسة والقادسة والبائسة والقرية والثنية، وكوثر والحطمة والنساسة والناسة، وهي صلاح بالبناء على الكسر من باب حرام وقطام، والعطشة والرتاح وبزة، والمسجد الحرام والبيت الحرام و أم رحم وأم زحم.

من كناها وكثرة الأسماء تكون لشرف مسماها، وفي الحديث إن الله خلق مكة قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألف عام، وحفها بالملائكة الكرام فحيث وقعوا فهو حد الحرم والمسجد الحرام، انتهى من مقامة "ساجعة الحرام" للإمام السيوطي رضي الله عنه وفيه تقديم وتأخير.



الرجوع من مكة مع الركب الشامي

فبقينا مدة مقامنا بمكة ونحن ملازمين للبيت، حتى تعين / 251/ السفر ونفرنا مع ركب حجاج الشام إذ نفر، ورجعنا على أدراجنا نفري المعالم والمجاهل، ونحوم على المنازل والمناهل، فوصلنا طيبة طيب الله ثراها وفسح لنا في المدة حتى نراها.

قال الإمام السيوطي في مقامة "ساجعة الحرم" في حق المدينة: فهي صاحبة العلمين وثانية الحرمين، والمشاركة لمكة في التفضيل والتكريم، وفي مضاعفة الصلاة والبركة والتحريم، وهي دار الإيمان وقبة الإسلام، وأرض الهجرة ومبرأ الحلال والحرام، المسماة في القرآن بالمدينة والدار والإيمان،

(419) الآيتان 1 و 2 سورة البلد.

وفي التوراة بطيبة وطابة، وجابرة والمجبورة والمدينة والمرحومة، والعذراء والمحبة والحبوبة والقاصمة والمسكينة، ومن أسمائها تيدر والبلاط وحسنة، وحبيبة والمحببة ومدخل صدق، ودار السنة ودار الهجرة والبحرة والبحيرة والمطيبة، واحذر أن تسميها بيثرب فتضل، قال صلى الله عليه وسلم ﴿من سمى المدينة بيثرب فليستغفر الله عز وجل﴾، وإنما ذكر هذا الاسم في القرآن حكاية عن قول المنافقين لأهل الإيمان، تربة تأكل القرى وتجزل القرى، وتنفي الخبث والفرى، وتأبى الضيم والحيف، وفتحت بالقرآن وفتح غيرها بالسيف، تربتها مونقة وشفاء من الجذام، وبركتها مثل بركة المسجد الحرام.

ومما صح في فضلها وذكرها أن الإيمان يأرز إليها كما تأرز الحية إلى جحرها، وبها عزت كلمة الإسلام وعلت، وتقررت الشرائع وأكملت، إلى أن قال: ولا يدخلها الدجال ولا الطاعون. وإذا نظرت إلى التفضيل بينها وبين مكة، قام لكل منهما أنصار وأعوان ودليل وبرهان، حاشا البقعة المعظمة المكرمة الزكية الزاهرة، الطاهرة الشريفة المنيفة العالية الغالية، الطيبة المطيبة المقدمة المرقية، التي ضمت جسده الأعظم وخلق منها بدنه الأكرم، أن تكون كغيرها في فخرها صلى الله عليه وسلم، فإنها أفضل البقاع من غير خلف ولا نزاع، بل هي أفضل من الكعبة ومقدمة عليها في الرتبة، بل نقل السبكي عن ابن عقيل الحنبلي[420] أنها أفضل من العرش العظيم، وهو

(420) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي (431-513هـ/ 1040-1119م)، فقيه وعالم حنبلي كبير ولد ببغداد، وفيها تعلم القرآن والسنة والنحو وغيرها من العلوم على يد علماء كبار أغلبهم شافعيين وحنفيين. لكنه لازم القاضي الحنبلي أبو يعلى بن الفراء مدة 11سنة، كما عاصر تولي أبي عبد الله الدمغاني قضاء بغداد وهو حنفي، مما ساهم في انتشار المذهب الحنبلي. غير أن حب اطلاعه ورغبته في توسيع مداركه جعله يتصل بالأوساط العلمية الاعتزالية ويعمق دراساته الكلامية التي كان يناهضها الحنابلة، مما جلب له متاعب وعرضه للمحن خاصة بعد اشتغاله بالتدريس في جامع المنصور، حيث اضطر إلى التبرؤ من بعض كتاباته المجدة للحلاج وللمعتقدات الاعتزالية. من مؤلفاته " كتاب الفنون" و" الواضح في أصول الفقه" و" كتاب الإرشاد في أصول الدين(E., I, 3-721) ".

قول جلي واستدلوا بذلك على أن الملك الجبار منزه عن الحلول والإستقرار، انتهى كلامه.

وقوله إن الإيمان يأرز إلى آخره أي ينضم، قال البلوي في تأليفه "عمل من طب لمن حب": ومنها أرز ومعناه تقبض وانضم، يقال أرز يأرز أرزا ويقال أرزت ليلتنا تأرز أريزا، والأريز البرد الشديد. وجاء في الحديث أن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها. قال أبو عبيد: قال الأصمعي: قوله يأرز ينضم إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها، ذكر هذا أبو عبيد، قال ثابت: زعم بعض العلماء أن في الأرز معنى لم ينتبه له أبو عبيد، قال: الأرز أن تدخل الحية الجحر على ذنبها، فآخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعد، وكذلك الإسلام خرج من المدينة فهو ينكص إليها حتى يكون رأسه آخره نكوصا كما كان أوله خروجا، قال وإنما تأرز الحية على هذه الصفة إذا كانت خائفة وأما إذا كانت آمنة فهي تبدأ برأسها فتدخله وهو الإنجحار، انتهى. رجع .

وقد كان أصابني الألم المسمى بالنقرس ونحن في مكة فاشتد علي ألمه لما سافرنا، فكنت أبيت أتقلب في المحمل لا أقدر على الهدوء والسكون على حال من الأحوال، إلى أن وصلنا المدينة المشرفة فنزلنا بالخيام بظاهرها، فوقع في نفسي أن اطلب حكيما أو طبيبا عارفا لعلني أجد عنده علاجا، فوالله ما عزمت على النطق بقولي هل عندكم حكيم أو طبيب، إلا وأتذكر النبي صلى الله عليه سلم فاستحيي أن أسال، وقع لي ذلك مرتين أو ثلاثة فأمسكت عن السؤال، وقصدت ضريحه صلى الله عليه وسلم وشكوت إليه حالي، فما رجعت من عنده إلا ببعض الخف والراحة، وتمادى الحال في الزيادة في الراحة من بركته صلى الله عليه وسلم. وقد فتح الله علينا في الدخول إلى الحجرة النبوية وصلينا ركعتين في محراب النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتهجد فيه.

وأقمنا بظاهر المدينة نحو ثلاثة أيام أقصده عليه الصلاة والسلام في كل يوم، وعدنا إلى زيارة أهل البقيع فتبركنا بهم، وبقي لنا سيدنا حمزة رضي

الله تعالى عنه فلم نتوجه إليه لأن الطريق غير آمنة، لكن تبركنا بزيارة تربته من بعيد فهو مدفون في سفح جبل أحد، وقبته ظاهرة وبالقرب منها قبة مبنية على رباعية النبي صلى الله عليه وسلم، فتبركنا بالجميع ونحن مارين بالطريق وهما عن يميننا .

رحلة العودة من الحجاز نحو الشام

وتمادينا على المسير نبيت في منازلنا التي /252/ كنا نبيت فيها أولا في الغالب، وربما خالفنا فبتنا دون منزلنا الأول لطول تلك المرحلة، فنقسمها على مرحلتين أو نعرج على ماء تركناه أولا لقلته في ذلك الوقت؛ وقد تلقانا بقلعة هدية وزير معه جيش كثير وفي رفقتهم تجار وإبل كثيرة حاملة للميرة والعلوفات، ردءا للجيش الآخر الذي مع الوزير الأول لتعبه فيتقوى به على الأعراب، ويرتفق الناس بالميرة التي تصحبه مع التجار. واستمر المسير هكذا إلى أن وصلنا وادي الزرقا، فوجدنا به أهل الشام بأنواع الفواكه والخضر، والطباخون يطبخون سائر المأكولات وأنواع الحلاوات، فكان آخر منزلة بتنا بها قرية يقال لها الكسوة[421]، فخرج أهلها وعمروا سوقا عظيما فيه جميع الأشياء، فبتنا بظاهرها في الخيام وبينها وبين دمشق ثلاث ساعات.

رجوع ابن عثمان إلى دمشق

حتى إذا كان الثلث الأخير من الليل، حملنا على الإبل وركبنا المحامل وسرنا فوصلنا باب دمشق الذي يسمونه بوابة الله قبل طلوع الفجر، فأنخنا هنالك حتى صلينا الفجر وسرنا إلى المدينة، فتلقانا صاحب لنا كنا قدمناه أمامنا قبل وصولنا بيوم، بقصد أن يعين الدار التي ننزل بها فتوجه بنا إليها ونزلنا بها، وكنا نتعاهد قبر النبي يحيى فنتبرك به في مدة مقامنا.

---

(421) الكسوة، بضم الكاف قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، وكما أورد ابن عثمان يستريح بها ركب الحج الشامي قبل دخول دمشق. (معجم البلدان 4-461)

وقد بعثت إلى صاحبنا الشيخ محمد كمال الدين الغزي مفتي الشافعية، وكان من أهل الأدب والظرف، تمرا من تمر المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام على سبيل التبرك، وسبحة من النوع المسمى باليسر ومعها أبيات موريا باليسر وهي:

/ 253 / أحيي مقاما خص بالرحب والبشر ... كما خصصت أنفاسه بذكى النشر
تحــيـــة حـــب لا تـــزال مـــعــــادة ... بـيوم إذا يجــري وليل إذا يـــســـري
وأهدي إلى الذات الكريمة سبحة ... تظل بها يمناك ملئى من اليسر
ومن طيبة جئناك بالعجوة التي ... أحب رسول الله عن سائر التمر
ليغنك منها لونها وسوادها ... من المسك عن عرق وعن عنبر شحري
فهيئ لها منكم قبولا أعده ... لدى ذكركم يوم السلو من الفخر

فأجاب عنها بقوله:

أمالك رق النظم طرا مع النثر ... ومن حاز مجدا ساميا هامة النسر
ويا من تسامى في المعارف رفعة ... بها بهجة الأفلاك والأنجم الزهر
وفت منك أبيات حلت كلماتها ... وفاقت بهاء للدراري وللدر
وصحبتها وافت ووفت وقد سمت ... هدية حبر قد حوى أكمل الخبر
وأرسلت لي يسر المسابح منة ... لأعلم أن اليسر من كفكم يجري
فلا زلت في حفظ الإله وصونه ... تميح لآل النحر من فيضك البحري
ودم رونق الدنيا فإنك أوحد ... وبر ببر مالئ البحر والبر
مدى الدهر ما وافى النسيم إلى الربا ... وأهدى لنا من زهرها طيب النشر.

اشتداد الوباء بالشام خلال غيبة السفير في الحجاز

وقد وقع في هذه السنة موت كثير بالشام في مدة غيبتنا بمكة، فقد حكي أنهم كانوا يدفنون نحو الخمسمائة في كل يوم، وقد وجدنا كثيرا ممن تلاقينا معهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى، فمنهم الفقيه الأجل المحدث الشيخ /254/ سعد الدين من ذرية الأستاذ البركة سيدي عبد الغني النابلسي، فرثيته بقصيدة وهي:

قـد كـان مـا كـنـا نـحـيـر ... مـنـه ولا عـنـه محـيـد

خطب ألم وقد أشاب   لهوله رأس الوليد
أودى به الجدل المحكك دخرها الكنز العتيد
صدر المحافل جثم   أشياخها ما إن تميد
صد العدا وشجاهم   ضد المقابل والعنيد
بحر العلوم إذا أفاد بنكتة ما إن يعيد
أخلاقه منعشة   للروح كالعذب البرود
يبدي البشاشة والطلا   قة للقريب أوالبعيد
لم أنس لا أنسيت وقت نظامها نظم العقود
بأريكة بحديقة   بشذى أزاهرها تجود
فكلاهما متماثل   وكلاهما روض مجود
لله أيام مضت   لو كان ماضيها يعود
قالوا اصطبر لا تجزعن   فكل موجود فقيد
فأجبتهم عن مثله   ما الصبر من خلق الرشيد
وإذا الحقوق تأكدت   منها له الحق الأكيد
إيه أسعد الذين سرت   مصدعا قلبي العميد
255/ من لي بمثلك في الحياة   فلا أراه في الوجود
هيهات لا يأتي به   دهر فخلفت وحيد
هل يسمعني أخو الحجا   والعلم والرأي السديد
والسؤدد الموروث حا   ز طريفه وكذا التليد
والملجأ الأحمى ملا   ذا لمعتفي الركن المشيد
هالوا عليه الترب إن   قلوبهم لمن الحديد
عجبا بليل غاسق   وضعوا على البدرالصعيد
وبقوا حيارى يخبطون   ولا كعشواء قعود
من للمجالس والمجالس   و المدارس من عميد
قد عطلت أبحاثها   واستعجمت لا من يفيد
خلت الديار لفقده   فالعلم أعظم ما فقد
وضعوه حذو أبيه بينهما صفائح اللحود

عجبا لشمس أدركت … قمرا وذا أمر بعيد
إن شئت عام وفاته … فتعلق من بيت فريد
سنة اثنتين فأرخن … والألف والمائتين من بعد ذاك زد
أنعم مساء أيها … الأستاذ والحبر المجيد
في نعمة وسعادة … ورضى من الرب المجيد
وعليك من حب تحيته وقد أم البريد
256 / لصبية بمغرب … لي عنهم دهر مديد
مودعا منطوي … الأحشا على حر شديد
ومخلفا قلبي لديكم … يلزم القبر السعيد
وجعلته مرفلا … فالا لإنعام يزيد
وأفيدكم بأنني … عن ودكم لا لي محيد

التأهب للسفر إلى مدينة عكا

ثم أخذنا في التأهب للسفر لمدينة عكة[422] بقصد الركوب إلى الأوطان، فتوجهنا إلى زيارة رأس نبي الله يحيى بجامع الأمويين، فزرناه وتبركنا به ودعونا الله هناك، وغيره من الأنبياء والصحابة والصالحين لم يساعدنا الوقت في الطواف عليهم ثانيا من أجل الطين والأمطار، لكن عممناهم بالزيارة من مكان عال، ولما كنا بجامع الأمويين بقصد الزيارة دخلنا إلى مقصورة صاحبنا الفقيه الأجل الشيخ محمد الغزي بقصد رؤيته

(422) عكا، مدينة كبيرة من ثغور الشام ومن أحسن بلاد الساحل وأعمرها، يصفها ابن جبير قائلا: " وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها واحتفالها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق... انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه...فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقس". كانت سنة 1105هـ حسب شهادة عبد الغني النابلسي "بلدة خربة مندكة قد تهدمت أسوارها وانكسر سوارها وانقلعت عين قلعتها وخفيت بدائع صنعتها ولم يبق منها إلا القليل من البيوت"، لتنتهض في عهد أحمد باشا الجزار انبعاثا حضريا كما يصف ابن عثمان. (الروض 410؛ معجم البلدان 4-143؛ ابن جبير 211؛ الحقيقة والمجاز 98).

ووداعه، فقام إجلالا وأنشد ارتجالا:

فأهلا بحبر أتى زائرا | فكأني بفضل له كان أهلا
فكان كغيث سقى روضة | وبدر بآفاق قلبي تجلا
وعافية في فؤاد السقيم | ونور تبدى وسر تجلا
فاكسب ذات الكمال[423] ارتقا | وأولى جميلا به صار أولى

وخرجوا معنا مشيعين.

وكان خروجنا من دمشق الشام تاسع ربيع الأول من سنة اثنتين ومائتين وألف[424]، فبتنا بقرية قرب المدينة بنحو ساعة ونصف يقال لها المزة بالزاي، وبظاهرها قبر الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه وقد تقدم ذكره في الزيارات. ومن الغد سافرنا فرحنا إلى خان عظيم معد للمسافرين، بداخل قصبة مؤسسة على وادي يقال له سعسع وصلناه على عشر ساعات، ومن الغد سافرنا في أرض ذات حجارة وصلد كثير متصل، فنزلنا بخان أيضا معد للمسافرين يقال له خان الأرنب نزلناه على خمس ساعات، وسافرنا من الغد فرحنا إلى خان يقال له خان الجسر، مؤسس على وادي السيسبان /257/ وصلناه على تسع ساعات، وفي آخر هذه المرحلة مررنا بأرض كثيرة الحجارة كثيرة الطين، فصفحت الأرض بالحجارة المبسوطة ليمر الناس عليها زمن الطين، إلى أن أوصلوا الرصيف إلى الخان وسموها جسرا، فأضيف إليها الخان فقيل خان الجسر، وعلى الوادي أيضا جسر أمام الخان، وبالقرب من هذا الخان عن يمين الطريق المتوجه إلى عكة شجرة يقال إن بقربها مقابر بنات يعقوب، فقرأنا عند مواجهتها الفاتحة ودعونا الله تعالى بما نرجو قبوله.

ومن الغد سافرنا فأصابنا مطر كثير في الطريق، فقصرنا المرحلة ونزلنا بخان معد للمسافرين أيضا على خمس ساعات، وإلى جانب الخان جب

---

(423) كتب في الهامش قبالة هذا الشطر ما يلي: " قوله ذات الكمال يعني نفسه لأن لقبه كمال الدين ".

(424) دجنبر 1787.

يوسف عليه السلام محيط به سور، وله باب يصعد اليه بمدارج ثلاثة، وقبالة البير داخل مسوره مسجد صغير له بلاط واحد، فدخلنا إلى مسور البير وأشرفنا عليه وفيه ماء كثير عذب، ودعونا الله تعالى هنالك، وقعدت بباب المسجد مقابلا للبير وقرأت سورة يوسف، متفكرا قضيته وقضية أبيه عليهما السلام، وأنشأت هنالك أبياتا وهي:

يا أمين الجباب يا جب يوسف لقد حزت في البسيطة فخرا

صنت يوسف إذ رموه وألقوا ... فوقه من حجارة الأرض صخرا

فحنوت عليه حنو رحيم ... أو مريد من شيخه حاز سرا

ثم صادفك الفراق الذي يعقوب صادف قبل صبرا فصبرا

فبكاه يعقوب دهرا وأنت ... لا تزال تبكي ودمعك أجرا

/ 258 / وأراه مكفكفا فأجاب الحال ... لو كان مرسلا صار بحرا

دمت في ترف وماء زلال ... تحسبه الوراد اريا وخمرا

ووفود تترى بعطفك طول ... الدهر تحمد منك وردا وصدرا

ومن الغد سافرنا وأعدنا الزيارة والدعاء عند البير المذكور، فسرنا في أرض من أصعب الأرضين وأكثرها حجارة وصلدا، فوصلنا قرية يقال لها الرمة على خمس ساعات فبتنا ببعض بيوتها، وبهذه القرية زيتون كثير وأهلها نصارى تحت ذمة المسلمين.

الوصول إلى عكا وحفاوة الباشا الجزار وذكر بعض إنجازاته

ومن الغد سافرنا منها إلى عكة فوصلناها على ست ساعات، ولما قربنا من المدينة بعثنا أحد أصحابنا ليكتري لنا دارا ننزل بها، فطاف البلاد كلها فلم يجد منزلا، فسمع بذلك الوزير صاحب البلد وعملها ويقال له أحمد باشا الجزار(425)، فعين لنا موضعا نزلناه مشرفا على البحر في أحسن حال،

(425) من أشهر ولاة العثمانيين بالشام، ارتبط اسمه بمدينة عكا التي لا تذكر إلا مقرونة به إذ هو الذي أعاد بناءها. اشتهر الجزار باستقلاله عن الباب العالي الذي أعياه أمره. عرف بالقسوة والشدة وسفك الدماء ومنها لقبه الجزار، كما قاوم الحملة الفرنسية على الشام. يورد الزياني

في خان جديد أنشأه على ساحل المرسى، وبعد يوم من نزولنا استدعانا لأنه كان مريضا، فتوجهنا إليه فأبدى بشاشة وفرحا وقعدنا معه ساعة نتحدث ثم خرجنا من عنده.

ولهذا الوزير أثر كبير بهذه المدينة وهو الذي شهرها وبه اشتهرت، وأنشأ بها مسجدا من أحسن المساجد وألطفها على شكل مساجد القسطنطينية، وغرس في صحنه المستدير شجرا مصفوفا من نخيل وسرو، وأنشأ بها أيضا حماما ما رأيت مثله لا في القسطنطينية ولا في الشام؛ وأهل البلد يثنون عليه كثيرا، فله جرايات على الضعفاء والفقراء ورواتب لأهل الحياء /259/ والحشمة الذين لا يسألون الناس إلحافا، إلا أنه به شموس من الدولة أبي القياد (كذا)، يفعل في بلاده برأيه ويقبل من أوامرها ما يوافق غرضه. وقد استدعته الدولة ونحن هنالك للقدوم عليهم، قائلين له إنهم أرادوا بعثة لناحية العدو برسم الجهاد فأبى عليهم، لكنه معذور فلا يأمن على نفسه.

وبظاهر المدينة ضريح نبي الله صالح عليه السلام، وهو عن يسار الخارج من المدينة لناحية المشرق في وسط المقبرة، فتوجهنا إليه وفتحوا لنا القبة التي فيها قبره المبارك، وقرأنا عنده ما تيسر من القرآن ودعونا الله بما يرجى قبوله.

ولما دخلت إلى حمامها البديع ذي الصنع الرفيع، وجدت القيم عليه أبدع وأحسن وأنصع، والطيور على أجناسها تقع، ولما خرجت منه وقعدت في إحدى مصاطبه للإستراحة، أتى إلي معرضا بالقهوة علي، فقلت عند رؤية شماله[426] وقويم قدهش وتمايله:

لم أنس عكة إذ جعلتها مأربي يوم دخلت إلى حمامها المعجب

حادثا طريفا جمعه بأحمد باشا وعنه يقول: "وكان هذا الجزار رجلا أحمق يبحث عن أهل الحكمة وعلم الحدثان، وكان يزعم أنه المهدي المنتظر ويصرح بذلك"، وقد دارت بين الرجلين مناقشات صرح فيها أحمد الجزار أنه سيملك "المشرق والمغرب ويصل بلادك (المغرب) ويملكها". (الترجمانة 258-259).

(426) الصحيح "شمائله" كما في (ب).

إذ قال ظبي به أسقيك قهوتنا ... فقلت كلا فإني لست بالشارب
فقال لو من شراب قد حلا قلت إن ... كان ولابد من لماك مع شارب
ثم ثنا عطفه يميس من خجل ... فأكد التيه منه سورة الراغب
ورام مشيا فلم يقدر وأقعده ... ردف يعجزه بثقله الغالب
ثم تبسم عن در وعن شنب ... ومال به الحيا قسرا إلى جانب
أفديه من أوطف عن لمس وجنته ... يحمى بقوسين موثرين من حاجب

/260/ فقولي موثرين فيه تورية بالوتر المقصود من الإيثار وفيه تسامح.

التعاقد مع صاحب المركب للإبحار إلى المغرب وزيارة القدس الشريف

(427) وأقمنا بعكة تسعة أيام حتى عينا المركب الذي يحملنا في البحر، وتعاقدنا مع صاحبه وعينا المدة للسفر، واشتغل رئيسه بإصلاح شؤونه والاستعداد للسفر، وتوجهنا في خلال هذه المدة لزيارة القدس الشريف والتبرك بمشاهدة المسجد الأقصى، وبمن هنالك من الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فكان مبيتنا يوم خروجنا من عكة عند عرب أهل بيوت شعر، بقرب تربة ولي مشهور في تلك النواحي يقال له الشيخ إبراهيم الزعبي على ست ساعات من عكة، فرحنا إليهم والسماء تجودنا فما كان إلا أن رأونا وأدخلونا إلى خيمة من أكبر خيامهم، وفرحوا بنا وسلكوا معنا مسلك أهل الحاضرة، فأتوا بالقهوة إثر نزولنا وبعلف الخيل وبعشاء قل أن يوجد في الحاضرة، وباتوا يحرسون الخيمة التي نزلنا فيها إلى الصبح جزاهم الله خيرا.

ومن الغد سافرنا فرحنا إلى قلعة سنور وصلناها على سبع ساعات، فأكرم مثوانا صاحب القلعة وأحسن نزلنا، وأتى بطعام كثير وفراش متكلف، ولم يترك شيئا من الحضرية في طعامه ولا في شرابه؛ وهذه القلعة

(427) ابتداء من هنا نشر الدكتور عبد الهادي التازي نص رحلة ابن عثمان إلى القدس والخليل، انظر كتابه: القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نوذجا، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 1997.

حصينة وقد وجدنا جماعة معلقين عدتهم ببابها، فلما دخلنا الباب أخذوا العدة من أيدي رفقائنا وأصحابنا، لأنهم لا يتركون أحدا يدخل بالعدة إلى هذه القلعة، ومن الغد عند خروجنا ردوا العدة إلى أصحابنا.

طبيعة العلاقة بين الولاة و الباب العالي

وهذا الرجل صاحب هذه القلعة تحت نظر وزير الشام مولى عمل هذه الناحية على /261/ يده، لكنه غير كامل الطاعة والانقياد، فهو يميل إلى الاستقلال والاستبداد، منفذا لأوامر أميره لكنه لا يتلاقى معه خوفا على نفسه، والوزير أيضا لا يقدر على نزعه فهو قانع بما يأتي منه، فإذا أتى الوزير إلى ناحية بلاده يخرج منها إلى ناحية أخرى حتى يرجع الوزير ويرجع.

وصف بلدة نابلس

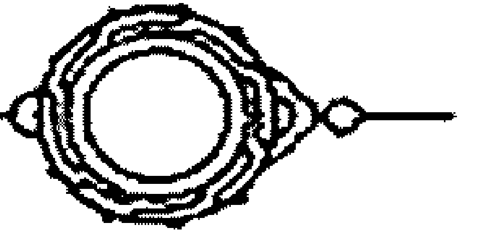
ومن الغد سافرنا من هذه القلعة فوصلنا إلى بلدة نابلس(428)، وهي بلدة متوسطة بين جبال مرآها حسن، وبناؤها كله بالحجارة المنحوتة. حسن المنظر، وماؤها كثير ذات بساتين، إلا أن أزقتها كثيرة العفونات والطريق اليها من القلعة المتقدمة في صعود وهبوط وحجارة، فوصلناها على أربع ساعات ونصف، فنزلنا بها على شيخ القلعة المذكورة، والقلعة كنا وجدنا بها ولده فله تصرف بهذه البلدة أيضا، فبتنا عنده ومن الغد عين فارسا يصحبنا في الطريق إلى القدس، ولما خرجنا من نابلس أرونا عن يسار الخارج قببا يقال إنهم مدافن أولاد يعقوب عليه السلام، فتبركنا بزيارتهم وقرأنا الفاتحة وتمادينا على المسير في أرض كثيرة الحجارة، ولاسيما من موضع يقال له خان اللبان وأمامه وادي التين، وهو منخفض من الأرض بين جبال، وتلك الجبال كلها مغروسة بالتين إلا أنه صعب من كثرة الحجارة، لكن من عرف

---

(428) نابلس، هي مدينة السامرية بفلسطين بين جبلين كثيرة المياه وأرضها حجرية، تقع شمالي القدس و"بها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام، كما حبس بها عيسى عليه السلام وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب، وعليه الآن كنيسة حسنة". كما يوجد بها الجبل الذي يعتقد اليهود أن الذبيح كان عليه. (الروض 571؛ معجم البلدان 5-248).

ما قصد هان عليه ما وجد.

[429] فكان مبيتنا بقرية يقال لها البيرة[430] على عشر ساعات، ومن الغد سافرنا منها فوصلنا القدس الشريف على ساعتين ونصف، وقبل وصولنا بنحو ساعة قابلنا النبي شمويل بن يعقوب /262/ عن يمين المار إلى القدس على ربوة عليه بناء، فقرأنا الفاتحة عند مواجهته ودعونا الله هنالك، وهذه البلاد كثيرة الحجارة كما تقدم.



وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة

وللقدس السور الحصين مبني بالحجارة في غاية الكمال والإتقان، والأبواب الحصينة الغلق فعدد أبوابه ستة[431]: الأول ومنه دخلنا باب العمود، والثاني باب الزاهرة، والثالث باب الأسباط، والرابع باب المغاربة، والخامس باب النبي داوود، والسادس باب الخليل. فدخلنا إليه ونزلنا ببيت يقال إنه بيت الشيخ أبي مدين الغوث[432] دفين تلمسان وعليه وكيل وله أوقاف.

---

(429) ابتداء من هنا نشر د. محمد بن عبود ومحمد المنوني النص الخاص بالقدس في المناهل، ع. 39، 1990.

(430) البيرة، قرية بين بيت المقدس ونابلس، خربها الملك الناصر لما استنقذها من الإفرنج. (معجم البلدان 1-526).

(431) ورد في هامش الصفحة 278 من (ب): " قد وقع لي شك في عد الأبواب (كتابة غير واضحة)، بل هي سبعة والباب السابع يقال له ... (غير واضح).

(432) شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين الغوث (ت.594هـ/1198م)، من مشاهير الصوفية أصله من الأندلس أقام بفاس طلبا للعلم ولكنه سرعان ما استهواه التصوف الذي تنقل في مراتبه حتى بلغ مرتبة القطب و"الغوث"، ورحل إلى مكة حيث لقي الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني كما قيل وأتم على يده علوم التصوف ولما رجع إلى المغرب اشتغل بتعليم الصوفية ونشر تعاليمها، حيث استقر ببجاية ناسكا وعلا صيته وحرع إليه الناس حتى قلق الموحدون من تعاليمه التي تخالف مذهبهم، فاستدعاه السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور إلى مراكش لمناقشته، ولبى الشيخ الدعوة غير أنه توفي قرب تلمسان حيث لا يزال قبره مزارا ومحجا قامت حوله مدينة العباد. (جذوة الاقتباس 332؛ دائرة المعارف 1-399؛ الزركلي 3-166).

فكان أول ما بدأنا به أن توضأنا وتوجهنا إلى المسجد الأقصى، فدخلنا أولا إلى قبة الصخرة وقد صعدنا إلى المكان الذي فيه الصخرة بمدارج نحو العشرين، وهو بلاط واسع جدا في وسط مسور المسجد، وفي وسط هذا البلاط قبة الصخرة المباركة وهي مثمنة الدائرة، لها أربعة أبواب عظام مجلدين بالصفر، وفي داخل هذه القبة قبة أخرى مرفوعة على أعمدة الرخام دائرة بالصخرة، وبين الأعمدة شبابيك من الصفر في علو نحو قامتين، لها أربعة أبواب من نفس الشبابيك، فدخلنا من الشباك المذكور فألفينا الصخرة محيط بها شباك من خشب علوه أقل من القامة، فأشرفنا منه على الصخرة ولمسناها على سبيل التبرك من طيقان بالشباك المذكور، ووضعت أصابع يدي في أثر أصابع الملك حيث أقام الصخرة لما مالت بالنبي عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء كما يأتي بيانه.

فعدد / 263/ أعمدة القبة كلها أربعون عمودا من الرخام الفائق، منها أربعة عشر عمودا هي الدائرة بالصخرة المرفوع عليها قبتها، ومنها ستة عشر عمودا مرفوع عليها المسقف المحيط بقبة الصخرة وهو مسطح، وجميع حيطان هذه القبة من داخل وخارج مكسو بالرخام المصقول الذي كأنه مرءات، وما رأيت في بلاد الإسلام أكثر تأنقا من صنعة هذه القبة، وفيها محراب يصلي فيه إمام الحنفية الخمس .

ومن داخل القبة الأولى انحدرنا إلى سفلي الصخرة بأربع عشرة درجة، فصارت الصخرة فوقنا وقد أحاط بجوانبها بناء متصل بها، وتحتها عمود من رخام قائم تحتها متصل بها كأنه مقيم لها، وعند المدارج أيضا عمود طرفه في بعض المدارج وطرفه الآخر متصل بها قرب لسانها.

وهذا المكان الذي تحت الصخرة كثير الأنس يجد الإنسان فيه نشاطا وخفة وانشراحا لعبادة الله تعالى، فصلينا في محراب سيدنا سليمان عليه السلام وهو عن يسار الخارج منها وهو من الرخام، وصلينا أيضا ركعتين في محراب سيدنا داوود عليه السلام وهو عن يمين الخارج، وقرأنا تحت الصخرة ما تيسر من القرآن ودعونا الله هنالك بما نرجوا من الله قبوله، ثم

صعدنا مع المدارج التي انحدرنا منها فأرونا طرفا من الصخرة ممتدا شيئا ما يقولون إنه لسان الصخرة، ولا أصل له وإنما ذاك من موضوعات المزورين[433].

ومكتوب في دائرة قبة الصخرة من خارج سورة الإسراء، وبدائرة المسطح المحيط بها سورة /264/ يس إلى يأكلون. وعبارة بعض المؤرخين: وأما الصخرة فهي في وسط المسجد على صحن كبير مرتفع عن أرض المسجد الأقصى الشريف، وارتفاع القبة التي على الصحن إحدى وخمسون ذراعا بذراع العمل، وهو مقدار ذراع وربع ذراع الإنسان، وهذا الارتفاع من فوق الصحن، وأما علو الصحن عن أرض المسجد فسبعة أذرع، فيكون ارتفاع القبة عن أرض المسجد ثمانية وخمسون ذراعا.

وأما جامع المسجد الأقصى الذي يصلي فيه إمام الشافعية، وهو المسقف من الأقصى وصار اليوم اسم الأقصى علما عليه بالغلبة، فعرضه من المحراب إلى الباب الكبير مائتان وخمسون قدما، وطوله خمسة وخمسون وأربعمائة قدم، هذا مما يلي صدر المسجد في بلاط المحراب وما يليه، وفيما دون ذلك أقل، ومحرابه في غاية الحسن وهو الذي يقال إن المهدي يصلي فيه، وينزل عيسى عليه السلام فيجده قائما يصلي بالناس فيقتدي به، وهو مكسو بألواح من الرخام عرض الواحدة أقل من شبر وعددها سبعة عشر لوحا، ثمانية بيض وأربعة حمر وثلاثة إلى السواد أميل واثنان إلى الخضرة أميل، وفيه أمر يحكيه أهل الحرم فإن قصد فحسن وإن كان اتفاقيا فغريب، يقولون أما الثمانية الألواح البيض إشارة إلى ثمان ركعات صلاة الظهر والعصر، والأربعة الحمر إشارة إلى صلاة العشاء بعد حمرة الشفق، والثلاثة التي تميل إلى السواد إشارة إلى صلاة المغرب إذا أقبل الليل، والاثنان الخضراوان إشارة إلى صلاة الصبح.

وقد صلينا في هذا /265/ المحراب على سبيل التبرك، وأمام المحراب

(433) يقصد المرشدين المرافقين للزوار.

قبة عظيمة مزينة بالفصوص الملونة كاملة الزينة مكتوب في دائرتها: بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه القبة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر، المؤيد المنصور قاهر الخوارج المتمردين محيي العدل في العالمين، سلطان الإسلام محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاون الصالحي تغمده الله برحمته، في شهور سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. ومكتوب فوق المحراب: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله تعالى على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وبه منبر من العود المنتخب في غاية ما يكون من الصنائع الفائقة والنقوش الرائقة، صنعه نور الدين الشهيد صاحب دمشق المتقدم الذكر.

وله أي للأقصى المسقف من الأبواب أحد عشر بابا: سبعة في صف واحد في مقابلة الصخرة أوسطها هو الباب الكبير المقابل للمحراب، وأمام هذه الأبواب بلاط مسقف وأربعة أبواب في جانبه، وفي الجهة الغربية من الصحن عدة مدارس وبقربها متصلا بها مسجد، وهو بلاط واحد كبير طويل جدا يقال له البقعة البيضاء، وبه يصلي إمام المالكية قرب مربط البراق، ويقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى به، وبقربه زاوية لسيدي عبد القادر الجيلاني وبها حجرة شيخنا أبي السعود /266/ نفعنا الله ببركاته وهو القائم عليها.

وطول جميع مسور المسجد الأقصى، بين المسقف والصخرة وغير ذلك، سبعمائة وخمسة وثمانون ذراعا من باب الأسباط إلى محراب داوود وسوق المعرفة، وسوق المعرفة المذكور هو مكان مسقف بين محراب داوود والمحل الذي فيه محراب مريم ومهد عيسى عليهما السلام، ولم أقف على معنى هذا الاسم، والمزورون يقولون إن أرواح الصالحين تتعارف هنالك، ولا يعتمد عليهم في شيء من ذلك لأن غرضهم معلوم.

وعرضه أربعمائة وله أحد عشر بابا: فأولها وثانيها بابان متحدان في

السور الشرقي الذي يرى بعض المفسرين أن الله تعالى فيه قال: [فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)[434]، فإن الوادي الذي وراءه يقال له وادي جهنم ومتصلا به مقبرة اليهود، وهذان البابان من داخل الحائط مما يلي المسجد، أحدهما يسمى باب الرحمة والآخر باب التوبة؛ ويحكى أنه كان في بني إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنبا يصبح مكتوبا على باب داره، فيفر إلى هذا المكان فيتوب ويخرج من باب التوبة ويدخل من باب الرحمة، فإن تاب الله عليه تمحى الكتابة وإلا يبقى هناك، ولا يستطيع أحد أن يكلمه ولو كان أدنى الناس اليه، والذي ذكر الحنبلي[435] صاحب "تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل" أن المكان الذي كانت تقصده بنو إسرائيل عند ذنوبها هو محراب داوود.

والثالث باب الأسباط نسبة لأسباط بني إسرائيل وهم يوسف وروبيل وشمعون ويهودا، وهو قريب من /267/ بابي الرحمة والتوبة، والرابع باب حطة في جهة الشمال، وهو الذي أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يدخلوا منه سجدا ويقولوا حطة، فبدلوا وخالفوا ما أمروا به لعنهم الله، والخامس باب شرف الأنبياء في جهة الشمال أيضا، ويرون أنه الذي دخل منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الفتح، والسادس باب الغوانمة والسابع باب الناظر، وقد جددت عمارته في زمن الملك المعظم عيسى من بني أيوب في حدود الستمائة ويعرف قديما بباب ميكائيل، والثامن باب الحديد والتاسع باب القطانين ومنه يخرج إلى سوق القطانين، والعاشر والحادي عشر باب السلسلة وباب السكينة وهما متحدان، وباب المغاربة سمي بذلك لمجاورته

---

(434) الآية 13 سورة الحديد.

(435) أبو اليمن عبد الرحمان بن محمد مجير الدين العليمي الحنبلي المقدسي (810-928هـ/ 1456-1522م)، مؤرخ من القدس تلقى تعليمه بالقاهرة واشتغل قاضيا بالرملة ثم قاضي القضاة بالقدس إلى أن توفي بها.له كتب منها "فتح الرحمان في تفسير القرآن" و" المنهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد " ترجم فيه لمجموعة من الفقهاء الحنابلة، وأشهرها كتابه " الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" الذي جمع فيه معلومات مهمة عن أوضاع القدس بالخصوص خلال الفترة الأيوبية وتاريخ المدينة ومساجدها وتراجم رجالها(296- 7 ,.E., I) .

لباب جامع المغاربة الذي تقام فيه الصلاة أو لأنه ينتهي إلى حارة المغاربة، وهذا الباب في آخر الجهة الغربية من المسجد مما يلي القبلة ويسمى باب النبي صلى الله عليه وسلم.

وزرنا أيضا في هذا الحرم الموضع الذي فيه محراب سيدتنا مريم، وفيه أيضا مهد عيسى عليه السلام، وقد انحدرنا إليه بمدارج وقعدت في المهد تبركا بصاحبه، وأشرفنا من هذا المكان على الفضاء المحمول عليه المسجد الأقصى كله، فهو محمول على أعمدة من الحجارة العظيمة من بناء الجان على عهد نبي الله سليمان عليه السلام، فذكر لي بعض المزورين من أهل الحرم أن عدد الأعمدة التي تحت الأرض المحمول عليها المسجد الأقصى / 268/ ثلاثة آلاف قائمة والعهدة عليه، وكلها تحت الأرض وقد رأينا بعضها من طاق من محل مهد عيسى عليه السلام، فهي في غاية الضخامة العمود فيه ثلاث قطع من الحجارة العظيمة.

وزرنا أيضا بهذا الحرم تربة سليمان عليه السلام وهي موضع كرسيه، وقيل الصحيح أنه مدفون مع والده في الجسمانية موضع خارج سور المسجد من جهة الشرق، وجزم بعض العلماء بأن سيدنا داوود مدفون بصهيون، موضع خارج سور المدينة من جهة القبلة، وهو الآن مقامه مشهور في غاية الجلالة يزوره الخاص والعام لاغتنام المدد والجمال وقيل غير ذلك (والله أعلم)(436).

وزرنا المكان الذي كان يحكم فيه نبي الله داوود عليه السلام، وهو أمام قبة الصخرة تحت قبة السلسلة مكتوب فوق محراب هذه القبة [يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق] الآية(437)، وذلك أن هذه السلسلة أدليت من السماء في أيام داوود عليه السلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، فكان الناس يتحاكمون عندها، فمن مد يده

---

(436) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(437) الآية 26 سورة ص.

إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذبالم ينلها، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، وذلك أن رجلا أودع رجلا جوهرة فخبأها في عكازه وطلبها المودع فجحد، فتحاكما فقال المدعي إن كنت صادقا فلتدن مني السلسلة فمسها، ودفع إليه المدعى عليه العكازة وقال: اللهم إن كنت تعلم أني رددت له الجوهرة فلتدن مني السلسلة، فمسها فقال الناس قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم /269/ الخديعة وأوحى إلى داوود أن احكم بين الناس بالبينة واليمين وبقي ذلك إلى الآن.

وزرنا أيضا تربة نبي الله داوود عليه السلام وهو خارج سور البلد، وقرأنا في ضريحه سورة(ص) ودعونا الله هناك، وتبركنا بزيارة مربط البراق وصلينا هناك ركعتين، ورأينا الحلقة التي ربط فيها البراق لكن الحلقة بدلت بغيرها وجعلت هذه تذكرة.

ثم توجهنا لزيارة طورسينا ومن اشتمل عليه من أهل الثناء والسنا، فخرجنا من باب الأسباط أحد أبواب القدس، فزرنا أولا قبر الصحابي الجليل عبادة بن الصامت(438) وهو عن يسار الخارج من باب الأسباط ملاصقا للسور، وبعده بشيء ما الصحابي الشهير شداد بن أوس قرب السور المذكور في مقبرة هنالك.

ثم انحدرنا إلى زيارة سيدتنا مريم بنت عمران، فوقفنا عند ضريحها وقرأنا لها الفاتحة ودعونا الله هنالك، ومفتاح قبتها بيد النصارى ولا حول ولا قوة إلا بالله، جبر الله حال هذه الدولة فقد أفسدهم الطمع، وأمامها تربة الإمام الحنبلي صاحب "تاريخ الأنس الجليل في القدس و الخليل"، ثم صعدنا إلى الطور فزرنا قبر الشيخ محمد العلمي من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله تعالى ببركاته، وحذاء ضريحه مسجد وزاوية يقال لها

---

(438) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري (38ق.هـ-34هـ/ 586-653م)، صحابي ورع شهد العقبة وبدرا والمشاهد كلها، ثم حضر فتح مصر وكان أول من تولى قضاء فلسطين، مات بالرملة أو ببيت المقدس وروى 181حديثا. (ابن عساكر 7-206؛ الإصابة 8-448؛ الزركلي 3-258).

الأسعدية سميت باسم بانيها أسعد أفندي كان شيخ إسلام، ثم دخلنا إلى الموضع الذي رفع منه عيسى عليه السلام فصلينا فيه ركعتين، وأرونا حجرا فيه أثر قدمه فتبركنا به ودعونا الله /270/ هنالك، وقد كان أيضا بأيدي النصارى فاستنقذه الله منهم على يد هذا الرجل الصالح الشيخ محمد العلمي بواسطة شيخ الإسلام المذكور، ثم توجهنا إلى زيارة تربة نبي الله عزير فدخلنا مقامه المبارك ودعونا الله هنالك.

ومن جبل الطور يظهر بيت المقدس في غاية البهاء والابتهاج وحسن المنظر وكذا من جهة القبلة، وأما من جهة الغرب والشمال فلا يرى منه من بعيد إلا القليل لموارات (كذا) الجبال له، فإن بيت المقدس والخليل في جبال كثيرة الأوعار والأحجار، والسير فيها متعب والمسافة فيها بعيدة، فإن الجبال المحيطة بالبلدتين مسافتها تقريبا ثلاثة أيام طولا ومثلها عرضا بسير الأثقال، ولكن إذا من الله على قاصد الزيارة بالوصول إلى المسجد الشريف الأقصى وإلى المقام الشريف الخليلي، يحصل له من الأنس والبهجة ما لا يكاد يوصف، ويسلوا عما حصل له من المشقة والنصب، وقد أنشد الحافظ ابن حجر عند قدومه لزيارة بيت المقدس في معنى ذلك:

إلى البيت المقدس جئت أرجو ... جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا في مسافته عقابا ... وما بعد العقاب سوى النعيم

ثم انحدرنا من وراء الطور فدرنا إلى صوب كليم الله ونبيه موسى بن عمران عليه السلام، وهو بعيد من هذا المكان قيل بنحو أربع ساعات، فحدثت نفسي بالوصول إليه فأخبرني أهل البلد أن الطريق مخوفة، فرددنا الوجهة إلى صوبه ودعونا الله هنالك، ثم تبركنا بزيارة بير /271/ نبي الله أيوب عليه السلام الذي يروى أنه المراد بقوله تعالى: [اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب][439]، وقد أخبرني بعض الأفاضل من علماء القدس وقد توجه معنا لهذه الزيارة وهو الذي كان يدلنا على هذه الأماكن، أن هذا البير في فصل الشتاء والأمطار يفيض ويفور بماء كثير مثل النهر، وقد رأينا

(439) الآية 42 سورة ص.

مجراه يابسا وهو محفور بجري الماء، وأشرفنا على البير فإذا فيه ماء كثير لكنه بعيد، فقد رميت فيه بحجر فما وصل الماء إلا بعد حين.

ثم مررنا بعين يقال لها سلوان أخبرنا أهل البلد أنها تجري حينا وتحبس حينا، وهي خارجة من أصل جبل لا يدرى لها أصل، قال الإمام الحنبلي في تاريخه "الأنس الجليل": أما عين سلوان فهي بظاهر القدس الشريف من جهة القبلة بالوادي، يشرف عليها سور المسجد القبلي، وقال في آخر كلامه عليها وعن خالد بن(440) ..أنه قال: زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة، ومن الغريب أنها لا تجري غالبا إلا عند أوقات الصلاة وتحبس فيما عدا ذلك، ونحن لما وصلنا إليها وجدنا ماءها منحبسا، وعند وصولنا إليها خرج ماؤها وجرى على وجه الأرض في مصاريفه، فشربنا منه فإذا ماؤها أشبه بماء زمزم، وهذا عند أهل البلد معروف وقد أخبرونا به قبل رؤيتنا له فلما شربناه وجدناه كما قيل.

ويروى عن كافة أهل البلد أن رجلا هنديا شرب من ماء زمزم فسقط له قدح في البير، فغاب حقبة من الدهر وأتى إلى القدس، فاستقى ماء من بعض الضيع فناولوه الماء في قدح، فأمعن النظر في القدح فإذا هو قدحه الذي سقط منه في بير زمزم، فقال لصاحبه: من أين لك هذا القدح، فقال له: اشرب وما عليك فيه، فقال: هذا القدح لي وقد سقط مني في بير زمزم، وها هو مجلد فانزعوا عنه الجلد فإن وجدتم تحته كذا دنانير فهو لي وإلا فلا، فقال له: إن كان /272/ كما تقول فقد رمت به عين سلوان ورفعناه، فأخبرهم الخبر فأمسكوا القدح وعلقوه في المسجد الأقصى وقد رأيته، ولا غرابة في هذا فقد ورد أن مياه الدنيا كلها تخرج من تحت صخرة بيت المقدس.

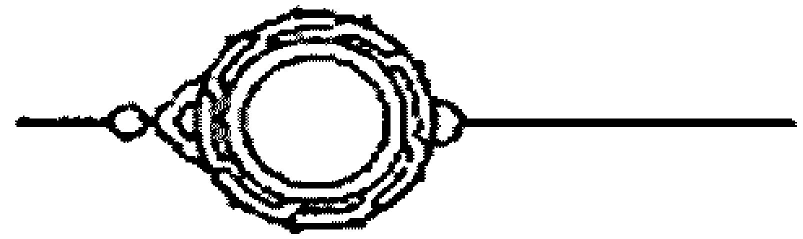
وزرنا أيضا القبة التي عرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وهي في شمال قبة الصخرة قريبة منها، وصلينا هناك ركعتين

---

(440) اسم غير مقروء.

ودعونا الله بما يرجى قبوله، وتبركنا أيضا بالدخول إلى المسجد الأقصى القديم الذي من فوقه المسجد الذي يسمى اليوم بالأقصى، فانحدرنا إليه بمدارج وهو الذي فيه محرابان، محراب إلى صوب الصخرة القبلة الأولى ومحراب إلى جهة الكعبة المشرفة، وبناؤه قديم من بناء سليمان عليه السلام بالحجارة الهائلة، فقد كلت حجرا من أحجار جداره فوجدت فيه تسعة عشر شبرا في طوله وعرضه نحو خمسة أشبار، ورأيت فيه أعظم من ذلك جدارا في طرفه أسطوانة من ثلاثة أحجار فقط، منحوتا منها شكل الأسطوانة مدورا من نفس الحجر الذي هو الجدار وباقيها مستطيل، وتبركنا بزيارة خلوة أبي مدين الغوث دفين تلمسان وهو في حارة المغاربة.

التوجه إلى الخليل وزيارة قبر أب الأنبياء إبراهيم



ثم سرنا من القدس إلى بلدة حبرون[441] وتسمى اليوم بالخليل، فكان خروجنا من القدس من باب يقال له باب الخليل، ومررنا في الطريق على قبر راحيل أم يوسف عليه السلام عن يمين الطريق، عليها قبة بينها وبين القدس نحو ساعة، ثم على قرية بيت لحم وفيها المكان الذي ازداد فيه نبي الله وكليمه عيسى بن مريم عليه السلام، /273/ وقد بقيت عن يسارنا وأكثرها نصارى والبقعة المباركة في أيديهم، فزرنا المكان عند مواجهته وقرأنا الفاتحة ودعونا الله هنالك، ثم تمادينا على المسير فواجهنا تربة نبي الله يونس بن متي صاحب الحوت، بقي عن يسار الطريق على ظهر جبل فدعونا الله تعالى عند مواجهته، فوصلنا إلى الخليل على ست ساعات بالسير الحثيث، وهو في قبلة القدس وهو أشبه شيء بمكة عند أول نظرة مؤسس على

(441) حبرون أو الخليل نسبة إلى إبراهيم الخليل الذي يوجد قبره بها إلى جانب قبور إسحاق ويعقوب والبطارقة، ولذلك اكتست هذه المدينة مكانة خاصة لدى المسلمين و اليهود والمسيحيين، فقد سيطر عليها الصليبيون ثم استردها صلاح الدين بعد معركة حطين، وصفها العبدري بأنها " قرية مليحة المنظر والمخبر أنيقة المسموع والمبصر مشرقة كالصبح إذا أسفر، موضوعة ببطن واد قليق الماء والشجر والمحيط بها حرار وعرة ". (دائرة المعارف 8-430؛ العبدري 222).

جبال، فنزلنا على شيخ البلد وتوضأنا وسرنا إلى المقصد الأعظم والملاذ الأفخم، أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام، فدخلنا المسجد وملنا ذات اليمين إلى قبته، وتبركنا بالمقام عند ضريحه وقرأنا عليه سورة إبراهيم ودعونا الله هنالك، وكنت حقيقا بأن أنشد هنالك ما أنشده بعض الشيوخ، وهو في الدواوين مسطر ومنسوخ لابن مطروح:

خليل الله قد جئناك نرجو ... شفاعتك التي ليست ترد
أنلنا دعوة واشفع تشفع ... إلى من لا يخيب لديه قصد
وقل يارب أضياف ووفد ... لهم بمحمد صلة وعهد
أتوا يستغفرونك من ذنوب ... عظام لا تعد ولا تحد
إذا وزنت بيذبل أو شمام ... رجحن ودونها رضوى وأحد
ولكن لا يضيق العفو عنهم ... وكيف يضيق وهو لهم معد
وقد سألوا رضاك على لساني ... إلهي ما أجيب وما أرد
/ 274 / فيا مولاهمُ عطفا عليهم ... فهم جمع أتوك وأنت فرد

وفي مقابلته ضريح أم الأنبياء سارة زوجته وهما عند باب المسجد، ضريح سيدنا إبراهيم عن يمين الداخل وزوجته أمامه، وفي داخل المسجد قريب من المحراب عن اليمين ضريح نبي الله إسحاق عليه السلام، فتبركنا به ودعونا الله تعالى عند مقامه، وفي مقابلته عن اليسار ضريح زوجته ربقة. ثم خرجنا من مسقف المسجد إلى ضريح نبي الله يعقوب بن إسحاق عليه السلام، فزرناه وتبركنا به ودعونا الله في مقامه، ثم عجنا (كذا) إلى تربة نبي الله يوسف الصديق عليه السلام، فزرناه وتبركنا بمشاهدته ودعونا الله هنالك صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، **اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد**[442]

وهذا المسجد ليس بالكبير، فمساحته مقدار ما كتب في دائرة جداره،

(442) كتب هذا الدعاء بخط بارز ومنمق في النسختين.

ففي دائرة المحراب [إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين] إلى آخر السورة[443]، ومن أول سورة يس إلى [ومنها يأكلون][444] بخط غليظ بذوب الذهب، وفي داخل المسجد في أرضه طاق مثل البير بقرب مقام سيدنا إبراهيم، تسرج فيه مصابيح ليلا ونهارا وتدلى فيه[445]، قيل إن الأنبياء المذكورين عليهم السلام مدفونون هنالك في مغارة تحت أرض المسجد (والمسجد فوق ذلك)[446].

وفي المسجد / 275/ المذكور شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج مثل ما يفعل عندنا بقبور الأولياء، جعلت في مقابلة قبور الأنبياء إلا قبر يوسف فإنه في آخر المسجد عند انتهاء الصحن في الناحية الغربية، وكذا نبي الله يعقوب خارج عن مسقف المسجد، ويروى أن نبي الله آدم عليه السلام مدفون هنالك.

قال الإمام الحنبلي في تاريخه "الأنس الجليل" وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن آدم عليه السلام رأسه عند الصخرة ورجلاه عند مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وقال الشيخ البركة أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي[447] نفع الله به في شرحه "الحصن الحصين"، عند قوله ولم يعرف قبر نبي بعينه، إلا قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقط وقبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام داخل السور من غير تعيين ما نصه: وفي مناسك الشيخ خليل ما تقوله العامة من أنه صلى الله عليه وسلم قال: من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد ضمنت له على

(443) الآية 120 سورة النحل.
(444) الآية 72 سورة يس.
(445) بياض مقدار كلمة في الأصل.
(446) سقطت من (أ) ووردت في (ب).
(447) أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي المالكي (1042-1116هـ/ 1632-1704م)، فاضل من أهل فاس مولدا ووفاة، اشتغل أول أمره بعلوم العربية ثم اقتصر على التفسير والحديث، من كتبه " تكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام "و شرح أرجوزة العربي الفاسي ". (صفوة من انتشر 215؛ سلوة الأنفاس 1-316؛ الزركلي 6-212).

الله الجنة، فليس بصحيح ولكنه من أفعال الخير. وكذلك قول العامة أقدس حجتي، وهو عندهم من تمام الحج وهو باطل، لكن يستحب زيارة المسجد الأقصى وزيارة الخليل وذلك كله حسن.

قال أهل العلم: وليس موضع قبر مقطوع به بعد موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم إلا موضع الخليل، انتهى. وقال صاحبنا العلامة أبو سالم عبد الله العياشي(448) رحمه الله في رحلته: زرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبور أنبيائه الكرام، سيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب عليهما السلام وقبور أزواجهم، والقبور كلها في مغارة تحت أرض المسجد، وفي المغارة طاق مفتوح في وسط أرض المسجد مثل البير قد علقت /276/ فيها مصابيح توقد ليلا ونهارا، وفي أرض المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج، في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة إلا قبر يوسف عليه السلام، فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات مخصوصة.

واقتحمنا دخول المسجد اقتداء بمن جوز ذلك من العلماء ورخص فيه، وإن كان كثير من أئمتنا المالكية قد شددوا النكير في ذلك، وقالوا لا يحل دخوله لأن قبور الأنبياء مقطوع بأنها هنالك ولا نعلم أعيانها، فكل محل يوطأ فيه يمكن أن يكون هو موضع القبر، ولا يحل الجلوس ولا المرور على قبر مسلم فكيف بقبر نبي. ولكن العمل منذ افتتحت البلاد على خلاف ذلك، فقد صار المحل مسجدا تقام فيه الجمعة والجماعة على مر الأعصار،

---

(448) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (1037-1090هـ/1628-1679م)، يصفه القادري بـ" العلامة الكبير المحقق النحرير الفاضل المشارك في أنواع العلوم والمدارك الراوية الرحالة الجوال"، من قبيلة آيت عياش الأمازيغية جاب المغرب طلبا للعلم وبعد إجازته من طرف عبد القادر الفاسي حج للمرة الأولى سنة 1649، وفي حجته الثانية سنة 1653 ألف رحلته "ماء الموائد" التي نالت شهرة كبيرة، كما ألف العياشي كتبا أخرى منها "تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية" في التصوف، و" اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر" وغيرها. توفي العياشي في وباء سنة 1679. (القادري، نشر المثاني، ج. 2، ص.254؛ E., I., 1 818؛ الإفراني، صفوة من انتشر).

والعلماء والأخيار يفدون عليه ويسمونه في تآليفهم وأسمعتهم مسجدا، وحكم المسجد ألا يمنع أحد من الدخول فيه، وقد استدل لجواز الدخول فيه الحنبلي مؤرخ القدس بما يطول ذكره، انتهى.

ونقل صاحب كتاب "دفع النقمة بالصلاة على نبي الرحمة" عن الهروي في كتاب "منازل الأرض"، أنه سمع على الشيخ أبا طاهر الحافظ السلفي بثغر الإسكندرية سنة(449) خبرا يرفعه إلى فلان الآدمي، ذكر فيه أن الآدمي المذكور قصد زيارة الخليل عليه السلام، وصادف القيم بالموضع فتقرب إليه بهدية وطلب منه النزول إلى المغارة، فوعده عند انقطاع الزوار زمن الثلج، فلما انقطع الناس أتى به إلى بلاطة /277/ وأخذ ما يستضيء به، ونزل في درج مقدار سبعين درجة، وانتهيا إلى مغارة واسعة كبيرة وانتهيا لطريق فيها ولها دكة عالية، عليها إبراهيم الخليل ملقى وعليه ثوب أخضر وشبت، وإلى جانبه إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم أتى إلى حائط في المغارة فقال له إن سارة خلف هذا الحائط، فهم الرجل أن ينظر ما وراء الحائط وإذا بصوت يقول إياك والحريم فعاد من حيث جاء والله أعلم.

قال الهروي: ثم دخلت أيضا القدس سنة تسع وستين وخمسمائة واجتمعت فيه وفي الخليل عليه السلام بجماعة مشايخ، حدثوني أنه لما كان زمن الملك ابن مرود(450) انخسف موضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وقد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط، على رؤوسهم قناديل معلقة رؤوسهم مكشوفة، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع وذلك في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة من الهجرة النبوية.

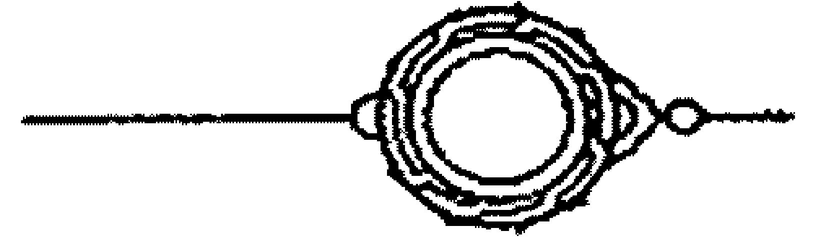
ثم رجعنا إلى محل نزولنا عند شيخ البلد فأكرم مثوانا وأحسن نزلنا، وقدم مفتي البلد للسلام علينا وبقي معنا نتحدث طرفا من الليل، ولما قرب

---

(449) بياض في النسختين.

(450) بياض محل الاسم في (أ) وورد في (ب)، ويورد عبد الهادي التازي أن المقصود بودوان B Baudoin.

طلوع الفجر بساعتين فتحوا لنا الباب وخرجنا من حبرون بلدة سيدنا إبراهيم الخليل، لأنه تعلق لنا غرض في صلاة الجمعة في المسجد الأقصى وقد كانت الليلة ليلة الجمعة، وخشينا أن تفوتنا إذا بقينا إلى الصباح فسرنا بقية الليل وصلينا الفجر والصبح عندما طلع الفجر، وتمادينا على المسير فوصلنا إلى القدس قبل الزوال /278/ بساعتين، فاسترحنا وتوضأنا وتوجهنا إلى المسجد الأقصى فصلينا فيه الجمعة ولله الحمد.



موجز تاريخ بيت المقدس

وقد رأيت أن نرسم ما يتعلق ببناء بيت المقدس، وأول من بناه ومن أعاد بناءه بعد الطوفان ومن جدد بناءه بعد الخراب، وما يتعلق بالصخرة المباركة وقبتها ومن بناها، والمسجد الأقصى ومعراجه صلى الله عليه وسلم وكيف هو، منتخبا ذلك مما يعتمد عليه من التآليف مثل "الأنس الجليل في القدس والخليل"، ورسالة الشيخ التافلاتي أحد أصحابنا المغاربة المالكية، لكنه انتقل إلى مذهب أبي حنيفة لما استقر ببيت المقدس وولي الفتوى هنالك.

فأول من بناه الملائكة الكرام بعد بناء البيت الحرام بأربعين عاما كما جزم به الجلال المحلي والجلال السيوطي، وكما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي، قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما قال: أربعون عاما.

وهذا البناء قبل خلق آدم بمئين من السنين، وبه صرح في الجلالين في تفسير قوله تعالى: [إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة][451]، وهو الذي يجب الاعتماد عليه ولا يعول على غيره، وبه صرح البيضاوي في تفسيره لكن لم يقل بنته الملائكة، وقد علمت النقل عن الجلال المحلي والجلال السيوطي في ذلك.

(451) الآية 96 سورة آل عمران.

واعلم أن أول قبلة للملائكة ولآدم عليه السلام هي الكعبة المشرفة، كما قاله الإمام ابن عباس وغيره وهو القول المعتمد عليه، فبيت المقدس ثاني القبلتين /279/ على القول المرجح، وأما من بناه بعد البناء الأول فقال ابن هشام في "التيجان": إن آدم عليه السلام لما بنى البيت الحرام أمره جبريل عليه السلام بالمسير إلى بيت المقدس وببنائه، فبناه وتعبد فيه وكان بين البناءين أربعون عاما، وزعم بعض المؤرخين أن سيدنا آدم عليه السلام لم يعلم بوجود لبيت المقدس فضلا عن كونه بناه، وهو جهل وخطأ صراح؛ ثم خربه الطوفان فبناه سام بن نوح عليه السلام، ثم خرب فبناه سيدنا يعقوب عليه السلام بعد بناء سيدنا إبراهيم الكعبة بأربعين عاما، كما صرح به النجم الحافظ الفيظي في معراجه وغيره وعندي فيه نظر.

ثم شرع سيدنا داوود في بنائه فلما علا البناء انهدم، ثم أعاد البناء فانهدم، فتضرع إلى الله تعالى فأوحى الله إليه أن هذا البناء لا يتم إلا على يد ولدك سليمان، ثم بناه سيدنا سليمان عليه السلام بناء محكما شاهقا أمر الجن فعمرته، وكان علو قبة الصخرة اثني عشر ميلا، وزينه بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والفضة كما بسطه المؤرخون، ثم خربه بخت نصر[452] وأخذ جميع ما فيه من الذخائر العظيمة، ثم بناه الملك كورش المومن[453] ملك الفرس بعد سبعين سنة، أمره الله تعالى على لسان نبي الله أرمياء، ثم خربه طيطوش[454] ملك الروم لعنه الله، ثم بنت هيلانة أم قسطنطين قبة الصخرة المشرفة، فلما أكملتها دخلها سبعون ألف راهب ليكفروا فيها،

---

(452) بخت نصر، خلط العرب في اسم بخت نصر بين نابونصر ملك الكلدانيين الذي ولي عرش بابل بين 747 و733ق.م، ونبو شادنزر أو نبوخذ نصر الذي حكم بابل بين 605 و562ق.م. وهو المقصود عند ابن عثمان، إذ هو الذي فتح بيت المقدس وخربها مرتين وسبى اليهود. (دائرة المعارف 3-429)

(453) ملك الفرس الأخمينين الذي سقطت بابل على يده وأعاد اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر إلى أورشليم، ولذلك يعتبره اليهود منقذا لهم ويروى أن زوجته كانت يهودية.

(454) هو Titus Flavius Sabinus (39-81)! أحد قياصرة روما، خلف والده Vespatien واشتهر بحروبه ضد اليهود، حيث دخل مدينة القدس وخربها سنة 70 م، وهو ما يحيل عليه ابن عثمان.

فهدمت عليهم ولم ينج منهم أحد، فبناها النصارى ثانيا وثالثا /280/ فهدمت عليهم، فأشار عليهم إبليس لعنه الله بأن يبنوا القمامة الكبرى، فأخذوا جميع أعمدة المسجد وأحجاره وآلاته الحسنة فبنوا بها القمامة الكبرى والجسمانية وبيت لحم والمصعد، وجعلوا سطح الصخرة والمسجد مزبلة حتى كانت النساء الحيض من بلاد النصارى يرسلون خرقهن فترمى في المسجد .

ثم لما جاء الإسلام وفتح بيت المقدس صلحا على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كنس عنه جميع المزابل وغسل الصخرة المشرفة وبنى قطعة من المسجد للصلاة في صدر المسجد، وما زال هكذا وإلى الآن يدعى بمسجد عمر وهو عن يمين المستقبل في المسجد الأقصى، وهو بلاط واحد مفتوح له قوس داخل المسجد في الصف الأول، حتى جاءت ملوك بني أمية فبنى عبد الملك بن مروان منهم هذا البناء الموجود الآن، وبسط الكلام على ذلك يطلب في كتب التاريخ.

وطول الصخرة المشرفة نيف وثمانون ذراعا، وطول سطح الصخرة المحيط بها مائة ذراع. وكل الأنبياء عليهم السلام صلوا للقبلتين، روى الليث عن يونس عن الزهري قال: لم يبعث الله من هبوط آدم إلى الأرض نبيا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقال بعض العلماء: إلا إبراهيم فإنه لم يصل إلا إلى الكعبة خاصة. ولا يجوز الطواف بالصخرة أو قبتها كالكعبة، لأنه ما شرع الله الطواف إلا بالبيت الحرام، وما شرع الطواف بالصخرة ولا بقبتها في جميع الملل.

وأما الباب الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، / 281/ فهو الباب السفلي القريب من باب مسجد المغاربة، والحلقة التي ربط فيها البراق قيل إنه كانت هنالك حلقة في صخرة من صخور المسجد تربط فيها الأنبياء دوابهم، ولما أسرى بنبينا صلى الله عليه وسلم خرق الصخرة المشرفة بأصبعه المبارك، وربط البراق هناك زيادة لشرف النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء، ودواب الجنة لا تبول ولا تروث. وأما الحلقة الموجودة الآن فليس محل ربط البراق، بل محل ربطه أسفل من ذلك ولكن

لما أردم المحل بالأتربة جعلت الحلقة علامة على ذلك.

وأما عروجه عليه الصلاة والسلام فهل هو من فوق الصخرة أو من موضع القبة المعروفة الآن بقبة المعراج، فالذي ذكره بعض المؤرخين أنه من فوق الصخرة، وهو قول واه والصواب أن العروج من مكان القبة المذكورة ولا خلاف فيه بين العلماء. والموضع الذي صلى فيه صلى الله عليه وسلم إماما بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو مكان القبة المشهورة الآن بقبة بخ بخ، وهي شمال قبة المعراج قريبة منها كما يشهد لذلك الحديث، وليس مقامه في المحراب الذي هو غربي الصخرة، وإن ذهب إليه بعضهم فهو غير صحيح. وهل دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الصخرة وصلى هناك، فأما الدخول تحت الصخرة فقد دخل وأما الصلاة فلم يثبت أنه صلى تحتها.

ويسمى ذلك المكان الذي هو داخل المغارة تحت الصخرة مسجد داوود كما في الشفا وشرحه للشهاب، وأما النقب الذي في الصخرة فوق /282/ المغارة وتزعم العامة أنها موضع عمامة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا سند له عند المحدثين وإنما هو من كلام المزورين، وأما المعراج فمن أي شيء هو، فهو درجة من ذهب ودرجة من فضة، وفي كتاب شوق المصطفى أنه أوتي بالمعراج من جنة الفردوس وأنه منضد، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة. وأما صخرة بيت المقدس فهل هي من صخور الدنيا أم من صخور الجنة، فقد ورد في حديث ضعيف السند صخرة بيت المقدس من صخور الجنة، وفي لفظ سيدة الصخور صخرة بيت المقدس، فبعض المحدثين أبقاه على ظاهره وبعضهم حمله على المجاز والله أعلم.

وهل هذه الصخرة معلقة في الهوى (كذا) أم لا، فلم يثبت فيها حديث يرجع إليه في شأنها، ولا نقل عن السلف فيها شيء بتعليق أو عدمه، لكن نقل بعض المحدثين أنها معلقة، ونقله أرباب السير وكثير من المؤرخين من غير نكير، ويكفي هذا في الجزم بالتعليق وهو شيء جائز في العقول. قال الشهاب الخفاجي في شرحه على الشفا ما نصه: قال البرقي في

غريب الموطأ: أن صخرة بيت المقدس من غرائب الدنيا، فإن جميع المياه تخرج من تحتها، وهي صخرة صماء في وسط المسجد الأقصى كجبل بين السماء والأرض، معلقة لا يمسكها إلا الله، وفي أعلاها قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ركب البراق ليلة الإسراء، فمالت من تلك الجهة من هيبته، وفي الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت، ولذا كان بعضها أبعد من الأرض وتحتها غار عليه باب يفتح /283/ لمن يدخله للصلاة والدعاء، انتهى.

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في شرحه لموطأ مالك: صخرة بيت المقدس من عجائب الله، فإنها صخرة قائمة في وسط المسجد الأقصى قد انقطعت عن كل جهة، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، في أعلاها من جهة الجنوب قدمه صلى الله عليه وسلم حين ركب البراق، وقد مالت لهيبته صلى الله عليه وسلم، وفي الجهة الأخرى أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت، ومن تحتها المغارة التي انفصلت تحتها من كل جهة أي فهي معلقة بين السماء والأرض.

وامتنعت لهيبتها من أن ندخل تحتها لأني كنت أخاف أن تسقط علي بذنوبي، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب، تمشي في جوانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شيء، وبعض الجهات أشد انفصالا من بعض. وهذا الذي ذكره ابن العربي أن قدمه صلى الله عليه وسلم أثر في صخرة بيت المقدس حين ركب البراق وأن الملائكة أمسكتها لما مالت، قال به الحافظ ناصر الدين الدمشقي، وقد أنكر أكثر المحدثين ذلك القدم لعدم صحة السند به عندهم والله أعلم.

وهل عروجه عليه الصلاة والسلام كان مستقيما أو معوجا وعلى أي كيفية كان، ذكر الشيخ الغيطي في معراجه وغيره أن العروج كان مستويا لا اعوجاج فيه، انتصب بخط مستوي (كذا) من مكان المعراج إلى باب السماء، وكيفية عروجه فيه هو أنه في حالة صعوده عليه السلام، تهبط له الدرجات /284/ وترفعه درجة فدرجة إلى نهايتها، وكذلك في النزول تهبط

حتى ينزل عنها ثم ترفع، فالحركات في الدرجات لا منه عليه الصلاة والسلام كما هو وصف أهل الجنة في الجنة. وهل عرج على البراق أم تركه مربوطا في المسجد حتى رجع، والراجح عند المحدثين أن البراق بقي مربوطا كما صححه المحدثون، وعرج صلى الله عليه وسلم بنفسه وقيل إنه عرج على ظهر البراق. وهل صخرة بيت المقدس أعلا (كذا) مكان في الدنيا وأقرب إلى السماء نعم، صرح بعض المحدثين أن بيت المقدس أقرب أماكن الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا، انتهى.

ولا شك أن الصخرة جزء من بيت المقدس فيغطي الجزء حكم الكل، قال الحافظ ابن حجر: وفيه نظر لأن أقرب أماكن الأرض إلى السماء البيت الحرام، قال بعض المحدثين هذا النظر صحيح، ولكن يلزمه من عروجه من البيت الحرام اعوجاج المعراج إلى باب السماء الذي هو فوق بيت المقدس، وصرحوا بأن أفضل بقعة في المسجد الأقصى الصخرة المشرفة، وكلما قرب منها كان أفضل مما بعد. وما خفي من الصخرة المعلقة إلا أطرافها المتصلة بالتبليط والعمارة، ولو أزيل ذلك التبليط والعمارة لظهرت قطعة بين السماء والأرض منفصلة عن كل شيء.

وهل فضيلة هذه الصخرة باقية أم نسخت بفضيلة الكعبة المشرفة، قال علي القاري في موضوعاته: كانت صخرة بيت المقدس في شريعة بني إسرائيل فضيلتها في الأرض كيوم السبت في الزمان، وبعد نسخ الله قبلتها بالكعبة صار التفضيل للكعبة ونسخ تفضيل الصخرة، فهي الآن / 285/ قطعة من المسجد، هكذا قال وللنظر فيه مجال فليراجع.

والدعاء في مغارتها مستجاب، وأما الطرف الناتيء منها الذي يستقبله الإنسان عند الإنحدار إلى مغارتها، ويزعم المزورون أنه لسانها ويقبلونه فلم يثبت في السنة أن لها لسانا، وإنما هو قول المزورين لجلب الدراهم، بخلاف الكعبة المشرفة فقد ورد في الحديث أن لها لسانا تشهد به يوم القيامة لمن قبلها، وقصة سيدنا عمر مع سيدنا علي في ذلك مشهورة في كتب الحديث.

وهل لهذه الصخرة ذكر في القرآن أم لا، نعم ذكرت في قوله تعالى: [سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها](455)، وقوله تعالى: [وما جعلنا القبلة التي كنت عليها](456)، فالقبلة في الآيتين المراد بها الصخرة المشرفة، وذكرت أيضا في قوله تعالى: [واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب](457)، قال المفسرون المراد بالمكان القريب صخرة بيت المقدس.

وأما ما ورد في فضل المسجد الأقصى، فمن ذلك ما رواه النسائي(458) وابن ماجة(459) وغيرهما أن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل الله ثلاثا: سأله ملكا لا ينبغي لأحد سواه فأعطاه إياه، وسأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله من أتى هذا البيت يعني بيت المقدس لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه. قال عليه الصلاة والسلام: وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك، رواه النسائي والإمام أحمد في مسنده وصححه الحاكم. وروى أبو داوود وابن ماجة عن ميمونة / 286/ مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يارسول الله أفتنا في بيت المقدس، فقال: (أرض المحشر والنشر، إيتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره)، قلت: أرأيت إن لم أستطع أصلي فيه، قال: (فتهدي زيتا يسرج

---

(455) الآية 142 سورة البقرة.

(456) الآية 143 سورة البقرة.

(457) "ينادي المنادي" في النسختين؛ الآية 41 سورة ق.

(458) أبو عبد الرحمان أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان النسائي (215-303 هـ/ 830-915م)، صاحب "السنن" القاضي الحافظ شيخ الإسلام، أصله من نسأ بخراسان استوطن مصر فحسده مشايخها وخرج إلى الرملة بفلسطين حيث عذب لرفضه الحديث عن فضائل معاوية ومات بسبب ذلك ودفن ببيت المقدس، وقيل خرج حاجا فمات بمكة. له " السنن الكبرى" و"مسند علي " و"مسند مالك". (ابن خلكان 1-77؛ البداية والنهاية 11-123؛ الزركلي 2-171).

(459) أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني (209-273هـ/ 824-887م)، أحد أئمة علم الحديث ومصنف كتاب "السنن" أحد الصحاح الستة المعتمدة، وهو من أهل قزوين رحل إلى البصرة وبغداد والشام والحجاز في طلب الحديث، وله" تفسير القرآن" و"تاريخ قزوين". (ابن خلكان 3-279؛ كشف الظنون 300؛ الزركلي 7-1).

فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه) وقد صح غير ذلك.

وأما ثواب الصلاة في المسجد الأقصى فالذي صح في ذلك من الحديث أن الصلاة فيه بخمسمائة، وصح أيضا أن الصلاة فيه بألف، وورد في حديث مضطرب أن الصلاة فيه بأربعين ألف وهو في مسند ابن ماجة ولا يصح الاحتجاج به، وأما رواية سبعين ألف فلا تصح.

وهل الأقصى جميع المسجد أم البقعة المعروفة الآن التي فيها المنبر، فقد أجمع العلماء على أن المسجد الأقصى هو جميع[460] ما أحاط به سور المسجد، فيدخل فيه قبة الصخرة وجامع المالكية وجامع قايتباي والمحل الذي فيه المنبر، وأما خصوص الأقصى بالمكان الذي فيه المنبر الآن فهو اصطلاح جديد. وهل صلى عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء تحت المسجد في الأقصى أم لا وأي موضع صلى فيه، نقل في الشفا للقاضي عياض[461] أنه صلى مع جبريل تحت المسجد في مقدم المسجد قبل أن يصلي إماما بالأنبياء. وهل تضعيف الصلاة خاص بالمسجد أم عام بالبلد، أما تضعيف الصلاة بالمسجد فقد ثبت بالأحاديث والإجماع، وقال بعض العلماء تتضاعف في القطر المقدسي كله، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

/287/ وما ورد من أن الخضر عليه السلام يصوم رمضان في كل عام

---

(460) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(461) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصوبي السبتي (476- 544 هـ/ 1082- 1149) من أشهر وجوه المالكية في الغرب الإسلامي، ارتبط بالدولة المرابطية التي ظل وفيا لها. استقر بمسقط رأسه سبتة بعد الإقامة بالأندلس وفاس والقيروان، وتتلمذ خلال رحلته في طلب العلم على يد مشاهير الأعلام مثل ابن حمدين ألد خصوم الإحياء للغزالي وأبي بكر بن العربي. اشتغل قاضيا بمدينته سبتة سنة 1121م ثم قاضيا على غرناطة لكنه لم يمكث في هذا المنصب طويلا نظرا لإحراجه للحكام بها. كان عياض محرضا على مقاومة سبتة للموحدين مما جعل الأخيرين ينفونه إلى تادلا قبل سجنه بمراكش حيث توفي. وكان نموذج الفقيه المالكي الذي يعتبر أن لاحقيقة غير تلك التي علمها مالك ومدرسته، ترك العديد من المؤلفات أهمها "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و "ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك(E., I., 4-302) ".

في بيت المقدس، فقد صرح به بعض العلماء المحدثين وأورد في ذلك أثرا.

جرايات عثمانية لأهل القدس ومؤسسات خيرية

ولهذه الدولة العثمانية بهذا الحرم الشريف بل وكذا حرم مكة والمدينة اعتناء عظيم وأثر جسيم، فمهما سقط شيء منه إلا أعادوه وما تلاشى جددوه، صانهم الله تعالى وأبقاهم وأسماهم في معارج المآثر الحميدة وأرقاهم، ولهم هنالك زيادة على إصلاح ما في الحرم من البناء، الصدقة الجارية على من في القدس من الآباء والأبناء، وعينوا هنالك زاوية تظل على طول الآناء أعشارها تفور، وآنيتها بالطعام على الفقراء تدور في العشي والبكور، ومن انحاز له من هذه الصدقة حظ أو نصيب، صار ملكا له يورث عنه بالفرض و التعصيب، فإن أراد بيعه في حياته فهو كبعض شيئاته. وهذ الحسنة جارية قد مضت عليها من الدهر أحقاب، يتبع أثرها منهم صالح الأعقاب، وكل من أتى من ملوكهم عن هذا النهج لا يحيد ولا ينقص بل يزيد، أدام الله تعالى أيامهم ونصر جيوشهم وأعلامهم.

لقاء ابن عثمان مع شيخه في الطريقة القادرية

وممن اجتمعت معه في القدس الشريف، الشيخ البركة القدوة العارف بالله تعالى، أستاذنا وشيخنا أبو السعود محمد المأذون بالخلوة القادرية والخلوتية(462)، وقد أخذت عنه وصافحني بمصافحة شيخه في الطريقة، السيد مصطفى بن كمال الدين الصديقي الدمشقي البكري الخلوتي(463) قطب عصره، وأخذ أيضا عن السيد عبد القادر القادري شيخ السجادة القادرية

---

(462) الخلوتية طريقة صوفية واسعة الانتشار متفرعة عن الأبهرية الزاهدية، انتشرت في البداية بالأناضول ومنه بدأت توسعها زمن السلطان بايزيد الثاني(1481-1512) حيث انتقل مركزها إلى استانبول. ومنذئذ صارت الخلوتية تتفرع إلى زوايا تحمل كل واحدة اسم مؤسسها. وتعكس مخلفات شيوخ الخلوتية تأثرهم بمذهب ابن عربي في التصوف كما نجد آثارا لأفكار شيعية عندهم. وكما يدل على ذلك اسمها كان على كل مريد أن يقوم بخلوة دورية وفق طقوس مضبوطة إضافة إلى الأذكار و تبجيل الشيوخ وغير ذلك (E., I., 4-1023))

(463) أورد ابن عثمان ترجمته أسفله.

ببغداد. ومما أنشدني / 288/ لنفسه مخاطبا بعض من استجار به بوارد صدر له في حالة الصلاة، فمما ورد له في الركوع:

قبلنا قبلنا من أناخ ببابنا مطية ذل واستجبنا دعاءه
طردنا طردنا من تصدى لكيده جعلنا جعلنا الهاشمي إمامه

فجاء خاطر يقول له: من أين لك هذا، فورد عليه خاطر في حالة السجود بأن قال:

وما كان من دمع غزير فإنما تعلق قلبي بالعلو فأوردا
عن العالم العلوي ما كان مثبتا صحيحا عن الأملاك قد جاء مسندا

ومما أنشدنا متمثلا ما تلقاه عن شيخه القادري المذكور وهو في جميع ذلك مشير إلينا:

وحيث اتجهتم ساعدتكم عناية ويرعاكم الرحمان من كل جانب

ومن كلامه وإن كان فيه شيء من جهة الوزن:

أنا شيخ الوقت في العصر وما يجري في الوقت أنا ملزومة
أنا من أصل الزمان إمامه أنا في كل الأمور علومة

ومن كلامه رضي الله عنه:

من يدعي حب ليلى ذاك لم ينم ولم يذق لذة في العيش من ألم
ولم ير غير سعدى في الوجود وقد أذناه أمست عن الأغيار في صمم
ولم يرد غيرها لو راودته على جنات خلد ولم يخش من الضرم
ومن يرى أنه بالحب متصف ولم يكن هكذا قد جاء بالتهم
28/ يظن جالب المعاني من معادنها سهلا وما ضرني إن كان كالبهم

ترجمة الشيخ مصطفى البكري

ونذكر الآن ترجمة الشيخ مصطفى البكري شيخ شيخنا أبي السعود، فمن "شرح بلغة المريد ومنتهى موفق سعيد" للشيخ مصطفى المذكور، والشرح لولده أبي الفتوح كمال الدين: هو أبي الشيخ مصطفى بن كمال

الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين بن أحمد بدر الدين بن أحمد ناصر الدين بن أحمد زين الدين بن محمد ناصر الدين بن شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن ناصر الدين محمد بن عوض بن يحيى بن محسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم الدين محمد بن أبي الروح عيسى بن شعبان بن عيسى أبي الروح عوض بن داوود بن محمد بن نوح بن سلطان المدينة المنورة طلحة الخير بن أبي محمد عبد الله بن الإمام الصحابي الجليل عبد الرحمان بن أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

وسلسلته في الطريق أخذ وتلقى عن شيخه الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ مصطفى أفندي الأدرنوي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ علي قرباش، وهو الذي مات عن أربعمائة وستة وأربعين خليفة، وله شرح على فصوص الحكم أتى فيه بالعجب العجاب، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ إسماعيل الجروي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ عمر الفوادي القسطموني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ محيي الدين القسطموني، وهوأخذ وتخلف عن شيخه / 290/ الشيخ شعبان القسطموني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ خير الدين التمادي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ حلبي سلطان المعروف بحلبي خليفة، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ بير محمد الأرزنجاني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه السيد يحيى الشرواني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه صدر الدين الخياني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ عز الدين، وهو أخذ وتخلف عن شيخه الشيخ أخي مرام الخلوتي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه بير عمر الخلوتي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه أخي محمد الحلواني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه إبراهيم الزاهد الكيلاني، وهو أخذ وتخلف عن شيخه جلال الدين التبريزي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه شهاب الدين الشيرازي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه ركن الدين النجاشي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه قطب الدين الأبهري، وهو أخذ وتخلف عن شيخه أبي النجيب السهروردي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه عمر البكري،

وهو أخذ وتخلف عن شيخه وحي الدين القاضي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه محمد البكري، وهو أخذ وتخلف عن شيخه محمد الدينوري، وهو أخذ وتخلف عن ممشاد الدينوري، وهو أخذ وتخلف عن شيخه شيخ الطائفتين الجنيد البغدادي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه خاله السري السقطي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه معروف الكرخي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه داود الطائي، وهو أخذ وتخلف عن شيخه حبيب العجمي، وهو أخذ عن الإمام الحسن البصري، وهو أخذ عن أمير المؤمنين الليث /291/ الغالب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وهو عن قرة عينيه وابن عمه رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، وهو عن الروح الأمين جبريل عليه السلام، وهو تلقى عن رب العزة جل جلاله وعظم فيضه ونواله، فهذا سند شيخنا وقدوتنا وعمدتنا أبي السعود نفعنا الله به.

ومن اجتمعت معه في القدس الشريف السيد الفاضل الأديب الشيخ مصطفى بن الشيخ أبي السعود المترجم له، فمما أنشدني لنفسه:

دری بحبي له فاختال في غيد ... وصاد لحظاه قلب الصب واقتدرا
طرا على مهجتي ما لست أعرفه ... والدمع قد سح من جفنيَّ واقتطرا

فقوله واقتدرا يصح أن يقرأ بسيطا على أنه من الاقتدار، ويصح أن يقرأ مركبا من وقت ودرا.

وله أيضا من هذا النمط:

رنا فأحكم قتلي في تلفته ... والقلب واللب ذاقا السقم وقت رنا
لم أدر هل موطنا كان الفؤاد له ... هذا المليك الذي في الحسن أم سكنا

وله أيضا:

قامت تتيه دلالا في ملابسها ... ربت شجوني أمالت عطفا واقتربت
رنت بلحظ فأصمى القلب طافقه ... والروح قد سارعت للموت واقترنت

وله أيضا:

قاني الملاح تبدى ... ثملت إذ ما سقاني
وقام يزري ببان ... سبيت إذ ما سباني

/ 292 / ومما أنشدني لغيره من أهل القدس في أهل زاوية بمصر يقال لها التمرتاشي فاستحسنته لما فيه من التضمين الحسن:

يا زائرا للتمرتاشي فزد بعدا ... واحذر تقيم به من قومه البُهُتِ
قوم إذا نزل الأضياف ساحتهم ... كأنهم هربا أبطال أبْرَهَةِ

ومما أنشدني لبعض أدباء الروم من ذلك النمط:

لما انتنا[464] قده السامي يعانقني ... أخنى على كبدي عطفاه واقتسما
فجاء يحمي فؤادي منهما جلدي ... فسل سيفيهما لحظاه واقتحما

يصح أن يقرأ بسيطا من الاقتسام والاقتحام، ويصح أن يكون مركبا من وقت مضافا إلى سما وحما، ويشبهه قول الآخر:

رب ظبي هويته ... ينتمي لسهوازنه
قلت ما أثقل الهوى ... قال ما للهوى زنه

ولآخر:

أهلا بظبي حماه قصر ... كجنة قد حوت نعيما
طرقته لا أهاب سوءا ... أباحني حبه الحريما
أفدي حريقا أباح ريقا ... لا بل حريما أباح ريما

شخصية أهل القدس

ولأهل بيت المقدس بشاشة وطلاقة وأخلاق حسنة، وميل إلى مؤانسة الغريب ومسامرته والمحادثة معه، ولاسيما إن كان من هذا الجنس العلمي، فلهم اعتناء به كثير حياهم الله وبياهم وأدام سقياهم /293/ ورياهم، وإلى مكارم الأخلاق يسرهم وهيأهم.

تظلم الناس من الولاة العثمانيين والنير الضريبي

وكان مقامنا به يومين ثم سافرنا منه، ورجعنا على طريقنا فبتنا أول يوم بقرية سنجيل فأكرمنا أهلها، إلا أنهم كثيرو التشكي من الوزراء والولاة

(464) كذا في (أ) والصحيح انثنى كما في (ب).

الذين يولون أمرهم من قبل الدولة العثمانية صانها الله، فإنهم أكلوا اللحم وامتشوا العظم واستفوا المخ ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذه سيرتهم في جميع الإيالة، فكل من مررنا به يشتكي من جورهم، حتى أن بعضهم سألني عما يلزم الناس في أرض المغرب، فقلت له الذي أوجبه الله تعالى وهو الزكاة والأعشار، فقالوا: وكيف الأعشار، فقلت لهم: يأخذ رب الزرع تسعة أعشار والمزكى العشر، فقال: يا ليتنا لو تركوا لنا العشر وأخذوا تسعة أعشار.

وأقبح من ذلك أن الوزراء يولون النصارى خدامهم على القرى، فتجد النصراني يستلزم للوزير خراج القرية ويتولى قبض ذلك من المسلمين في مهانة والأمر لله.

ومن هذه القرية بتنا بقلعة سنور فأكرمنا أهلها، ومنها إلى قرب عكة فبتنا بظاهرها، ومن الغد دخلناها بكرة، فأقمنا بعكة إلى سابع وعشرين من ربيع الثاني[465] أصلحنا في هذه المدة شئوننا وأخذنا الأهبة للسفر، وأكرمنا وزير هذه البلد جزاه الله خيرا.

رحلة العودة بحرا من عكا

وركبنا البحر وكان فصل الشتاء معتمدين على الله تعالى، فسافرنا من عكة ثلاثة أيام وأرسينا بجزيرة قبرس لغرض كان لرئيس المركب وقد طلب منا ذلك، فبقينا مرسين بها[466] نحو العشرة أيام .

وصف جزيرة قبرص وأحوالها

وهي جزيرة كبيرة كثيرة الخصب والرخاء و الخير، وجدنا الماء وأخذنا منها بعض المؤن، /294/ ونزلنا إلى برها في تلك المدة فاسترحنا من ميد البحر بها يومين، إلا أنها خفيفة العمارة فأخبرني بعض أهلها أن سبب ذلك

---

(465) يناير 1788.

(466) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

جور الحكام ولا حول ولا قوة إلا بالله. والذي يتصرف فيها الوزير الأعظم في الدولة العثمانية وهي معينة لمنصب الوزارة، فكل من يتولى الوزارة يتصرف في هذه الجزيرة ويأخذ خراجها مقطوعة من السلطان لمن يتولى ذلك.

التوجه إلى مرسيليا والتوقف في تونس لشدة هيجان البحر والرجوع برا إلى المغرب

ثم رجعنا إلى المركب وسافرنا طالبين مدينة مرسيلية من أرض الفرانصيص وإليها كان الكراء، ولما سافرنا من جزيرة قبرس، وقد كان الوقت آخر فصل الشتاء ووقت هيجان البحر وطغيانه، فلاقينا من شدة أهواله ما أيسنا (كذا) به من الحياة، فإن كان الريح موافقا لنا أتى وهو عاصف، وأثار أمواجا لا يصفها لعظمها واصف، وإن كان غير موافق ترجحت البوائق، وتطلعت لولا فضل الله بأعناقها العوائق، فذهب الوسن عن الأماقي وبلغت الروح التراقي، مع الإخلال بأركان الصلاة فالغالب نصلي جلوسا، وربما صلينا إيماء وبالتيمم لعدم القدرة على استعمال الماء.

حفاوة أهل تونس بالسفارة المغربية ولقاء الباي

ولما واجهنا تونس وقد سئمنا الحياة، أمرنا رئيس المركب أن يعرج بنا إلى مرساها، وعزمنا على أن ننزل ببرها ونتوجه إلى بلادنا منها، فأسقطنا عن رئيس المركب ما بقي من الكراء، وبعثنا بعض أصحابنا إلى البر قبل نزولنا بقصد أن يكتري لنا دارا لنزولنا، فسمع ذلك أمير البلد فأمر بتعيين دار لنزولنا من أفضل دور البلد، وعين فيما يقوم بالمؤن والأطعمة، فنزلنا بها وفرح بنا أهل البلد وأعيانها تبعا لأميرهم. وبعد نحو ستة أيام /295/ استدعانا لملاقاته، فتوجهنا إليه إلى موضع خارج المدينة بنحو ساعة وفيه داره ومستقره، فأدخلنا إلى داره وفرح بنا وأتى بقهوة معرضا بها علينا على مقتضى عوائدهم، وقد كنا صائمين قضاء رمضان فاعتذرنا له بذلك.

وممن لاقينا بتونس صالح علمائها الشيخ البركة الحجة القدوة، العارف

بالله تعالى الفقيه الأجل سيدي أحمد بن عبد الله السوسي المغربي[467] نفع الله به، أجمع الناس على صلاحه وخيره، فتبركنا برؤيته وزيارته والتمسنا منه الدعاء في أمورنا، فتبرأ من أن ينسب إليه شيء من ذلك، فبعثنا إلى تربة ولي الله المجمع على ولايته وصلاحه سيدي محرز، صاحب الإمام سيدي عبد الله بن أبي يزيد، وأمرني أن أبث حوائجي إليه، وقيل لي إن دأبه مع من يطلب منه أمرا أو يقصده في حاجة أن يبعثه إلى تربة الولي المذكور، ودعا لنا بخير وأطال في الدعاء، وأشار إلينا بقضاء حوائجنا التي كانت في الباطن فأفصح عنها، وتقضيت العجب من ذلك أنا وبعض أصحابنا المطلعين على أحوالنا.

وهكذا كان دأب والده الشيخ البركة سيدي عبد الله بن محمد السوسي السكتاني، وكان من العلماء الصالحين (العالمين العاملين)[468] وذوي الانصاف الكاملين، ولد في أوائل سنة (.[469] ومائة وألف، وأخذ عن سيدي أحمد بن ناصر[470] وهو ابن سبع عشرة سنة، ورحل إلى فاس وتلاقى بمشايخها، ورحل إلى إفريقية وحج سنة ست وعشرين ومائة وألف، ومكث مجاورا في مكة وتارة في المدينة سبعا وعشرين سنة، وتلاقى مع كثير من المشايخ أراني إياهم ولده في كراسة، ومن جملتهم /296/ الشيخ محمد العابد من المعمرين، يقال إن عمره مائتان ونيف وخمسون سنة، ولم يكن يريد يفصح عن عمره حتى سأله بعض تلامذته، فقال له سألتك بالله إلا ما أخبرتني عن شيء، فقال ما هو، قال له: كم مضى من عمرك، فقال: ولم هذا السؤال وما حملك على ذلك وتسألني بالله، مضى لي كثير. قال له يا سيدي

(467) يعرفه الجبرتي ب" الصوفي الزاهد أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن حمو السكتاني السوسي ثم التونسي" وقد توفي بعد زيارة ابن عثمان له ببضعة سنين.(عجائب الآثار I . 544).

(468) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(469) بياض مقدار كلمتين في (أ) وكتب التاريخ في (ب) كاملا بالأرقام (1122) لكنه خاطئ.

(470) أحمد بن ناصر (1057-1129هـ/ 1647-1717م)، من أشهر العلماء والمتصوفة المغاربة، كان شيخ الزاوية الناصرية بتامكروت بدرعة، حج عدة مرات وترك رحلة دون فيها مشاهداته ولقاءاته بالمشرق. (التقاط الدرر 312).

مائة سنة قال له أكثر، فقال مائة وخمسون قال له أكثر، قال مائتان قال أكثر، قال مائتان وخمسون قال أكثر، قال ثلاثمائة قال أقل.

ولهذا الشيخ كرامات مشهورة، وقد أعطى سجادته لسيدي عبد الله السوسي، وسيدي عبد الله خلفها لولده سيدي أحمد، فأخرجها لنا وتبركنا بها وقبلناها. توفي الشيخ سيدي عبد الله السوسي سنة سبع وسبعين ومائة وألف بتونس، ودفن خارج المدينة وقبره معروف.

زيارة ابن عثمان للولي سيدي محرز وشكواه من معاناته وهمومه

ثم توجهنا إلى تربة الولي المذكور كما أمر وشرحنا إليه حالنا، وهذا السيد المذكور- نعني سيدي محرز- هو صاحب البلد - نعني تونس-، مشهور مقصود عند أهل البلد في قضاء الحوائج ودفع الأزمات ونزول الملمات. قال خادم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الفضل عياض رضي الله عنه وأرضاه في "المدارك" ما نصه: سيدي محرز العابد رحمه الله تعالى ورضي عنه وغفر له، هو أبو محمد محرز بن خلف التونسي المعروف بالعابد، خاتمة صلحاء علماء إفريقية، روى عن أبي إسحاق الدينوري وكتب إلى الأبهري ولا أدري ألقيه أم لا، روى عنه حاتم وكان متقشفا فاضلا زاهدا في الدنيا، مجانبا لأهلها مستجاب الدعوة، انتهى المراد من كلام القاضي / 297/ عياض.

وقد أطال في ترجمته وذكر بعض من ألف في مناقب الشيخ وترجمه بما نصه: ذكر مناقب الشيخ الصديق الصالح الولي العابد العارف القطب أبي محمد محرز بن خلف بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قد اتفق على فضل سيدنا الشيخ المؤدب محرز بن خلف رضي الله عنه ورحمه ونفع به، وأنه سلطان الصالحين في حياته وبعد مماته. وقد ورد عن الصالحين والعلماء العاملين والثقات المتصرفين في فضل الشيخ ومناقبه ومفاخره ومآثره وبركاته التي لحق بها الأولين وسبق الآخرين شيء كثير، إذ كان رضي الله عنه من أعبد العابدين وأزهد الزاهدين ومن العلماء الراسخين، صحب

أفاضل العلماء وأهل القرآن القراء، إذ هو في زمانه رأس الفقراء كثير التذلل والبكاء، مستجاب الدعوة حسن الثناء بما لا يعد ولا يحصى، انتهى.

وكتب الشيخ البركة سيدي أحمد بن عبد الله السوسي بخطه على هامش نسب الشيخ المذكور، ما ذكره المعرف بالشيخ من أنه يتصل نسبه بسيدنا أبي بكر الصديق، لعله سقط في عمود النسب شيء إلا أن يكون عمروا كثيرا جدا، وقد ذكر بعض العلماء مثل هذا الاعتذار في نسبة بعض الأخيار لسيدنا عمر وبينهما مهامه من الأعصار، أقول كون الشيخ بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه رجلان مستبعد ولا وجه للتوقف في هذا، فإنه من المعلوم أن الناس ينتسبون إلى جدهم الأعلى إن كان مشهورا وهكذا قبائل العرب كلها.

وذكر بعض من ألف في مناقب الشيخ، قال أبو الطاهر وأخبرني الفقيه أبو عمران رحمه الله، قال: ذكر الشيخ /298/ أبو بكر بن أبي الطيب الباقلاني رحمه الله يوما ببغداد قال: لو أدرك محرز السلف لكان خامس الأربعة، يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليا. ومناقب هذا الشيخ الجليل لا تحصى، مات رحمه الله عام سبعة عشر وأربعمائة، ودفن بداره بتونس وقد جاوز السبعين رضي الله عنه ونفعنا ببركاته آمين.

وقد كانت بيننا وبين الشيخ المترجم له سيدي أحمد بن عبد الله السوسي محبة أكيدة، ومواصلات وزيارات عديدة، وكان يستدعينا لمنزله محبة ألقاها الله تعالى لنا في قلبه، فكان يكرمنا ويستعمل الطعام الكثير ويحضر له الجم الغفير، أبقاه الله تعالى وحفظه وأجزل في مرضاته حظه، وقد استدعاني ذات يوم فأحضر طعاما وقد كنت صائما قضاء لرمضان، ترتب علي في سفري من القسطنطينية إلى الشام، فأمسكت عن الأكل وعرفته بذلك، فأملى علي أبياتا وقال خذ هذه مكان الفطور، وقال: قال الإمام اليافعي في تاريخه في ترجمة سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ما نصه: قال الشيخ تاج الدين بن أنجب أنشدني صديقنا سديد الدين أبو محمد الحسن بن وليد الطيبي الفقيه الشافعي قال، أنشدني قاضي القضاة عز الدين

أبو محمد بن عبد السلام لنفسه قوله:

أوجه وجهي نحوه متشفعا | إليهم بهم منهم إذا الخطب أعياني
وهم كاشفوا ضري وكربي وشدتي | وهم فارجوا همي وغمي وأحزاني
وهم واهبوا الأبصار والسمع والنهى | وهم عالموا سري وجهري وإعلاني
وإن مذنب يوما أتى متدخلا | ومعتذرا حنوا عليه بغفران
/ 299 / وإن سائل يوما أتاهم بفاقة | ومسكنة جادوا عليه بإحسان
يروح رجائي فيك تبقى حشاشتي | وخوف بعادي منك قد هد أركاني
وأصبحت ما إن لي إليك وسيلة | سوى فاقتي والذل مني وإذعاني

وقال هذا فطورك عندنا في هذا اليوم، واحتفل في طعام كثير عند المغرب واستدعانا إليه كثر الله أمثاله ونفعنا به، وجعل محبتنا معه متصلة دنيا وأخرى آمين بمنه ويمنه وفضله وطوله.

ومنهم سيدي أحمد بن عروس المغربي التونسي العبد الصالح المجذوب الكبير الشأن، كان من أكابر الأولياء من أهل الجذب بتونس، له كرامات ظاهرة وأحوال باهرة، منها أنه كانت الطيور الوحشية تنزل عليه فتأكل من يده، ومنها أنه كان عنده جمع وافر من الفقراء فكان يمد يده في الهوى (كذا) ويحضر لهم ما يكفيهم من القوت، ودخل عليه رجل لزيارته فرأى طول أظفاره وشعث رأسه، فحدثته نفسه بشيء، فقال له: السبع يكون بأظافره. وكان مهابا جدا لا يقدر على لقائه كل أحد، بحيث يقشعر الجلد لرؤيته، وكان يجلس على سطح فندق بتونس ليلا ونهارا، ولم يزل كذلك حتى مات بها سنة نيف وستين وثمانمائة.

وزرنا قبالة هذه التربة تربة رجل من الأولياء، مقصود عندهم يقولون له سيدي الكلاعي، وليس هو صاحب السيرة ولم أقف على من عرف به. وعممنا غيرهم من الأولياء بداخل البلد، وزرنا بخارج البلد مقاما كان يتعبد فيه الشيخ الكامل العالم العامل سيدي أبو الحسن الشاذلي(471)، ومقامه هناك

---

(471) أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي القطب (ت. 656هـ/ 58-1259م)، ينتهي نسبه إلى إدريس الأكبر دفين زرهون، مولده بقبيلة غمارة الشمالية. كان مريدا للشيخ عبد

مشهور على ربوة يقال لها جبل الفتح.

/ 300 / وهناك مقبرة عظيمة ذكر لي بعض العارفين أنها اشتملت على أربعة وعشرين ومائة ولي، فوقفنا بمكان عال وعممنا الجميع بالدعاء ودعونا الله هناك، وخصصنا بالزيارة تربة الإمام العالم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وتربة الإمام المحقق ابن عرفة، والإمام الخضراوي وغيرهم ممن يطول ذكرهم نفعنا الله تعالى ببركاتهم أجمعين.

وصف مدينة تونس وإشارة إلى وباء 1200 هـ

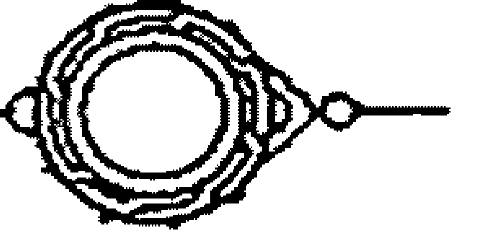
ومدينة تونس مدينة كبيرة مقصودة للمراكب البحرية، مؤسسة في بسيط من الأرض على ساحل بحيرة صغيرة أدخلت اليها من البحر، وهي كبيرة طولها نحو العشرين ميلا، وهي كثيرة الزيتون تحمل زيتها المراكب إلى بر النصارى طول أيام السنة، فقد أخبرني بعض أهلها الذين كانوا قائمين بمئونتنا، أن أعشار زيت تونس فقط من غير عملها ستة وثلاثون ألف مطر، والمطر فيه قلتان والقلة اثنان وثلاثون رطلا، مستلزم عند من استلزمه بهذا العدد ومعلوم أنه استلزمه ليربح فيه، ومعاصير زيت تونس وما حولها نحو ثلاثمائة.

وهذه المدينة أحدثت في زمن بني أمية، وهي كثيرة الخيرات والمستغلات إلا أن ماءها قليل فلا يشربون إلا من ماء الأمطار، ولأهلها رفاهية وتأنق في الملبس واعتناء بالطيب. وجامعها- نعني جامع الزيتونة- معمور بقراءة القرآن والتدريس متصلا ذلك بياض النهار. وقد مات من علمائها وطلبتها كثير في الوباء الذي كان عندهم في سنة مائتين وألف وما بعدها، وتمادى بها إلى قرب ورودنا عليها وقد وجدناه انقطع، فقد أخبرني أهلها أنهم دفنوا في هذا الوباء / 301/ زهاء[472] ثمانين ألفا، فقد كانوا

السلام بن مشيش الذي أمره بالذهاب إلى تونس حيث عاش مدة طويلة، وفي رحلته إلى الحجاز للحج توفي بصعيد مصر. أنشأ الشاذلي مدرسة صوفية انتشرت في شتى أنحاء العالم الإسلامي. (التقاط الدرر 146).

(472) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

يدفنون في اليوم الخمسمائة وما يقرب من الألف لطف الله بالمسلمين.



مغادرة تونس وحفاوة أهل القطر التونسي بالسفارة المغربية

وكان مقامنا في هذه المدينة اثنين وعشرين يوما، وسافرنا منها ثالث رجب من سنة اثنين ومائتين وألف، فكان مبيتنا بظاهر بلدة يقال لها تبربة وصلناها على خمس ساعات، ولما نزلنا بالخيام أتى أهلها بالشعير للعلف وبالطعام الكثير، بإشارة من أمير تونس وقد تقدم بذلك أمام مسيرنا إلى جميع إيالته. ومن الغد سافرنا فسرنا ست ساعات، ونزلنا بظاهر قرية يقال لها مجاز الباب[473]، مؤسسة على وادي يقال له مجردة، ففعل أهلها من الإكرام والملاقاة مثل من تقدمهم، وهذا الوادي كبير ويأتي بسيل كثير، وعليه قنطرة في غاية الإتقان والإحسان، فمشيت إليها بعد ما نزلنا لأتأمل إتقانها وحسن صنعتها، فوجدتها في أحسن ما يكون، وقد مدحها الشعراء فرأيت مكتوبا في حجرتين فوق متنها في جوانبها، إحداها عن اليمين والأخرى عن اليسار، قصيدتين رأيت أن نثبتهما، فالأولى:

لله قنطرة الأمير مراد	بن الأمير محمد بن مراد
في الحسن والإتقان مانظر امرؤٌ	شبهها لها لو طاف كل بلاد
فتقبل اللهم منه السعي في	إنشائها لمرور هذا الوادي
واجعل ثراه إذ أتاك ميمما	عفوا ومغفرة ليوم معاد
يدعو لبانيها بخير من علا	متنا لها من رائح أو غاد
وقد انتهى منه البناء وتم في	رجب الأصم بساعة الإسعاد
302 / وبعيد ألف مع ثمانين أرخت	معها ثمانية لدى التعداد
من هجرة الداعي إلى نهج الهدى	وشفيع ملهوف عديم الزاد
صلى عليه الله جل جلاله	يتلوه تسليم بغبر نفاد

والثانية:

لله قنطرة بهذا الوادي	أضحت تخبر أنها المراد

(473) يصنفها الزياني ضمن مدن أرض إفريقية، الترجمانة، ص.479.

ابن الأمير محمد الباشا الذي شاعت مآثره بكل بلاد
فلقد أجاد بناءها حتى غذت وكأنها طود من الأطواد
الله يجزل أجره ويثيبه عفوا جميلا منه يوم معاد
ويجيزه متن الصراط بفضله ويحفه باللطف والإسعاد
هذا وإن بناءها قد تم في رجب بعون الله ذي الإمداد
في عام ألف مع ثمانين انقضت تتلو ثمانية بلا ترداد
من هجرة المختار خير مؤمل يوم القيامة يوم فقد الزاد
صلى عليه الله عد الخلق من عرب وعجم حاضر أو باد

حفاوة أهل تستر الموريسكيين وتسامر ابن عثمان معهم

ومن الغد سافرنا من هذه البلدة فنزلنا بظاهر بلدة يقال لها تستر على أربع ساعات، ولما قربنا منها قدم علينا رئيد (كذا) أهل البلد يتطلع أخبارنا، فلما تلاقى معنا سلم علينا وانقلب يشتد إلى أهل البلد، فخرج أهلها بعلاماتهم وطبولهم كبارا وصغارا، وبالغوا في الترحيب والفرح وإبداء البشاشة كأنهم من صميم الإخوان جازاهم الله خيرا، استمروا معنا في تلك الهيئة / 303/ إلى موضع النزول، وبنيت الخيام ونزلنا وأتوا في الحين بأطعمة كثيرة كانوا معتدين لها، وبالعلف وبالغوا في الإكرام، وفي الليل كذلك أتوا بطعام كثير.

وجل أهل هذه البلدة من الأندلس في غاية الحضرية والأدب وحسن الأخلاق، ولازالوا يسألون عن بلادهم بالأندلس وقد كنت على بصيرة بها لما رحلت إليها عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف[474]، فكنت أخبرهم عن بلادهم وأرضهم وينشرحون لذلك، وكل واحد يقول أنا من البلد الفلانية ويطلب مني وصفها فأصفها له، فينشرحون بما يحصل لهم من التأصل في الحضرية، ولاسيما من كان منهم بلاده من القواعد العظام مثل قرطبة

(474) يشير هنا إلى سفارته الأولى إلى إسبانيا سنة 1799-1780 موضوع كتابه "الإكسير في فكاك الأسير".

وإشبيلية وغرناطة وجيان وما أشبه ذلك. واجتمع علينا جمع من طلبتهم فتذاكرنا في مسائل علمية، أصلح الله حالهم وبلغهم آمالهم وكثر أمثالهم بمنه وكرمه.

ومن الغد رحلنا منها فنزلنا على قرية يقال لها تبرسق على أربع ساعات، فتلقانا أهلها قبل وصولنا إليهم بالعلامات والطبول مثل من تقدمهم وأبدوا فرحا كثيرا، ونزلنا بظاهر بلدتهم وأتوا بطعام وعلف، وبالغوا في الإكرام مقدرتهم واعتذروا، إلا أنهم إلى البداوة أقرب وباتوا بالليل يحرسوننا. ومن الغد سافرنا منها[475] فنزلنا بموضع يقال له القنطرة سمي بقنطرة مضروبة هنالك، وأهل هذه البلد عرب أهل خيام وصلناهم على سبع ساعات. ومن الغد سافرنا فنزلنا على بلدة يقال لها الكاف على مسير أربع ساعات، فأنخنا بظاهرها وبعث إلينا حاكمها الميرة والمئونة، وهذه البلدة آخر عمل صاحب تونس وحد إفريقية.

ومن الغد سافرنا منها فسرنا ثمان ساعات ونزلنا على ماء يقال له الزرقاء اسم عين هناك، وسافرنا /304/ من الغد سبع ساعات ونزلنا على عرب أهل بوس بموضع يقال له تفش، ومن الغد سافرنا فسرنا ثمان ساعات، ونزلنا بموضع يقال له مرج كحيل على عرب أهل خيام، ومنه لموضع يقال له مهيرز وصلناه على تسع ساعات، ومنه نزلنا بظاهر قصمطينة[476] (كذا) على أربع ساعات في الخيام على واديها.

---

(475) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(476) يقصد قسنطينة، وهي مدينة منيعة ومحصنة شرق الجزائر بنيت على هضبة صخرية تحيط بها أودية وخوانق عميقة وضيقة أشهرها وادي الرمل، عرفت هذه المدينة فترات ازدهار في عهود الموحدين كما يشير إلى ذلك البكري والإدريسي، وبعد ذلك عرفت فترات اضطراب خلال المرحلة الحفصية. وفي سنة 1534 خضعت المدينة للنفوذ التركي وأصبحت عاصمة لبيلك الشرق الجزائري، وخلال القرن 18 عرفت قسنطينة انتعاشا ملحوظا خاصة في عهود بايات أقوياء حكموا المدينة بشكل شبه مستقل عن داي الجزائر، أمثال أحمد القولي (1756-1771) وخصوصا صالح باي (1771-1792)، الذين يرجع لهم الفضل في بناء العديد من المرافق ذات النفع العام مثل مساجد سوق الغزل و سيدي لخضر على يد الباي بوكمية والباي بوحنك، وإعادة بناء القنطرة على وادي الرمل والقناة الرومانية المزودة للمدينة بالماء من جبل وحش من طرف الباي صالح(E.,I., S -534)) .

وهي أي قصمطينة مؤسسة على ربوة يمر بأصلها هذا الوادي ومنه يشربون، يحمل منه الماء في القرب الكبار على الدواب للمدينة كلها وحماماتها ومساجدها، وهي مدينة متوسطة يسقفون أسطحة بيوتها بالقرمود، ولعله من أجل الثلج فهي شديدة البرد، وعليها وارد كثير وعمارة زائدة، فلا يكاد الإنسان أن يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام، ويعمر السوق خارج بابها في سائر الأيام ما رأيت بلدة أكثر واردا منها، وهي منبع البغال فمنها تفرق في البلاد، فلو ترى ما يدخل منها إلى السوق في كل يوم لتقضيت العجب، يأتي الغرب بها أي بالبغال يسوقونها كأنها القطيع من البقر.

وبها رخاء كثير والأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب، وهي من عمل صاحب الجزائر وبها خليفته ويسمونه باي الشرق، فأقمنا بها نحو سبعة أيام تقضينا فيها ضرورياتنا وسافرنا منها إلى الجزائر فوصلناها على أحد عشر يوما.

وقد مررنا في بلاد في هذه المسافة يقال لها "البيبان" ما رأيت أصعب ولا أمنع منها، فهي بيبان[477] حقيقية لأن الطريق تمر بين جبال في وسط نهر، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لايبقى إلا مجرى الوادي في أضيق ما يكون كأنه الباب، فلو جعلت له دفة لسدته، وقع ذلك مرارا ومن أجل ذلك سمي هذا /305/ المكان البيبان.

وأهل هذه البلاد أهل إباء لا ينقادون إلى الباي أي الحاكم، بل ربما قبضوا منه عند إرادته المرور إلى الجزائر في بعض الأعوام فصار ذلك عادة لازمة، وكذا القفل[478] والمسافرون لا يقدمون على المسير في هذه البلاد إلا مع رفقة كثيرة، ويرصد الناس ما يبعث باي قصمطينة من الخراج عند كل

(477) يقصد أبوابا.

(478) يقصد القوافل.

ثلاثة أشهر، فيبعث معه العسكر فيمر الناس معهم، وقد اتفق أن مررنا مع هذا العسكر، ولما كنا في هذه البلاد رأوا بعض أهلها في غابة، فوقع منهم اضطراب وأخذوا يعتدون لملاقاتهم وتمسكوا بعدتهم.

ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها، وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قويا، فكان يموت كل يوم على ما حكي لنا نحو الثلاثمائة، وقد خف أمره لما كنا هنالك فكان يموت في اليوم نحو العشرة. وأقمنا بظاهرها يومين وزرنا تربة الأستاذ البركة سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وقبره خارج المدينة على ساحل البحر، فتوجهنا إليه من وراء سور البلد وتبركنا بتربته المباركة ودعونا الله هنالك بما نرجو قبوله، وهو أي الشيخ رضي الله عنه كما وجدته مكتوبا في خشبة معلقة على ضريحه معرفا بنفسه ما نصه:

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله والحمد لله

ومما وجد بخط الشيخ الإمام الولي الصالح أبي زيد عبد الرحمان الثعالبي رضي الله عنه ما نصه: الثعالبي عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف بن طلحة بن عمر بن نوفل بن عمار بن منصور بن محمد بن سباع بن / 306 / ثعالب بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد الله بن قيس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذريته عبد العزيز بن محمد بن مخلوف الثعالبي. توفي الشيخ رضي الله عنه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة.

ذكر جانب من علاقات الجزائر مع الإسبان واستشراء الوباء

وهذه المدينة في غاية التحصين والمنعة من البر والبحر، فلها سوران والحفير ومن دون الحفير سور آخر، وبأسوارها الأبراج والمدافع لناحية البحر، لأن النصارى كثيرا ما يقصدونها بالمراكب الحربية والعساكر الكثيرة، وينزلون إلى البر فيخيب الله قصدهم ويرد في نحورهم كيدهم، ولا سيما جنس الإصبنيول فقد وقع تردده إليها بالحرب مرات، فقد أتاها في العشرة

الأخيرة من المائة الثاني عشر مرتين بالمراكب العديدة والجيوش المديدة، ونزل إلى البر وأنزل المدافع وصعب أمره، ومنع المسلمين من الوصول إليه بكثرة المدافع، فاجتمع المسلمون يفكرون فيما يأتون، فألهمهم الله تعالى لجمع الإبل الكثيرة وتترسوا بها، وساقوها أمامهم تجاه العدو وعساكر المسلمين خلفها، فخرجت مدافع النصارى وكورهم في الإبل، وحمل المسلمون على الكفار ونصر الله تعالى دينه وأمكن من الكفار وقتلوا تقتيلا.

وقد وجدنا بهذه المدينة وأعمالها الطاعون ومات به خلق كثير، ثم سافرنا منها فوصلنا تلمسان على اثني عشر يوما، وخيمنا بظاهرها فتقضينا ضرورياتنا ولوازم السفر، وزرنا تربة الولي الصالح المستصرخ به في جميع الأقطار، القطب سيدي أبي مدين الغوث نفعنا الله تعالى ببركاته(479)، وتربة الشيخ البركة /307/ القدوة الصالح سيدي محمد السنوسي نفعنا الله به.

وصف مدينة تلمسان وخرابها وجور حكامها

ومدينة تلمسان هذه مدينة كبيرة مشهورة، كثيرة المياه والبساتين والأجنة والزيتون والمستغلات، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها فلم يبق إلا رسومها، وزادها عمال الجور والظلم، فقد استولوا على ما بأيدي المسلمين، فقد أخبرني بعض أصحابنا كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا، أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين وغيرهم بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وإذاية العامة، أن كل من يمر به من حجاج بيت الله يقبض منهم شيئا معينا على أمتعتهم وحوائجهم من غير مبالاة جبر الله حال المسلمين.

دخول الأراضي المغربية

ثم سافرنا من هذه المدينة فمررنا على قرية وجدة فأقمنا بها، بل بتنا بها فقط عند عامل سيدنا وسلطاننا مولانا أمير المؤمنين، وهي من أول أهل

(479) وردت إضافة طويلة في الهامش تصعب قراءتها.

طاعته ورعيته أدام الله تعالى نصره، واستعملنا السير منها إلى أن وصلنا حضرة فاس فتلقانا الإخوان والأحباب عند وادي سبو، وجمع الله شملنا برؤيتهم وزيارتهم، واستعد بعض الأحباب بطعام كثير أحضره على ضفة الوادي، فأكلنا وأكل جميع من حضر من الرفقاء والمسافرين والمارين جزاه الله خيرا، ثم دخلنا المدينة فنزلنا بدار من أجل دورها عينها حاكم البلد، وذلك في آخر يوم من شعبان من سنة اثنتين ومائتين وألف.

وصف مدينة فاس

وهذه المدينة العظيمة المقدار الكثيرة الآثار، الشهيرة في الأقطار المتوفرة الأوطار، فضلها أشهر من أن يذكر، وأوضح من أن يجحد أو ينكر، وخيرها واجب على المسلمين أن يشكر، /308/ إذ هي بلد العلماء الأعلام، وإليها الرحلة والإلمام، فالعلم فيها درس وبساحتها غرس، وأرضها مباركة الحظ والتأسيس، (مشتهرة بحسن الخط والتدريس)[480] مختصة بكل شيء نفيس، ولواديها البشر والتأنيس، فهو مأوى كل متفرج وخليع وجليس، ولأهلها التبكير للزيارة والصلاة والتغليس، وناهيك بمدينة خطها سيدنا ومولانا إدريس، فالتعريف بما اشتملت عليه من الفضائل من باب تحصيل الحاصل، إذ هي الفريدة في المحاسن واطراد المياه العذب الغير الآسن، ونباهة البنيان وتمام الحضرية في المغرب، وإن شئت وفي المشرق المتسع الكبير ولا ينبئك مثل خبير ولله در القائل:

بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه ريش جناحه الطاووس

فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كئوس

لقاء ابن عثمان مع السلطان سيدي محمد

فأقمنا بها يومين، وقدم سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين، أدام الله تعالى أيامه وأمضى أحكامه، وجعل

---

(480) سقط من (أ) وورد في (ب).

النصر والظفر خلفه وأمامه آمين، وقد كان أعزه الله سمع بقدومنا إلى فاس وهو بمكناسة، فبعث إلينا فخرجنا لملاقاته التي هي أمنيتنا المقصودة وضالتنا المنشودة، فوردنا عليه وهو مخيم بوادي العطشان فيما بين فاس ومكناسة، فتبركنا بحضرته والتمتع برؤيته، وختمنا أعمالنا بمشاهدة أنوار طلعته ولله الحمد.

ثم تعاطينا معه أكرمه الله وأعزه أخبار الحرمين الشريفين، والمشرق والشام والقسطنطينة وغيرها من البلدان التي رأيناها ومررنا بها، وبتنا عنده بمحلته المباركة، ومن الغد بعثنا إلى فاس أيضا، وتوجه لغرض من مصالح المسلمين في ناحية شراقة، ومنها توجه إلى بلاد الحياينة يتفقد أحوال المسلمين من رعيته، فجزاه الله خيرا /309/ على الإسلام والمسلمين.

إرسال ابن عثمان في مهمة تسليم أسرى إلى الجزائر

ثم ورد علينا أمره المطاع بالقدوم عليه، فوردنا عليه وهو مخيم بقرب النخيلة من بلاد الحياينة، فتلاقينا معه أدام الله تعالى عزه، فبقينا مخيمين معه هنالك ثلاثة أيام، وقد كان ورد عليه جمع من أسارى المسلمين بعثهم إليه عظيم الإصبنيول على سبيل الإهداء والإكرام، لكونه لما عمل الصلح مع أهل الجزائر، ووقع فداء الأسارى بينهما من الجانبين على ما تقتضيه قوانين الصلح، امتنع أمير الجزائر من إعطاء المال في هؤلاء الأسارى كما فعل النصارى في إخوانهم، ولم يقبل أن يفديهم بالنصارى، بل قبض المال في أسارى الإصبنيول الذين عنده، ولم يرد فيهم بدلا بأسير مسلم، وأهمل هؤلاء المسلمين وأبقاهم بأيدي الكافرين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فلما سمع ذلك عظيم الإصبنيول اغتاظ من ذلك، وأعطاه ما أراد من المال في النصارى إخوانه، وجمع هؤلاء الأسارى من المسلمين وبعثهم مجانا إلى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على سبيل الإهداء والإكرام، لما يعلم من حرصه أيده الله على إنقاذ المسلمين، وأن هدية الأسارى عنده لا يعادلها شيء من هدايا الدنيا. وقد كان عند هذا الجنس من الأسارى الآلاف، فأنقذهم جميعا سيدنا أمير المؤمنين أدام الله علاه وأبقاه وتولاه، منذ عمل

معه الصلح وهو أيده الله في كل حين يخرج منهم حصة، فكان آخر من بقي من المسلمين بأيدي الإصبنيول هذه الجماعة، والله يتقبل منه ويثيبه.

وهذه المنقبة الكبيرة والذخيرة الأثيرة، ما ادخرها الله /310/ تعالى له دون غيره إلا لخصوصية له أيده الله، فكل ميسر لما خلق له، وإذا أراد الله بعبد خيرا خلق ونسب إليه. ولما أقمنا معه نصره الله في معسكره ببلاد الحياينة ثلاثة أيام، ناداني وقال هؤلاء أسارى المسلمين أنقذهم الله تعالى على أيدينا ولله الحمد، وأردنا إيصالهم إلى طرف بلادهم، فأردنا أن تغتنم ثوابهم وتربح أجرهم، فتتوجه معهم ويكون نظرك عليهم في ركوبهم وأكلهم وشربهم، حتى توصلهم إلى تلمسان وتدفعهم إلى عاملها، وتفرق عليهم هذه الصلة هنالك. وأصحبنا من المال ما نفرق عليهم بحساب عشرة مثاقيل لكل واحد، وعين البغال لركوبهم والزاد الوافر، وتوجهنا بهم من عنده أيده الله، فلما أشرفنا على تلمسان بموضع يقال له عقبة اليهودي تظهر منه البلد على بعد، وجدنا هنالك طليعة لأهل البلد وقد فرش بسطا تحت ظل زيتون هناك، وتلقانا وعرفنا بأنه مبعوث من عند حاكم البلد، فنزلنا هنالك للاستراحة حتى استكمل القوم واجتمع الناس، وركبنا متوجهين إلى المدينة فتلقتنا خيلهم، وأخذوا يلعبون بالبارود إلى أن وصلنا المدينة، والناس كلهم رافعون أصواتهم بالدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين، ونزلت الخيل التي توجهت معنا بظاهر البلد وكذلك الأسارى وأدخلونا إلى دار الحاكم وأنزلونا بها.

ومن الغد فرقت على الأسارى صلتهم تقبلها الله تعالى من سيدنا قبولا حسنا، ثم توجهنا لزيارة القطب المشهور سيدي أبي مدين الغوث وتبركنا به ثانيا ولله الحمد، ثم سيدي محمد السنوسي نفعنا الله به، وعممنا من لم نعرف من الصالحين والأولياء المشتمل عليهم عباد /311/ تلمسان، وقد كان بقي في خاطري المرة الأولى لما مررنا من هنالك زيارة ابني الإمام أبوا زيد عبد الرحمان وأبوا موسى عيسى ابنا الإمام، فقد عاقني عن زيارتهما والبحث عليهما السفر والرفقة، وبقي ذلك في خاطري كثيرا وحصلت لي ندامة على عدم تقديمهما مع الزيارات على أموري. ولما رجعت هذه المرة لم يكن لي هم

غير زيارتهما، فبحثت عنهما فلم أقف على من يعرفني بتربتهما، فبعثت لقاضي البلد وطلبت منه ذلك فبعث معي من أراني إياهما جزاه الله خيرا، وقبراهما على قارعة الطريق المارة من تلمسان إلى سيدي أبي مدين، دائر بهما بناء قصير لا سقف له، فوقفنا عليهما وقرأنا لهما ما شاء الله من القرآن ودعونا الله عند تربتهما ولله الحمد.

وقد رأيت أن نرسم بعض خبرهما دليلا على عظيم مقدارهما فنقول: قال سيدي أحمد المقري صاحب تأليف "نفح الطيب" عند ذكر مشايخ لسان الدين ما نصه: وقد ذكر لسان الدين رحمه الله في "الإحاطة" شيوخ مولاي الجد فلنذكرهم من جزء الجد الذي سماه "نظم اللآلي في سلوك الأماني"، ومنه اختصر لسان الدين ما في "الإحاطة" في ترجمة مشيخته فنقول: قال مولاي الجد رحمه الله فممن أخذت عنه واستفدت منه علماها- يعني تلمسان - الشامخان وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمان وأبو موسى عيسى ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس، فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليفرني وتلك الحلبة، وأدركا المرجاني وطبقة من أعجاز المائة /312/ السابعة، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المؤمنين أبي يعقوب[481] وهو محاصر لها، وفقيه حضرته يومئذ أبو الحسن علي بن يخلف التونسي، وكان خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد، وارتفع شأنه عند أبي يعقوب حتى أنه شهد جنازته ولم يشهد جنازة أحد قبله، وقام على قبره وقال نعم الصاحب فقدنا اليوم.

حدثني الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن

---

(481) أبو يعقوب يوسف المريني (1286-1307) ابن أبي يوسف وولي عهده، تولى الحكم سنة 1286 وواجه عدة انتفاضات كشفت عن هشاشة الدولة المرينية، علاوة على اضطراره التورط في الأندلس وصراعاتها، وعلى الجبهة الشرقية خاض حروبا طويلة ضد الزيانيين بتلمسان، تمكن خلالها من إخضاع مجمل المغرب الأوسط، وفي الوقت الذي كان على وشك دخول تلمسان المحاصرة لمدة 8 سنوات اغتيل في 13 ماي 1307 (C. A. Julien, Histoire de l' Afrique du nord, v. 2, p.p. 174-176).

مرزوق العجيسي، أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التونسي في الخيل حوالي روضة الشيخ أبي مدين رحمه الله تعالى، فقال: كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ، هلا عرضتم هناك-وأشار إلى حيث المعراض الآن- خشبة ففعلنا، فلما قتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكرا ذلك فأخبرتهما، فأما أبو زيان فكان السلطان يومئذ فنزل وطأطأ رأسه ودخل وأما أبوا حموا (كذا) وكان أميرا فوثب وخلفها.

ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابني الإمام، وكان أبو حمو أشد اعتناء بهما ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن[482]، إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر، فزادت مرتبة أبي موسى عند السلطان، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين. وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجه صحبة ابنه أمير المؤمنين أبي عنان[483] إلى فاس، ثم رده إلى تلمسان وقد واستولى عليها عثمان بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، فكان

---

(482) أبو الحسن بن السلطان أبي سعيد عثمان (1331-1351)، أعظم ملوك الدولة المرينية وأشهرهم، بلغت الدولة في أيامه أوج قوتها وازدهارها. تدخل بدوره في الصراع بين بني نصر والقشتاليين في الأندلس لكنه اضطر إلى سحب الجيوش المغربية بعد الهزيمة التي تكبدتها قرب طريفة سنة 1340.أما على الجبهة الشرقية فقد نجح في دخول تلمسان سنة 1337 ثم تونس سنة 1347، غير أن ابنه أبا عنان اعتقادا منه بوفاة أبيه في الطاعون الذي ضرب تونس أعلن نفسه سلطانا، فحاول أبو الحسن استعادة عرشه لكنه فشل وحاصره ابنه في الأطلس الكبير حيث توفي سنة 1351 ودفن في مقبرة المرينيين بشالة. ترك أبو الحسن مآثر عمرانية عظيمة منها مسجدا الشرابليين وأبي الحسن ومدرسة المصباحية بفاس ومسجدا منصورة وسيدي أبي مدين بتلمسان(Julien, op. cit., p.p. 178-182)..

(483) أبو عنان فارس المريني (1348-1358)، ولد في يناير 1329 وتولى الحكم وهو في ريعان الشباب مع ما يعني ذلك من طموح وعزم، تقدمه المصادر متصفا بصفات سلطان كبير غير أنها تأخذ عليه رفضه للمشورة. نجح في استعادة نفوذ المرينيين على تونس وتلمسان وإن لم يدم ذلك طويلا، إذ توفي أبو عنان قبل تثبيت سلطته على الإمبراطورية التي سرعان ما تفتتت بعد وفاته سنة 1358، ومنذئذ بدأت أزمة الدولة المرينية التي استمرت إلى سقوطها(Julien, op. cit., p. 182).

عنده إلى أن مات الفقيه /313/ عقب الطاعون العام.

قال لي خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي: لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان، بت على تشييعهم فرأيتني كأني نظمت هذا البيت في المنام:

وعند وداع القوم ودعت سلوتي وقلت لها بيني فأنت المودع

فانتبهت وهو في في[484] فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لي مثله.

ولما استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق، رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلقيا علاء الدين القونوي، وكان بحيُث أني لما رحلت فلقيت أبا علي حسين بن حسين ببجاية، قال لي إن قدرت ألا يفوتك شيء من كلام القونوي صاحب البيان، وسمعا صحيح البخاري على الحجار وقد سمعته أنا عليهما، وناظرا تقي الدين بن تيمية وظهرا عليه وكان ذلك من أسباب محنته، وكانت له مقالات فيما يذكر وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين. حدثني شيخي العلامة أبو عبد الله الأبلي أن عبد الله بن أبي إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة والإفك المبين فما فيه فأكثره من وحي الشياطين

قال وكان في يده قضيب فقال لي: والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضعه.

ويحسبك مما طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق، أني لما وصلت إلى بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب، وذلك أني لما قصدت /314/ قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لي يده على رسم استوجب به هناك حقا، فلما أطللت عليه عرفه بي بعض من معه، فقام إلي حتى جلست، ثم سألني بعض الطلبة بحضرته فقال لي: إنكم معشر المالكية تبيحون للشامي يمر

---

(484) أي فمي.

بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عين المواقيت: "هن لهن ولمن مر عليهن من غير أهلهن"، وهذا قد مر على الحليفة وليس من أهله فيكون له، فقلت له إن النبي صلى الله عليه وسلم قال من غير أهلهن أي من غير أهل المواقيت وهذا سلب كلي، وإنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق يقتضيه وهو الإيجاب الجزئي عليه، لأنه من أهل المواقيت قطعا، فلما لم يتناوله النص رجعنا إلى القياس، ولا شك أنه لا يلزم أحدا أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها.

فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما عرفت أتاني آت من أهل المغرب فقال لي: تعلم أن مكانك في نفوس أهل هذا البلد مكين وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك عن ابني الإمام، فإن شئت فانتسب لهما فقد سمعت منهما وأخذت عنهما، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما فتضيع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووارث علمهما، وأن لا أحد فوقهما وليس لما تبني يد الله هادم، انتهى محل الحاجة منه.

أداء المهمة بالجزائر والرجوع إلى المغرب

وكان مقامنا بمدينة تلمسان في الرجوع إليها ثانيا يومين، تقضينا فيها أغراض مولانا الإمام /315/ أدام الله ظله على الأنام، وزرنا من تيسرت لنا زيارته من صالحيها نفعنا الله بهم أجمعين، ثم قوضنا عنها الرحال وأخذنا في السفر والترحال، نقفو آثارنا ونتزل ديارنا، فأصبحنا بوجدة يوم عيد الفطر وصلينا مع الناس صلاته وحصلنا سنته، وأقمنا بعده ثلاثة أيام لقضاء بعض أغراض سيدنا أمير المؤمنين. ثم رحلنا منها فكان مبيتنا بقصبة العيون فقرت بالمبيت بها عيون، بنفوس رجعت بمناها ظافرة ومؤن وافرة ورد في الحافرة. ثم سافرنا منها فنزلنا بقصبة زا، أكرم بها حرزا حوى من الأرض نشزا، وبباكورها الذي لها يعزى (وبجداول نهرها التي طرزت أرجاءها

طرزا)[485]، ومنها نزلنا على وادي ملوية، على ضفته البهية وبسطه السندسية ومياهه الروية، ومنها للجبوب ذات ماء للنفوس محبوب، مبرد في الحر كل لهيب، داع لكل ظمآن ومهيب، ومنها لقصبة مسون نزلنا[486] على واديها، لكنه أجاج غير عذب، فكان له مسوغ من القرب، ثم إلى مدينة تازة ذات الأنهار المطردة، والبساتين المتعددة والطيور المغردة، إلا أن بها أشواقا متجددة،

وأبرح ما يكون الشوق يوما. إذا دنت الديار من الديار

فأقمنا بها يوما للاستراحة بمكان بين بساتينها رحب الساحة، فأخذنا الاستعداد وجددنا الزاد، وبتنا بظاهرها في إكرام أميرها، ولما قوض الليل أطنابه ورفع الصبح شهابه، أدينا العزيمة والفرض /316/ وضربنا في الأرض، فكان مبيتنا في الكور[487] من بلاد الحياينة، في محلة سيدنا الكاملة الإسعاد، الوافرة الأبطال والأنجاد وقامعة أهل الزيغ والفساد.

رجوع ابن عثمان إلى فاس وإذن السلطان له بالتوجه إلى مكناس

ومن الغد رحلنا عنها فوصلنا حضرة فاس المحروسة عند منتصف النهار، فنزلنا في زيتون باب الفتوح لنقيل، والنفوس إلى الكرا تميل، فقلنا بها وأوتي إلينا من المدينة بأشهى مطايبها، إلى أن انكسر من الهاجرة سورة شدتها وصلينا العصر لوقتها، ثم ركبنا فيممنا حصن دار دبيبغ المشهور، ومعسكر مولانا الإمام المنصور، فتلاقينا معه أيده الله ونصره في أسعد الأوقات، ملقى جميلا أنسى النفس مشقة الطرقات، وتهادينا معه أكرمه الله وأعزه خبر تلك النواحي وعشائر تلك الضواحي، فنظر فينا أبقاه الله بعين الإشفاق، وكاشف ما أنا ذو احتياج إليه من الإرفاق، فأمر قائد المدينة

(485) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(486) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

(487) كتبت بكاف ذات ثلاث نقاط.

صانها الله تعالى أن يتخير لنا دارا من أفضل دورها وأبردها زمن المصيف، فحللت منها في محل منيق ذي رونق وتفويق، واغتنمنا زيارة الإمام الأشهر، والولي الأكبر والملاذ الأحمى الأفخر، سيدنا ومولانا إدريس نفع الله تعالى به، وأقمنا هنالك نحو العشرة أيام، ثم أمرنا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بالتوجه إلى مكناسة، حيث الأهل والولدان والإخوان والأخدان، والعشائر والأصحاب والأصدقاء والأحباب،

بلد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

وصف رقيق لمدينة مكناس وأحوالها

بلد خيرها كثير وماؤها عذب نمير، وهواها (كذا) صحيح وحوزها فسيح، /317/ وقد وصفها الإمام العالم المشارك المتفنن، أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب رحمه الله في "نفاضة الجراب" عند وصف بعض الأماكن، فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة مكناسة الزيتون ونصه: وأطلت مدينة مكناسة في مظهر البحر، رافلة في حلل الروح متبسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المراد، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى قيد البصر وفدلكة الحسن.

فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعا، من بلد دارت به المداشر المغلة، والتفت بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف، من رحب ساحة والتفاف شجرة، ونباهة بنية وإشراق ربوة، ومثلت بإزائها الزاوية القدمى المعدة للوراد، ذات البركة النامية والمأذنة السامية والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق، الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المرينية، برونق الشبيه ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال، إلى أن قال: وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم [وأخذها التنجيد][488]، فجاءت فائقة الحسن،

(488) سقطت في النسختين؛ (نفاضة الجراب، تحقيق مختار العبادي، البيضاء، ص. 372)

ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة، تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية، وفيها خزائن الكتب والجراية الذارة على العلماء والمتعلمين. وتفضل هذه المدينة كثيرا من لذاتها بصحة الهوى، وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزين، ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد معافا من العفن، / 318/ إذ تقام ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات، تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنه الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة، قال ابن عبدوس من أهلها ولله دره:

إن تفتخر فاس بما في طيها ... وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء

ويسامتها شرقا جبل زرهون المنبجس العيون، الظاهر البركة المتزاحم العمران الكثير الزياتين والأشجار، قد جلله سكرا ورزقا حسنا، فهو عنصر الخير ومادة المجبى، وفي المدينة دور نبيهة وبنى أصيلة، والله سبحانه ولي من اشتملت عليه بقدرته، وفيها أقول:

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهوى وصحة الماء الذي ... يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة ... للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين أباطح ... وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهدا مهما ادعت ... قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه ... فبكت عذاب عيونه بعيون
وكأنما هو بربري نافذ ... في لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه ... مثوى أمان أو مناخ أمون
وضفت عليك من الإله عناية ... تكسوك ثوبي آمنة وسكون

/ 319 / انتهى.

وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال: مكناسة مدينة أصيلة، وشعب للمحاسن وفصيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومراعيها، فجانبها مريع وخيرها سريع، ووضعها له في قنة الفضائل

تفريع، اعتدل فيها الزمان وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه ولاسيما الرمان، وحفظ أقواتها الإختزان ولطفت فيها الأواني والكيزان، ودنا من الحضرة جوارها، فكثر قصادها من الوزراء وزوارها، وبها المدارس والفقها ولقصبتها الأبهة، والمقاصر والأبها (كذا)، انتهى.

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسي الخلافة، ومكناسة مقر الوزارة، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة.

قلت دخلت مكناسة هذه مرارا عديدة، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت في زمن لسان الدين بن الخطيب جديدة، واستولى عليها الخراب وتكدر منها بالفتن الشراب، وعاث في ظاهرها الأعراب وفي باطنها سماسرة الفتنة العائقة عن كثير من الآراب، حتى صار أهلها حزبين ولبس كثير من أهلها ثياب البعد عنها والبين، والله يجبر حالها ويعقب بالخصب أمحالها، ويرحم الله ابن جابر إذ قال:

لا تنكرن الحسن من مكناسة	فالحسن لم يبرح بها معروفا
ولئن محت أيدي الزمان رسومها	فلربما أبقت هناك حروفا

قلت وهي الآن على ما ذكر من الأوصاف مع تهدم الأطراف، ووقوع بعض الخراب وسكنى الأعراب، والله تعالى يجبر حالها ويحفظ أسرها، ويعافيها /320/ من اختلالها ويشفيها من اعتلالها. فبتنا يوم سافرنا من حضرة فاس بوادي الجديدة مع أشواق جديدة، عند بعض العشائر من البربر آيت يمور فأكرمونا، وبتنا عندهم في ضيافة وحراسة من آفة، إلى أن صلينا المكتوبة وقربت إلينا المركوبة، وسرنا والأحباب والأهل والأصحاب والجيران يتلاقونا أفواجا أفواجا، إلى أن دخلنا دار مثوانا، فحفت بنا الأهل ولدانا وإخوانا، وحشم وخدم ومن تركناه في العدم، وحفوا بنا مستبشرين فرحين مسرين منشرحين، ألبسهم الله تعالى السرور زيا، وعوضهم عن ظمأ الفراق من التلاقي ريا، فأنشدتهم بعد أن نبهتهم لحمد الله على جمع شملنا وأرشدتهم،

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

فاجتمع والمنة لله الشمل واتصل الحبل وسر الولد والأهل،

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب مسافر

تاريخ الرجوع إلى مكناس ومدة السفارة

وكان دخولنا ضحوة يوم الثلاثاء لست بقين من شوال من شهور سنة اثنتين ومائتين وألف[489]، فكانت مدة هذه الغيبة المباركة ثلاث سنين تنقص مقدار شهر ونصف كانت كجولان طرف أو كرجعة طرف.

ومرت لنا حقبة من الزمان في محادثة الإخوان، ومجاذبة أهذاب الآداب مع الفقهاء والأدباء أولي الألباب، فمما أنشدنا لنفسه صاحبنا الفقيه الكامل العالم الفاضل، سلالة الأكابر والعلماء المشاهر، الأديب اللبيب الحسيب النسيب أبو عبد الله سيدي محمد[490] بن الفقيه العالم العلامة المشارك النظار، آخر علماء الكلام وبقية المحققين الأعلام، أبو محمد محمد البيجري رحمه الله، قصيدة /321/ وقدمها نثرا، أنشأها حين ورد عليهم خبرنا بخروجنا من البحر في مدينة تونس، فقدمها بين يدي سلامه علينا نصه: أهدي لمحل العلا عالي الحلا، ما سنح لي من الفكر وإن لم يكن سمح بنسبة ما له من الصيت والذكر، استئناسا برضاه ومعولا من خلقه الكريم على مقتضاه، إذ النفس الزكية تجتزئ بالركية، لازال المجد لكم يربو ولا يكبو،

---

(489) يوليوز 1788.

(490) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد السلام البيجري المكناسي، نسبة إلى "بيجرة قرية أو مدينة صغيرة بقرب غرناطة " التي خرج منها أجداده نحو فاس كما كتب بنفسه، وهو فقيه علامة فاضل كامل من بيت علم ومجد وقضاء وأديب شهير ووحيد عصره نظما ونثرا وظرفا ولطفا، كان صديقا لابن عثمان وله معه جلسات تبادلا فيها النظم، تتلمذ على والده وعلى السيد الغازي بن عبود، كما ورد في تقييده أن يدين بجزء كبير من تعلمه ل " تلميذ والدنا الأكبر الفقيه النبيه الأشهر، العلامة النهامة الدراكة المحقق الأنور شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد بن العلامة الصدر الخطيب البليغ المدرس المفتي القاضي أبي محمد سيدي عبد الوهاب بن الشيخ، فاتصلت به اتصال الراح بالماء وقبضت عليه كما قيل قبضة الأعمى في الظلما"، توفي في ثامن عشر رجب سنة خمسة ومائتين وألف. (تقييد في عائلة البيجريين، ص. 19، مخطوط خاص؛ إتحاف أعلام الناس، ج. 4، ص. ص. 140-144).

والسعد يصبو ولا ينبو، آمين،

تاق قلبي فما له استقرار منذ جاءت من تونس أخبار
توقان وأنس اجتمع الضدان عندي فلم يسع إنكار
باشتياقي لمفرد في المعالي تترامى دأبا به الأسفار
والتأنس بالتفكر في أوصافه قد تؤنس الأفكار
قمر المجد سار في فلك السعد فذاك السيار والدوار
وتحرك ذا بتحريك هذا ليس في غاية له إقصار
أترى يسمح الزمان بقرب منه متصل وتدنو الدار
فندال من النوى بسرور في منادمة لها أسرار
(كل ما فيض الإله له الألطاف بما جرت به الأقدار)[491]
نرتجي دومه عزيزا كريما بالمنا في الهنا له استقرار

وهذا الرجل نسيج وحده نظما ونثرا وأدبا وخبرا، له بديهة سيالة يجيب في أسرع حصة من الزمان في كل غرض وما يتهيأ له، مع المروءة التامة والحياء والحشمة والسمت الحسن، والدين في السر والعلن، وبيته بيت علم وقضاء. فمما اتفق لي معه أبقاه الله ذات يوم، وقد كان في مجلسنا سفرة وضع فيها ياسمين على ترتيب مخصوص، وحولها ريحان دائر بها ولم /322/ تستكمل دائرته، فقلت له في ذلك:

كأن ما جمع في سفرة ريحان قد حفت به ياسمين
وجه حبيبي تم في حسنه معذرا أفنى به العالمين

فأخذ الدوات والقلم وخط قبل أن يتكلم:

لذاك يسقى الكأس ممتزجا كوجهه في الوصف كي لا يمين
رأيته في حكمه منصفا يجريه عمدا دائما لليمين.

وقد استدعيته ذات يوم برسالة، فكتبت له بنثر وبعده أبياتا فمن

(491) ورد هذا البيت في الهامش من (أ) وسقط في (ب).

فصولها : وإنا لننتظر قدومك علينا قبيل الشمس شروقا، والإبريق يصطك فؤاده لسقياك خفوقا، حتى تتقضى من منادمتك حقوقا، فالساق مشمر عن ساق، والإبريق متأهب بما يليق لأن يريق، والكأس بحلا عسجدية كاس، والكل للقياك متأهب وبطاعتك متقرب،

مجلس أنس تم لاكنه … إن لم تزينه بكم عاطل
أكؤسه مصطفة ترتجي … سلوها عن سقيكم باطل
قد أوقفت إبريقها رائدا … فامتد منه عنق يسأل
إن لم تقدر منكم زورة … فدمعه هام يرى هاطل
كذا إذا أسعفتم باللقا … فأمره مستبهم مشكل
بكاؤه الثاني فمن فرح … وعكس ذاكم دمعه الأول
فلا تردوه لها خائبا … عسى سرور بكم يكمل
323 / فقدم بين يديه:
السمع والطاعات منا لكم … واجبة والأمر ممتثل
نأتي على الرأس لمجلسكم … إن لم تساعدنا له الأرجل

وبعده: المبرز في العلى المحرز للمعلى، محيي فصاحة الأوائل ومعيي سحبان وائل[492] كرم الله طلعته وختم على الدهر طاعته آمين، هذا وما عسيت أحلي ولو حصلت لي ملكة المحلي، أو حصلت أنواع بديعة الحلي، وأنت أعزك الله السفير بين الملوك، والوزير الذي هو في عقد الوزارة فاخرة السلوك، فأنى يوصل إلى الأوج من فلك مجدك، ولا يقال للزوج إن له معنى من معاني فردك، بيد أنك حفظك الله كريم الأخلاق، وحضرتك العلية حضرة الإطلاق، فبساط أنسك لا شك أنه أرفع، لكن انبساطك فيه أوسع للنفوس وأنفع، وهو وإن كانت به الفرش المرفوعة، والأكواب الموضوعة، وألوان الطعام مما طار كما قيل وعام[493] أو من غيرهما، كذلك

---

(492) سحبان وائل، توفي سنة 55هـ/ 674م، من أشهر الخطباء العرب وأفصحهم، أسلم زمن الرسول (ص) وعاش زمنا بدمشق عند الخليفة الأموي معاوية. يقال إنه عمر طويلا.

(493) إشارة بليغة الى الطير و السمك.

المشوب بالطيب المشتبه بقلنسوة الخطيب، فخطابك البليغ أفضل من ذلك كله وأجمل، ومنزعك اللطيف أوصل للنفوس وبها أحل، لأن ذوق معاني الكلام ألذ من ذوق ما في الأواني من الطعام وأجل وأكمل، ومما هزني من ذلك للكلام، ولزني في المداعبة معك كما لز الألف مع اللام، ما أودعته في رسالة الاستدعاء من قولك والساق مشمر عن ساق، فإنه ذكرني قول بعض المقاول:

لم أنسَ يوماً قام يكشف عامدا عن ساقه كاللؤلؤ البراق

/ 324 / لا تعجبِ إنْ قامت لذاك قيامتي إن القيامة يوم كشف الساق

وإني لما حضرت ذلك المجلس الأبهر، وأظهر فيه الساقي من شمائله ما أظهر، إنما تاه فكري في لطف مناولته، ووصف مطالعته لرضاك ومحاولته، فغبت بذلك عن ملاحظة الساق المشمر عنه، بل وعن الساعد الذي كان أقرب إلي منه، نعم أتهم لك نفسي بنظرة أولى لمحياه، وكأن القلب بها حياه، لكن قلت في الحين على الشذوذ إياي وإياه، فلعل السيد لنفسه هيأه، والنظرة الأولى كما علمت معفو عنها، وإذا سمح قدرك العالي بالمداعبة فهذا منها والسلام.

فراجعته بقولي: أبقاك الله لطرفة تجليها، وبنات أفكار بدر نشارك تحليها، ونادرة تردفها بأخرى تليها، تلك رياض تفتحت عن أزاهرها أكمام، ولات حين للأزاهر إلمام، هذه يقظة أو منام، عهدي بالرياض لم ينتج الآن شمام، أو ذاك مسك فض عنه ختام، تحيرت في ذلك أظنه سحرا أجل نفث به حبر وإن شئت بحر فخذ عن إمام، إمام تجملت بطلعته الأيام، وتجمعت له شوارد العلوم فتسنى له بعد تفرقها التئام والتمام، أما الأدب فهو بعض بعض فنونه، ورشوحه من معين أنهار عيونه، أما تراه قدوة للأنام حل من درى المعقول والمنقول حيث لا محل للمحلى، وأربى فيما أبدع من البدائع على بدائع الحلي، أليس معدودا في إحراز السبق في مرتبة لو كانت قبل المجلى، وأما ذكاؤه فشهاب يتوقد، وألمعية في كل آونة تتجدد، فقد غدا إياس عن إدراك شأوه ذا إياس، عذبت مفاكهته وعدمت مشاكهته، / 325/ رمى بسهمه في أغراض المداعبة فقرطس، واستخرج من لجج بحارها من

الغرائب ما أعجز من غطس، ما ألطفه تشبيها يشهد للمشبه بأن له شبيها، في ذكر القلانس والخطيب، فقد هصرت من أفنان البلاغة كل غصن رطيب، وما أحلى منازعك علوت منازعك، ولو حضر لأذعن لك ابن الخطيب، وقد وصف سيدي ما استحسن من المجلس والساق، وساق ذلك أحسن مساق، فأبدع ما شاء في تناسب واتساق، وأحكام المبنى وتسديد اللفظ لغرض المعنى، والخروج من معنى لآخر حيث لا شعور للسامع، شاغلا له ببوارق سحرك اللامع، غير أن سيدنا يسر حسوا في أرتغا وما أدري ما الابتغا، فقد رأيته راجع الالتفات لاستدراك ما فات، وللنظرة وحدها استنزر ولصيده في جوه حلق واستنسر، وذكر أنه ما أعرض عنه إلا لتوهمه أنني هيأته لنفسي فاستأثرت به و إلا لألحفه بثوبه، فإن كانت المثابة العلية ممن يقنع بنظرة وإن أعقبت حسرة وتمذهبت بمن قال:

وهـويـتـه يـسـقـي المدام كـأنـه　　قـمـر يـطـوف بـكـوكـب فـي مجـلـس

فقد استوفى حظه وأنال مراده لحظه، وليكتف بذلك أدام الله حفظه، ولم تبق له منة في استبقائه، حيث استقصى الشمائل الناشئة عند المعاطاة من تلقائه، وإن لم يقنع بذلك المقدار من التغزل، وأراد من غلع العذار كمال المرام من التنزل، وتمذهب بقول الآخر:

وضـمـمـتـه ضـم الـبـخـيـل لمالـه　　أحـنـو عـلـيه مـن جـمـيـع جـهـاتـه

/ 326 / فلا ملام على اغتلام، فالمجلس والغلام مع كمال المرام، ولعل بتيسر الجمع تجودكم عند الانفصال غمام، هذه دعابتي بعثت بها إلى محل كمالك، وعظيم جلالك ثقة ببرك ورحيب صدرك؛ واعتمادا على تحملك لمداعب وإغضائك عن المعايب، فاغض أبقاك الله واسمح وبعين الصفح والتجاوز فالمح.

فكاتبني بما نصه:

سيدي أدام الله لك السعادة، ولا قطع عنك من الإنعام ومديد الإكرام، كما لم تتطع عادة، إن هذه النفوس كما جاء تصدى كما يصدى الحديد، فتتأكد لذلك صقالتها التي هي لنورها كالتجديد، وإن مما اتفق عليه

رؤساء الحكماء، وأطبق معهم نجباء العلماء، أنه لابد لها من رياضة، إذ التدريج حكمة هذا العالم وإن كانت القدوة فياضة، وصاحب القصر يهوى قبابه وتارة رياضه، ويستحسن من أزاهرها المختلفة ما خالطت حمرته بياضه، ولذا قيل:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

كما قيل أيضا:

تنقل فلذات الهوى في التنقل ورد كل صاف لا تقف حول منهل

وفي المعنى:

أفد طبعك المكدود بالجد ساعة بلهو وعلله بشيء من المزح

البيتين. وقد علمت أعزك الله أن اللذة انبساط باختلاس، وأكمل اللذات استنباط حكم همم الجلاس، لأن همة المرء ميزان عقله وبرهان / 327/ فضله، وأكثر ما تظهر في قوله، المرء مخبؤ تحت لسانه، وقد كان من تقدم من الكبراء والأمراء والوزراء يستعملون جل أوقاتهم في هذا المعنى، يولعون به ويعنون أجل بذلك يولع وبه يعنى.

وأذكر الآن من ذلك ما حكاه الثعالبي في يتيمته، وقد ذكر القاضي التنوخي فقال: وكان كما قرأت في فصل للصاحب، إن أردت فإني سبحة ناسك، أو أحببت فإني تفاحة فاتك، أو اقترحت فإني مزرعة راهب، أو آثرت فإني نخبة شارب، إلى أن قال: وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون إليه في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها مثل المهلبي، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، إلى أن قال: وعليهم المصبغات ومخانق البرم وفيهم يقول السري:

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخانق البرم.

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهيب والتوقر والتحفظ، وأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.

وإنك أسعدك الله لمن فرسان هذا الميدان، ولك فيه بحمد الله يدان، بل أنت أعلى علما وعقلا وكرما وفضلا، فوق المعروف والمقول في ابن معروف، شجرة فضل عودها أدب، وأغصانها علم وثمرتها عقل وعروقها شرف، تسقيها سماء الحرية وتغذوها أرض المروة، لأن الإغتباط إنما يكون عند الأعواز وليس في المعتاد إعجاز، فمن لا توجد /328/ هذه المعاني والمعالي في زماننا إلا عنده، فهو كموحد الفترة الذي يبعث أمة وحده، وما كنت أظن الأيام تنتج عن عقم، أو تشفى مما كان بها من السقم، حتى طلع نجم سعدك في أفق مجدك، فأشرق إشراق الغزالة والقمر ذي الهالة، فلله أنت في القبة اليمنى، سعادة لك ويمنا، وجه متهلل بالبشر متجمل لا متبرم ولا متملل، ولسان يلفظ بالجواهر الحسان وباخمان في أخبار الزمان، فإذا أمرت برمز الحاجب لا بالكلام، انتمر لأمرك ذلك الغلام المقارب للاحتلام.

سيدي كيف تجدك إذا اهتزت أعطافه، وارتجت أردافه تشابهت أوصافه، فتمايل قده وتسايل خده، لاريب أن ما بالقلب من الخور، هو مما في عينيه من الحور، وأنه إنما ذاب من ذبول الأهداب، أو من تراءى لغره على غرة، لكنه بالشفة يشفى فلمى ثغرها عسل مصفى، وجواهره أنقى من البرد، وأصفى ما أبردها على الكبد للمنفرد المستبد،

كيف يسلو الذي تعشق أغير صيد فاصطاد وهو قد كان أصيد

إن طرفي جنى علي ولم أجـن من الروض وجنة تتورد

كما قلت لا أعود إلى العشـق ابتليت

ولـكـن السعود أحـمـد

ها أنا مغرم به فاعذروا أو فاعذلوا فالمحب دأبا يفند.

وكتب أبياتا أخرى مداعبا، مشيرا لقولي في الرسالة التي قبل هذه: فلا ملام على اغتلام إلى آخره:

يا كريما عز وصفا وعظيما جل ألفا

329/ أنت أولى بالوفا من كل من بالعهد وفى

فاجمع الشمل كما قد   بهت أكرم صاح ضيفا
إنما ينفع إلف   إلفه في ذاك عرفا
هكذا المزحة ظنا   بل يقينا بك يلفا
إنك المرء احتمالا   شأنها عندك خفا
فلتكن ساكن بال   ذو النهى إن هم عفا
كيف لا والشيب عال   رأسه والماء جفا
لكن الأليق حزم   يومن المحذار خوفا
فاسترب من يتزكى   واحذر المألوف ألفا

فأجبته بقولي، مضمنا حكاية تحكى على لسان حال الفخ في خدعته الطيور كي يصيدهم، مظهرا شحوبه ونحوله حتى يتمكن منها:

أحكم المواضع وصفا   وسقى روحي صرفا
بمعان لمعان   قربت للحب زلفا
شافعات لغرام   أكسب الأعضاء رخفا
قائلات خاتلات   ذو النهى إن هم عفا
أكد الختل بقول   نسف الأوهام نسفا
فاسترب من يتزكى   واحذر المالوف ألفا
وفيه تورية   إذ قلب خف فخا
فتذكر قول شيخ   قلبه للصيد خفا
إذ أتته حمائمات   فأراها منها ضعفا
330 / وانكسارا وشحوبا   وإلى الفرصة خفا
أترى أني غر   لم أر في الحرب زحفا
أترى أنك سال   عن غزال رق ظرفا
فإذا عاطتك راح   منه راحا رق ظرفا
تضع الأسرار في القلب فما تنفعك رصفا
فإذا صار أماما   صارت الأرداف خلفا
كيف ترجون سلوا   ذاتكم بالحب عجفا
ذا محال ذا مجال   أدهش الأبطال خوفا

أذعـنـوا لـلأسـر قـسـرا لـفـظـوا تـرسـا وسـيـفـا
دع بـنـيـات الـطـريـق واسـلـك الجـد جـد تـشـفـى
واغـتـنـم سـاعـات أنـس واخـطـف الـلـذات خـطـفـا
لا يـرى لـلـصـب شـيء مـن رضـى المحـبـوب أشـفـى
(دمـت فـي عـيـش هـنـي لا تـرى فـي الـدهـر عـنـفـا
رافـعـا فـي كـل حـين عـن حـبـيـب الـقـلـب سـجـفـا)[494]

وقد آن أن نقلع عن الهدر والهزل، وما جلبناه من حطبه الجزل، وما فات منا رسمناه فقصدنا به علم الله لقارئه التأنيس، لا تمذهبا بمذهب إبليس، والله تعالى ولي المغفرة في الدنيا والآخرة، ونلجأ إلى الله تعالى بالأوبه، ونضرع إليه في قبول التوبة وغفران الحوبه، وأن يفرج عن النفس بحط أثقال أوزارها كل كربه، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضى، ليكون ذلك عنوان الرضى وعلامة عفوه عما مضى، /331/ إنه ولي ذلك بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

وها أنا أقف مواقف الخجل والتقصير، وأضرع إلى الله العلي الكبير بجاه البشير النذير[495]، أن يجعله حجا مبرورا وسعيا خالصا مشكورا، وعملا صالحا متقبلا في دفاتر أعمالنا مرسوما، ونرغب إلى من كسبه أو كتبه، أو قرأه أو طالعه أو تأمله أو راجعه، من إخواننا المؤمنين وأوليائنا الموقنين، أن ينظره بعين الرضى والتجاوز والصفح والإغضا، لا بعين الانتقاد والاعتراض والسخط،

واعـلـم بـأنـك إن طـلـبـت مـهـذبـا رمـت الـشـطـط

وأن يخلصوا نياتهم في التأمين على هذا الدعاء، إن أعمل كل منهم شفاعتنا إليهم في ذلك ورعا، اللهم أهلنا ومالنا وأهلنا وبالنا لحسن العاقبة وحسن العافية، وحنانك وجنانك وخيرك وجبرك، واسترنا ولا تسبرنا وكن لنا كلنا وتولنا، ونولنا من أثقال الأنفال لا أنفال الأثقال ما تسرنا وتسترنا

(494) سقط هذان البيتان من (أ) ووردا في (ب).

(495) سقطت من (أ) ووردت في (ب).

به، ولا تحرمنا فتخرمنا أو تعوقنا فتفوقنا رفقاؤنا ورقباؤنا، بحق فضلك وفضل حقك، آمين آمين، وأختم ذلك بقول بعض الموفقين وعباد الله المتقين، في مدح رسول رب العالمين وخير خلق الله أجمعين:

إن كنت تسأل أين قد ... ر محمد بين الأنام
فاصغ إلى آياته ... تظفر برأيك في الأوام
أكرم بعبد سلمت ... تقديمه الرسل الكرام
/ 332 / في حضرة للقدس وا ... فاها بعز واحترام
صفوا وصلوا خلفه ... إن الجماعة بالإمام
للشهب نور بين ... والفضل للقمر التمام
سلك النبوءة باهر ... وبأحمد ختم النظام
هذا الكتاب دلالة ... تبقى إلى يوم القيام
شهدت له من بعد عجز ألسن اللد الخصام
خير الورى وأجل آيا ... ت له خير الكلام
فعليه من رب الورى ... أزكى صلاة مع سلام

اللهم اختم لنا بما ختمت به لأحبابك، وقربنا من أعتابك ولا تطردنا من بابك، وتجاوز عنا يوم الجزاء والحساب، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، واكفنا أمر الدنيا وأحوالها والآخرة وأهوالها، ووفقنا لما ترضى به عنا، ولا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ورحم عبدا قال آمين.

وكان الفراغ من تبييضها منتصف ذي الحجة
من شهور سنة اثنتين ومائتين وألف.

تمت الرحلة

---

(496) بياض مكان الاسم.

ملحق ١

التقريظ الأول:

الحمد لله وحده وصلى الله عل سيدنا محمد وآله، ولكاتبه عفا الله عنه محمد العربي ابن اسماعيل الناصري، في أواخر جمادى الاولى بمكناس سنة 1210.

لله درك يابن عثمان الذي	أضحت ينابع علمك تتفجر
في رحلة جمعت علوما جمة	عن وصفها لسن الفحول تقصر
فكأنها الدر النفيس مضمخ	مسكا ذلائله نفيسا عنبر
أو أزاهر البستان ترفل في الحلي	فكأن ماء الورد منها يقطر
أو روضة تزهو في فرط بلاغة	الفن البديع عليها وشيا أحمر
وغدا البيان يغني في أرجائها	يبدو في ثوب أخضر ومعصفر
شربت من كل زلال علم حكمة	وبنصر محي الدين أبدت تخبر
إن الرحال وإن تقادم عصرها	فشموسها عن وصفها لاتضمر
كيف لاوواضعهاالمرفع في الورى	كل العلوم في صدره تتقرر
ذو وزارة وفصاحة ونباهة	ينبئك عنه ما تراه يسطر
أكرم به من نشئة تسمو على	مر الليالي بها الزمان يفخر
لازالت يا فخر الكمال ترتقي	مرقى الافاضل للمحاسن تنشر

التقريظ الثاني:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، ولكاتبه عبد الله تعالى موسى بن محمد المكي الناصري لطف الله به آمين.

لـلـه رونـق رحـلـة نـبـويـة طـرز ابـن عـثـمـان الـهـمـام حـلاهـا
جـمـعـت مـن الآداب مـا أنـسـت بـه رحـلا بـأنـس فـصـاحـة مـبـنـاهـا
فـالـعـبـدري وإن تـقـدم تـاجـه يـسـعـى حـلى الـدر مـن مـعـنـاهـا
فـيـهـا مـن الـتـاريـخ روض زاهـر ومـن المـنـاسـك مـا كـفـى فـتـنـاهـا
مـدنـيـة مـكـيـة قـدسـيـة مـا ضـل مـن جـعـل الـطـريـق هـداهـا
تـنـبـي فـصـاحـتـهـا ورقـة لـفـظـهـا بـعـلـوم جـامـعـهـا الـذي أنـشـاهـا
فرد الزمان وأوحد البلغاء والـوزراء من للعلم حاز الجاها
كـم كـربـة بـركـابـه وبـرويـه عـن مـلـة حـنـفـيـة جـلاهـا
فـالـلـه يـبـقـي حـالـه مـتـرقـيـا أوج الـعـلا مـتـمـكـنـا بـربـاهـا

التقريظ الثالث:

ولكاتبه عفا الله عنه[1]

حـاكـت عـلى نـسـج الـبـديـع مـطـارقـا تـغـشـي المحـاجـر مـن بـريـق حـلاهـا
لـو حـاك الـبـلـوي فـرائـد سـرهـا أغـنـاه عـن شـفـق المـغـيـب ضـحـاهـا
وإذا الحـجـيـج غـدا يـقـضـي مـنـاسـكـا نـال الـبـرور بـرصـد نـجـم هـداهـا
لا غـرو إن كـان ابـن عـثـمـان الـذي أنـشـاهـا فـردا فـي المـعـالي تـنـاهـا
سـبـقـت لـه قـدمـا مـفـاخـر رتـبـة ضـاءت بـهـا قـنـن الـعـلا وربـاهـا.

(1) لا ندري بالضبط أي مؤلف يحيل عليه ابن عثمان، إذ وقفنا في كشف الظنون على أربعة كتب تحمل نفس العنوان المختصر وإن كنا نرجح أولها:
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للشيخ أحمد بن محمد الفيومي، والمصباح المنير في شرح الصلاة على البشير النذير لشهاب الدين البلقيني، والمصباح المنير والمرشد للعابر في المسير فيما يتعلق بالحج والموجز والأجبير لكمال الدين محمد بن زياد الوضاحي، والمصباح المنير في علم التفسير لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن أحمد الديريني.

ملحق ٢

المسار التفصيلي للرحلة

جدول بمراحل سفر ركب الحج العثماني من أسكدار إلى مكة

ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة السير	نقطة الوصول	رقم الرحلة
تاريخ الخروج من عدوة إستانبول 25 رجب / 18 ماي 1787	1 بقية اليوم	4 ساعات	قرطل	1
غالبا ما يستريح الركب بقية اليوم الذي يصل فيه ليغادر ليلا أو في الصباح الباكر	1	5 س.	كبزة	2
	1	2 س.+ 2 س.ونصف مدة العبور	خارسك كوى بعد عبور خليج ديل سفال سي	3
	1	5 س.	كاور كو	4
	1	6 س	جنزنك	5
	1	5 س	لفك	6
	1	4 س	خان الوزير	7
	1	7 س	مدينة السكوت	8
أول محطة استراحة للركب بين إستانبول والشام	2 يومان ونصف	10 س	أسكشهير	9
	1	9 س	سيدي الغازي	10
	1	8 س	خصرم باشا	11
	1	5 س	بياض كوى	12
	1	8 س	بلودم	13
	1	12 س	مدينة أخ شهير	14

الرحيل بعد منتصف الليل	0	9 س	إلغين	15
	1	9 س	اللاذق	16
ثاني منزلة للاستراحة	2	10 س	قونية	17
منطقة صحراوية كثيرة الرياح	القيلولة	11 س	إسمل	18
	قيلولة	9 س و30د	قرنبار	19
	قيلولة	11 س	أركلة (كتك شام)	20
	1	9 س	وادي قشلة	21
	1	6 س	شفت خان	22
	1	8 س	أوابل	23
	1	8 س	الشاقط	24
ثالث محطة للاستراحة	1	8 س	مدينة أذنة	25
الخروج ليلة يوم الوصول كما هو دأب الركب في كل المراحل	1	6 س	المصيصة	26
	1	7 س	قرطقراط	27
	1	10 س	بياس	28
	1	8 س	بيلان	29
رابع منزلة للاستراحة على طريق الشام	2	12 س	أنطاكية	30
	1	11 س	الزنبق	31
	1	6 س	جسر الشغر	32
	1	10 س	قلعة المضيق	33
خامس محطة للاستراحة	2	10 س	حماة	34
	1	؟	رستن	35
من شروق الشمس إلى عشية نفس اليوم، والغريب أن ابن عثمان يروي عن قيامه بزيارات كثيرة، بحيث يتساءل المرء كيف تسنى له ذلك وهو متعب.	1	؟	حمص	36

1	8 س	ضيعة الخسية	37	
1	10 س	النبق (قرية)	38	
1	8 س	النطيفة (قرية)	39	
غادر الركب دمشق بتاريخ 19 شوال	38	8 س	دمشق	40
1	5 س	ذو النون (قرية)	41	
1	6 س	الصنمين (قرية)	42	
عطلة للقيام بإجراءات كراء الدواب والتعاقد مع القيمين على خدمة الحجاج	6	10		
س	مزيريب	43		
1	8 س	الرمثا	44	
نصف يوم	8-10 س	المفرق	45	
1	12 س	وادي الزرقا	46	
1	5 س	خان الزبيب	47	
1	17 س	البلقا	48	
؟	12 س	وادي النسور	49	
1	18 س	قطرانة (قرية)	50	
1	18 س	بوغاز الحسا	51	
1	؟	قلعة عنزة	52	
المنزلة الثانية بين الشام ومكة	3	7 س	معان	53
1	18 س	العقبة (مضايق)	54	
1	12 س	قلعة المدورة	55	
1	10 س	قلعة ذات حج	56	
	1	12 س	القاع	57
1	12 س	تبوك	58	
	1	12 س	ظهر مغر	59
التزود بالماء ما يكفي مسافة 3 أيام	1	10 س	الأخضر (قلعة)	60
نصف يوم	15 س	مكان غير معلوم للنزول بين جبال	61	
نصف يوم	16 س	قلعة الحمراء	62	

ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة الرحلة	نقطة الوصول	رقم المرحلة
	1	23 س	مدائن صالح	63
	1	؟	سهل المطران	64
	1	21 س	البئر الجديد	65
	1	20 س	هدية	66
	1	12 س	الفحلتين	67
	1	15 س	آبار ناصف	68
	3	؟	جبل سلع بظاهر المدينة	69
	1	2 س	ذا الحليفة (بيار علي)	70
	نصف يوم	16 س	الشهداء	71
	نصف يوم	15 س	قرية الجديدة	72
التقاء الركب الشامي والركبين المصري والمغربي.	1	15 س	بدر	73
		15 س	القاع	74
ميقات الركب الشامي بالقرب من ساحل البحر الأحمر.	2	20 س	رابغ	75
	1	؟	قديد	76
	1	8 س	خليص	77
	1	13 س	سبيل الجواخي	78
وصل الركب إلى مكة بتاريخ 7 ذي الحجة 1201 الموافق ل20 شتنبر 1787	20 يوما	12 - س	مكة	79

مراحل الرحلة بين دمشق وعكا وجولته في فلسطين

ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة الرحلة	نقطة الوصول	رقم المرحلة
الخروج من دمشق 9 ربيع 2- 1202	1 يوم	1 س ونصف	قرية المزة	1
	1	10 س	قصبة سعسع	2
	1	5 س	خان الأرنب	3
	1	9 س	خان الجسر	4
	1	5 س	خان بجانب بئر يوسف	5
	1	5 س	قرية الرمة	6
	9	6 س	عكا	7

1 6 س مضارب بدو قرب ضريح الشيخ إبراهيم الزعبي 8

1 7 س قلعة سنور 9

1 4 س و1/2 نابلس 10

1 10 س البيرة 11

2 2 س و1/2 القدس الشريف 12

يؤكد على أن السير كان حثيثا 1 6 س الخليل 13

2 6 س القدس 14

1 (المبيت) ؟ قرية سنجيل 15

1 (المبيت) ؟ قلعة سنور 16

الإقامة في عكا إلى غاية 27 ربيع الثاني بقصد الإبحار نحو المغرب عبر مرسيليا.

؟ عكا 17

مراحل الرحلة البرية من تونس إلى فاس

ملاحظات مدة الاستراحة مدة الرحلة نقطة الوصول رقم المرحلة

الخروج من تونس في 3 رجب 1202 1 يوم 5 س بلدة تبربة 1

1 6 س مجاز الباب 2

1 4 س بلدة تستر 3

1 4 س قرية تبرسق 4

1 7 س القنطرة موضع على وادي 5

يشير ابن عثمان إلى أن هذه البلدة هي حد إفريقية 1 4 س بلدة
الكاف 6

1 8 س عين الزرقا 7

1 7 س تفش (موضع) 8

1 8 س مرج كحيل (موضع) 9

9 س مهيرز (موضع) 10

7 4 س قسنطينة 11

اللافت أنه بعد الخروج من قسنطينة لم يعد ابن عثمان يفصل في مراحل الطريق 2

11 يوما الجزائر 12

	12 يوما	تلمسان		13
المبيت بوجدة	1	؟	وجدة (قرية)	14

الظاهر أن ابن عثمان استعجل الوصول بحيث أغفل ذكر مراحل الطريق، وكان دخوله فاس في آخر يوم من شعبان من سنة اثنتين ومائتين وألف .

؟ .		فاس	15

ملحق حول الجائزة

جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي 2003

جائزة سنوية تمنحها "دار السويدي" لأفضل الأعمال المحققة في أدب الرحلة والمؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية قديماً، ووسيطاً، وحديثاً (من نهايات القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين) ولأفضل كتاب جديد في أدب الرحلة المعاصرة

في إطار مشروع "ارتياد الآفاق" الذي أطلقته "دار السويدي" من أبو ظبي وبيروت قبل عامين تعلن الدار، وهي مؤسسة ثقافية عربية غير ربحية، عن نتائج (جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي) التي تأسست مطلع عام 2003 وتمنح سنوياً لأفضل الأعمال المحققة في أدب الرحلة، وجاءت انسجاماً مع طموحات الدار في إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي.

فاز بالجائزة في دورتها الأولى سنة 2003 ثلاثة من المحققين المغاربة هم د. محمد بوكبوط، ود. سعيد فاضلي، ود. عبد الرحيم مودن، والشاعر العماني محمد الحارثي.

وقد اثبتت الجائزة في دورتها الأولى التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة، من جهة، وإلى تشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم في السفر. فضلاً عن ترجمة التراث الإنساني في أدب الرحلة الموضوع في اللغات الأخرى.

تهدف الجائزة إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في هذا

الميدان الخطير والمهمل، وإيماناً من "دار السويدي" بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات.

أهمية هذا المشروع تتزايد في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن "الآخر" في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم عنها، وعن التصورات الخاصة بالعرب عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري .

لجنة التحكيم

تشكلت لجنة التحكيم من 5 أعضاء هم د. شعيب حليفي (المغرب)، د. محمد لطفي اليوسفي (تونس)، الشاعر علي كنعان (سورية) د. شاكر لعيبي (العراق)، د. عبد النبي ذاكر (المغرب). وبلغ عدد المخطوطات المشاركة 22 مخطوطاً جاءت من 7 بلدان عربية، توزعت على الرحلة المعاصرة بصورة أكبر وعلى المخطوطات المحققة بصورة أقل. وقد جرت تصفية أولى تم بموجبها استبعاد الأعمال التي لم تستجب للشروط العلمية المنصوص عنها بالنسبة إلى التحقيق، واستبعد ما غاب عنه المستوى بالنسبة إلى الجائزة التي تمنحها الدار للأعمال المعاصرة. وقد نزعت أسماء المشاركين من المخطوطات قبل تسليمها لأعضاء لجنة التحكيم لدواعي السريّة وسلامة الأداء، وجاءت النتائج على النحو التالي:

المخطوطات الفائزة

- **مخطوطة لا تقل صفحاتها الأصلية عن 200 صفحة:**

فاز بها مخطوط رحلة "إحراز المعلى في حج بيت الله الحرام" 1785 لمحمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي. قام بالتحقيق د. محمد بوكبوط (المغرب)

- **مخطوطة لا تقل صفحاتها الأصلية عن 150 صفحة:**

فاز بها مخطوط "**الرحلة الأوروبية**" 1919 لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. قام بتحقيق المخطوط د. سعيد فاضلي (المغرب).

- **مخطوطة لا تزيد صفحاتها الأصلية عن 100 صفحة:**

وفاز بها مخطوط "**الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الأنجليزية**" 1902 للحسن بن محمد الغسال. قام بالتحقيق د. عبد الرحيم مودن (المغرب).

جائزة الرحلة المعاصرة

أما جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة، وهي جائزة تمنحها "دار السويدي" عن أفضل كتاب في أدب الرحلة يضعه كاتب معاصر فقد فاز بها الشاعر العماني محمد الحارثي عن كتابه "**عين وجناح- رحلات في الجزر العذراء، زنجبار، تايلاند، فيتنام، الأندلس، والربع الخالي**".

توزيع الجوائز في المغرب

صدرت الرحلات الثلاث في سلسلة "ارتياد الآفاق" والرحلة الرابعة في سلسلة "سندباد الجديد"

ومن المنتظر أن توزع الجوائز في احتفال يقام في الرباط خلال ندوة "الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقاً وموئلاً" التي ستنعقد في أيام 14-15-16 نوفمبر المقبل ويشرف عليها كل من "وزارة

الثقافة المغربية" والمشروع الجغرافي العربي "ارتياد الآفاق" في أبو ظبي، ويشارك في أعمالها عدد كبير من الأكاديميين والدارسين في حقل الأدب الجغرافي وتحمل هذه الدورة التأسيسية للندوة اسم دورة ابن بطوطة. وتأتي الندوة في إطار احتفالات الرباط عاصمة الثقافة العربية. وستسلم الجوائز بحضور الفائزين.

لم يكن مفاجئاً لـ "دار السويدي" ومشروع "ارتياد الآفاق" أن يأتي فوز المخطوطات الثلاث بالجائزة من المغرب، فالمغرب أخرج ابن بطوطة والمغاربة الحاليون هم من سلالة هذا الرحالة العظيم. وفي الأساس يمكن رد الأمر إلى النشاط الملحوظ للدارسين والأكاديميين المغاربة في أقسام التاريخ في الجامعات المختلفة في المغرب، وأيضاً إلى تمتع هؤلاء بوعي استثنائي للأهمية التي يشغلها حقل الأدب الجغرافي. فضلاً عن تبنيهم مناهج حديثة في قراءة النصوص والظواهر التي تتكشف عنها.

قبول الطلبات للدورة الثانية للجائزة

يفتح باب قبول الطلبات للمشاركة في الجائزة بدءاً من شهر أيار / مايو من كل عام، ويستمر مفتوحا لـ 8 أشهر، ويقفل مع مطلع كانون الثاني/ يناير من كل عام. ومن شروط الاشتراك في الجائزة:

- أن يكون النص محققاً وفق قواعد التحقيق العلمية المعتمدة في الأوساط الأكاديمية.
- تقبل المخطوطات التي هي رسائل أكاديمية لنيل درجات علمية.
- من حق الجهة المانحة للجائزة إجراء التعديلات الفنية التي تراها مناسبة على النص الفائز ليتوافق وصيغة النشر المعتمدة من الدار بالاتفاق مع المؤلف أو المحقق.
- أن يرسل النص في نسخة ورقية واحدة مرفقة بنسخة إلكترونية.

تستقبل النصوص على عنوان "دار السويدي" في أبو ظبي ص.ب 44480 أو على البريد الإلكتروني:

وتقبل طلبات المشاركة حتى موعد أقصاه 1/3 من كل عام.

جائزة للدراسات

وقد قررت "دار السويدي" استحداث جائزة خامسة تمنح سنوياً للدراسات الموضوعة في حقل الأدب الجغرافي.

قطوف من آراء لجنة التحكيم

في المخطوطات الثلاث الفائزة والصادرة في هذه السلسلة

* **رحلة المكناسي 1785**

إحراز المعلى والرقيب

في الحج إلى بيت الله الحرام

وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب

محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي

تحقيق د. محمد بوكبوط

* د. شعيب حليفي

عن الرحلة

العناصر التي تبرز أهمية وقيمة هذا النص متعددة لكون الفترة التاريخية وخط سير الرحلة عاملين أساسيين وحاسمين، إذا ما أضفنا عنصرا ثالثا يتمثل في مؤلف الرحلة ابن عثمان المكناسي، السفير الأديب الذي يملك رصيدا ثقافيا هاما وحنكة ديبلوماسية.

عن التحقيق

المحقق كان صائبا في مرحلتين: تحقيق النص وضبطه ثم التقديم له وبناء جسور دقيقة ومتينة لفهمه والتواصل معه. والمقدمة التي مهدت للتحقيق كانت جيدة تنم عن دراية شاملة.

* د. محمد علي اليوسفي

عن الرحلة:

يستمد هذا العمل قيمته الفكرية والأدبية والتاريخية من كون المؤلف لم يكتف بوصف الأماكن والأمصار التي زارها بل وسع دائرة الجنس الأدبي الذي يكتب فيه أي الرحلة. فهي سياحة في المكان والفكر معاً. فقد ضم النص أراء وتأملات فكرية وأدبية.

عن التحقيق

تمكن المحقق في المقدمة التي وضعها من الإحاطة بتغريبة الكتاب وتغريبة منتجه إذ كشف عن الغبن الذي تعرض له طيلة أحقاب ظل الكتاب خلالها يقتبس إلى النهب دون ذكر له أو لمؤلفه. في حين ينهض هذا التحقيق على دقة علمية واضحة، وحرص على التمسك بالضوابط الأكاديمية.

إن إخراج كتاب "كتاب إحراز المعلى" من العتمة إلى ضوء النهار من شأنه أن يثري المكتبة العربية ويرد الاعتبار للنص ومنتجه. وهذا العمل يستحق فعلا أن ينال الجائزة التي رشح لها عن جدارة واقتدار.

* أ. علي كنعان

عن الرحلة

عمل جدير بنيل الجائزة لعدة أسباب، منها: أنها من كنوز الخزائن المغربية المكنونة في مخطوطات لم تنشر من قبل، وهي ترصد مرحلة هامة من تاريخ الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر خلال الصراع العثماني الروسي.

عن التحقيق

يبدو جهد المحقق جليا وكبيرا في دراسة النص وفحصه، بنسختيه (أ) و(ب)، وتعليق حواشيه وإلقاء مزيد من الضوء على حياة المؤلف ومكانته

العلمية والدبلوماسية (...) وتقصّي مختلف الإشارات والدراسات القديمة والحديثة التي تناولت هذا النص كليا أو جزئيا.

* د. شاكر لعيبي

عن الرحلة

عنصران قويان يمنحان هذه الرحلة قيمتها الأدبية والأرشيفية، الأول: يتعلق بالمساهمة السياسية الكبيرة لمؤلفها في صنع الأحداث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والثاني: الثقافة العالية للمصنّف ودقة ملاحظاته ورصوداته.

عن التحقيق

سعى المحقق بقدر كبير من المهارة والدقة والمنهجية في إخراج العمل بأحسن الهيئات الممكنة. فقد نقّب وتابع أسماء الأعلام الواردة في نص المخطوطة ووثقها وعاود التحقّق منها، كما عاود التأكّد من الكلمات غير العربية التي يستخدمها المؤلف مما كان شائعاً في عصره بتأثير الهيمنة التركية كالقشلة والأكراك وأركلة.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة

قيمة هذه المخطوطة تكمن في كونها رحلة شاملة إلى حد ما، جمعت بين الرحلة الحجية والزيارية والسفارية (...) صاحب النص دبلوماسي مغربي محنك ينتمي لأواخر القرن الثامن عشر، راسخ القدم في أدب الرحلة يشهد لذلك تصنيفه لرحلتين أخريين.

عن التحقيق

تحقيق علمي أكاديمي رصين، نهض على التعريف بأهمية المخطوط،

وقيمة صاحبه، وسرد منهج التحقيق المتمثل في المقابلة بين نسختين مخطوطتين.

*** الرحلة الأوروبية 1919**

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

حققها وقدّم لها د. سعيد الفاضلي

*** د. شعيب حليفي**

عن الرحلة

هذا النص الرحلي شهادة متعددة الأوجه والقراءات عن طموح العالم إلى مستقبل بدون حروب، واستمرار ارتباط أوربا بمستعمراتها. من جانب آخر تبرز الرحلة بجلاء وجهة نظر صريحة من طرف مؤلفها الحجوي، المثقف السياسي المتفتح، ووعيه الداعي إلى الاقتداء بحداثة الغرب.

عن التحقيق

جيد على كافة المستويات ويحترم قواعد التحقيق خصوصا وأنه معزز بالهوامش الشارحة والتعليقات المفيدة والمفسرة فضلا عن التقديم والفهارس المدققة.

*** د. محمد لطفي اليوسفي**

عن الرحلة

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى كون مؤلفه مغربي من عملاء الاستعمار الفرنسي. حتى أن المغاربة امتنعوا عن الصلاة في المكان الذي دفن فيه. الكتاب يمثل من هذا المنظور وثيقة فكرية وتاريخية هامة. إنه يتنزل في صميم ما يمكن أن ننعته بالخطاب الاستشراقي العربي الذي يرى في الغرب دار السعادة القصوى ويحرص على استنساخ القيم الغربية والحضارة الغربية وجعل الشعوب العربية تخجل بانتمائها الحضاري فتسعى إلى تبديله.

عن التحقيق

مقدمة التحقيق علمية على نحو صارم ثمة ضبط علمي للهوامش فهي حافلة بما يجعل منها دليلا مهما ييسر القراءة على القارئ.

عمل جدير بالتقدير وبنيل جائزة عربية.

*أ. علي كنعان

عن الرحلة

أهمية هذه الرحلة نابعة من أهمية المرحلة التاريخية التي ترصدها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فضلا عن المكانة السياسية والأدبية لكاتبها وهاجسه التنويري.

عن التحقيق

المحقق درس النص بأناة بالغة وعلق حواشيه وأوضح خفاياه بشروح مستفيضة وعرف بالأعلام الجغرافية والتاريخية، فأضفى عمله على الرحلة أهمية كبيرة.

*د. شاكر لعيبي

عن الرحلة

تقدّم هذه الرحلة مسحاً لأجزاء كبيرة من فرنسا في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. تقدم الرحلة بحثاً عن أسئلة تنويرية ونهضوية ملتبسة، ويتقدّم الحجوي لهذا السبب بوصفه حالة رمزية لحيرة العالم العربي الإسلامي الخاضع للاستعمار. هذه الرحلة تضيء تلك المنطقة الحرجة بين استشرافات المثقفين المغاربة لمعارف اللحظة وبين طموحاتهم، بل مصائرهم الفردية.

عن التحقيق

التحقيق هو من الدقة بمكان، ويتبع المنهج العلمي في تحقيق

المخطوطات، مصحّحاً الكثير من هفوات وعثرات التحقيق الأول، مُضيفاً إليها عناصر جديدة من أجل إضاءة النص بنور جديد والتعريف بمصادر مؤلفه الأدبية والثقافية والمعرفية.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة

قيمة هذه الرحلة في كون صاحبها مثقف من عيار كبير، له نصوص رحلية أخرى. فالرحلة في حد ذاتها رؤية فقيه متنور للآخر في مطالع القرن العشرين، يتمتع بدقة الملاحظة وحصافة الرأي وحسن التفهم، دون أن يثنيه عن انتقاد الذات والسخرية من تخلفها، في لغة هادئة مسترسلة، وأسلوب لا تصنع فيه.

عن التحقيق

تتجسد قيمة هذا التحقيق في إلقاء الضوء على شخصية الحجوي الثعالبي المثقف والسياسي. ويتميز التحقيق، علاوة على التقديم الموسع والتعليق المستفيض ولائحة المصادر والمراجع، بسرد لائحة شاملة للفهارس.

*** الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية 1902**

الحسن بن محمد الغسال الطنجي

حققها وقدّم لها د. عبد الرحيم مودّن

* د. شعيب حليفي

عن الرحلة

تجيء قيمة الرحلة لتكشف عن وجهة نظر مغربية/عربية تجاه المجتمع الأوروبي المتمثل في إنجلترا، باعتباره الآخر المتقدم القوي المالك لأدوات التكنولوجيا والتنمية والباحث عن مستعمرات وأسواق.

عن التحقيق

استطاع المحقق عبر مقدمة مفصلة تقديم أفكار خاصة بنص الحسن الغسال من خلال إضاءته من جوانب شتى تضع النص الرحلي [المحقق] ومؤلفه في السياق التاريخي والسياسي والفكري الذي وجد فيه. ويعتبر هذا التحقيق متقدما على نشر سابق للنص نفسه سنة 1979 بإشراف الأستاذ عبد الهادي التازي.

* د. محمد لطفي اليوسفي

عن الرحلة

مخطوط يجسد ما يمكن أن ننعته بـ"أدب الرحلة المضاد" فالمخطوط ينبني على مقاومة التمثلات الاستشراقية التي تعج بها كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا الشرق وكتبوا عنه نصوصا تبتني صورة دونية للشرق وناسه وحضارته عبر تكريس متخيلات مخترعة.

عن التحقيق

حرص المحقق في طبعته الكتاب على تبيان ظروف كتابة الغسال لمؤلفه. كما حرص أيضا على تنزيل الكتاب في إطار التاريخ الثقافي المغربي والعالمي. وتبين منطلقات الغسال في مؤلفه مبرزاً مميزات الكتاب داخل أدب الرحلة في الثقافة العربية.

الرحلة تجمع إلى السيرة الذاتية بعدا توثيقا واضحا.

* أ. علي كنعان

عن الرحلة:

هذه الرحلة، على صغر حجمها، تكشف الهاجس الحضاري المستنير لمؤلفها وهو يشاهد مظاهر التقدم في مجتمع أجنبي منظم يحتفي بالعلم

والعمل معا، بينما ما تزال البلاد العربية ترزح تحت ظلمات الجهل والأمية والتناحر.

عن التحقيق:

الجهد العلمي واضح في تحقيق النص وتعليق حواشيه، ويتجلى ذلك بدءا من المقدمة المستفيضة التي أشارت إلى إشكالية النهضة بين "الأنا" و "الآخر" حتى في مسألة اللغة وقدرتها على التعبير، كما أضاءت جوانب متعددة من حياة الكاتب وأعماله.

* د. شاكر لعيبي

عن الرحلة:

على الرغم من قصر هذه الرحلة فإنها من المتعة بمكان، لأنها مهمومة بمشكلة التحديث الذي كان يجابهه العالم العربي الإسلامي، ولأنها مكتوبة بروح من التحرر الذي يهجر قليلا أو كثيرا فكرة (دار الكفر)، ولأنها كذلك تُظهر حياديةً نسبيةً للغسّال مؤلفها.

هذه الرحلة تقدّم فكرة قيمة عن الإشكالية الفعلية لبدايات الترجمة في المغرب العربي.

عن التحقيق:

جاء التحقيق موفياً بالغرض وفق قواعد علمية دقيقة، وتمكنت المقدمة من الإحاطة بالرحالة ورحلته على نحو كاشف.

* د. عبد النبي ذاكر

عن الرحلة:

على الرغم من صغر حجم هذه الرحلة، إلا أنها تعطينا صورة متفتحة عن لقاء عقل عربي إسلامي متنور بمعالم حضارة غربية [إنجليزية أساسا] في البدايات الأولى من القرن العشرين.

عن التحقيق:

قيمة التحقيق تتجلى أساسا في التحقيق اللغوي العامي والفصيح والمعرب من الكلمات الأجنبية. وفي التأطير التاريخي للمتن الرحلي المحقق وتحليله والتعليق عليه ومقارنته بنصوص سابقة (...) ثم تنوير أعلام الأشخاص والأماكن.

كشاف حضاري وفهارس

آيات قرآنية

أحاديث نبوية

أجناس

أسلحة

أسواق

أعلام

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

ألعاب وتسليات

أماكن

ـ أ ـ

ـ إ ـ

- ب -

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- ش -

- ص -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

أمراض وكوارث

تضاريس

جواهر وحلي

حيوانات

صناعات

طعام وشراب

عقاقير وعطور

كتب

لباس

مساجد

معابد

معادن

معالم أثرية

منشآت

مواسم وعادات

نباتات

نقود

هيئات ومنظمات

وسائل وأدوات

عناوين

المحتويات